غائب طعمة فرمان

المركب

رواية

دار الآداب

المركب

غائب طعمة فرمان

المركب

رواية

دار الآداب

الطبعة الأولى
١٩٨٩

● استداروا إلى شارع أبي نواس، فرأوا دجلة في انتظارهم. وفي شمس أواخر آذار بدت بلون القهوة المخلوطة بالحليب. شهقت سياراتهم حين تحوّلت إلى السرعة الثالثة، وكأنها عبّت نشقة من هواء رطب. وانطلقت محمولة على نسيم شفّاف.

كان الهواء الصباحيّ مشبعاً بدفء شمس عذراء يلامس وجوههم وأيديهم بحنوّ، ويداعب رغائب الحياة في أعماقهم. كانت الطبيعة، بعناصرها الجميلة والخيّرة فقط، تبدو وكأنها استيقظت لتوّها من نوم وادع. وتبسّمت خصّيصاً لاستقبالهم. كأنما كانوا على موعد العمر معها. استقبلتهم بخضرتها العطشى المغبرة، وارتفع منها ما يشبه النشيد في زغردة خافتة تتصاعد فيما حولهم، وكأنها تنبعث من الهواء نفسه، وتتجاوب مع الحنين النابع من داخل أنفسهم، كالنشوة، كحلم قديم يوشك أن يتحقق. مرّت لحظات صمت كان كل واحد منهم يحلم حلمه الخاص، ويتساور بنجوى صامتة مع النفس. انتهى أحدهم منها قبل الآخرين فمزّق كمام الصمت.

ـ وأخيراً تحقّقت.

كان يجلس جنب السائق، والسائق ينظر بمثل الغيبوبة على امتداد الشارع، فلم يجب إلا بعد تريّث:

ـ تحقّقت. وكأنك كنت تحلم بها.

ـ أنا لا أحلم... أنا ضدّ الحلم ليلاً ونهاراً.

نظر السائق إليه نظرة خاطفة. وقال:

ـ رائد مطمئنّ جداً. ولكن أين الاطمئنان في الحياة؟

امتدت يدٌ من خلف السائق، ودفعت كتفه اليمنى دفعاً رقيقاً، وقال صاحبها بصوت متحسّر:

ـ «تَعَبٌ كلُّها الحياة...».

قال رائد:
ـ فلسفة قديمة. لا أحبّها.
ـ طيّب، لا تحبّها. أنت حرّ. أرجوك، يا عصام، هل ترى دكان سرجون مفتوحاً؟ حبذا لو أخذنا عدداً كافياً من زجاجات البيرة.

قال سائق السيارة:
ـ ستجد هناك ما يكفيك. سيوفّرها شهاب لك. أم لعلك لا ترتوي؟
ـ لا تَخِزْ، يا عصام، الظمأ متأصّل في كل فنان.
ـ الظمأ لأيّ شيء؟
ـ لكل شيء.

قال الجالس إلى جنبه:
ـ هل جئت لترسم أم لتشرب؟ أفهمنا!
ـ للاثنين معاً.
ـ إذن، ستعود بعدّة الرسم إلى بيتك.

قال الفنان بلهفة:
ـ لا بل سأرسم الطبيعة بعينين نهمتين. كما كنت أفعل في الماضي. الرسّامون العراقيون نسوا الطبيعة منذ زمان، وصاروا يرسمون بخطوط معمارية أثرية مأخوذة من المتاحف والحفريّات.

قال رائد:
ـ وأنت، هل ستوقظ فيهم هواهم القديم؟

تحسّر الرسام، وقال:
ـ أنا؟ ليتني أوقظ هواي أنا، ليتني أشبع ظمأي.

صمت قصير. وقال الذي كان جالساً جنبه:
ـ أعطوا الحق للرجل. فالبيرة ستنفد مبكراً. لأن الذين سجّلوا على السفرة كثيرون.

قال رائد:
ـ هروباً من واقعهم.

اعترف عصام، إذ قال بصوت خافت مقهور:
ـ نعم، مع الأسف، سنجد أمامنا مَنْ يسرّنا ومن يزعجنا. هذه مساوىء السفرات الجماعيّة.

نـظر الأربعة إلى الأمـام صامتـين. كان شـارع أبي نواس بسـاطاً حـائل اللون تلتهمـه السيّارة. وفجأة مرقت أمام السيارة فتاة صغيرة حافيـة القدمـين، فضغط عصام عـلى الفرملة بقوّة، وأطلّ من النافذة، وشتم أقدع شتيمة طرأت على ذهنه. قال في نهايتها:

ـ لو دهستك لارتكبت جريمة لا على البال ولا الخاطر.

قال رائد:

ـ ولضاعت فرصة العمر.

التفت إليه عصام. ولم يقل شيئاً، قال الذي كان يجلس إلى جانب الرسّام:

ـ هذا شارع أبي نواس يحوي كـلّ شيء. السكارى والمتشرّدين، أصحـاب السيارات، والحفاة.

قال الرسام:

ـ والتماثيل المحنّطة ـ والتفت إلى الجالس إلى جنبه، وكأنه يراه لأول مرة ـ يا شيخ عبد المنعم، تبدو من جلستك وكأنك تمثال، بمقاييسه الحقيقية.

قال رائد:

ـ ركين القاعدة، أليس كذلك؟

والتفت ضاحكاً. كـان الذي سـمّاه الرسـام الشيخ يجلس في زاويتـه كتلة متماسكـة من اللحم، فتراجع قائلاً:

ـ لا، لا، القاعدة والصدر بالحجم نفسه.

قال الرسام:

ـ الحياة بكل أحجامها!

سلَّم يصالحه، فأدار هذا وجهه إلى الشارع ولم يجب.

قال رائد:

ـ سنجعل الشيخ يشرب الخمرة اليوم!

ـ لا يقربها... ولكنه مولع بالمزّة!

ـ الشيخ صامت.

ـ يراقب بصمت.

قال عصام متأوّهاً:

ـ آه. . . من الصامتين، تحت السواهي دواهي.

صاح الرسام في ضيق.

ـ آه. . . ما أطول هذا الشارع! لا ينتهي!

ـ سنصل.

ـ هل تعرف البقعة، بالضبط؟

ـ حدّدها لي شهاب بإشارة لا تخطىء. لها تاريخ.

قال رائد ضاحكاً:

ـ لا بد أنه فندق بعينه.

ـ تصوّر ما تتصّور.

ـ أتصّورهم ينتظروننا بفارغ الصبر.

ـ وبخوف. . . من جانب البعض.

قال رائد:

ـ سنقع على رؤوس بعضهم كالحجارة.

ـ وكل إنسان وذراعه، أي نعم!

قال رائد يردّ الوخزة بوخزة أخرى:

ـ سنرى ذراعك اليوم، يا خليل.

ـ تستطيع أن تمتدّ. لو عربدت تلك الشهوة اللعينة في عروقي.

ـ آه، الشهوة.

ـ شهوة الإبداع.

ـ الشهوة إلى الخمر.

ـ كحافز على الإبداع.

قال عصام:

ـ ستقتلك الخمرة يوماً ما، يا خليل.

ـ سأكون عند ذاك في آخر النشوة.

ـ السكيّرون يموتون في الغالب، وهم صاحون. . . بتشمّع الكبد، بالسكتة القلبية، بالجلطة الدماغية.

ـ عدّد، ولا تخف، ، أنا أهل لها!

ـ حقائق الطبّ القاسية، يا خليل!

صمت. المحرّك وحده يبربر. يذكّرهم بدقات قلوبهم، وأشعرهم ذلك بالخشية. تأفّف عصام مستجيباً لتداعيات داخلية تخصّه، وقال:

ـ الجمعة... وأيةّ جمعة.

مدّ رائد عنقه إلى الأمام. وقال مهلّلاً:

ـ أرى هناك باصاً.. لا.. باصين.

ـ وصلنا، إذن!

قطعوا المسافة صامتين. نظر رائد إلى الشيخ عبد المنعم، فرآه مرصوصاً قرب الشباك، كتلة غير قابلة للحركة، سأله:

ـ لعلّك ستجد صعوبة في الانتقال إلى مكان آخر؟

ـ لا تخف عليَّ. أنا قدّها.

ضحك عصام، فقال بين الجدّ والهزل:

ـ أحسنت يا شيخنا. أنت دائماً شعلة من النشاط تهتدي بك الأجيال.

كان ينظر إلى شعلة الدورة التي كانت أمامهم، وكأنها انتقلت من الكرخ إلى الرصافة. وكانت خضرة أبي نواس يانعة غضّة تغري بالسرحان. وارتفع صوت رائد:

ـ هذه باصاتهم.

توقّفت السيارة. قال عصام بدهشة:

ـ ولكنها باصات فارغة... أين هم؟

كان الشاطىء خالياً على مدى البصر، ما عدا بعض زوارق الصيد. دارت الظنون في أذهانهم كاللوالب. فتحت ثلاثة أبواب من السيارة دفعة واحدة، ونزل ثلاثة رجال، واتّجهوا إلى حيث يقف باصان طويلان. ارتفعت عيونهم متسائلة مستفسرة. كان احد الباصين يوشك أن يتحرّك. رفع عصام ذراعه للسائق، وسأل:

ـ هل أنت الذي جلبت منتسبي المؤسسة؟

ـ نعم.

ـ وأين هم؟

ـ تحرّكوا... مركبهم في طريقه الآن إلى جزيرة أم الخنازير.

ـ كيف تحرّكوا؟ لم تحن الساعة التاسعة بعد.

ـ تحرّكوا في الثامنة والنصف.

التفت عصام فرأى نفسه يتبادل النظرات مع زميليه، نظرات انشداه وانسحاق. تقسّمت قسمات الوجوه محفورة بأزميل الخيبة. هتف عصام:

ـ الغشّاشون.

ـ هل أنت متأكد من الموعد، يا عصام؟

ـ البارحة جاء شهاب إلى بيتي في المساء. قال المحتال: لن تتحرّك السيارة قبل الساعة التاسعة.

ـ يعني خدعكم!..

وتلفّتوا مشدوهين غير مصدّقين. عبر عصام الشارع ذاهلاً كالفتاةالتي مرقت أمام سيارته قبل دقائق. كان الشارع خالياً. رأى الشيخ عبد المنعم ينزل من السيارة بتثاقل كبرميل متحرّك، وزاد ذلك من غيظه، وكأن هذا الشيخ الممتلىء القصير القامة، النحيل الرجلين مشترك ببرودته وثقله مع المحتالين الآخرين، استفسر الشيخ بعينيه الصغيرتين، والتمعت صلعته بقطرات العرق، ربما من الجهد الذي بذله في النزول من السيارة. لم يكترث عصام له. بدا له زائداً بوجوده الثقيل. وسمع وراءه حركة الباصين مثل أصوات استهزاء خارجة من فم سليط. الثلاثة تفرّقوا على الشاطىء. لم يرد أحدهم أن ينظر في وجه الآخر مخافة أن يقرأ في وجهه ما لا يريده. ثم بدوا، فجأة وكأنهم عُرْي. كانوا يستحمّون على الشاطىء. ولما خرجوا رأوا ملابسهم قد سُرِقت. وخجلْ أحدهم من النظر إلى عورة الآخر. كان الشاطىء يكاد يكون مقفراً، في هذه الساعة المبكرة. إلى اليمين صيّادون نزلوا حتى ركبهم في الماء، يتلمسّون أسماكهم، التي أبقوها هناك حية، ومقاصير السمك الشبيهة بالأضرحة مهجورة وبلا زوار. وإلى الخلف يبدأ صفّ المقاهي الخشبية المبنية على طراز هجين.

صاح خليل:

ـ فعلوها بنا، أم لعلك أخطأت الموعد.

ـ لم أخطىء. لقد كرّر الساعة أمامي مرّتين، صباحاً ومساء. وتهافت على الشاطىء. تبعه خليل ورائد. وبقي الشيخ واقفاً بقامته الصغيرة يرمق الآماد ببصره الكليل. كانت دجلة تبدو رزينة مثله، تدفع مياهها بخلوّ بال محظوظ. فكّر الشيخ بما تحفل أعماقها من خير، وظلّل عينيه، وفكّر بمياه أخرى أقرب إلى الخضرة تركها منذ خمسين عاماً، هناك في الجنوب، واستدار يساراً فرأى شعلة الدورة، وخطّ الشاطىء الأشعث الداكن الخضرة. مثل إطباقة جفن على عين مغولية.

ـ اقعد، شيخنا، اقعد.

كان يحدّق مسحوراً بالفتنة حوله. الهواء الجافّ المفخور بالشمس، المشبع برائحة طين نقيّ، غرين حيّ، شريان ينبض بالحياة منذ الأزل، والوهج الناعم مثل لمس وردة، المنعكس على سطح الماء، والخضرة المغبرّة البارضة. وزقزقة العصافير وكأنها تحتفل بمقدم بشير... كل ذلك كان يناغي نفسه حلماً قديماً... كان يتراءى له بين إغفاءة وأخرى كطيف زائر. خرج عبد المنعم من سرحانه برؤية واثقة:

ـ يخيَّل إليّ أني أراهم... تلك سفينتهم (وأشار بذراعه القصيرة) تدبّ في البعيد كسلحفاة رماديّة.

كان الثلاثة الآخرون لا يرون غير النهر يكتنفهم من ثلاث جهات. وأحسّ عصام وكأنه سلب منه بصره الحادّ. قال في ضيق من عُصِبت عيناه:

ـ بدأ الشيخ يحلّق فوق واقعنا المرير.

قال عبد المنعم بحماس مفرط:

ـ لا، لا... أنا أرى الواقع بحذافيره... ابتعدوا عنا كثيراً.

ضحكوا. قال رائد: «أيّ درّ يخرج من هذا الفم الصغير!» جذبه خليل من ساقه، ونظر إليه من تحت:

ـ اجلس، يا جاري العزيز، ولا تجعل من نفسك شدخة.

من الأسفل كان يبدو بالفعل كشدخة: هزيلاً من الأسفل، منتفخاً من الأعلى، ترتسم على تقاطيعه الجادّة مجاهدةً لإثبات وجود. قال خليل لنفسه: «يا لي من هذه التقاطيع كصفحة مفقودة من كتاب لا أعرف عنوانه!».

زمجرت في أذن خليل اليسرى كلمة لعنة فاه بها عصام، التفت فرآه يحاول اجتثاث جديلة عشب تعصّت عليه.

قال له:

ـ أنا أعرف ما يدور في خلدك الآن.

وكأن الردّ كان على طرف لسانه:

ـ كم كان بشوشاً معي البارحة. كنت أعمر كأسي الأولى في البيت. عمّتي أخذت تعرف طبعي. في هذه الأيام لم أعد أحبّ الخروج إلى الكازينوهات. القسم المخصّص منها

للعائلات يخيفني مثل بيت سريّ، والقسم المخصّص للرجال يقزّزني مثل قيء رجل مخمور... لا، لا... لم تعد بغداد تصلح لطيب المزاج. ثم جاءني بأناقته ورائحته الشهوانية يحمل زجاجتين من البيرة على عادته دائماً. وقال: غداً، الساعة التاسعة. لن نتحرّك قبلها. ستشهد أمّ الخنازير يوماً حافلاً.

قال خليل:

ـ ستجد أم الخنازير من الخنازير أكثر مما حلمت به طوال وجودها في حضن النهر.

وأحسّ الجالسون بأنهم خسروا شيئاً حقاً، ربما لا يعوض لفترة طويلة. غلى الغيظ في نفس عصام، وعاد يحاول اجتثاث جديلة العشب حتى اقتلعها، رمى بها لتصل إلى دجلة، وتلحق بالمركب الهارب، إلا أن الجديلة سقطت على بعد أشبار منه. كانت الخسارة تقضم قلبه. وتطلّ من عينيه المستديرتين مثل دمعة متحجرة.

قال رائد يواسيه، ومن خلاله يواسي نفسه:

ـ لا تبك، يا عصام، ستكون سفرة فاشلة، أؤكّد لك...

ـ في هذه السفرة...

وأطبق فمه على أفكاره. لا فائدة من الاسترسال مع هؤلاء. لقد بدوا غرباء عليه فجأة. انفصلت خيبته عن خيباتهم الصغيرة، وانفصل عالمه عن عوالمهم الطافية على السطح.

قال رافساً الأرض بكعب حذائه:

ـ ماذا تقترحون؟ هل سنقضي النهار على الشاطىء ننتظر عودتهم؟

ـ وماذا تقترح أنت؟

ـ لا بدّ أن نفعل شيئاً.

ـ نسير على الماء كالمسيح.

ـ لن تلحقوا بهم، فهم لم يسيروا رويداً.

وضحك الشيخ على نكتته.

ـ أحسنت، يا شيخ، وماذا تقترح أنت؟

ـ قارباً... وسنكون أسرع لو جذّفه ثلاثة رجال أصحّاء مثلكم.

ضحك عصام ضحكة مكبوتة:

ـ لا فضّ فوك، يا شيخ . . . وتريد أن نحملك كالبرميل في هذا القارب؟
ـ سأعود أنا إلى بيتي (وأكمل الجملة في سره) الخالي من ست الحسن.
ـ ولكننا في سفينة واحدة يا شيخ عبد المنعم.

قال رائد في غلّ:

ـ أرجوك، يا عصام لسنا في سفينة نوح . . .
ـ على كل حال خسر، خسر الشيخ مهرجاناً للحوم حول الجنس اللطيف . . .

تأفف الشيخ وقال:

ـ حتى أنت، يا جاري؟

دغدغ خليل ساق بنطلونه:

ـ من أحبك داعبك.

نهض عصام مستنداً على ذراعه، مرتكزاً على الأرض برجليه، وبدأ يحرث الشاطىء بنظرات حادّة. كان الصيّادون ما يزالون يعالجون أسماكهم المربوطة بخيوط دقيقة مشدودة إلى أوتاد على الشاطىء. بعض مقاصير السمك قد جذبت اثنين أو ثلاثة يتعاملون على وجبة دسمة عند الظهر بعد تزييت الحلقوم. وفي الجوّ رائحة دخان لنار توشك أن توقد. والشمس زادت من حدّتها، وضاعت زقزقة العصافير من ثنايا الضجّة المتعالية لنهار قد أضحى. وهزّت سكون الضحى الصاعد أصوات نابية لسيارات، وحركة محسوسة أخرى وغير منظورة، كأنما تجري من وراء حجاب. وكل ذلك جعلهم يشعرون بأن الوقت يفلت منهم، وأن الوقوف على الشاطىء لا يجدي شيئاً. وبدأوا يبحثون عن مأوى.

● بعد نصف ساعة استقرّوا في بار متعبين، وكأنهم استجاروا بواحة بعد ضياع في صحراء. الخيبة أضافت ثقل الرصاص إلى أجسادهم، والضيق خشّب صدورهم، وفي الدقائق الأولى من وقوعهم على كراسي الخيزران كان الشاطىء الخالي ملء خيالهم. قضوا لحظات صمت مثقلة سمعوا خلالها أزيز ثلاجة شائخة، وسعالاً صادراً من أعماق البار، ودحرجة شيء ثقيل تحت أقدامهم. وكل ذلك مع خيبتهم وضياع صباحهم في يوم جمعة جميل أشعرهم بالهجران، وتخلّي الناس عنهم.

صاح رائد:

ـ بوي، أين أنت، يا بوي؟

صدر صوت مبهم من أقصى البار، وفي الصمت الذي أعقب ذلك استغرقتهم أفكار شتّى، وأصغى كل واحد إلى أفكاره الخاصّة بمعزل عن الآخر، حتى انتزعتهم منها ضربة يد قاسية على حافة المائدة. جفلوا. اتّجهت عيون ثلاثة منهم إلى رائد، فرآوه ينشب أظافره في قميصه، وكأنما يعاني من ذبحة صدرية. وسمعوه يقول:

ـ أشعر بخربشة في صدري. وهذه علامة أكيدة على أن شخصاً يغتابني في هذه الساعة.

قال عصام:

ـ معلوم... الذي يغتابك هو الذي تخلّى عنك.

قال خليل في اندهاش ساخر:

ـ كيف يتخلّى الإنسان عن يده اليمنى؟

ـ هناك لحظات يتخلّى فيها الانسان حتى عن ضميره... يتخلّى عن كل ما يقف في طريقه.

ـ التخلّي سمة من سمات العصر...

كان الشيخ يتلفّت في الوجوه:

ـ أنا لا أفهم... فهّموني...

ـ ستفهم إذا شربت قدحاً.

ومسّ خليل يد جاره، فتأثّم الشيخ:

ـ لا، أنا لا أقربها.

قال رائد في غلّ:

ـ في المبغى وتحتفظ بعفافك؟

قال الشيخ في ثقة:

ـ كلّ شيء إلا العفاف...

ـ إذن، اشرب.

قال الرسّام:

ـ لا تشعر بالإثم، يا جاري.

انفـرد عصام بنفسـه. راح يحدّق من خـلال الشباك، حيث كـان يـرى دجلة منتفخـة الأوداج، مثلما هـو الآن، ولكنها تسـير باتـزان، رصينة هـادئة النفس، وهي وسط مهـرجـان الألوان هناك، حيث الأخضر اليـانع يمـتزج بالأشقـر الترابي، والسـماوي الفيروزي يـذوب في اللألاء الحرشفيّ الوهّاج، وينزل مواشير مظلّلة على الجانب الآخـر من النهر. تـراقصت هذه العفاريت اللونية أمام عيني عصام، وأثارت شجوناً غافية أو منسية، فقال وكأنه يمسك بلقـطة عابرة توشك أن تفلت:

ـ خليل، انظر الى مهرجان الألوان هناك... ألا يوحي لك بشيء؟

التفت الرسام بارتخاء وتكاسل، ونظر إلى اللوحة المتغيّرة من لحظة إلى آخرى، رجراجة تثير في النفس الأسى من انفلات الزمن، وقال في زهد عقيم:

ـ سيوحي لي، إذا دخل شيء في حلقومي...

وزفر، فصاح رائد بصوته المتورّم:

ـ بوي، رسّامنا سيموت عطشاً.

قال الشيخ عبد المنعم:

ـ خليل لا يُروى له عطش.

ـ أحسنت، يا جاري. أنا عطشان دائماً... ولدتني أمي ولساني منـطبق على لهـاتي من اليبوسة، وكـانت أمي المرحـومة تقـول إنها ما إن تسحب حلمتهـا من فمي، حتى أصيح من اقصى الحلق على عادة العطاشى.

ظلّ عصام ينظر إلى مهرجان الألوان عيوفاً مكتفيـاً بذاتـه، مستقلاً بـأفكاره، حتى رأى رجلاً في ثوب أبيض وبنطلون رماديّ يطلع من وسط مهرجان الألوان، ويعبر الشارع ركضاً، وبيده زجاجتان فارغتان، ويدخل عليهم البار من باب جانبيّ، صاح:

ـ بوي، جفت حلوقهم.

قال النادل:

ـ رأيتكم تدخلون، ولكن الساعة لم تبلغ الحادية عشرة.

ـ أصحابك عطاشى.

ـ ألقاهم الغدر على شاطىء الهجران.

ـ نعم، الغدر، ولا تقل التخلّي.

ـ لا فرق!

عاد رائد يخاطب عصاماً:

ـ طيب، أنت تقول: الانسان يتخلّى عن كل ما يقف في طريقه... أنا اعرف ماذا تقصد... ولكن هل أنا في طريقه؟

هزَّ عصام كتفيه بحركة مبهمة. كانت العيون الأخرى موجّهة إليه تطالبه بإيضاح. ولكنه لزم الصمت. وجاءت النجدة من النادل حين دخل، فقال عصام:

ـ ما علينا... جاء البوي.

قال الشيخ ساخراً:

ـ جاء الفرج بعد الشدّة.

ـ لافُضَّ فوك، يا شيخ.

ـ إذن، سنجعلك تشرب اليوم، يا جاري.

قال متبرئاً:

ـ أنا لسان حالكم.

رائد في غلّ:

ـ لا نريد لسان حال، لا سيما إذا كان مثل لسانك لا يعرف الانسان ما يقذفه درّاً أم بعراً.

ـ أرجوك، لا تَقْسُ عليه.

ـ دعه يمسك لسانه، إذن.

قال الرسام بإباء:

ـ لن أقوم بهذه الوظيفة مع أي إنسان.

جاء الساقي واتّجهت الأعين إليه أو تعلّقت به، ونطقت أربعة ألسن بالطلبات، وبقي لسان الحال صامتاً محرجاً حتى من أن ينطق بلا، وأحسّ الرسام بأن جاره متوتّر. وجهه يحتقن، وعيناه متيبّستان، فأضاف للساقي، وهو يشير إلى الكتلة المتوتّرة قربه:

ـ وزجاجة فريدة لجاري العزيز... لا تحتجّ.. على حسابي.

ولم يحتجّ الشيخ، وسكت سكوت رضى. ضحك عصام بأسى، ورائد بهزء، وطبطب الرسام على بطن جاره بمودّة، جاءت الخمرة بعد دقائق وأشاعت المرح. والجرعات الأولى

أرخت الاعصاب، وأطلقت عصافير الأحلام والخيال. قال رائد، وكأنه يتابع رحلة خيالية في ذهنه:

ـ أظنّهم وصلوا الآن.

ـ عساهم...

وسدّ عصام بقية الجملة بكأسه، فقال رائد لعصام:

ـ كأنكما فرسا رهان.

ـ أنا؟ معه؟

ـ نعم، معه

ـ هو في واد، وأنا في واد.

ـ والوديان أيضاً تتسابق.

فتراجع عصام قائلاً:

ـ مجرد أن لي ذكريات مشتركة معه، ذكريات الطفولة ولكنها انقطعت، منذ أن جئت إلى بغداد، وأنا طفل... ومع العمر صار كل واحد يحرث في حقله، كما يقولون. ولم نلتق. أنا ذهبت إلى لندن، وهو احتمى في خيمة ابيه... أوه ـ قال عصام في ضيق ـ لماذا تدفعني إلى أن أفتح دفاتر عتيقة؟ هو في التجارة، وأنا في الهندسة. والتاجر لا يفهم في الهندسة شيئاً.

ـ ولا في الشعر.

وضحك رائد، فنظر عصام إليه بجهامة، وقال محذّراً:

ـ لا تطرق أبواب الماضي!

قال الرسّام:

ـ نشرب خمرتنا على إفرازات معويّة طبيعيّة...

وشربوا خمرتهم، وتابعوا مسيراتها في داخلهم: يبوسة وحرقة في اقصى الحلق، وحمى خيال، وأجنحة أفكار مهيضة. وكان وجه عصام الأسمر معبأ بكظيم العواطف، وعيناه السوداوان المتعطشتان منكسرتين توحيان بذلك اليتم والانقطاع الذي يشعر به الانسان، وهو في ارض مستنقعية سبخة، خداه المحتقنان بنضارة شباب في أواخره موغران بإحساس بالغبن والانتقاص من حقّ شرعيّ يتآمر الآخرون عليه. أما زملاؤه الآخرون فلهم خيباتهم الخاصّة. رائد يشعر بالتخلّي والغدر حقاً، وبالجحود ونكران الجهود، والشيخ نعمه بضياع يوم كامل كان يمكن أن يقضيه بين أولاده. والرسّام وحده لم يشعر بالحيف والندم. وإن كان يشتهي أن

يكرع زجاجتين من البيرة المثلجة في أحضان الطبيعة، رفيقته القديمة، المرتبطة باحلى أيام حياته، ولكنه كان غير متأكّد من أنه سيرسم شيئاً فيها، بعد ذلك الانقطاع الطويل والملل وتأجير النفس. والحمد لله أن العائق لم يأت منه. فرك يديه بحيوية فجائية، وتفتّحت شفتاه الحمراوان المترعتان بالدم دائماً دون بقية جسمه، وبدت عليهما ابتسامة حلقيّة، وأدخل رقبته داخل رمّانتي كتفيه البارزتين، وقال:

- هيا.. دعونا ننسى كل شيء.

لم يجد استجابة. رفعت الأيدي الاقداح بتراخ وصمت وبربرت شفتا رائد، وتدلّت شفته السفلى المبلّلة بتقزّز، وقال بغموض:

- لعين ذلك اليوم..

حدجه عصام بنظرة مستفزة، فقال رائد مستدركاً:

- أقصد يوم ميلادي الذي لا أعرفه بالضبط.

أرخى عصام كتفيه بخيبة أمل، فقال الرسام مواسياً:

- لا تحزن، يا عصام. إنه لا يريد أن ينال من رئيسه. صاح رائد محتجّاً:

- وهل تراني أخاف منه؟ سأقول له في وجهه.. خنتنا وغدرت بنا.. ستَرون.. أسحب البساط من تحت قدميه.

قال الرسام بابتسامته القرمزية:

- هذا ما عهدناه منك.. تقول للكافر أنت كافر.
- سترى. أنا مفتوح على الأثير.
- أنت عصب المؤسّسة الحسّاس.. وجهها المشرق الذي تطلّ به على الأسواق الداخلية.

بادله رائد مدحاً بمدح:

- من خلال رسومك، يا مبدع الإعلان المغري.
- ما أنا إلا منفّذ. الفكرة فكرتك.

تراجع رائد قائلاً:

- فكرة أخرى تهمّنا الآن.. فكرة إبعادنا عن السفرة.

قال الرسّام:

ـ وعند عصام الخبر اليقين.

تبرّأ عصام رأساً:

ـ عندي؟ قسماً بالله ولا أقول بمقدساتي، كما يقول الآخرون. غُشِشت مثلما غُشِشتم. فأية فكرة عندي؟

قال الشيخ نعمة مرحاً:

ـ ربما لا توجد أية فكرة.. مجرّد خطأ غير مقصود.

قال عصام:

ـ لا علينا.. تسمّم صباحنا وكفى.

ـ الله يسمّم صباح المغرضين..

قال الشيخ:

ـ وأنا، ما الغرض من إبعادي؟.

ـ بالتبعيّة، يا شيخ. أنت من الشلّة غير المرغوب فيها.

استغفر الشيخ ربه، وشعر بأنه مكشوف، ويجب أن يلوذ بشيء، فمس قدحه، ورفعه، وتمضمض بالبيرة. فاحتجّ الرسام قائلاً:

ـ ما هكذا تشرب البيرة، يا شيخنا.

ـ أنا أشربها للتعقيم.

ـ لتتطهّر من إثم، وبالإثم نفسه، يا لعبقريتك يا شيخ نعمة!

وضحك رائد على نكتته قبل الآخرين. ورفع كأسه قبلهم.

ودخل عصام في دهليز أفكاره. وكانت جمله القليلة تتناقص مع عدد الجرعات، حين يأخذ بالانكماش، والإيغال في داخل النفس، حتى لتصير أصوات الآخرين لطمات قوية توقظه من سرحاته. واحياناً كانت بعض الجمل تبدو مفاتيح لعوالم يخلقها لنفسه، ويسري في دياجيها. وقد أيقظته جملة رائد الآثمة، وأشعرته باللاجدوى من صحبة هؤلاء، ومن كل يومه الضائع هذا، فانكفأ على كأسه يتمزّز بها حتى عاد رائد يقول:

ـ يبدو أنك أيضاً تتطهّر، يا عصام.

خرجت من شفتي عصام ابتسامة معوجّة، وقال بغموض:

ـ من آثام الآخرين.

ـ وأي آثام لنا غير اشتراكنا معك في الوقوع في شرك واحـد؟

فتكدّر عصام أكثر، وأتى حركة مبهمة من كأسه، فاستدرك رائد قائلاً:

ـ لا بأس من ضياع فرصة. . إلى الأمام فرص لا تحصى.

قال عصام مخفّفاً بلواهم:

ـ اترك الحساب جانباً.

● فقد كان ذلك يذكّـره بماض لا يـريد أن يثـيره، ولا حتى أن يشير إليـه. كان لهؤلاء خيبـاتهم الصغيرة، ومـطاليبهم القصيرة الأجـل، أما هـو فقد كـان له تـاريخ عميق في خيبـة الأمل، وانكشاف الخديعة. ولم يـرد حتى الإشارة إلى اسمـه، مع أن الجميـع كانـوا يعرفـون عمن يتحدّثون. ولكن رائد المهذار عاد يقول، وهو يتكىء على ظهـر كرسيـه، وكأسـه تتدلى من يده:

ـ يبـدو أنهم على وشـك الوصـول. . أنا الآن أرى شهـابـاً في عيني خيـالي متكئـاً عـلى درابـزين سطح المـركب يرقب الشـاطىء مقبلاً عليـه، وسهام الآنسـة المصون مـرسلة للريح شعرها الأشقر السبط.

فاضطر عصام إلى القول:

ـ لا تشر إلى الأسماء.

فواصل رائد إغاظته:

ـ كان يجب أن تكون أنت بجانبها؟

ـ ولماذا أنا؟

ـ لأنها دائماً تحدجك بنظراتها. .

ـ أرجوك، لا تمسّ أحداً.

ـ في النار، ولا نحترق. . أو كيف قال ذلك الكاتب المصري؟

قال الرسام:

ـ كأن الدنيا انتهت في هذه السفرة

قال رائد:

ـ في هذه السفرة ستقرّر حظوظ. .

كـان رائد، في حسّـه الصحفي، يعرف كيف يثير كوامن الشعـور. وكان يعـرف ماذا تعني هذه السفرة لعصام ولشهاب وللآخـرين. وكان صـاحب الاثنين لا يفضـل أحدهما على الآخر إلا بمقدار ما تقدّمه اللحظة الراهنة من منافع. والآن، وبعد هذه الخديعة، وجد نفسه في صفّ عصام المخدوع، ولو كان الخادع رئيس شعبته. وكان يعرف هشـاشة الـرصانـة التي يبديها عصام، ورقّة القناع الذي يضعـه على وجهـه. ولكن عصام خيّب ظنـه في هذه المـرة أيضاً، فقال بسخرية واستصغار:

ـ أظنّ حظك سيبقى محظوظاً و. . . و. . معلّباً.

قال رائد بانكسار:

ـ أنا اهتمّ بحظوظ الآخرين

ـ اتركهم وشأنهم.

ـ سأسحب البساط من تحت أقدامهم.

ورفع رأسه، وشرب منها جرعة كبيرة. وقال الشيخ بصوت بدا جنائزياً.

ـ لم هذا النواح على شيء فات؟

حـدجه رائـد بنظرة صـارمة، وصبَّ عليـه سُعارَ نفسـه: ـ آه، يـا صـاحب الصلعـة اللامعة، أيها العجوز المتصـابي. . كم مرة رأيتـك ترمق سهـام بنظرات فـاضحة؟. . أظنّـك ستذوب الآن لو رأيتها متبرّجة على الشاطىء اللاهب.

صرخ به الرسّام:

ـ اسمع، لا تشهّر بالآخرين. .

ـ دعه يبلع لسانه. .

ـ ولماذا يبلعه؟ ابلعه أنت.

قال عصام بتهديد:

ـ كفى قباحة

واتّجه بوجهه إلى الخارج. حيث كان الضحى قد ارتفع، وقارب الـوصول إلى الـظهر، وكـانت العصـافـير تـرتمي عـلى الأرض في مسرح صبيـاني لا همَّ فيـه. وسـاد صمت مـأزوم مشحـون بالـظنون. وكـان الشيخ عبـد المنعم قد انتهـز فرصـة الصمت، فاطبق رأسـه عـلى صدره، واستسلم إلى إغفاءة هانئة. التفت إليه رائد، فاغتاظ لخلوّ باله ولم يمنـع نفسه من أن يقول مطبقاً كفّيه:

ـ وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

ونفخ في أذن الشيخ، فهبّ هذا فزعاً، وقال: ها!

● ركن خليل عدّة الرسم على الحائط المقابل للمطبخ، في تلك الطرمة الصغيرة التي تقابل الباب. لم يشعل الضوء. كان مصباح الشارع المطلّ على سياج الحديقة يكفي لإنارة الطرمة، وإضاءة الطريق. البيت ساكن كأنه مهجور، وشباك المطبخ الصغير المطلّ على الطرمة مفتوح إلى النصف، وأعماقه مظلمة هادئة، حتّى أن خليل كان يرى شبح الطبّاخ الغازي بعينيه الاثنتين يلمع أبيض مسودّ العينين، فوق منضدة المطبخ المحمّلة بالقدور والصحون. وكذلك الجانب الآخر من الطرمة، حيث توجد منضدة بلاستيك ومقعدان يطلان عليها كأذنين. شعر خليل بقلبه يخفق في صدره. اجتاز الفضاء الضيق إلى الطرمة، وسعل وتمخّط ليشعر بمجيئه. إلا أن الأعماق الصامتة بقيت هاجعة، لا تصدر منها حركة، ولم يشتعل ضوء، حتى بدا لخليل وكأنه غاب عن البيت دهراً، وأنه عائد من رحلته ليجد البيت خواء لا حياة فيه.

كان يشعر بآثار تلك الرحلة الخائبة بكل جسده، كان مغلول المفاصل، مرتخي العضل، ليس سكران، ولكنه دائخ الرأس، جافّ الحلق، وحزين ذلك الحزن الذي يقعّر النفس، ويخويها، ويفرغها من كل محتوى، حتى لكأن القلب يدقّ في صدر أجوف فارغ. انتظر خليل لتهدأ دقّات قلبه. جلس على أحد المقعدين منتظراً أن ينفتح الباب على يمينه. ويطلّ عليه وجه صموت متسائل ينتظر الإشارة. ولكن الباب بقي مغلقاً، وصارت للسكون مجسّات تعبث في الأعصاب الرخوة. وقال خليل لنفسه: سأعلن عن مجيئي بطريقة أخرى. أخرج علبة ثقاب، وأشعل عوداً، وترك العود يحترق حتى لسع أطراف أصابعه، فالقاه أرضاً، وقدح عوداً آخر ليشعل به سيكارة مصّ منها مصّات طويلة متوالية، وتمعّن في رأسها الياقوتي، وانتظر، وسعل مرة أخرى، ولكن المشتمل الصغير ظل غافياً في صمته المغيظ. وبدأ خليل يوسوس. معقول؟ فعلتها مرة آخرى؟ وبدا ذلك مقبولاً في سياق إخفاقاته السابقة واللاحقة، ومنها إخفاق اليوم القبيح مثل دعوة إلى حفلة عرس كاذبة. نهض من كرسيّه، وتقدّم من الباب إلى يمينه متلصّصاً لا يريد أن يكتشف الحقيقة دفعة واحدة. دفع الباب ورأى الحجرة ـ المرسم غارقة في فوضاها الأبديّة. والباب إلى يسارها مغلقاً، لا ينبعث منه بصيص نور، حتى ذلك المصباح الصغير الذي يوقد عادة عند النوم

ليهتدي بضوئه إلى قدح الماء، حين يستيقظ في الليل. صمت مطبق. ظلام. أضاء مصباح المرسم، ونادى قبل أن يضيء المصباح الآخر: «حسنة! يا حسنة!» لم يسمع جواباً. وفكر: ربما ذهبت إلى زوجة عبد المنعم ولكنه كان يحرّم عليها الخروج، وهو غائب. فلعلّها عصته، وخرجت حين تصوّرت أنه سيأتي في الليل. كان الباب الآخر على بعد ذراع منه، ولكنه كان يؤجّل دفعه، يؤجّل مجابهة الحقيقة الظالمة، هروبها من جديد، وبعد هذه السنين الطويلة. كان مشلولاً بقوة الاحتمال مرتخياً في أحضانها، وأحسّ بالعطش يحرقه. هذه البيرة تولّد ظمأ لا تطفئه إلا البيرة. ذهب إلى المطبخ، وأشعل الضوء، وفتح الثلاجة الكسيحة في المطبخ. ارتجّت في يده حين فتحها، ورأى داخلها العامر بكتل الجمد أكثر من أي شيء آخر. ورأى زجاجة الدهن النباتيّ، والخردل، والخلّ، والمخلّلات، ولا زجاجة واحدة تثلج الصدر. وكزّ على أسنانه، واعتراه ما يشبه الاستماتة والزهد، حتى صار يتقبّل أسوأ الاحتمالات. وبهذا الشعور واتته الشجاعة ليفتح الباب الآخر فجأة، وبحركة انتقامية من النفس، ويدير المفتاح الكهربائي. تعرّت الحجرة أمامه بالضوء الأصفر، ورآها هناك متكوّرة على الفراش. أحس وكأنه رشق بماء بارد. حنق، وشتم:

ـ آه، يا لعينة!

رفعت حسنة ذراعها العارية، ثم رأسها، وصدرها العامر باللحم الشركاوي، وسمعها تضحك غبيّة بين الجسارة والخوف، وقالت:

ـ اخترعت؟

صاح من مكانه، ومدّ نصف جذعه مستنداً على عضادة الباب:

ـ أنت طفلة، ولو كنت كالجاموسة.

وتركها وذهب إلى المطبخ، حيث سمع الثلاجة تدمدم: «طيط، طيط، طيط!» ودار يبحث عن شيء يمسك به، ويعيد إليه توازنه. لم يجد شيئاً. ذهب إلى المرسم، ولم يجد إلا ركاماً من الصور القديمة، واسكيتشات للوحات معدّة حسب الطلب. مطّ شفتيه احتقاراً. سمع حركة حسنة وراءه. التفت، كانت تبتسم باعتذار أبله. قال لها حين رآها في انكسارها المخذول:

ـ عكّرت مزاجي! هل عندك ما تعدلينه به؟

كانت تعرف ماذا يريد، فقالت بمباهاة:

ـ عندي.

وذهبت إلى المطبخ، وأخرجت من بين الزجاجات الفارغة والقواقير البلاستيكية زجاجة بيرة شُرب ثلثها. وقدّمتها له.

ـ من أين لك هذا؟

ـ أنت تذكر، لما جاء عليك شهاب مستعجلاً قبل أيام.

ـ أذكر.

ـ تركتها، وذهبت معه. فخبأتها لساعة الساعة.

مسح خليل فم الزجاجة المترب بكفه، وقال بلهجة نصف راضية ونصف متأسفة:

ـ أحسنت يا حسنة، ولكن البيرة ليست خلاً لتحفظ عدة أيام. ولكن للضرورات قانونها.. هاتي قدحاً.

وخرج إلى الطرمة، وصبّت البيرة المزبدة، وهو واقف حتى امتلأ نصف القدح بالرغوة. نفخ الرغوة بقوة، وأدخل فمه الأحمر في القدح، وشرب بسرعة. كان للبيرة طعم ماسخ مرّ. استرخى خليل على الكرسي مكافحاً شعوراً آثماً بالتقزّز. حتى اختفى في الأغوار، وصفت نفسه قليلاً. رفع رأسه ورأى حسنة مستندة إلى باب المطبخ تراقبه، وشعرها الأسود يشع مثل عمامة سوداء. حدّق فيها ناعساً ذابلاً. وردّد:

ـ ليش، ليش! لماذا فعلت هذا؟

ـ ماذا؟

ـ خبأت نفسك عني.

تريّثت قبل أن تقول:

ـ حتى أعرف شيصير بيك إذا جيت للبيت وأنا ما موجودة

ـ وتجسرين؟

حكّت حسنة ظهرها بعضادة الباب. خيل لخليل أن شفتيها ارسلتا مطقة عناد ومغايظة. وتذكّر فرارها الأول، حين عاد إلى البيت ولم يرها. ولكن ذلك كان منذ زمن بعيد، حين كانت تطلعاته وفورات جسده، وأحلامه البعيدة المدى، وقد نسيها من كثرة مشاغله.. أما الآن.. فقد أصبحت قطعة من حياته، شيئاً دافئاً يحتويه ويلبّي حاجة له، كالبيت، كالسرير، كالصحن الذي يأكل فيه، شيئاً يسدّ نقصاً في عالمه البارد الراكد، العائم المتشبث بنقاط ارتكاز وثبات. وخرج من بحر أفكاره ليقول، متحيّراً.

ـ ما أظنّ، ما أظنّ.

ـ شنو؟

ـ ما أظن هذه الفكرة الفظيعة من عقلك الصغير. من أين أخذتها؟
ـ من الحيطان.
ـ هل جاءت سنيّة زوجة نعمة عليك اليوم؟
ـ لا، مسافرة لأهلها.

هزّ خليل رأسه ليطرد ذباب الظنون الملحاح. صبّ بقية الزجاجة في الكأس. كان للبيرة طعم آخر يَسُدُّ خواء. أشعره بالامتلاء والاكتفاء. رفع رأسه، حين سمع حسنة تغادر مكانها. وتنسلّ ذليلة إلى الحجرة الصغيرة التي يربض فيه سريرها. أحسّ ببعض الشفقة عليها. نهض، وخلع قميصه، وألقاه على الكرسي، وحين دخل الحجرة رآها مكّومة على الفراش تكاد تملأه بجسمها الجثيث، مقهورة منبوذة. جلس على حافة السرير يخلع حذاءه. كانت حسنة تحجب وجهها بيديها لتخفي نفسها عنه. مسَّ كتفها ونادى بصوت حاول أن يجعله رقيقاً محملاً بثقل الوحدة التي يحسّ بها كلاهما:

ـ حسنة!

لم تجب.

ـ نائمة؟

تحرّك جسدها.

ـ اقعدي.

أطاعته. رفعت جذعها بيديها. وقعدت على السرير. وشمَّ خليل رائحتها البيتيّة الموحية بالارتخاء والتبلُّد، رائحة جسد في خمّ كسل مزمن. وكانت هذه الرائحة قد امتزجت في نفس خليل بذلك العالم المنزوي الصغير المسمّى بيته، بطعامه وشرابه، والمخدّة واللحاف. كانت قَدَرَه، والإناء الذي تستقّر فيه نفسه العيوف، والأرجوحة التي يرتخي فيها كل يوم بعد العودة من عمل رتيب مضجر آسن لا يتقدّم ولا يتأخرّ، حتى صارت هذه الرائحة رائحة جسده، وضع خليل يده على يدها الممتدّة على فخذها، وقال:

ـ احكي!
ـ احك أنت. وهل أنا التي كنت في سفرة؟
ـ ماذا احكي لك؟
ـ كيف السفر؟ كيف الشطّ والأشجار والعصافير والطيور؟

خيّب ظنها، وقال:

ـ السفرة أجّلوها.
ـ أجّلوها؟
ـ نعم، مع الأسف.
ـ وبدون سبب؟
ـ دون إبداء الأسباب.

وتركها في بحران حيرتها. ولم يقل لها شيئاً آخر. لم يتعوّد أن يحدِّثها عن نفسه، عن مشاريعه وهمومه وأحلامه. فكيف يمكن أن يحدّثها عن خيبة اليوم؟ كان دائماً يبادلها كلمات ممسوحة، مثلومة، متقطّعة. تقال لتحريك جسدها، وتمشية أمور البيت. ولهذا سكت. وانطوى على وخزات الإبر. وأحسّ بموجة من الوهن. فتمدّد إلى جانبها، وشبك ذراعه وراء رأسه، فوق المخدّة. وتردّدت أنفاسها حارّة زفرة على صفحة خده الأيسر. حين قالت بهمس عميق جسور:

ـ هذي حوبتي.

التفت إليها، ونظر من فوق ذراعه المطوية، وقال:

ـ حوبتك؟

ـ أي، حوبتي.

ابتسم مخذولاً مبهوراً، وكأنما سمع طفلة تكلّمه في المهد. ورفع جسمه على المخدّة، وردّد:

ـ حوبتك؟ حوبتك أنت؟..

سكتت قبل أن تجرؤ لتقول:

ـ كان لازم تأخذني معك.
ـ آخذك لأم الخنازير؟ حسنة في أم الخنازير؟

قالت تواجهه بكل وجهها المدور:

ـ وليس لا؟ أشوف، أتفرّج.. أظلّ كل عمري محبوسة؟

بحلق فيها، وضحك لأول مرة في يومه هذا.

● وشعر رائد، بعد زوال سورة الخمرة، وكأنه عائم في ماء عكر. كانت الأشياء الليلية تتجسّد أمامه بصحو عجيب، وتتجّسم مثل لقطات بارعة من فيلم سينمائي.

الشوارع. الفراغات. الأرض النظيفة الصلبة تنبذ من فوقها كل النفايات الطارئة. الناس القلائل المنطوون على همومهم الشخصية، وخداعاتهم الفردية. السيارات كلاب حراسة مسعورة، تعوي على لصوص موهومين. البيوت أعجاز نخل تنطوي على تاريخ مشبوه. سار رائد لا يعرف إلى أين يتّجه. كن يحبّ أن يتمشّى مستمتعاً بهذا الصحو الغريب. خائفاً في الوقت ذاته من الاختلاء بنفسه، ومواجهة المَرَدة والشيطين، إذ كان عليه أن يقنعها بصوابه في كل ما فعله، وسيفعله في مستقبل الأيام. كان الرجل يخشى الوحدة والخلود إلى النفس. والليل عسكر باشباحه اللئيمة، والكآبة عنكبوت لجوج، وفي الليل تغلق قنوات الاتصال العلني، وينفتح الاتصال على الأثير. وتبرز محطات الماضي تذيع أخباره. وهذا ما لا يأتمنه رائد. سار على غير هدى. الجميع سيأوون إلى بيوتهم. وهو لا يملك بيته الحقيقي، بعده النفسي، كما يقول كتاب آخر زمان، يتمدّد به في ساعات الضنى والحاجة إلى الاسترخاء. والعداء بين رائد وبين هذه البيوت الرصينة مستحكم منذ أن غادر بيت الأبوة في شمال العراق، وجاء إلى هذه المدينة المتباهية المخدوعة بألف شرّير وشرّير، المرائية الملتوية كامرأة سحاقية، السائرة الى خراب مؤكد يُعيد مجد هولاكو. وقف رائد في مفترق طرق. الأنوار ترسل قروناً ضوئية، أم لعل هذا بصره قد تسورب. لا، لكل الأشياء قرون، يلمحها الذهن الصافي، وتتعامى عنه العيون المبطنة. وضحك رائد بنشوة على تعابيره هذه. وحرّك قدميه بخفّة. كان الشارع عفن الرائحة من تراكم عطن الأطعمة الرخيصة في هوائه، وكثرة محلات الكباب والفشافيش والطرشي المخلّل، وعرق الأجساد الوسخة، وتلال النفايات. سار غائب الوعي، معتقل الإرادة. مرّ به صبيّ يعرض سكائره في طبلة صغيرة ربطها في عنقه، فاختطف منها علبة سكائر بيد، ومدَّ له الفلوس باليد الأخرى. فِعلُ مريب ذو نيّة حسنة. وانشرح وجهه بابتسامة مقدّدة يقول بها: هل رأيت، أيها الفتى نصف العاطل عن العمل؟ ظننت بي شيئاً، بينما أنا شخص آخر. أمين لا أخدع ولا أسرق، ولا أختطف ما تميل نفسي إليه. بل اريده بالطرق الشرعية. سار تتسكّع به الشوارع، وتلفظه الساحات الرثّة، حتى شعر بسيارة تقف إلى جانبه. انتبه إلى أنها سيارة تكسي. وبدون تفكير رفع ذراعه يشير للسائق أن يتريث. ولما تريّث السائق ولج رائد الباب الخلفي لسيارته، وأعطى العنوان دون أن يماكس في السعر.

توقفت السيارة أمام بناية مقابل منارة. كانت البناية مظلمة. اشرأبّ رائد بعنقه لعلّه يرى ما في داخل النافذة إلى يسار المدخل. رأى الجرّارين الأسودين من دولاب حديدي رمادي، والطابعة فوقه، وعلى الحائط خارطة العالم العربي. اليوم يوم الجمعة، والمؤسّسة مغلقة. ولكنه دقّ نافذة الجانب الآخر. فقد كان يعرف أن جابر الشرطي المكلّف بالحراسة

ينام في الممر وراء الغرفة التي يطلّ على نـافذتهـا. لم يستجب أحد لنقـرات أصابعـه. صمتت الأعماق المرتخية. ترك رائد الواجهة، واستدار حول هذه البناية المغلقة من أربعة طوابق. ترك الحائط الجانبي الأصمّ الملوّث أسفله بالسخام، وعبر صندوق القمامة، واتجه إلى باب حديديّ خلفيّ بقبضاته المروحيّة السوداء، وأطلّ عليه، وصاح:

ـ يا عم موسى، أبو حبيب.

تريّث قليلاً. ثم أعاد النداء بصوت أعلى، سمع خرخشة قبل أن يظهر له شبح ويقبل عليه من الظلمة المهلهلة.

ـ مَنْ؟

ـ عمي موسى، أنا رائد المسّاح.

سكت العم مـوسى، وواصل سـيره، حتى استطاع رائـد المسّاح أن يتبـينّ الدشـداشـة البيضاء الفضفاضة، والسترة الطويلة الداكنة المرتخية على الكتفين.

ـ خير إن شاء الله؟

ـ جابر ما موجود.

ـ جابر سافر..

ـ الساقط؟ كم مرة راح يسقط هناك؟

ـ لا تخف عليه، يعرف متى يسقط. الآن في أم الخنازير مع الجميع.

ـ ليس مع الجميع، يا عم موسى. ها أنا أمامك..

فتح موسى الباب دون أن يعلّق شيئاً، وترك رائد يدخل منه. كان المـوقد مشتعـلاً على بعد خطوات. شمّ رائد رائحة النفط المنبعثة منه قبل أن يراه. ولما تقدّم رأى الإبريق الأبيض مركوناً إلى جانب سخُان الماء الأسود. فقال رائد لنفسه: دائماً هكذا، قطّ أبيض وآخر أسود. وجلس صامتاً عـلى مقعد واطىء، وأفـرج ساقيـه ليريـح كرشـه الذي بـدأ ينتفخ بشكـل مزعـج من بقايا الرز والبقول المسلوقة. سكت موسى وانشغل بتعديل السخّان فـوق الموقـد النفطي، ثم أخذ يعدل غترته على رأسه. فكّ طرفيها، ثم ألقاهما من يمين وشمال. وشعر رائد بأن عالم أبي حبيب منفصل عن عالمه، مظلم، ومسطح، وبلا مداخل. حاول أن يتقرّب منه:

ـ اشتهيت شايك، يا أبا حبيب.

ـ تفضّل. الشاي جاهز.

دنا رائد. تلمّس مقعـداً في الظلام، وسحبـه تحته، وجلس. وبعد لحظات ألفت عينـاه

الظلام، وطلعت الأشياء من حجبها. ولكن موسى بدا كالساحر أمام الموقد، مظلّل الوجه، مقعّر العينين. سأله رائد:

ـ ألا تستوحش، يا عم موسى؟

تمتم موسى بصوت عميق القرار:

ـ كل شيء يهون غير وحشة القبر.

ـ هذا صحيح. ولكن ألا تحسّ بالوحدة، وأنت بهذا العمر، ولا سكن تلجأ إليه؟ ألا تطلع العفاريت عليك في الليل؟

ضحك موسى، ونكس رأسه:

ـ العفاريت من خلقنا. الدماغ الخائف يخلق العفاريت، وأنا مم أخاف؟ ليس عندي ما أخاف عليه.

ـ ومع ذلك يظل الخوف تحت الجلد. وحين يختلي الإنسان مع جسمه، ينزّ من بين المسامّ، أو يبرز أمام العين كالثعبان.

ـ أعوذ بالله ـ وأدار موسى رأسه يميناً وشمالاً ـ انتم شباب اليوم تخلقون لكم وساوس. لا، يا سيد رائد، اشرب شايك واهدأ.

تأفّف رائد.

ـ سأشرب شايك الحلو. ولكن أين مني الهدوء؟ والخيانة وصلت إلى الزردوم.

رفع موسى إليه نقرتي عينيه.

ـ من خانك؟

ـ الخيانة في كل خطوة، والله العظيم، يا عم موسى.

ـ يا ستّار، يا ربّ.

ـ اليوم جئنا حسب الموعد، فرأيناهم خانونا، سحبوا البساط من تحت أقدامنا. ورحلوا.

ـ في الصباح كانوا مجتمعين هنا، ومنهم عطا الموظف الذي عندك وتلك البنت الصغيرة شروق.

ـ حتى عطا الخامل تحرّك؟ ستجنى عليه شروق هذه.

ـ في الحركة بركة.

ـ ومنفعة حركات الناس كلّها منافع. لا توجد حركة بدون مقصد.

ـ لا أعرف من فكّر في هذه الكسلة.

ـ ذوو العقول النيّرة، يا عم موسى، المفكّرة في الغد. فكروا فيها ليستفيدوا منها. فصّلوها على قياسهم، ولتكون لهم وحدهم. أما نحن، الخائبين، أولاد الخايبات، فنجلس نتلقى محروقات سياراتهم.

لم يردّ موسى عليه بشيء. انشغل بصبّ قدح آخر له، وفكّر رائد: حتى موسى لا يفتح لي نفسه، لا يتكّلم على الأثير. تناول من يده قدح الشاي، وشربه على عجل، ونهض بعد أن دسّ قطعة نقدية في يد العجوز. تمطّى رائد حتى فرقعت عظام ظهره، وتمتم بـ «مع السلامة» وتحرّك، دخل دائرة الضوء المهلهلة. وحين وقف على حافة الرصيف يريد العبور إلى الجانب الآخر من الشارع كانت حناياه خالية من كل رغبة. تردّد لا يعرف إلى أين يذهب. كان الليل في سلطانه الفجريّ، ومن الأرض يتصاعد دخان أزرق يدور حول أضواء الشارع كالفراشة. لم تكن الساعة قد تجاوزت التاسعة. والعودة إلى حجرته مثل العودة إلى زنزانة سجن انفرادي. وبطنه منفوخ ببقايا العرق المكاسر بالبيرة، ورأسه كالمغزل. عاوده الإحساس بالغربة، وأن بغداد تتنمّر له، أو تدير عجيزات جدرانها عليه، وتنبذه نبذ الذين كفروا. ولكن لن يخرج منها. ودّع مدينته القصيّة الوداع الأخير مصمّماً على أن يكافح حتى النفس الأخير، مقيماً حياته الجديدة على أساس متين لا تعبث به الشعارات الطوباويّة. وإذا كان الماضي يرفّ في مخيلته مثلما يفعل في مثل هذه الأوقات، فسيغلق كل حواسه أمام روائحه الخبيثة، ويصرخ في وجهه: أنا الآن سيّد نفسي أبحث عن روائح أقل نتانة.

● ودخل عطا بيته، فصاحت أخته:

ـ سدّ الباب وراك.. نسيت أن تسدّه على عادتك.

كان قد قطع ثلاث خطوات، فالتفت إلى الباب، واستصعب الرجوع، قال بصوت خدر:

ـ أنت سدّيه.

وسمع ضحكاً. ولم يبال. كان يحسّ بارتخاء وثقل في أسفل المعدة. وقال في سرّه: ورّطوني. كنت الآن في فراشي. وتثاءب، وحكّ سرّته. كانت حجرة الضيوف مضاءةً فدخلها مضطرّاً. فهي الطريق الوحيد إلى حجرته. استقبل بتصفيق حاد. تهاوى على مقعد مغمض العينين.

ـ ها، كيف أم الخنازير؟

ـ كيف السفرة؟

ـ تونّست؟

ـ السفرة طويلة. لازم أعجبتك.

ـ المدير العام كان موجوداً؟

وأسئلة أخرى أمطرته بها أخته المتزوّجة جميلة، وإبراهيم زوج أخته، وأخته الآخرى العانس عطية. تضايق ولكن لم يردّ عليها بشيء. نهض خذلان مدحوراً. وسار إلى حجرته فاتر الهمّة، إلا أن إبراهيم أمسكه من يده:

ـ أبو فلان، عيب عليك. هوا البساتين ما أنعشك؟

وجد زوج الأخت في يده كفّاً رخوة باردة لا تبدي مقاومة. رغب أن يداعبها. جرّ صاحبها قليلاً، فانجرّت كل كتلة اللحم الفخمة. تشجّع الرجل، وتناول كفّ عطا الثانية، وأعاده إلى الكرسي بدون صعوبة.

ـ تعال، حدّثنا.

كانت عطية تنظر إليه بإشفاق، وتودّ لو يترك لينام. ارتخى عطا على الكرسي كالقربة المنفوخة إلى النصف. وانطبق رأسه على صدره. وبدا وكأنه على وشك أن يغفو.

ـ أبو فلان، ما هذا؟

ـ نعسان من هوا البستان.

ـ أو خدران من أقداح البيرة.

سمع صوت جميلة يسأل بحنان:

ـ عطا، كيف كانت السفرة؟

حاول عطا أن يفتح عينيه. لم يستطع، إلا أنه حرّك جفنيه برعشته العصبية المألوفة. قالت عطية:

ـ عيني إبراهيم، عيوني جميلة. خلّوه يروح.

قال إبراهيم محتجّاً:

ـ تعبنا كل هذا الطريق من المأمون إلى بيتكم، نريد أن نسمع، ولا نسمع منه شيئاً؟

قالت عطيّة:

ـ ألا تراه تعبان؟

ـ أجبروه ليكون حامي هدف؟

وضحك إبراهيم، ونظر إلى عطا، فبدا له مهروساً ببنطلونه المتهدّل على رجليه، وذراعيه المرتخيتين على ذراعَي الكرسي، ووجهه المنتفخ العرِق. بعد لحظات صمت غمغم عطا:

ـ تعبان. . أريد أنام.

ـ تعبان أو سكران؟

ـ سوا. أريد أنام.

ـ والسفرة من يحكي لنا عنها؟

ـ بكره. . .

ونهض متكئاً على ذراع الكرسي حتى مال الكرسي بثقله، وكاد ينقلب ويقع عطا. ولكن الحائط أسعفه حين استند إليه. وتوجّه عطا إلى غرفته، ودخلها بسلام.

● ودخل عصام بيته مكفهّر الوجه، فاستقبلته عمّته بوجهها المجدّر المحتقن:

ـ كأنك مضروب راشدي.

انهدّ عصام على الأريكة قربها، وقال:

ـ بالضبط. والذي ضربني تعرفينه. صديق الطفولة، كما يقولون.

ـ شهاب؟

ـ اي نعم، شهاب. يقولون إن المرحومة أمي كانت ترضعه من ثديها.

ـ أعرف. وكانت تقول إنه كان يعضّ الحلمة، حين تضعها في حلقه.

قال عصام متألماً:

ـ نفس الشيء فعله معي. يبعدني عن المدير العام. .

ودلّى عصام رأسه الصغير المتوّج بشعر فاحم لامع، ولاح وجهه سقيماً، حين رفع كتفيه، وأغرق رقبته بينهما، كانت عيناه ذابلتين ترمشان بشدّة، حتى قالت عمّته:

ـ على كيفك. . ابلع ريقك. هل كانت السفرة إلى منجم ذهب؟

شعر عصام بضيم شديد، كأن عمته بكلماتها الساذجة جسّدت هول ما حصل اليوم. ولكنه تمالك نفسه. واستدرك:

ـ لو كان منجم ذهب لما تأثّرت. ولكنها الخيانة، يا عمة، الخيانة. أو ماذا تسمّينها؟ الغدر.

همست عمته مع نفسها: «عجيبة» ولكن عصام سمعها، فرفع إليها عينين حزينتين محمّرتين من الخمرة، ذابلتين من الانسحاق:

ـ ما هي الـ «عجيبة»؟

تريّثت عمته قبل أن تقول:

ـ لِمَ هذا النواح؟ هل فقدت وظيفتك؟

قال في ضيق:

ـ لا، بل الذين يعدون بالمنّ والسلوى، يفرّون مني حالما ألوح لهم.

لم تفهم العمة شيئاً من جملته، ولكنها قالت:

ـ ماذا فعل شهاب بك؟
ـ قلت لك خانني. استقلّ بالسفرة وحده. جئت فرأيت المركب قد غادر.
ـ ربما تأخّرت عن الموعد. ربما حصل شيء لا تعرفه.
ـ خلاص صرت إلى جانبه. لا مجال للحديث الآن.

وكظم غيظه، وهمّ باللواذ في غرفته. سمع صوت عمّته وراءه:

ـ اليوم جاء هاني إلى البيت.
ـ جاء؟
ـ اليوم جمعة.

تملّكته نقمة أخرى حادّة وجارحة، قال بعذاب:

ـ لا يفتقدني إلا أيام الجمع.

قالت عمته:

ـ لا أعرف من يفتقد الآخر.
ـ نسيت أن أعطيك أسبوعيته. فجاء عليها.

صرخت عمته:

ـ الله أكبر. هذا ابنك.

قال عصام بنبرة أهدأ:

ـ سأذهب إليه غداً.

وحين دخل غرفته كانت خمرة اليوم قد تسرَّبت من مسامه، وتركت في نفسه خواء مخيفاً، خواء جائعاً لأن يملأ بأيّ انتقام عاجل من أيٍّ كان، حتى من نفسه. فقد كان عصام في ساعة الهزيمة أو الانحسار يحقد حتى على نفسه، لأنها تفشل في تبرير أفعاله أمام الآخرين، فلا يجد إلا العزلة ملاذاً، واليوم شعر بطعنة تسدّدها يد تعرف كيف تمسك بالمقبض. ونزف الكثير من عرق الإهانة الصامتة، والكرامة الجريحة، حتى لم يعد يوماً يعبأ بأية إهانة أو استهانة تصدر منه في حق الآخرين. وعندما أدار مفتاح الضوء، وبرزت صورة ابنه من الظلام، لم يشعر بتأنيب ضمير أو ندم على تقصير، بل مرّت الصورة أمام عينيه كسبّة طائشة. كزّ على أسنانه، واتجه إلى أعماق الحجرة، حيث يربض سرير قديم يعود إلى حياته الجامعية، عوضاً عن سرير الماضي العريض، الذي حمل ذات مرة مع بقية آثاث الحجرة، ضمن المتأخر من زواجه المقبور. فكأن الحجرة يتقاسمها عالمان: عالم الرومانسية الشعرية، حين كان يجلس على سريره الأجلح الحالي، في الليالي التي تعود إلى عهد الطوفان، ويرفع المخدّة على متكأ السرير مسنداً رأسه عليها، ويستغرق في صياغة قصيدة شعرية عن ذات العيون البنفسجية، وهو اللون الذي اختاره لعيني لميس الداكنتين البرّاقتين، دون أن يعرف أن هذا اللون يدلّ على الجنون، كما نبّهه خليل ذات مرة، بعد أن اكتشف أنه كان يقرض الشعر. وعالم الوقوع في الخطيئة، والمتمثّلة في صورة ابنه هاني، المعلّقة على الجدار، والتي تبقى متربة حتى تفطن عمّته إليها، فتمسحها بخرقة مبلّلة. أجال بصره في الحجرة، وحاول أن يتذكّر كيف كانت تبدو قبل خمسة أعوام، إلا أنه سمع صوت عمته يناديه، وكأنه صادر من بئر، أعاده إلى الجزء الحالي الغثّ من حياته. اقترب من الباب.

ونادى:

ـ منو؟

ـ يريدونك

ـ تعال افتح الباب. . . شهاب.

ـ شهاب؟

قفز كالملدوغ. أيعقل هذا؟ يبصق في وجه إنسان ويمدّ يده ليصافحه؟ خرج إليه جامد القسمات، يغلي من الداخل. رآه يبتسم بوجه أملس ملوّح قليلاً من لفح الشمس، ولكنه لم يستطع إخفاء بلادته الفاضحة وجمود أحاسيسه. قال وابتسامة عناد تتراقص على شفتيه الرقيقتين:

ـ أتصوّرك غاضباً عليّ.

شعر عصام بأن الدم يتصاعد إلى وجهه، ويتوهّج. ولم يجد كلمة مناسبة يردّ بها. فعاد شهاب يقول:

ـ بمقدّساتي. خدعوني أيضاً. ما كنت أدري بالضبط. قالوا لي في الساعة التاسعة.

انفجر عصام:

ـ ولكنك ركبت المركب.

ـ لانني أخذت احتياطي. جئت قبل الموعد بنصف ساعة، قسماً بمقدّساتي.

ـ ووجدتهم بانتظارك؟

ـ وجدت خشبة العبور مرفوعة. فحملوني إليه حملاً.

ضحك عصام لأنه تصوّر شهاب بطوله المشروخ يرفع على الأيدي كتمثال من خشب.

ـ يعني رحت.

ـ رحت. وكان يمكن أن تروح أنت. ولكن من يقنعك؟ إنك تُخوِّن الجميع.

ـ أن يرفعوني مثلما رفعوك؟

ـ أقصد كان يجب أن تأخذ حذرك مثلي، وتأتي قبل الموعد ببعض الوقت.

ـ فأفوز بالجنان؟

ـ أو ما يتصّوره عقلك.. ولكن أي شيء لم يقع. عادوا بخفي حنين، بل اسوأ.

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد ما تتصّوره أنت فوزاً بالجنان.. المدير العام وعائلته الكريمة لم يأتوا إلى السفرة.

نظر إليه عصام نظرة قادحة، وقال:

ـ وهل تتصّورني متلهّفاً لقضاء يوم مع المدير العام؟

ـ ولم الزعل، إذن؟

ـ مجرّد أنني مغثوث من الغدر.

ـ قلت لك إنني لم أكن أعرف بالموعد. أنا نفسي كنت ضحيّة غدر من أولئك الذين يتصّورون السفر مع المدير العام مغنماً.

برد عصام، ولمعت عيناه بفراغ، وعاد يقول:

ـ مجرد أنني...

فسبقه شهاب بلهجة ضاحكة مصالحة:

ـ أعرف أنك تحب الاستمتاع بهواء البساتين، بالشمس، بالخضرة، بالوجه الحسن. وهذا حق لك. أنا أيضاً أحب التمتع بهذا كله. لقد جاء كثيرون حتى من غير المنتسبين للمؤسسة

ـ من هؤلاء؟

ـ لا أعرف. أصدقاء لبعض العاملين فيها، كما يقولون. وتمتّعوا أيضاً مثل الآخرين. ومثلما كنت ستتمتع أنت.

زاد ذلك من نقمة عصام داخل قوقعة نفسه.

ـ وأنت؟ مارست متعتك لوحدك. أنا أعرفك أن لك متعك الخاصة.

عرف شهاب ما يرمي إليه عصام، فقال محتجّاً:

ـ لا، يا عزيزي عصام. ولكن لا يعجبني أن تشاركني الخنازير المتعة.

نظر إليه عصام، وكأنه يقول: إلى هذا الحدّ تعتبرني مغفلاً.. وسكت، وترك صاحبه يؤكد كلامه:

ـ أقصد الخنازير الوحشيّة القادمة من المدينة...

وصمت شهاب عامداً، وتوتّر عصام.

ـ أنا لا أفهمك.. ماذا تقصد؟

ـ أريد أن أقول الفضائح يمكن أن تلاحقك في أي مكان حتى في أم الخنازير، وتفسد عليك ولعك بالاستمتاع. فلا تحزن إن لم تذهب.

رفع عصام إليه عينين نفّاذتين ملتهبتين بنفاد الصبر.

ـ أفصح، ماذا تريد أن تقول؟

ولكن شهاب قال يثير فضوله:

ـ شش. ستسمعنا عمّتك.

ـ ماذا حصل هناك؟ ـ وخفض صوته ـ أي فضيحة؟ عراك أم مشاغبة أم افتضاح سرّ؟

همس شهاب وكأنه ينطق بكلمة سرّ للدخول إلى عالم صديقه الغاضب.

ـ بل حادثة اغتصاب..

اقترب عصام منه، وقاده من يده اليسرى الى أعماق الحجرة ليجلسه على السرير، ووقف متسلطاً عليه:

ـ حادثة اغتصاب؟ من اغتصبوا: ذكراً أم أنثى؟

ضحك شهاب متشفياً:

ـ إلى هذا الحد لا تثق بزملائك؟

ـ آوه، بدأت تغيظني.. ما هذه الألغاز؟ تكلّم بصراحة.

أشفق شهاب عليه، وأمسكه من يده الساخنة، وأجلسه على السرير إلى جانبه، ونهض:

ـ أنت منفعل الآن. ولا أقول شارب. ساحدّثك غداً.

تمرّد عصام على ضغط يده، ونهض:

ـ لا، أريد أن تحدّثني الآن.. مَن الغاصب ومن المغتصب.

وتسلط عليه ثانية.

ـ اهدأ.. اجلس.. ستسمع عمّتك وتتصوّرنا نتعارك

ـ اصرف ذهنك عن هذا، وحدّثني ماذا حصل. أنت تثير أعصابي. مَنْ اغتصب مَنْ؟

تمهّل شهاب، قبل أن يقذف كلمته:

ـ سهام؟

ـ سهام؟ معقول؟

ـ يمكنك في هذه الأيام أن تصدّق بكل شيء.

جلس عصام على السرير، وقال كالمسائل نفسه:

ـ تلك القلعة الشامخة.

ـ لا شوامخ الآن. كل شيء قابل للتذليل.

نظر عصام إليه نظرة حادّة فاحصة. واجهه وجه أملس جامد بعينين صلفتين. تكسّرت نظرته، وتراجع إلى نفسه:

ـ ولكن من الفاعل؟ من واتته الشجاعة؟

ـ هذا ما ستتداوله الألسن. لا تنس أن هناك غرباء كما قلت لك. ولكن من يدري؟ قد يكون الفاعل من عندنا. لا أعرف، لا أعرف. سيفتضح السرّ حتماً. لا يبقى شيء خافياً.

قال عصام باندهاش:

ـ ولكن كيف عرف الناس بالحادثة؟ كيف؟.. صراخ؟ رأى أحدهم ذلك؟

ـ لا أعرف. ولكن جرى تهامس. العودة كانت مملّة. والناس تفرّقوا إلى شراذم، وجلسوا متعبين. وكان الجوّ كريهاً، تآمرياً.. وشوشة، ولزلزة عيون، ولا أدري ماذا بعد.

ـ وأنت نفسك هل رأيت شيئاً؟

دفع شهاب جذعه إلى الوراء وكأنما يتّقي ضربة، وتبرّأ في الحال:

ـ لا، وحق النعمة. ولكن الجو كله كان ينبىء بشيء غير معهود في اللحظات القليلة التي كنت أراقب الجماعة هناك بعد الغداء.

لم يقتنع عصام وقال:

ـ لا، أنت تخفي عني شيئاً..

ـ لا، بمقدساتي. كل ما أعرفه أن عشرات العيون كانت تراقبها اينما خطرت بقامتها الطويلة الصلبة العود، تترصّد حركاتها. ثم اختفت فجأة بعد الغداء. وبعد ساعة أو أكثر رأوها خارجة من وراء شجيرات كثيفة وجهها مترب محمرّ، وملابسها مدعوكة، ورأسها منكس، وكل ما يشير إلى كسر الأنف.. بل أن بعضهم زعم أنه رأى شقّاً دامياً في ساعدها الأيمن. يعني كانت هناك مقاومة، صراع في الطبيعة، كما يقولون.. وهذا كل شيء، والبقية تأتي..

● وأرق الشيخ عبد المنعم في تلك الليلة بسبب زجاجة البيرة التي شربها مع شلّة الخائبين. وكان المسكين لا يقرب الخمرة، فهو يتصوّر أنها لا تختلف عن.. دهن الخروع، وتسبّب إسهالاً، وكل ما في الأمر أن هذا الإسهال هو من الأوهام والفرح الكاذب، والنكات القبيحة، الكلام غير المربوط. ظلّ يتقلّب على فراشه ملولاً يرفع جسمه قليلاً ليسقط على جنبه الآخر، ويسمع فرقعة عظامه الخشنة، ويحسّ بالاختناق. قال لنفسه للمرة المئة: ما الذي ورّطني لأذهب معهم؟ أيّ إبليس جعلني أنساق مع رجاء جاري الطيّب خليل الذي لا يستطيع التخلّي عني، ولا أستطيع التخلّي عنه؟ أم أنني هربت من البيت الفارغ وغياب ست الحسن وأخذها الأطفال معها؟ ولكن كان في إمكاني ركوب الباص، وعبور الشطّ إلى

ذاك الصوب، ورؤية صديقي العجوز عجيل في مقهاه على الشطّ، ومطارحته ذكريات الطفولة، وأيام زمان. ولكنني كنت واهماً من أن سفرة اليوم نفسها تنقلني إلى أيام طفولتي، حين كنت أركض في بساتين الحيّ ألسع قدميّ الحافيتين بأرضها الرمضاء، والشمس تحرق علبائي، والعرق يسيل تحت دشداشتي، يلسع جسمي لسع الزنابير، فألوذ في ماء.. الكرمة الملوّن باللون الذي استقبلتنا به دجلة اليوم، أو أرفع دشداشتي المقلّمة، وأغمس ساقي إلى حدّ الركبتين في ماء الغراف، في صيهوده، حين يصير ساقية بائسة، وتحتلّ مجراه عشرات الحفر، يستقي السقاة منها الماء ليوزّعوه في قربهم السود على البيوت. كنت أتمنّى أن أستنشق هواء البساتين، والهواء المشبع برائحة خضرة حارّة، وأعشاب بريّة مرّة المذاق، وعاقول، وفسائل، وكرب نخيل، ومئات الروائح الأخرى الغريبة على هذه المدينة المتخمة البطرانة.. كنت أتمنى، وأتمنى... ولكنني قضيت ضحاي وظهري مع فتيان خائبين يهذرون ويقصّبون الناس تقصيب جزار ماهر. كنت أنصت إلى هذرهم أو وخز سكاكينهم، وحين أحتجّ، وأعلن عن رأيي بجملة قصيرة يقولون: لافُضَّ فوك. من أين تعلّم ذلك الزنديق هذه الكلمة؟ كلهم يعرفون فضّ البكارة، بالتأكيد. فضّوا بكارتي اليوم. وضحك الشيخ نعمة، وانقلب إلى جنبه في ضيق. فرقعت عظامه. وقال: لا حول ولا قوة إلاّ بالله، سيطلع الصبح، وأنا يقظان. كيف سأذهب إلى الدائرة بوجه متهدّل، وعينين ذابلتين، مفضوض البكارة تماماً. سيقولون: هذه الشيخوخة تطلّ من وجهك كالعنكبوت. الشيخوخة، يا شيخنا، تطل من عينيك، وما حولهما أو خديك وما تحتهما، والحوصلة تحت ذقنك المدوّر، وفمك المكوّر.. طيّب، هذا أنا على الطبيعة. اقبلوني أو اتركوني للكلاب. والشيخوخة ليست مرضاً لأعالجه عند طبيب أو عطّار. والدهر، يا جماعة، خائن قاسٍ لا يرحم. لأنه، والحق يقال، مبتلى بالبشر من كل الأعمار والأصناف. وإذا اهتمّ بالعجائز مثلي، فماذا يتبقّى له من الوقت ليهتمّ بالبراعم الفتيّة مثل عصام وشهاب، ولا أقول رائد وخليل الذي يناطح الكهولة بحيل صدر، أو ربما يتربع على عرشها المائل على صفحة. لكلٍّ دورته كالشمس والقمر. كتتابع الفصول، ومع السلامة، يا دعبول. وسحب الشيخ كفيه من تحت رأسه، ونقر جمجمته بأصبع معكوفة. تردّد النقر كما يتردّد على صفيحة فارغة، وقال الشيخ هذه الجمجمة على وشك أن تفرغ. ولكنه تنبّه إلى أن الدماغ في مؤخّر الرأس، والرأس ثقيل على المخدّة، واطمأن الشيخ نعمة على مستقبله الغريب. غير أن التعب ظلّ طاغياً يفلّ مفاصله، والنوم كالفراشة يحوم حوله، ويرفرف بجناحيه، ولا يطبق على أجفانه. ومع الرفيف تتطاير الأفكار من قحفة الرأس، وكأنها تتطاير من مروحة سقفيّة، وتتابع الصور ولا سيّما النصر، والنوم ينأى وينأى، ويقترب الصبح ويقترب. رفس الشيخ اللحاف، وقعد على فراشه، وحدق في الفانوس الليليّ الصغير الداخن الذي تصرّ زوجته على إشعاله في الليل،

وأشعله هذه الليلة بنفسه لا إرادياً، معلّقاً على الجدار المقابل. حدّق فيه وهمس: جاسوس أنت؟ كنت تراقبنا ونحن نتحاضن في الليل، وما تزال تراقبنا. عيب عليك، عيب. مضى وقت الالعاب الليلية، أو خفت. ولكن بقيت على عادتك. وربما تتابع أفكاري، وأنا وحيد. لا، لن أقوم بمنكر أو مشين. ولا أفكر بافكار شيطانية. كم أودّ لو يأتي الصباح وأتخلص من عينك الصفراء. جاسوسيّتك الحقيرة كم أود. . . لا، لا أود. . أريد أن أنام فقط لا غير. وحط الشيخ عبد المنعم ظهره على الفراش من جديد. وشعر بثقل دماغه مرة أخرى. مملوء هذا الدماغ وليس فارغاً، ولا يهمّه بأيّ شيء مملوء في هذه اللحظة على الأقل. ردّد: أريد أنام، أريد أنام، أريد أنام. ومن جديد وضع باطن كفّه بين الوسادة وصدغه، وأسبل ذراعه الآخرى على طول جنبه، وصك على الأفكار الضاجّة في جمجمته ولا كورة زنابير، وجمد متوتّراً، وانتظر، ولا يعرف كيف جاءه النوم، ولكنه استيقظ حين رأى رفات نور الصباح يتغربل من خلال النافذة المغبرّة إلى يساره، ويرتمي على أرض الغرفة. نهض، وأول ما فعله هو أن أطفأ الفانوس الجاسوس. والظاهر أن هذا الجاسوس هو الآخر تعب من تتبع أفكار عبد المنعم وهواجسه، وأراد أن يستقرّ، وانطفأ من أول نفخة. وبدأ الشيخ يتهيّأ للذهاب إلى الدائرة. استوحش لأنه رأى البيت الصغير أكبر من اللازم، وهو فارغ من ضجيج الأطفال، وحركة سنيّة زوجته، فأسرع ليغادره في أقرب وقت.

في الدائرة طلب عبد المنعم شاياً ونصف صمونة مع شيشين معلاك، وحين كان يلوكها كان ينظر في وجوه الموظّفين الثلاثة الذين يشاركونه المكتب، وكأنه يراهم لأول مرة. وجوه جامدة الأسارير ذابلة العيون، مسحوبة الخدود، كأن أصحابها قضوا ليلة أرقة مثله. أخذ يقلّب الجرائد، ويخطّ بالقلم الأحمر على بعض الإعلانات. ثم قرأ العناوين البارزة، وتثاءب، وأحسّ بثقل في أسفل معدته. وشعر بجفنيه يرتخيان على مقلتيه. أيا لعين يا نوم أما تجيء إلا في هذه الساعة؟ أطبق فمه على تثاؤبة رعناء سرت في ثنايا وجهه كالموجة تماماً. زمّ شفتيه، ولم يتركها تخرج، وتلهى بأن أجال في أرجاء الغرفة عينيه المذرورتين ببرادة الحديد، وحاول أن ينتصر على ذلك الضيف غير المدعوّ، ويغلبه النعاس. فعل ما كان يجد غضاضة في فعله، وهو أن بادر زملاءه بالكلام. رفع رأسه بشيء من التحّدي:

ـ كيف كانت السفرة، يا جماعة؟

رفعت الجماعة إليه عيوناً مشدوهة، وكأنما لم تتوقّع أن ينطق هذا الجماد الذي يشاركهم الحجرة. لوى أحدهم رأسه إلى اليسار، وقال:

ـ لا بعص!

فهم الشيخ الكلمة المحرفة، وحاول أن يستزيد:

ـ يعني تمتّعتم؟

ـ هناك من تمتّعوا، وهناك من جلسوا مغفّلين لا يعرفون ماذا يجري في الأدغال.

ـ وهناك من فاتهم المركب، يا أستاذ عزيز! لا تنس!

وضحك عبد المنعم بدلالة ليعطي لكلامه مغزى. قال عزيز:

ـ لا أظنّهم خسروا كثيراً، إن لم يكن...

قال آخر:

ـ لو كان الشيخ معنا لخطّ عنوان السفرة بالخط العريض... في أحضان الطبيعة...

عجله الثالث:

ـ تعجبني الأحضان... أحضان.

وأدّى بيده حركات انسيابية، وغمز من باب التورية.

هذر الأول:

ـ ولكن للشيخ منعم من قوة الخيال ما يجعله يتصور نفسه في أيّ حضن يشاء حين يغمض عينيه، وحتى دون أن يغمضهما.

ـ يا حضنها الممنوء دفئاً.

ـ وبفضله تفوز إعلاناتنا بخطوط مغرية.

ـ منتجاتنا، والحمد لله، لا تحتاج إلى إعلان...

ـ لا تستهن بعمل الشيخ، يا غزال.. الشيخ وجهنا المنير أمام الجمهور.

خجل الشيخ منعم، فان له رأياً آخر في وجهه. قال في ضيق حقيقي:

ـ أرجوك. كل إنسان يؤدّي عمله ويمشي.

ـ أي نعم، يمشي، ولكن إلى أين؟.. إلى أحد الادغال ويؤدّيه بشكل لذيذ ممتع.

نظر إليهم الشيخ وقال:

ـ عجيبة، يا جماعة.. ما هذه الألغاز؟

ـ إذا عرف السبب بطل العجب.

وتبادلوا النظرات. وبعد ذلك غرقوا في بالوعة صمتهم الجايفة. منشغلين في الأوراق

بين أيديهم. تابع عبد المنعم قص إعلانات الجرائد، وكتب على كل قصاصة اسم الجريدة، ورقم الصفحة، والتاريخ. ودبّس كل إعلان بورقة كتب عليها بخطّه الشاقولي ما يناسب. وبين الحين والآخر كان يتفحّص العناوين التي مشقها بعناية واقتدار دون أن يذيّلها بتوقيعه كما يفعل الخطّاطون الاخرون، محتجّاً بأنه يخطّ عناوين، ولا يرسم صوراً كاركاتورية تستدرّ الضحك. وخلال ذلك كان الباب يفتح، ويَفِدُ على الحجرة موظفون آخرون، وتجتمع رؤوس في إصامة رقى أو شجر أسكلة وأحياناً تتشابك الأيدي فوق الأكتاف. وتجري وشوشة غامضة مغيظة بعيدة عن مدى سمعه، وغالباً ما تنتهي هذه الاجتماعات بجمل قصار تقال ليسمعها الآخرون. «سنرى!» «كان متوقعاً»، «نايم ورجله بالشمس»، «خليهم يتونسون!»، وآخر ما سمعه الشيخ عبد المنعم بوضوح: «هذا جزاء كل من يعصون أمر أمّهم». وكان ذلك قبل انتهاء فترة الدوام بخمس دقائق.

● كان أحمد عناد والد شهاب من أولئك الطموحين الذين وفدوا إلى بغداد أوائل الخمسينات قادمين من البلدات الصغيرة الشبيهة بالقرى جنوباً وشمالاً، وقد ضاقت صدورهم بمجتمعاتها المحصورة، وقلّة موارد الكسب فيها، وعزلتها، وانكشافها الفاضح. وقد نقل أحمد إلى بغداد عاداته القروية ومن بينها التزاور، وجمع المعارف الجدد من خلال هذا التزاور، فكان لا يفوّت فاتحة على متوفى، ولا ختاناً، ولا عودة من حجّ، ولا أية مناسبة تستحقّ أن يخطف رجله، ويذهب ليقول كلمات تحسب له، فيما بعد، في رصيده المفتوح. وإلى جانب ذلك كان أبو شهاب ولوعاً بمعرفة تواريخ العوائل ومصائر أبنائها، وتتبع الأخبار سماعاً أو عن طريق الجرائد. كما أن النخوة صفة متأصّلة في البلدات الريفية فإذا نخّاك ابن بلدتك يصعب عليك أن تردّه أو حتى أن تماطل. ولهذا أصبح أحمد عبد الكريم عناد لولباً متنقلاً بين الكثير من البيوت البغدادية الأصليّة والطارئة. وأخذ شهاب عن أبيه حبّ التعرفّ على المهمّين، أو الأكابر، كما يسمّيهم الحاج أحمد، وكان يعرف عن طريق أبيه أشياء كثيرة قبل وقوعها بفترة تسمح له بالتحرّك، وتلافي غير المرغوب فيه. وقبل يومين من السفرة إلى أم الخنازير دعاه أبوه لحضور عزاء تقيمه عائلة توفّي عميدها العجوز، وكان شهاب مرتبطاً بموعد مهمّ، فاعتذر قائلاً:

ـ أنا لا أعرف العجوز يا أبي، مات وتغمّده الله بفسيح جنانه.

فصاح به أبوه:

ـ لا، لازم تجي. وستجد من يشرّفك التعرّف عليه. أما والله، دماغ يابس. كيف

تخرجت من كلية التجارة، إذا لم يكن لديك حسّ تجاريّ. والدنيا كلّها مصالح؟

ـ الحسّ موجود، يا أبي، ولكن بحدود معقولة.

ـ أقلع عن هذه الحدود المعقولة.. لا توجد حدود معقولة في الدنيا.

ورضخ شهاب، وذهب مع أبيه إلى مجلس الفاتحة. قرأ أبوه الفاتحة بصوته التمثيليّ الخشن، ورفع كثيرون أكفّهم، وقرأوا الفاتحة معه، وعرف شهاب ما تعني هذه الإشارة، واعتزّ بمقام ابيه. ولما شرب القهوة المرّة صارت له الجرأة الكافية ليرسل بصره عبر الصالة المكتظّة بأناس، معظمهم شيوخ أجلاّء بطيئو الحركة، متخمون بالرصانة والوقار، رطاب الأفواه، ذوو سبح متدلّية من معاصمهم. ولكن ظنّه خاب لأنه لم يلمح المدير العام، وكان يجب أن يكون. باغته أبوه بالسؤال:

ـ هل تعرف من يجلس على بعد كرسيين منك؟

التفت شهاب فرأى رجلاً يناطح الخمسين، طويل القامة، جافّ العود، أشيب الفودين، ذا عينين حَرِكتين نفّاذتين، فاستفسر حتى جاء ردّ ابيه:

ـ هو المرشح ليخلف مديركم العام.

انبهر شهاب، وتدوّرت عيناه:

ـ مديرنا راح ينقل؟

همس أبوه:

ـ مصيره غير معروف الآن، ولكن هذا الرجل سيحلّ في مكانه.

كان هذا الرجل يتشاور مع جاره بأبهة وعلوّ مقام، ويرمق الحاضرين بنظرات سريعة أشبه بنظرات معلّم إلى تلاميذه ثم يعود فيميل برأسه إلى محدّثه، ويتهامس. كان أنيق الهندام، عريض الصدر رغم طوله، وجهه الأسمر الملفوح الخشن الملامح ينمّ عن صرامة لا عن وقار. وكانت عيناه الصغيرتان تحتميان تحت حاجبين أسودين كثيفين يبدوان من بعيد مثل ريشتين مخلوعتين من طائر كاسر. وفكر شهاب مع نفسه: «الشيطنة فيه أكثر من اللباقة». يصلح لتبادل الشتائم والعراك أكثر من إدارة مؤسّسة عامة.

وإلى يسار شهاب كان أبوه يقول لجاره:

ـ أستاذ عماد، الذي إلى يميني خادمكم المطيع، ابني شهاب.

دفع الأستاذ عماد رأسه إلى الأمام ليطلّ على شهاب، وانحنى انحناءة خفيفة في اللحظة التي سحب فيها شهاب بصره من المدير العام المرتقب:

ـ حصل الشرف.

فوجىء شهاب، وارتبك، وتمتم:

ـ أنت الأشرف.

وقال الأب:

ـ ابني يعمل في المؤسّسة العامة...

هزّ الأستاذ عماد رأسه برصانة ودراية، وأشار برأسه ناحية الرجل ذي الوجه الملفوح. فهمس الحج أحمد:

ـ هذا ما يشاع.

ـ مؤكد... مؤسّسة محترمة

ـ معروفة لدى الجمهور.

ـ وتحتاج إلى ضبّ أيضاً..

ولوى الأستاذ عماد كفّه المشعرة القوية. فقال الأب:

ـ المبدىء والاخلاق الرفيعة خير الضوابط.

ـ أي نعم...

قل الرجل بسرحان وقلة ثقة. ولكن الأب واصل التبشير:

ـ ابني أحياناً يحدّثني عن أشياء مذهلة.. والمهم التسلّح بالمبادىء والاعتماد على الخلق الرفيع.

بدا الأستاذ عماد غير عابىء بكلام الأب متشككاً بالضوابط التي يقترحها. عافه ومال بجذعة ثانية إلى الأمام، وقال لشهاب بلهجة لم يعرف أهازل مخاطبه أم جادّ:

ـ سمعت أن مؤسّستكم تقوم بسفرات جماعية يشترك فيها الرئيس والمرؤوس.

عَوّل شهاب على حدسه، وقال وهو لا يعرف الأثر الذي سيتركه ردّه:

ـ إشاعة الديمقراطية ضرورية، يا أستاذ عماد. تعرّف الرئيس على مرؤوسه عن قرب، خارج حدود الرسميات والدواوين.

ـ أي نعم، وتحصل عملية تسليم وتسلّم.

تنّبه شهاب إلى مغزى كلام الأستاذ عماد. وقال في نفسه: يبدو أن أبي حسن الأطلاع. لا أظن الأستاذ يلقي الكلام جزافاً. سيجتمع المديران في السفرة المقرّرة، إذن! وخفق قلب

شهاب، وتاه فكره. ولم يعد يعبأ بما دار من حديث هامس بين الأستاذ عماد وأبيه. صار يختلس النظر إلى المرشّح فيكبر هذا في عينيه، ويكتسب في نظره شخصية قوية فيها جسارة تقرب من الوقاحة، وشموخ أشبه بالتسلط. كان صوت المرشّح يعلو أحياناً في جو الفاتحة اهامس، ورأسه الطويل الجبّار يدور يميناً وشمالاً، بلا قيود، وذراعه اليمنى تعلو وتهبط في الهواء وكأنه يقيس نسباً معيّنة، ويجعل المستمع إليه ينود بإذعان. وظلّ شهاب يتأمّل مديره الجديد، حتى انتزعه الأستاذ عماد مرة أخرى من دائرة اهتمامه، حين مال إليه وسأل:

ـ في أي دائرة تشتغل؟

ـ أنا؟ ـ وتلعثم شهاب لأنه أخذ على غرة، وتمتم ـ في التسويق.

ـ أهوه.

وأثارت «اهوه» هذه رعباً غامضاً في نفس شهاب. فقد تصوّر أن الأستاذ عماد يريد أن يقول له: إلى هذا الارتفاع تسلّقت، أو: تجاوزت حدّك، أيّها الشاب، حتى اضطر شهاب أن يردم الهوة المفتوحة أمامه:

ـ كل مواطن يسعى إلى خدمة الدولة من الموقع الذي يحتلّه.

ـ طبيعي.. بلا شكّ..

ـ مهمّتنا إرضاء المواطنين.

ولم يرد عليه الأستاذ عماد، واختفى كلّياً إلى يسار أبيه، ولربما انشغل بداخلين جدد وخارجين. وسرى همس مكبوت، وكأن شخصية مرموقة أخرى أعلن عن قدومها. تطلّع شهاب. الوجوه المتيبسة نفسها، والأيدي تعبث بالسبح، والرؤوس يميل بعضها إلى بعض تتبادل الأسرار، وطلع رأس عماد عن جنب ابيه من جديد، وقال:

ـ أظن أنّ في مؤسستكم مهندساً يسمى «عصام».

ـ أي نعم.. يوجد ـ وفطن شهاب إلى النبرة المجوفة التي استخدمها الأستاذ عماد في النطق باسم عصام، وقال متوجّساً:

ـ هل غشّكم بشيء؟

قال عماد ببطء وارتخاء:

ـ لم يغشّني شخصياً، ولكنه استهان بمستقبل شخص عزيز عليّ.

ـ صحيح؟

وحاول شهاب أن ينفخ وجهه بالاستفظاع والاستنكار.

ـ يفعلها أحياناً. أنا أعرفه.

ـ البنت مثقفة وعاقلة مؤدّبة، وهو الذي هام بها حبّاً، ونظم الأشعار في حقّها.

بادره شهاب بفطنة وذكاء، وزال الانتفاخ من وجهه:

ـ يعني عصام نسيبك... السابق؟

وأحسّ شهاب بأنه تورّط في الكلمة الأخيرة. ولكن محدّثه لم يفطن إليها كما يبدو.

ـ من بعيد... لبعيد.

ولولا جوّ مجلس الفاتحة الوقور لابتسم شهاب في رضى، وداوى جرح الأستاذ عماد بكلمات جارحة لعصام. وشعر شهاب بالغلبة وازدياد الوزن. وعلى العموم أثنى على أبيه في سرّه، لأنه حثّه على المجيء إلى مجلس حافل بما يملأ النفس بالثقة، ويفتح أمامها آفاقاً جديدة، ودهاليز لم تكتشف بعد في سرداب العلاقات الشخصية المكتنزة بالمفاجآت. تعرّف على شخصيات معتبرة، من تلك التي قفزت من جوف المجتمع، وطلعت إلى الأحياء الجديدة طامرة روائح ماضيها العفن وحلل ارزدوباكية. من بين هؤلاء مقاول خشن الوجه والصوت ثقيل النظارة طلب منه أن يدله على رسّام يرسم صورة لابنته، فقال له: يجري لك. وقال لنفسه: ثلاثون أو عشرون ديناراً لخليل ليست زائدة.. كم زجاجة بيرة يمكن أن يشتري بها. وأهم من هذا وذاك أنه تهيأ نفسياً للقاء المديرين القديم والجديد في سفرة أم الخنازير، واطمأن قلبه.

وكان شهاب من بين الموظّفين الكبار الذين لا يحملون لقب مهندس في تلك المؤسسة المفترض فيها أن تستند على مهندسين. وكان، وهو خرّيج التجارة، يضمر خوفاً متأصلاً من المهندسين، حتى ولو كان في الميكانيك أو الآبار الارتوازية، فكان دائم الاحساس بتخلخل منصبه ـ ويحاول أن يداري ذلك بمختلف الوسائل المانعة للطرد أو الإقصاء. ولهذا السبب بالذات أبعد صديق طفولته عصاماً لأنه يحمل لقب مهندس، وأبعد رائداً رئيس قسم الإعلام لأن ماضيه أحمر يثير له المشاكل، وأبعد الرسام خوفاً من أن يفشي السرّ لعصام أو لغيره، وأبعد الشيخ عبد المنعم لأنه جار الرسام، ولأنه أثر قديم لماضٍ يُطوى صفحته، بينما عبد المنعم يصرّ على الاحتفاظ به، ويتباهى بصورة قديمة تصوّره بالفترة والعقال، منذ أن كان في الكوت. وبسببها أُلصق لقب الشيخ بالرجل القصير القوائم.

● ولكن عطا الموظف البسيط لدى رائد الغليظ عرف الموعد الصحيح من شروق،

وهي موظّفة صغيرة صديقة لأخته عطية، كانت مغرمة به إلى حدّ يثير الاستغراب. فذهب وفي اليوم التالي وجد محاسبة صارمة من جانب رئيسه رائد الذي كان قد سمع بقصة الاغتصاب، وسُرّ بها، ووجدها فرصة لا تفوّت لاعتصار عطا الكسلان الصموت، والتحقيق معه، ونصب مجلس زبانية له. كان هذا جالساً وراء مكتبه متكوّراً مختلج الخدّ، يرفّ جفنه الأيمن بعصبيّة، ويزيغ ببصره فلا يعرف أين يوجّهه، وتضيق أنفاسه حتى يكاد يختنق، ولا يجد أيّة رغبة ولا حتى أدنى قوة لأن يتكلّم، فكان يردّد بتقطع:

ـ ما أعرف.. سمعت.. لا تورّطني.

ـ لا أورّطك، يا جبان؟

ـ مشاكلي قليلة؟

ـ أنا الذي سجّلتك في السفرة، ولا تخبرني؟

سكت عطا، فكرّر رائد:

ـ لماذا لم تخبرني، لماذا؟. انطق، يا لئيم.

بعد ثوان صمت:

ـ ما أعرف.

ـ ستعرف مني... انتظر. هل من المعقول أنك قضيت السفرة كلّها تنظر إلى نار سمك المسكوف الخامدة؟

لا جواب. لبطت كفّ رخوة منفوخة على الطاولة، قال رائد:

ـ تستحقّ كفّك هذه أن تُشوى بدلاً من السمكة التي أكلتها.

سحب عطا كفّه غريزياً من على سطح المكتب. وأدار وجهه ببطء باتجاه الشارع، حيث رأى منارة فتأمّلها، وكأنما يراها لأول مرة. اغتاظ رائد:

ـ وماذا لاحظت بعد؟

سحب عطا بصره من الشارع، وأداره إلى الاتجاه الآخر مروراً بوجه رائد المتورّم.

ـ ماكو شيء؟

ـ مكو شيء، والناس كلها تتهامس حولك؟

صمت أخرس، ألحّ رائد بصوته المتضخم:

ـ رأيت جابر الساقط يراقبها. ها؟

سكوت.

ـ وكانت عيناه حمراوين كالعادة، ها؟

سكوت

ـ كان يحوم حولها. ولم يسقط.

سكوت

ـ يعني لم يكمل الربعيّة حينذاك. أجبني، لماذا أنت ساكت؟
ـ هذا طبيعي.
ـ طبعك أن تخفي عني، أنا رئيسك؟ سأسحب البساط من تحت قدميك.

هرب عطا بنظره إلى الجهة الأخرى فقابلته المنارة من جديد. أيقن رائد أنه منفعل، من تلك الرقّة العصبيّة[1] من جفنه الأيمن، وقال رائد: سأنتزع منه كل شيء، وإذا اقتضت الحاجة سأملي عليه ما أريد أن يقوله. هذا جبان، خائف، عجينة، يمكن أن يُصاغ منها كلّ شيء. ونظر إلى وجه عطا اللّين المنتفخ، الخالي من الدم، عجينة حقاً. شفتاه ذابلتان، وأنفه عرق. ومجمل تقاطيع وجهه تدلّ على جهد متعب غير اعتيادي يبذله إنسان لم يتعوّد أو لا يعرف كيف يعبّر بلسانه عمّا يعتمل في داخله خوفاً أو جبناً، أو الاثنين معاً. فبدأ رائد معه بداية جديدة:

ـ طيّب، لا علينا، قلت إنك رأيت شعرها منفوشاً.

نظر عطا إليه نظرة قصيرة مندهشة، وغمغم:

ـ أنا لم أقل هذا..
ـ قبل دقائق قلت لي.. لا تنكر. سأسحب البساط من تحت قدميك.

سكوت.

ـ كان شعرها منفوشاً، إذن؟

بذل عطا جهداً مضنياً ليقول:

ـ الجميع شعرهم منفوش.

عاجله رائد، وقد خرج من مكتبه:

ـ إلّا شعرك فلن ينفش، ولو استلقيت على ظهرك اليوم بطولة.

تلمّس عطا شعره بحركة لاإرادية، وتشنّج صدره.

ـ سأترك الدائرة..

ضحك رائد ساخراً:

ـ أخفتني. سأسجّل عليك غياباً ـ وسكت، واحتوى وجه عطا بنظرة متعطّشة إلى ما يجب أن يؤكده بشهادة حق أم زور، وتابع يقول ـ لا تبخل عليّ بالأخبار، يا شحيح. سأعرفها بدونك.

ـ تفضّل، بس آني ما عليّ.

ـ ما عليك.. طيّب، لما جاءك شاكر وقال لك: على بعد عشرين متراً تجري لعبة ممتعة ترتفع فيها الثياب عن الأفخاذ.

ـ كانوا يلعبون الطائرة..

ورفع عطا قُمْع يده إلى فوق.

ـ كذّاب أشر، متواطىء، بالع قاذورات.

وبدأ رائد ينسج من عنده، على ما خمّنه ووجد له أساساً.

ـ طبعاً ستنكر أنك رأيت ثوبها الأحمر يلمع بين الشجيرات..

ـ أنا؟!

ـ أنكر، أنكر.. طبعاً ستنكر، أنك رأيتها تنفض التراب عن عجيزتها وتسوّي شعرها الأشقر..

أدار عطا رأسه مرّتين، وتمتم:

ـ فظيع..

ـ طبعاً، فظيع.. ولكنها فظاعة اعتيادية، تحدث مع أشخاص مؤهّلين لارتكاب الفظائع..

توسّل عطا، ورفّ جفنه الأيمن رفّة عصفور أمسكته يد ظالمة من رجليه.

ـ استر عليّ.

ـ أين كنت في تلك الساعة؟

ـ جالساً قرب شروق.

ـ ورأيتها تخرج من وراء الشجيرات؟

ـ لم أر شيئاً بحياتي.

ـ حياتك.. حياتك الرخيصة.. كنت جالساً مع المَدْخنَة.. ولكن عينيك كانتا تريان

كل شيء.. المشهد بكامله وراء الأشجار.. سأجعل الدائرة كلها تعرف على لسانك، عقدة الأسرار.

وشعر عطا بالعجز، العجز الخائر المستسلم الشبيه بالغيبوبة وانطوى ملتفّاً بصمته، وأرخى ذراعيه تحت الطاولة. وهوّم في خياله إلى هناك، فلم يجد غير نفسه جالساً قرب شروق، وشروق تكاد تلتصق به، وتضعه بين نارين: نار السمك الخامدة، ونار جسدها الصيفيّة الحادّة، وركبتها المتوتّرة القريبة منه، الشبيهة بكمثرى لامعة، كانت تجعل نظراته تطيش، وتتذبذب بينها وبين الدغل المقابل، حيث رأى سهام تخرج بفستانها الأحمر، محمرّة يسمع وجهها بالعرق، وتقدح عيناها بشرر فتبدو مثل بؤرتين للشمس منعكستين على بلورتين. وهذا كل ما يعرفه. ولكن رئيسه ألحّ، فصاح بانتفاضة غريبة عليه:

ـ ماذا تريد مني؟

اجاب رائد ماطاً الألف:

ـ أخبار.

ـ عفت كلّ الناس، وجئت عليّ؟ عندك مصادر كثيرة.

وكانت هذه أطول جملة استطاع عطا أن يتفوّه بها، فقال رائد متشجعاً:

ـ يعجبني تعدّد المصادر، مثلما تعجبني زيادة الفضائح.

وكان يتلذّذ فعلاً بإثارة الزوابع. كان من أولئك الذين يعشقون سماع أخبار السقوطات ويبنون عليها نظريات وقناعات مهدّئة لأنفسهم المضطربة. كان يحبّ تعقّب الخيوط الدقيقة التي قد تؤدّي إلى اكتشاف قباحات الآخرين الخفيّة، علائم سقوطهم التي يحاولون التستّر عليها باختلاق العفّة والاستقامة، ونقاء السريرة، وصفاء الماضي والحاضر، وكان ذلك يرضي هوىً دفيناً في نفسه لتعرية الناس، وإنزال أحكامه الصارمة عليهم. وقد كتب ريبورتاجات صاخبة مليئة بالكلمات المجنّحة، والتعابير الكثيرة الدلالات. وكان يعتقد أنه يعرف أشياء كثيرة عن الآخرين ـ لا سيما عن ضعف معيّن فيهم، سيأتي يوم يُعرّيهم ويكشفهم للصحافة. وكان يعجبه أن يسمى نفسه «أرشيفاً» حيّاً متنقّلاً يختزن في ذاكرته فضائح تزكم الأنوف حتى تلك المحصّنة من الزكام، وقد وجد فيما تناقلته بعض الألسن عن فضيحة أخلاقية مزعومة، حدثت في تلك السفرة التي تغيّب عنها، مناسبة لإمداد خزان أرشيفه العامر، بأشياء تنفع في اليوم الذي يكشف فيه الحساب، وتحل الدينونة.

نظر مرة أخرى إلى مصدر الخبر، فرآه متكوّراً على نفسه، أصمّ كحجر مهمل لا تنفع فيه مخارز لسانه الحادّة، وآخر ما قاله له، حين غادر المكتب:

ـ أنا المذنب. كان عليّ أن أبقيك تحت. . ولكن لا يهمّ. ستنفعني فيما بعد.

وطبطب على كتفه اللدنة، وخرج. كان النهار في الشارع ينسج غزوله الخرافية في لحمة من الغبار القمحي. وكانت روائح المدينة العجوز تتصاعد من جسدها المتخم بحلى حضارة هجينة، لتخفي ظلال الماضي الرثة. وكانت السيارات العابرة للشوارع العريضة، والباصات المزركشة بألوان أفريقية ومرايا ومخرّمات تفعم النفس بشعور الضآلة وانعدام الأمان. وكانت المحلات الانيقة المطلّة على أرصفة مخلوعة البلاطات، متعرّجة تشي بترف شكلي مستورد مبرقع بطبقة غبار دسمة من صنع محلّي.

دخل رائد أحد هذه المحلات، فوقف له صبي في بنطلون عريض، وثوب ناحل ضيّق، وأدى له تحيّة استعظام. كان اسمه احسان، ولكن رائداً سأله:

ـ أين استاذك، يا حصان؟

ـ ذهب لشركة التأمين.

جلس رائد على مقعد جلدي أسود، وأدار التلفون نحوه، وأومأ للصبي بأن يفتح القفل المدلّى عليه كقرط. استجاب الصبيّ مكرهاً، وأدار رائد الرقم، وعندما كفّ رنين التلفون قال:

ـ كنت أعرف أين أجدك، ما دمت خارج المؤسّسة.

ـ . . .

ـ أعرف، ولكن أعتب عليك لا كرئيسي، بل كشخص يأتمنني على بعض أسراره. . ماذا تسمّي هذا الائتمان؟

ـ . . .

ـ وأنت البارحة برهنت على قلّتهم، في ساعة الجدّ. .

ـ . . .

ـ لا تحلف بمقدساتك. . أنا لا أحاسبك. . ولكنني محصور كلام.

ـ . . .

ـ حاولت أن أستفسر منه عما وقع البارحة، لكنه أكثر خرساً من الحجارة. .

ـ . . .

ـ أترضيني بذلك؟

ـ . . .

ـ انت تعرف أنني دائم الاستعداد للموبقات. .

ـ . . .

ـ ديك هذه المرة؟. ستكون سهرة صاحبة إذن..

ـ . . .

ـ يا لعذوبة لسانك!..

ـ . . .

ـ قلمي طوع بنانك.. وليس هو وحده.

وضحك رائد رافعاً قدميه الاثنتين عن الأرض هابطاً بهما بعنف مع انحناءة من جسمه تزيد العنف قوة.. وقال:

ـ اتفقنا.. ولكن ألا نتقابل حتى ذلك اليوم؟

ـ . . .

ووضع رائد السماعة، وتشنّج وجهه ذو الحمرة المغبّرة بدبابيس ابتسامة لم تتلاش إلا بعد إخراج المنديل من جيبه ومسحها من فمه. وعندها قال للصبي:

ـ أغلق التلفون، يا حصان

● وكانت عائلة عبد الغني، والد عصام، قد انحدرت من البلدة نفسها التي انحدرت منها عائلة أحمد، ولكن «عصام» جاء إلى بغداد طفلاً في الثالثة، وإن ظل يقضي بعض فترات طفولته في بلدته الأصليّة عند جده، ولهذا يعتبر نفسه بغدادياً، كما أن عبد الغني النجي يختلف عن أحمد عبد الكريم في نشأته وتربيته وخلقه. فقد كان أبوه عالم دين، ورعا متصلّباً، أخضع أولاده الكثار وابنتيه الوحيدتين إلى تربية صارمة، وخشوع وهلع من مغريات الشيطن الذي يترصّد الانسان الضعيف الإرادة في كل منعطف، ويطلّ عليه بغواياته حتى داخل نفسه «الأمّارة بالسوء». وكانت كلمة «حرام» تتردّد على شفتيه كما تتردّد الاستعاذة من الشيطان، واستغفار الرحمن، وقد تعلّم عبد الغني من حكم أبيه الشيء الكثير، وإن لم يقسر أولاده على التمسّك بها، والمرور بما عاناه هو نفسه في طفولته وشبابه. ولكنه مع تقدّم السنّ صار يؤمن بان تلك التربية القاسية لم تكن تخلو من منافع، وكان يرسل الحسرات على أيّام زمان، حين يرى شباب اليوم، وأولاده منهم، يصغون إلى كلامه بخشوع ظاهريّ، ويخالفونه حالما يغفل عنهم.

غادر عصام الدائرة مهموماً، فان السفرة وتغيّبه عنها، والفضيحة التي أخذ الموظّفون يتهامسون بها، ولا يشركونه فيها يعرفونه أشعرته بهزال مركزه في المؤسسة، وسهولة التخلّي والاستغناء

عنه بدون رفّة ندم، ولا إبـداء أسباب. حتى بـدت السنوات التي قضـاها بتعب للحصـول على لقب مهندس لا تناسب الجهد المبذول، ولا الثمن المدفوع أكثره سلفاً، مع فوائد فاحشة يدفعها عـلى المتبقّي منه ربما حتى آخر العمر.

كان من عادته، ولفراغ نفسه من كل شوق أو ارتباط، أن يركب سيارته الموسكـوفيتش الهرمة بعد الدوام، ويتوجّه إلى أحد البارات، ليملأ خواء نفسه بزجاجة بـيرة، ويتصالح مع هواجس نفسه إلى حين. ولكنه اليوم تصوّر أن هذه البيرة ستضخّم هذه الهواجس، وتحفـر له بئر السقوط في الظنون، مثلما فعلت في ضحى ذلـك المنحوس، ففضـل أن يذهب إلى البيت رأساً، ويستغني عن زجاجة الغداء الخاطفة، وفي المساء سيعمر كـأسه في البيت، عـلى العادة التي تكونت لديه في الأشهر الأخيرة.

وفي البيت رأى أباه.

كان عبد الغني قليل التردّد على بيت ابنه، منذ طلاقه المفاجىء وهروبه خزيان إلى انجلترا لينال لقب مهنـدس. ولكن الأب كان يحبّ أختـه الكبرى، عمـة عصام، ويتحـيّن فرصـة غيـاب عصام في الدائرة ليزورها ويتناول شـايها العـطر أو يتذوق شيئـاً من طعامهـا. وفوجىء الأب بمجيء ابنه قبل الوقت المعتاد، ولكن المفاجأة لم تترك أي ظلّ على تلك الأسارير الرصينة التي تضيء من الداخل، دون أن يؤثر فيها الظرف المباغت.

ـ أهلاً، ياب!

ـ هلا بابني.

ونـزل عصام عـلى رأس ابيه، وطبـع قبلة وحشة وحبّ صـادق على خـدّه الأشيب غير الحليق (تسـاءل عصام مـع نفسه أمـا يزال أبي يحلق وجهـه كل يومين؟) كـان الخـدّ يفــوح برائحة مألوفة لعصام، رائحة ماض مشى كثيراً في أزقّته، وتوقّف حائراً في مفترقاتها يتـطلّع في سرّه إلى كلمة تنجيه من عذاب التردّد فلا يرى إلا أباه، صاحب الكلمـة الفصل، وصنـدوق الأسرار:

ـ استرح!

قال الأب غير مرحّب كثيراً، ولا متضايق من المفاجأة، قال بتلك اللهجة الحياديّـة التي يحسن بها استدراج الآخرين لإرادته، ويضعهم في كماشة الانتظار، حتى يقول كلمته الأخرى المؤثرة. وقد قالها الآن أيضاً:

ـ يبدو عليك التعب.

وبهذا السؤال المألوف المتكرّر على مدى العمر كله، والعائد إلى أيام الطفولة، ربما، ربط الأب الماضي بالحاضر في لحظة من الأبوة قويّة الأسر، تشلّ الإرادة. أجاب عصام منساقاً بشعور فطريّ قديم في الاعتراف بشيء من الضعف إزاء جبروت صاحَبَهُ منذ الصغر:

ـ لم أنم البارحة.

ـ مشكلة تقلقك؟

سؤال متعب آخر أعانته عمّته على الردّ عليه بجوابها السطحيّ:

ـ يوم الجمعة نكتوا به، وذهبوا إلى أمّ الخنازير بدونه. ضحك عليه شهاب بن عناد.

ـ صديقك القديم؟

رفع عصام رأسه إلى فوق اعتراضاً:

ـ وهل في الدنيا أصدقاء؟

ـ ليست الدنيا إلى هذا الحد. ولكن هناك أوقاتاً لا ينفع فيها أصدقاء. الاعتماد على النفس أولاً.

وجد عصام نفسه يقول:

ـ يمكن.

ـ لا، هذا صحيح مئة بالمئة.

قال الأب بتلك القطيعة الحادّة كالشفرة، اضطر عصام إزاءها أن يتراجع:

ـ صحيح.

ومضى الأب يسترسل بمواعظه:

ـ ولكن الاعتماد على النفس لا يأتي بسهولة. وأن تقسو على نفسك أروح بكثير وأنفع من أن يقسو الآخرون عليك. لأنّ قسوة الآخرين لا تنفع دائماً، بينما قسوتك على نفسك تشعر بنفعها رأساً. نعيمة. أنت تعرفين، كما كان المرحوم أبونا قاسياً علينا.

صادقت الأخت على كلام أخيها بهزّة من رأسها المعصوب بمنديل أبيض يبرز من تحته فودان أبيضان بلون المنديل، فمال الأب نحوها:

ـ انتما، الاختين، لم يتحارش بكما. كان له رأيه الخاص بالنساء، ولكن، نحن الأخوة الخمسة، لم يكن يعاملنا كأسنان المشط، ولم يوزّع قسوته علينا بالتساوي.

وابتسم عبد الغني لرجع الذكرى، وأشرق وجهه النحيل، والتمعت عيناه التماعاً رمادياً. قالت العمّة:

ـ كان والدنا المرحوم يريد أن يربّي أولاده على شكله.

ـ ولم ينجح. لأن الطبع يختلف عن التطبّع، والقسوة لا تصنع طبعاً. أنا أيضاً أجبرني على دخول المدرسة الدينية، مثل بقية إخوتي، ولكن كنت أداري أبي، وأخالف طبعي. والوقوف ضد إرادة الأب في ذلك الزمان كفر وزندقة. وليس كما هو الآن. ضغطت على نفسي، وصرت أحشو رأسي بأحكام الشريعة، وأحفظ الشواهد. حتى أحسست بأنني أختنق، لم أعد أتحمّل.. وخرجت على طاعة أبي مكرهاً، وحرمت من هباته. وكان يوزّعها على قدر ما نبدي من ورع وتقوى. وكان عمّك عبد الرزاق يتظاهر بالورع، ويشرب الخمرة سراً. وحين كان جدّك مقعداً في آخر أيامه، كان يقرأ الصلوات في الحجرة المجاورة بصوت عال، وهو سكران مستلقٍ على ظهره في سريره ليسمعه أبي، ويخرج الكيس من تحت مخدته ويهبه ويسخو عليه.

وعادت الإشراقة إلى وجه عبد الغني، ربما من إطلالة ذكرى أخرى، ولكن هذه الإشراقة ما لبثت أن اختفت لتعود الرصانة المستنكرة، حين يجابه موقفاً. وأرسل زفرة خفيفة تلاشت بسرعة. مجرّد أن صدره النحيل ارتفع قليلاً ثم هبط، وسكت. وربض صمت ثقيل. وكانت العمة قد اختفت في المطبخ، وعادت الآن تحمل صينية فيها كعك، وأقداح شاي. نهض عصام ليخرج من حالة التخشّب، وتناول الصينية من يدها. وتناول الأب قدحاً، وتابع سلسلة أفكاره:

ـ قصدي، الاعتماد على النفس أولاً، وبعد ذلك يأتي الوالدان والأقارب والأصدقاء. لأن الإنسان يجب أن يتحمّل نتائج أعماله.

اضطرب القدح في يدي عصام، فنكس رأسه، والتفت أبوه إليه. وقال:

ـ هل تأذّيت من كلامي؟

ـ لا، القسوة تنفع أحياناً. اقسُ، يا أبي، اقسُ.

وكان صادقاً في كلامه هذه المرة، لأن الضيق بالنفس، ـ وعصام ضيّق بنفسه الآن ـ يجعل لوم الأحباب حلواً ومستساغاً، يبثّ الشجاعة في القلب، ولكن الأب عاد إلى دقّته الخانقة مرة أخرى، حين قال:

ـ لا، يا عصام، هناك فرق بين القسوة والحرص. أنا حريص دائماً.. كنت أحرص عليك حين اعترضت على طلاقك من لميس..

ـ أوه، يا أبي!

ـ وكنت أحرص حين اعترضت على تخلّيك عن ابنك هاني لها. . قلت كلمتي، وتركت لك حرية التصرّف.

قال عصام بصوت متخاذل مكتوم:

ـ أنا أعرف أن حديثك سينتهي إلى هذه الدمّلة. .

ـ لا يحتاج المرء إلى ذكاء كبير ليفهم ذلك. وأنت إنسان ذكيّ، على ما اعتقد، وليس مثل صاحبك الذي خدعك. .

وطلب عبد الغني من أخته أن تصبّ له قدح شاي آخر، وقال حينَ انصرفت إلى المطبخ:

ـ قبل أسبوعين التقيت بأحمد عناد في سوق الشورجة. نحن نادراً ما نلتقي الآن. عاتبني على ما يسمّيه جفاء الأصدقاء القدامى. قلت هذه هي الدنيا، كل إنسان مشغول بأمور دنياه. هناك من ولدوا وتربّوا في بيت واحد، واختلفت بهم السبل. واحد شرَّق وواحد غرّب، واحد صعد، وواحد نزل أو قُيِّد في مكانه. ردَّ عليّ: أشمّ من كلامك رائحة عتاب. قلت: لا، أبداً. أنت لا تضع قدمك في سوق الشورجة، وأنا لا اخرج منه، ولا اسعى إلى مقاولة. ضحك وقال: ولكن ولدينا يشتغلان في مؤسسة واحدة: قلت أي، نعم، شهاب في صعود، وعصام يراوح في مكانه، وكأنما لم يتعذّب ويتعب وينَلْ شهادة مهندس. قال وكأنه يخفّف عنّي: وهل تتصوّر صعود شهاب راجعاً إلى ذكائه؟ شهاب غبيّ، مطيّ، ما عنده دماغ. أنا الذي أدفعه. قلت: أنا لا أحب أن أضع أولادي في عربانة، وأجرّها. إذا كانت لهم القدرة على الصعود، فليصعدوا، وإلا فليبقوا في المكان الذي يرتضونه لأنفسهم.

وسكت عصام مأزوماً. وقال لنفسه: هذه نقطة أخرى يسجلّها أبي عليَّ. سواء أكان حرصاً أو قسوة، فانه يراقب خطواتي، ويسحبني في تصوّراته الخاصة عن الآباء والأبناء. وكان بودّ عصام أن يقول: وهل تحسبني أرتضي لنفسي هذه الوظيفة المهينة؟ ولكنه قال بصوت مسموع:

ـ لا أستطيع أن أفعل ما يفعله شهاب.

فعاجله الأب:

ـ ولا أريدك أن تفعل.

ونهض، بعد أن أتمّ شرب قدحه، وقال:

ـ نعيمة. أنا طالع. عندك العافية.

ونهض عصام، وأوصل أباه إلى الباب، فقال الأب:

ـ مع السلامة، عصام..

ـ مع السلامة، ياب!..

وعندما خلا البيت من وهج الأبوّة الحميم أحسّ عصام بوحشة ولوعة وحنين غفل. كلمات أبيه نبشت تاريخاً مبتوراً مقبوراً وأيقظت في نفسه لواعج وأحاسيس غير مريحة سلبته نوم القيلولة. لبس من جديد، وخرج في سيارته إلى شوارع بغداد متجهاً إلى بيت لحديقته الصغيرة بابٌ أخضر. أوقف سيارته في الجانب الآخر من الشارع، وزمَّر على عادته، منتظراً خروج هاني، مرتفقاً مقود السيّارة. ولكن انتظاره طال، فزمَّر ثانية، وفي جو الظهيرة الهاجع بدا الصوت نابياً متطفلاً. تحمَّل وقدة الشمس دقائق أخرى، شاعراً بالحرارة تلهب جسده، حتى شعر بالضيق والاختناق وأوشك أن يفتح الباب، وهي علامة فاضحة على الامتهان وذلّ الانتظار، حين طلعت صبية صغيرة، هي ابنة أخت لميس، وأبلغته بصوت متلعثم خجول أن هاني مريض، وأمه لا تقبل أن يخرج في حرارة الظهر. رمق الطفلة، وهي تعبث بأنامل يديها وتنكس رأسها خجلة من أن ترفع بصرها إليه. عبث بشعرها، وقال بصوت مخنوق: عنده العافية، سلِّمي عليه. وعندما أدار المحرك انطلق بالسيارة باقصى ما يستطيع من السرعة ليغيب بأقرب وقت عن هذا الشارع المغلق عليه، ولم يتوقّف إلا عند مقهى صيفي ملون بصفائح بلاستيك صقيلة كان يأخذ هاني إليه، ويقدّم له ما يشتهي كل طفل. ركن السيارة إلى جانب ترعة جافة، ودخل المقهى، فاستقبله النادل الاصلع بابتسامة عريضة كدرة مثل لون قميصه، وشعر بأنه ينظر إلى خلفه متوقّعاً أن يرى الطفل. ولم يقل عصام له شيئاً يخيب فيه ظنّه، وجلس قرب نافورة صغيرة تعوّد الجلوس قربها مع ابنه ليتفرّج الطفل على أسماكها الصغيرة الشبيهة بالديدان تسبح بخفّة مذعورة. طلب فنجان قهوة، وماء مثلجاً، واتكأ على حافة الكرسي، ينظر إلى النافورة التي بدت مهملة متربة ومجمعاً للنفايات، وتصوّر أنها لم تكن بهذه الحال قبل أسبوع فقط، حين جاء إليها مع هاني، وصار الطفل يرمي فتات الخبز الصغير للسمك المرح المرحّب بمقدمه. وفكّر في مرض ابنه المفاجىء. في صبيحة الجمعة الماضية جاء إليه قاطعاً مسافة طويلة، لأن أباه تأخّر عنه، فسقط طريح الفراش، من التعب ربما ومن خيبة الأمل، وخذلان أبيه له، ونسيانه للموعد المتّفق عليه وحتى لتركه أسبوعيته، عند عمته. بينما كان الأب يركض وراء أمل سرابيّ، ومتعة

رخيصة، ولم يخطر ابنه على باله، ولولا عمّته وتذكّر الوالد له، لما ذهب اليوم، ولانقضى أسبوع آخر دون أن يفكّر فيه، أو يشعر بفقده. فيا لهشاشة هذه الأبوة، وهوان النفس المخذولة. لم يطلع لي أحد من كبارهم، واكتفوا بإرسال طفلة تقضم أظافرها، وتستحي من النظر في وجهي. وتحيّرت أنا لا أعرف ماذا أقول. أمامي جدار لا أستطيع تجاوزه، وبيت محرّم عليّ دخوله، تسكنه امرأة تغزّلت بها، ونلت منها وطراً. ونبذتها فجأة لألحق شهادة حسبتها ستجعلني أحتلّ الموقع الذي أبتغيه وارتضيه لنفسي. ولكن جهودي الدراسية لم تنفع شيئاً، و «حُجِّمت» الشهادة بالطريقة المنكرة الشائعة، وتغلبت عليها اعتبارات متوارثة من عهود سحيقة تحابي الجاهل على حساب المجد العليم. أوه... أليس أبي محقاً في لومه وتعنيفه؟ خسرت كثيراً، ولم أكسب شيئاً. وها أنا موظف صغير في قسم المتابعة ليس له أية ثقة بمستقبله، ولا قدرة على الحركة، مسيّر لا مخيّر، وتابع لا متبوع. خفت من تحمل مسؤولية ابني. وها أنا أخاف من تحمل مسؤولية نفسي، أعطي قيادي للآخرين.. وألقي اللوم على غيري... بينما الإنسان، مثلما قال أبي، يجب أن يتحّمل نتائج عمله.. ولا بد أن يتحمّلها.. وها أنا أتحمّلها وحدة قاتلة، وانسحاقاً، وعذاب ضمير.

● هذه هي السوق الحرة، وجسر الجمهورية على بعد أمتار، وموقف السيارات إلى اليسار. وبحث رائد ببصره في كل السيارات المرصوفة هناك. لم يجد سيارة شهاب.. «الرينو» بينها. السوق مزدحمة في الداخل. الناس يخرجون بعلب المسجّلات، والترانزستورات، والسكائر الأجنبية، والعطور، وأشياء أخرى. ولا أثر لشهاب. وقف رائد ينتظر. كن يتوقع أن يخرج له شهاب، ووراءه من يحمل مشترياته. ولكن ربع ساعة انقضى، ولا ظلّ لشهاب، ولا لسيارته. شعر رائد بجفاف في حلقه من الغبار المخلوط بمحروقات السيارات. دنا من دكان صغير بعد السوق مباشرة، وطلب «سيفن»، وما إن رفع القنينة الصغيرة إلى شفته حتى لمح السيارة البيضاء تقف على بعد أمتار منه. عبّ جرعتين كبيرتين، وهرع إلى السيارة، وحين فتح الباب، ودخل قال بزعل مصطنع:

- يعني لازم أنتظرك، يا مولاي؟

ضحك شهاب بخلو بال:

- أشغال، أشغال.

استقرّ رائد في السيارة، وقال:

ـ لا! يبدو أنك تغيّرت عليَّ.
ـ لا، بمقدساتي.
ـ صرت تتهرّب مني، وتخدعني.
ـ تقصد السفرة؟ قلت لك: أنا أيضاً خدعت.
ـ وغير ذلك.

ملأ شهاب صدره النحيل بالهواء، وقال بهمة:

ـ لو تغيّرت عليك لما اخذتك معي اليوم إلى مجلس حافل. سترى فيه وجوه بغداد الطالعة.

استدار شهاب بالسيارة، وقطع ساحة التحرير حتى ركنها إلى رصيف زقاق، وقال لحظة واللحظة استمرّت عشر دقائق، وبعد ذلك توقّف في ساحة السعدون، وطلب لحظة أخرى استطلت إلى ربع ساعة، ثم عند قهوة زناد. وبعدها كفّ رائد عن عدِّ اللحظات التي راح يطلبها، إلى أن قال بعد أن جلس وراء المقود:

ـ الآن أنا حرّ. تحت تصرّفك.

استخفّ رائد الطرب، وقال:

ـ طيّب، لنجعل التصرّف متبادلاً.
ـ اتّفقنا.
ـ التبادل نافع في كلّ شيء، على طريقة البرجوازيين.
ـ وعلى طريقة البروليتاريين أيضاً.. أنت أعلم بهم!
ـ لا تنغز!

وحاول أن يقرصه.

ـ طيّب.. دعني اليوم أفرجك على البرجوازية التي كنت تدينها. البرجوازيون الصغار تحوّلوا إلى فيلة.

ـ أحسن من تحوّل الناس إلى قردة.
ـ سترى اليوم الأفيال والقردة وغيرهم.

ضحك رائد بنشوة، وقال:

ـ ما يعجبني فيك دائماً أنك تدعوني إلى خوض التجربة اللذيذة، قبل أن أتحوّل إلى عظام نخرة.

ـ لا تخف، ليس بتلك البساطة. عظامك خشنة.

حاول رائد أن يردّ، ولكنه رأى دجلة إلى يمينه. ذكّرته يوم رآها في تلك الجمعة الحزينة، فعدل ردّه إلى:

ـ هناك لحظات تذيب الشحم، وتعرق العظم.. في الصباح الذي كنتم فيه بين أحضان الطبيعة كنّا نحرق أعصابنا في بار حقير.

ـ في بار المفلسين هناك؟

ـ نعم، في البرج الفضيّ، وقصّبناكم تقصيباً.

ـ ليش، يا ظالمون؟

ـ لانكم اغتصبتم السفرة منا.

ـ حرام عليكم.

ـ بالمناسبة، ما هي أخبار حادثة الاغتصاب تحت الشمس؟

قال شهاب بتردّد، وبرود:

ـ الحكاية نفسها تلوكها الألسن، بعد أن تضيف لها البهارات.

افتخر رائد:

ـ أما أنا فأعرف التفاصيل. عطا حدّثني بكل شيء.

ـ ذلك الكديش الخامل؟ لم يترك المكان الذي تناول فيه غداءه، وبرك كالبعير المطحول. بينما الاغتصاب المزعوم حصل بعد الغداء، حين لعبت الخمرة بالرؤوس.

بعد لحظات صمت عاد رائد يقول:

ـ الشائع أن جابر الساقط هو الذي فعلها.

ـ لا أعرف هذه التفاصيل.. لا تورّطني..

ـ الناس كله تقول ذلك..

ـ الناس.. آه من الناس..

ـ وأنا أيضاً سألته..

ـ فماذا قال لك؟

ـ قمت بالواجب..

ـ ويعتبره واجباً؟

ـ العبيد يعتبرون الانتقام من البيض واجباً مقدساً.

ـ لا تفسر المسألة تفسيراً طبقياً.

ـ بالعكس. أنا أعطيها بعداً إنسانيّاً خارج الطبقات. فلو أن جابر احتكم لحسّه الطبقيّ لما فعلها. أليست هي في صفّ الطبقات المسحوقة؟

هزّ شهاب رأسه وقال:

ـ آوه، بدأت تخيفني..

ـ طيّب وأنت نفسك ماذا تعتقد؟ ألم تر شيئاً، وعيناك المدوّرتان لا ترفّان؟ يقولون: الصراع جرى في أدغال لا تستر فضيحة.

ضحك شهاب ضحكة مقتضبة باردة:

ـ لم أر شيئاً، صدّقني، ولا أثق بكل الروايات المتضاربة. شيء واحد يمكن أن أصدّق به، وهو معقول، ولا يدلّ على شيء كبير. رواه شخص أثق به. قال: إنه رآها في طريق العودة منزوية على كرسيّ في القمرة في الأسفل، منكّسة الرأس، متعبة، حزينة، وبالقرب منها تلك الفتاة التي تدخن بشراهة، وتسمّيها أنت المُدْخنَة.

ـ شروق؟

ـ نعم. كانت تدخّن، وتنفث الدخان في وجهها، وهي غائبة عن الإحساس، مغمضة العينين، محقونة الوجه.. ولكن ربما ذلك عن تعب.. كل الناس تعبوا من الركض في تلك السفرة.

خاب ظنّ رائد، كان يريد أن يأخذ من شهاب أكثر مما يعطيه ولكن للرؤساء مهما كانوا صغاراً حدودهم الصارمة في كشف الأسرار، وليس مثل رائد الذي يفتح نفسه على الأثير دائماً، قال بعد أن احتبست أنفاسه في اللحظات التالية التي أخذت اللوالب تدور في أحشائها:

ـ خاطر الله، وأنت أين كنت؟

ضحك شهاب نفس الضحكة الباردة، وقال بهدوء:

ـ كنت مشغولاً.

ـ مشغول دائماً. وبأيّ شيء، لو سمحت؟

ـ بشخصيّة هامّة.

ـ على عادتك.

ـ لا، بمقدّساتي. كان لقطة. تجوّلنا بعيداً عن الآخرين بعد ذلك الغداء الدسم،

وزجاجتين من البيرة المثلجة، عجيبة أمّ الخنازير هذه، عالم غريب مزروع في وسط بغداد. غبة. أحراش، درب الصدّ ما ردّ. يمكن أن تجري فيها مختلف الأشياء، وليس الاغتصاب وحده. الغَرَب يسبح في الماء. لكننا لم نصادف خنزيراً واحداً.

ـ والذين جاءوا من المدينة؟ قلنا ستجد أم الخنازير ما لم تحلم به من الخنازير.

ـ ربما، لا أدري! والرجل الذي إلى جانبي حدّثني عن غابة أخرى متشابكة، غابة العلاقات العائلية في العراق، عن تداخل العلاقات بين الأسر التي يحتلّ أفرادها مناصب مرموقة. هذا ابن عم ذلك المسؤول الذي هو نسيب أو ابن خالة المسؤول الفلاني الذي هو عديل المسؤول الآخر ابن عمّ المسؤول الربع، لمتناسب أخوه مع عائلة فلان الذي هو في طريق تزويج ابنته إلى فلان، المرشّح لمنصب كبير، بعد أن دخل في علاقة عائلية مع فلان الذي يمتّ بصلة قرابة إلى. . . وهكذا إلى ما لا نهاية.

وشعر شهاب أنه استرسل أكثر من اللازم، فاستدرك قائلاً:

ـ من يدري؟ ربما يكذب. . غير معقول. . وصلنا.

كانوا قد توغّلوا في شارع أبي نواس، حتى وصلوا إلى سدرة كانت، في زمن ما، تظلّل مقهى جميلاً تخوته من خشب، وجدرانه من حصران الخوص. أما الآن فقد صار «كازينو» من أخشاب ملوّنة، وتكعيبات، وقربها مسقف لسمك، فيه حوض أزرق ضحل الماء، متّسخ الجدران. اتجه شهاب إلى رجل ضخم كان يدير للشارع ظهره، ووجهه إلى مسقف السمك. ناداه قبل أن يصل إليه:

ـ أبو حسين، مرحباً.

التفت الرجل بجذعه، وقال بصوت رقيق لا يناسب جسمه المشدود:

ـ هلا، داد.

واستدار تماماً، وتقدم خطوتين ثقيلتين وصافحه بكفّ ضخمة. قال شهاب:

ـ أقدّم لك أحد صحفيينا اللامعين، عدو البرجوازيّة سابقاً، وحليفها الوفي حالياً: رائد حسن.

ـ أهلاً بيه وبيها.

ومطّ بيه وبيها بأريحيّة مرحّباً باسمين يسمع بهما لأوّل مرة في حياته. وتابع شهاب:

ـ رائد، أقدم لك صديقي الرائع أبو حسين السيد علي دربزة.

وكشر . . دربزة وقال:

ـ ما يخالف بـ «الرائع» هـذه، ولكن من أين جاءتني السيّديـة؟ أنـا من الشعب وإليه. رجل حاف، ذاك اليوم لبست الطكاكية.

ـ أبو حسين لا تكشف أسرارك، أمام صحفـي يزن كل كلمة . .

ارتخت قسـمات أبي حسين السمينـة، وخفّ التوتّـر من أوداج رقبتـه العـرقـة، وابتسم باعتذار:

ـ ليش آني داكرزل؟

واستدار نحو الشاطىء من جديد، وبدا مشغولاً باهتمامات أخـرى. وانحدر خـطوتين مرتجّاً بكل جسده العامر باللحم، وصاح بصوته الاستثنائي الخاص به:

ـ راضي . . . خلّيها تكون خمسة . . بس من الكبار.

لوّحت ذراع نحيلة من قرب الجرف، ووصلت «تؤمر» على أمواج الهواء، وعندها خطا السيد علي الخطوتين الحادرتين، وانضمّ إلى صاحبيه، وقال وكأنه يواصل حديثاً لم ينقطع:

ـ سميتني سيّد؟ من أين لي السيّدية؟ أنا معيدي.

قال شهاب مصحّحاً له ظنه:

ـ أولاً قل سيادة، ولا تقل سيديـة. لأن السيديـة هي العمامـة الخضراء، وأنت والحمد لله عرقجين ما لابس، تدعو الله أن ينزل عليك الأرزاق.

ـ صحيح، بعرضي صحيح.

ـ وثانياً: اليوم عليها؟ مثل ما وعدتني؟

ـ من هـا العـين وهـا العـين. . بس أي وعـد. ذكّـرني. وعـودي كثـيرة، والله يـديم الرخص.

ـ تحضر لنا ديكاً، نزقّه عرقاً.

ضحك أبو حسين ضحكة مضحكة، وقال:

ـ يجري لك. . ذكّرتني!

وعاد راجعاً الخطوات التي قطعها، وصاح من مكانه الأول:

ـ راضي، راضي، وأريد ديك.

ـ شنو؟

ـ ديك، ديك

جاء راضي راكضاً مفزوعاً، وقد وضع ذيل دشداشته في حزامه واستفسر من السيد علي. فقال هذا متضايقاً:

ـ قلت لك: أريد ديك.. هاى شنو، ما تسمع؟ ديك. ديك.
ـ ديك؟ ها المرة ديك.. ومن أين أجيب لك ديك بهذه الساعة؟
ـ ما أدري. صده لي، اخلقه. بس لازم تعمر المائدة بحضرته.

صاح رائد:
ـ بسيادته..
ـ أي، نعم، بسيادته..

وانصرف عنه، فسمع راضي يقول له في استسلام:

ـ اقليه لو اشويه؟

التفت أبو حسين مرة أخرى، وقال بجدية تامة:

ـ لا، أريده طيّب، بريشه وجناحيه ومنقاره.. أريده يعوعو.. عيعو عيعو!

كشر راضي عن أسنان مهشمة، وقال:

ـ خوب أنا اعيعو لك، وما اطلب منك زايد.

غضب السيد علي وقال:

ـ آنا ما داضحك. أريد ديك، وخلص..

وشدد على «خلص»، وواصل سيره. تردّدت من خلفه:

ـ تؤمر، أبو حسين.

ولما حاذى أبو حسين ضيفيه قال شهاب:

ـ هذه السيادة الحقيقية. وأين منها السيدية؟
ـ هاي هم خلصناها لك.
ـ أنت تخلص اللي ما يتخلّص..
ـ على بختك.

اتّجهوا إلى بار كان من قبل قصراً لأحد شيوخ الغراف. دخلوا حديقته الصغيرة،

وارتقوا درجاته الأربع، ودلفوا من بابه من الخشب المحفور ليدخلوا دهليزاً شبه مظلم. أطلّ أبو حسين على قاعة إلى يساره، حيث وجد بعض الموائد عامرة بالرواد. لاح الضيق على وجهه المدور، وانغرز أنفه الصغير في البرزخ بين خدّيه المرتفعين. هرع رجل إليه مردّداً: «أهلاً بأبو حسين أهلاً. مائدتك محجوزة» واندفع بحركة القصور الذاتي الى القاعة. سحبه أبو حسين من ياقته بحركة بسيطة وقال:

ـ اواش! اريد اليوم حجرة لوحدي.

ـ تؤمر.

وغاب الرجل، وبعد خمس دقائق قضيت في تمعّن محتويات البار المصفوف بالرواق عاد الرجل يدعوهم:

ـ تفضلوا، تفضلوا! بالخدمة!

في الغرفة المطلّة بشباكها العريض على الحديقة مائدتان متقابلتان. سحب النادل غطاء المائدة قرب النافذة، وأفرد بحركة خفيفة مفرشاً جديداً أحمر بمربّعات صفر، وفرشه على المائدة. رفّت رائحة الجدّة والنظافة على الوجوه. جلسوا. ووقف الساقي معوجّ الرقبة ينتظر الإشارة، قال السيد علي:

ـ مزّاتك الأصلية، وبطل ويسكي، وبطل عرق، وخمسة فريدة والله كريم.

ـ تؤمر، أبو حسين.

ـ اليوم عندنا ضيف شرف.

ـ كل ضيوفك ضيوف شرف. إحنا بالخدمة.

ـ لا. ضيف الشرف هذا يدخل بارك الحقير لأول مرة بحياته.

ـ حصل لنا الشرف.

ـ ويشرب عرق لأول مرة. وبعدها ينذبح.

بدت الحيرة على النادل، ولكنه ردّد لازمته بصوت متغيّر:

ـ بالخدمة.

ـ سنعرف بعدين ذوقه بالشرب، بعد ما عرفنا ذوقه بالكفش.

وخمش الهواء بأصابعه. ضحك الثلاثة: وتلفّت الساقي في الوجوه بحيرة. واعتدل المزاج عند خروجه، وافترّت الشفاه عن ابتسامات ارتياح وتوقّع فرح. مال السيد علي نحو شهاب، وقال بصوت هامس:

ـ عندي قضية صغيرة لازم تحلّها لي.

ضحك شهاب وقال:

ـ تفضّل. كل قضاياك الصغيرة والكبيرة محلولة.

ـ أنت تعرف أنا مكتفٍ. ما أقدر احكّ رأسي. والله العظيم حتى مع مرتي ما أقدر أقوم بالواجب. ماكو وقت. بعرضي، والعرض واحد. عندي ابن عم، ابله، عقله خفيف، رجل دجاجة ما يحلّ. ولكنه شاب يعجبك. ويحتاج إلى دفعة.

ـ نسويها دفعتين.

ـ السوق خال من المصّاصات، والاستيراد ممنوع. . ولازم نساعده.

بادره شهاب ممسكاً كتفه:

ـ لو قلت لي هذا قبل يومين كنت أحضر تلاً من المصّاصات ولكن الآن. . طيب، أمهلني. . خل ينتظر أسبوعين مو أكثر.

بدأ الضيوف يتوافدون. دخل اثنان دخولاً له ضجيج، لأن أحدهما نطح الباب بكرشه، واقتحمه اقتحاماً. صاح أبو حسين من مكانه:

ـ هلا، أبو مجودي.

ـ هلا، اغاتي.

ـ تاج راسي.

ـ هسه حلت الكعدة.

بدأت المزّة تأتي، ونصبت الزجاجات مثل شموع ملوّنة توشك أن تضيء الوجوه بلهيبها المخبول. قال أبو مجودي.

ـ أشو ما مريت عليّ.

ـ هسه كنت أحكي مع الأستاذ شهاب. ما أكدر أحكّ راسي، إلى آخره. الطلبات مثل المطارق، بعرضي. وأبو خيمة الزرقة إذا أراد أن ينزل الرزق على الناس، سوّاه فيضان.

ـ الرزق الحلال طعمه حلو، وتعبه حلو.

ـ لا تضحك عليّ، أبو مجودي!

ـ لا، وراس ابن عمتي.

ـ زين. خلّ نشرب الآن. عندنا ضيف شرف اليوم.

ولم يأت ضيف الشرف إلا بعد حوالي ساعتين، حين ارتخت سبع جثث آدمية على

كراسيها الخيزران، عرقة الوجوه، خوص العيون. وكانت الصفقات قد عقدت، والوعود قد سجّلت، والمنافع قد تبودلت، حين كانت الرؤوس تتقارب، والأفواه تكاد تمسّ الآذان التي تسرّ إليها. وأحياناً كانت حرارة الهمّة تكشف عن مكنون الصدر بأصوات مسموعة:

ـ سوِّ لي شغله، أسوّ لك شغلتين.

قال شهاب في ضجيج سوق الأريحية:

ـ اسمع، أبو حسين. لماذا لا تقلب المصاصات إلى قطّارات؟ لأن استيراد البضائع الطبية أسهل، والمصرف الصناعي يمول ٨٥ بالمائة من مبلغ الاستيراد. وسأقوم أنا بالواجب.

ـ طيّب، خليها قطّارات.

ودخل راضي يحمل ديكاً ضخماً أبيض، في آخر العمر كما يبدو، وهلّل السيد علي:

ـ ضيف الشرف حضر.

ضجّت الجماعة وصفقت. وكان الديك الممسوك من رجليه يبدو كشهيد يؤخذ إلى المشنقة. صاح أبو حسين:

ـ راضي. اربطه من رجليه.

ـ تؤمر.

ـ جميل.

ـ نعم، عمي.

ـ عندك خيط؟ قوي؟

ـ بالخدمة.

رفع أبو حسين رقبته الغليظة إلى فوق، وقال:

ـ نعلّقه من هذه الثريا.

قال شهاب:

ـ زقّوه أولاً.

ـ على كيفك ويّانا

بطحوا ضيف الشرف على المائدة، بين صحون المزة، وقناني الخمرة، وخاطبه السيد علي:

ـ إش تحبّ تشرب مولانا؟

حاول الديك أن يحرّك جناحيه، فأمسك بقبضة قويّة.

قال أبو مجودي:

ـ لا تضايقوه خلّوه يعلن عن مزاجه!.. الله أكبر!

أعلن الديك عن مزاجه برفسه أصابت زجاجة الويسكي فقال أبو حسين:

ـ ابن الجلب، يشتهي ويسكي. على مَنْ طالع؟

قال رائد:

ـ أظنّه من أصل برجوازي.

أبو مجودي:

ـ لازم مستورد. ميد أين اوستراليا.

وكركر بنشوة. تبرّع شهاب، وصبَّ بعض الويسكي في قدح، وخلطه بشيء من الماء، ونهض رجل آخر، وكلكل بصدره على المائدة، وأمسك الديك من رقبته.

ـ انتبه، سينقرك.

ـ لا تخف، أنا واياه متآخيان.

ـ بعرضي صحيح.

استولى على الرجل نوع من الهستيريا والاستشهاد، فتناول القدح من يد شهاب، وأدخل منقار الديك في عنق القدح. فتح الديك منقاره كغريق يتلمّس نشقة هواء، فدخل السائل البنّي بلعومه. حاول ضيف الشرف الاحتجاج، ولكنه كان قد تجاوز هذه الصفة، وصار من أهل البيت. ولم يعامل بأية كلفة حتى زُقَّ نصف القدح أو أكثر. لا أحد يعرف، ولكن المشروب الانجليزي الفاخر بلّل منقاره وريشه ومفرش المائدة. وأخيراً استسلم الديك ولان، وخُدّر جناحاه، وانعكفت مخالبه، وحين جاء جميل بالخيط استسلم له دون معارضة. نهض الجميع حين علّقوه على الثريا. قال أحدهم:

ـ لا حسّ ولا نفس. ربما مات؟

ولكن عُرفه كان يتحرّك ويتلوى، وحين رنّت الأقداح ليشرب السكارى نخب زميل جديد دخل حلبة السكر، حاول هذا الزميل أن يقوّس رقبته، ولكنه فضّل الاستسلام لخدر مجهول جديد عليه، ربما. قضوا نصف ساعة في مداعبته، وملّوا بعدها، وأهملوه، لأن الجدّ عاد إليهم بعد أن تذكروا أشياء منسيّة. سأل أبو مجودي:

ـ على من رست مقاولة مطار. . . ؟

ـ على شيخ المقاولين.

ـ هل تعرفون أروح مقاولة حصلت حتى الآن؟

تطلّع الجميع إلى السائل، فقال بحيل صدر:

ـ مقاولة تجهيز رمل. وكانت الجهة المنفّذة للمشروع قد سوّرت أرض المشروع التي كانت الرمال تحيطها من كل جانب. وأعطيت مقاولة تجهيز الرمل إلى رجل استأجر اربع سيارات لوري، وصار ينقل الرمل من خارج السور إلى داخله بسعر محترم. . . هذه هي التسهيلات!

ـ شش. أخاف يسمعك الديك.

ـ إحنا والديوك أصدقاء.

رمق أبو حسين ضيف الشرف بنظرة حسد، وقال:

ـ ابن الدجاجة متسلطن، يتهوّى من جميع الجهات.

وكان أبو حسين نفسه يسبح بعرق دسم. ولكن السمك قد حضر مسبوقاً برائحته الشهيّة المتبّلة. هلّلوا للمرة الأخيرة وانقضوا على السمكات تمزيقاً وتقطيعاً.

وتنهّد رائد وقال لنفسه:

ـ آه، الحياة. . . .

● خرج خليل من المؤسسة مثقلاً بطلب جديد. كان المدير العام قد استدعاه لرسم لوحة أصرّ أنْ تجمع النهر والنخلة، والزورق والجمل والهودج والتراكتور(رمز الماضي التليد والحاضر المتفتح) ولم يعرف خليل في خياله كيف يزاوج بين هذه الأشياء. سار مهموماً إلى البيت. وفي ركن الشارع الصغير الذي كان يستأجر فيه مشتملاً التقاه رجل حدّق فيه بعين واحدة لامعة، والأخرى ظلّت جامدة بفصّها الأبيض. وعرف خليل الرجل من هذا الفصّ. تمتم:

ـ اهذا أنت؟ . . .

ـ نعم، يوسف عبد الوهاب.

تصافحا. كان يوسف زميل خليل في المدرسة المتوسّطة، ولكنه لم يره منذ ذلك الحين.

تذكّر خليل أنه كان أكثر الطلاب اجتهاداً في صفّه، يفوز بأحسن المعدّلات، لأنه كان يطمح في الدخول إلى كلية الطبّ التي لم تكن تقبل العَورين، فكان يوسف يبذل قصاراه ليتفوّق في دروسه، لعله يخرق القاعدة بتفوّقه، سأله خليل باستحياء:

ـ هل تحقّقت أمنيتك القديمة؟ الدخول إلى كلية الطبّ؟

ـ نعم! أنا الآن طبيب أمراض باطنية أشتغل في العيادة الشعبية القريبة.

ـ وهل جئت تزور مريضاً يشارف الموت؟

تريّث الدكتور يوسف قبل أن يقول:

ـ مات... انتحر...

ـ انتحر؟ رجل انتحر؟ في هذا العهد المبشّر بالخير؟

ـ نعم، انتحر.

أصيب خليل بصدمة شنّجت تقاطيع وجهه للحظة سأل بعدها في سخرية واضحة:

ـ طيّب، وما هي طريقة الانتحار المفضّلة في هذه الأيام؟

ضحك الدكتور يوسف، ولمعت عينه السليمة. قال:

ـ لا أعرف بالضبط. ولكن هذا الرجل شنق نفسه.

ـ صحيح؟

ـ صعد على إفريز نافذته، بعد أن ربط حبلاً بالعقلة التي تشد عليها خشبة الستارة، ووضع الحبل في عنقه، وكانت له الشجاعة الكافية ليعكف ركبتيه، والسلام.

ـ مات؟

ـ وكان من الممكن ألّا يموت: فإنه بعكفه ركبتيه قطع مجرى الاوكسجين إلى دماغه، وسقط في غيبوبة. ولو كان هناك أحد في بيته لأنزله من الحبل، وطلب الإسعاف، وسَلمَ الرجل. ولكنّه كان وحيداً في بيته، فظل معلّقاً يومين، حتى انتفخ وفارق الحياة مأسوفاً عليه أو غير مأسوف.. لا أدري.

وابتسم الدكتور فبدا فصّ عينه أشدّ ابيضاضاً من أسنانه، وأخذت ملامحه المترهّلة تتساقط، أمام بصر خليل كالأقنعة، حتى طلع من تحتها وجه ذلك الطالب المجتهد الذي كان منذ صباه ولوعاً بأسرار الحياة. قال خليل ينهي هذه المقابلة المنحوسة:

ـ شكراً، يا دكتور يوسف، على هذه المعلومات القيّمة. سأستفيد منها في ساعة الضيق.

ـ لا شكر على واجب.

تصافحا بين الحرارة والبرودة، وتركه خليل منزعجاً من هذا اللقاء الذي حمل إلى انفه ما يشبه عفونة الموت. اتجه إلى البقالية التي يتعامل معها. كان صاحبها عظيماً، كما هو دائماً، اسعفه في ساعة الشدّة بزجاجتين من البيرة خبأهما له خصّيصاً. شكر له خليل لطفه.

في البيت رأى خليل حسنة تقلي كبّة حلب. قال لها:

ـ هيّئي لي المزة أولاً. أنا أحترق. في فمي رائحة كبريت.

انفصلت حسنة عن الجدار التي كانت ترتكن إليه، أمام الموقد بعينيه السوداوين. وفتحت الثلاجة، وأخرجت طاستين في إحداهما باقلاء مسلوقة، وفي الثانية سلاطة دبرت بشكل من الأشكال بدون طماطة. رحّب خليل بالطاستين، وقال متهلّلاً:

ـ جميل منك، يا حسنة، أن تعرفي صنع الزلاطة بدون طماطة، وإلا لكان مصيرك مصير ذلك الكاتب الذي لم يعرف كيف يصنع الزلاطة بدون طماطة.

اعتدل مزاجه، حين شرب قدح البيرة الاول دفعة واحدة، وأحّ:

ـ واحرّ قلباه! اتركي القلي، يا حسنة، وتعالى نتحدّث، فان مزاجي مقلوب على البطانة هذا اليوم.

جاءت حسنة تمسح يديها بأذيال ثوبها. وقالت «نتكلم؟» باستغراب من يقول: «نرقص؟».

ـ نعم، اليست لنا ألسنة؟ والألسنة لمن خلقت؟

ولكنه تعسّر عليه هو أيضاً أن يتكلم. قال في شاعرية القدح الأول:

ـ نتكلم عن الفيافي، أقصد الرحاب، الطبيعة، يعني نتكلّم عن الريف.. نعم، الريف! هل تذكرين أيام زمان، يا حسنة؟

ردّدت حسنة بخيبة أمل:

ـ أها، أيّام زمان.

وخجلت، ونكست رأسها، فساعدها على إعادة توازنها:

ـ أيّام كنا نأتي إليكم ومعنا فرشنا وأصباغنا.

أعاد ذلك بعض حيويّتها:

ـ أتذكّر.

ابتسم خليل ابتسامة طفولية، سأل كمن يتوقّع جواباً يبهج النفس:

ـ ماذا كنتم تقولون عنا؟

سكتت حسنة، وتصلّبت عروق رقبتها عن جهد حقيقيّ، ورفعت عينيها إليه، فرأت وجهه مكشوفاً صافياً متسامحاً متهيئاً لتقبُّل كلّ ما ستقوله.

ـ تريد الصدق؟ ـ وتريّثت لتقول في براءة ـ كنا نقول هؤلاء مخابيل.

بُهِتَ خليل غير متوقّع ذلك:

ـ مخابيل؟

ـ مخابيل..

ـ مخابيل، مخابيل؟

ـ واحد لابس بنطلون وعنده لحية، وواحد وجهه طويل مثل... وواحد ممصوص أقجم.. مخابيل، والله العظيم..

قبل خليل كلامها بابتسامة خجل واعتذار، وقال:

ـ عندك حقّ، يا حسنة. ولكنه خبال جميل.. آوه، ليتني أعود إلى خبالي الأوّل. كنّا، يا حسنة، شبّاناً متفتّحين زهدنا من بيوتنا الضيّقة، ومقاهينا الخانقة، ضقنا بحياة المدينة الرتيبة الباهتة الألوان، الفاسدة الهواء، وخرجنا إليكم، إلى الحياة في الريف. حيث المساحات والضوء والظلال المترعة بالنداوة، ونصاعة الألوان. خرجنا نعبُّ من عبق التربة المسكر، تربة وطننا، وتقولين ذلك خبال؟ وليكن ولكنه خبال تقدّمي.. أتعرفين ما معنى ذلك بعد هذه العشرة الطويلة معي؟

وندم خليل على حماقة سؤاله، فسكت. رفعت حسنة الزجاجة، وصبّت بقية ما فيها في القدح باعتبار أن هذا أقصى ما تعلّمته خلال هذه العشرة الطويلة.

ـ يعني لا تعرفين؟

ـ لا.

ـ ما تعرفين المتقدّم من المتأخر؟

نظرت إليه نظرة ذات مغزى. فعرف أنه تورّط، ولم يصب ما أراد أن يقوله. قال بتراجع، ولكن في شيء من الوعيد:

ـ سأعلّمك.

قالت دافعة إليه رأسها بجرأة:

ـ علّمني الحساب. أنا دائماً أغلط بالفلوس.
ـ أوهوه؟

استثقل ما تريده منه. كرع بقية زجاجته الأولى، ومسح فمه بظاهر كفه، وتجشّأ، وقال كالمخاطب نفسه:

ـ متأخر، أنا متأخّر في هذا الموضوع. أنا نفسي لا أعرف كيف أحسب. ولو كنت أعرف لعلّمتك منذ زمان، عندما كنت. . .

وسكت. كانت في العاشرة من عمرها. أما الآن، وقد أصبحت امرأة مترهّلة، ما بين خادمة وزوجة بالمتعة، فقد كان يشعر بحاجز صلب لا يقهر يرتفع بينهما غير مرئيّ، حادّاً جارحاً لمشاعر غير متبلورة في النفس، ولكنها محسوسة كشوكة بين الجلد والعظم. لم تنشأ بينهما لغة مشتركة، ولن تنشأ بعد هذا العمر الطويل، عشرين سنة أو أكثر، ولم يبق غير الألفة، والتعوّد، والممارسة اليومية المملّة، والضرورية ضرورة نفحة دفء في قرّ الشتاء. ووجود إنسان في البيت يقي من شرّ الوحدة.

فتح خليل الزجاجة الثانية، لأن مسامه بدأت تنزّ بالذكريات. فأراد أن يرطّب الحجيرات المتكلّسة، وينغمر في المسارب النديّة، والدورب المحفورة في خلايا الدماغ.

كان خليل قد تعرّف على حسنة في إحدى تلك الجولات الجماعية في إحدى القرى في جنوب بغداد، حين كان الرسّامون من أمثاله، في مستهلّ حياتهم الفنية، يأخذون أدواتهم، ويتوغّلون في عمق الريف. كانت ابنة فلاح أرمل متعدّد البنات شاء الحظّ أن ينصب خليل منصّة الرسم قرب كوخه الطيني، ويرسم الكوخ مع ما حوله من أكواخ ونخيلات وأطلال سور متهدّم، وبركة ماء من بقايا مطر، ونعجتين سارحتين، وكلب أغبر. وما هو إلا وقت قصير حتى انعقدت ألفة بين الرسّام وأهل الكوخ فصارت البنات الصغيرات يتحلّقن حوله، ويقدّمن له أحياناً قدح شاي، أو طاسة لبن خاثر. وبعد شهرين من رفع الكلفة، والاطمئنان عرض خليل على الأب أن تأتي ابنته الوسطى حسنة إلى بغداد لتساعد في أعمال البيت، ورعاية أبيه المقعد، وقبل الأب هذا العرض، وانتقلت حسنة لتصرف انتباه الأب العليل ولو قليلاً عن ابنه الصبّاغ الذي عاف كلّ مهن الدنيا واشتغل بما يجعل الإنسان قرداً. كانت فتاة في نحو العاشرة من العمر وربما أكثر، هزيلة، صموتاً، صبوراً مع حياء ومسكنة. وبقيت تخدم في البيت ثلاثة أعوام حتى جاء أبوها فاستردّها قائلاً: ماذا يقول الناس، وقد صارت امرأة». ولعلّ الأب كان يطمح بأن تنشأ بين ابنته والرسّام علاقة أقوى من تلك العلاقة الغامضة، دون أن يخطر بباله فارق العمر. فإن ذلك كثير الحدوث في الريف، أن يتزوّج رجل بصبيّة مثل ابنته. وعادت حسنة إلى قريتها. وتوفي والد خليل،

وتأزّمت أمور المعيشة، وكان خليل على وشك أن يبيع بيت أبيه، حين جاءت حسنة على غفلة، وقالت ما معناه إن الألسنة في القرية صارت تلوك سمعتها، وتتّهمها بأبشع التهم، حتى لم يبق أمامها غير أن تترك الناس يقولون ما يشاؤون، وتأتي إليه وتخدمه بدون أية حقوق. وكانت قد كبرت، وامتلأت لحماً، وتفتّحت انوثة، وصار لها اتّزان في الحركات، ونعومة في الصوت. وبقيت عند خليل ثلاث سنوات كان فيها معذّب الضمير في علاقته الجديدة معها، يأرق ليالي كثيرة. كانت تنضج أمام عينيه، ويتورّد خدّاها من تلك الأغذية الرخيصة التي كان خليل يوفّرها لها. وفاصل العمر بدأ يتقلّص، وتنثلم حدّته، في تلك السنّ الفوّارة لفتاة في السادسة عشرة أو نحوها، ورجل قد تجاوز الثلاثين، وأشرف على قمّة التل، ترمضه الحرقة على شباب يوشك أن يتوارى، وهو ما يزال أعزب، وحيداً، مربوطاً بألف وشيجة ووشيجة بوسطه الذي يبدو كقارب يترنّح على ماء رجراج. وبدأت الحالات العصبيّة تظهر على خليل، والانفجارات الحادّة تحدث في علاقته مع حسنة، حتى جاء الرسام إلى بيته ذات مساء ولم يجدها. في البداية فرح. تخلّص من كابوس مرهق، وعذاب ضمير مستعر. ولكنه حين رأى البيت ساكناً في أول ليلة شبحيّة، والرائحة الأنثوية الحادّة ما تزال تفعم حجرات البيت، والمطبخ، والحمّام، شعر خليل بالخواء والتفتّت ومرارة الفقد، فبكى، وهو العاطفيّ الملتهب الأعصاب. ولم يطق البقاء في البيت، وصار يغشى الحانات أكثر من ذي قبل، ويخطّط في ذهنه لمشاريع هوجاء، حتى أنه همَّ عدة مرات أن يجوب قرى ديالي بحثاً عن قرية قالت إن عائلتها انتقلت إليها، دون أن تذكر له اسمها، أو ربّما ذكرته، ولكنه لم يبال به عند ذاك ولم يعلق في ذاكرته المكتظة بأسماء وهموم أخرى. وشيئاً فشيئاً قبل خليل بالخسارة، وألف الوحدة، ورضي بهدوء الضمير مغنماً، ولفّته الحياة بشباك أخرى، حتى طرقت الباب عليه ذات مساء، وسلّمت، وقالت بجسارة غير معهودة منها: «ها، بعدك عايش؟» وكانت في صوتها خشونة، ولامبالاة تدنو من الاستهتار. وعرف أنها تزوّجت رجلاً مزواجاً مطلاقاً، أرسلها طالقة بعد أن طرحت وليدها الأول، وزهد أبوها فيها، وتركها للكلاب، على حسب تعبيرها، قائلاً: لا أريد أن تكوني عالة عليّ، وحجراً معلّقاً في رقبتي. فاذهبي إلى صاحبك الرسّام في بغداد، وليفعل بك ما يشاء. فمن يقبل بك بعد الآن؟ وقبل خليل بها. وعاش معها هذه المرّة، وزاول حياة جنسية سخيّة، مستخدماً وسائل عدم الحمل المألوفة آنذاك. وبقيت عنده حتى الآن.

شرب خليل قدحاً آخر. وجد للبيرة طعماً آخر غثّاً ثقيلاً، ولّد له مغصاً في المعدة، ودواراً غير مريح في الرأس، وضجراً كقوة نابذة تنبعث من حنايا الصدر. نهض، ودخل المطبخ، والتقط قطعة كبة حلب من ماعون وضعته حسنة على الأرض. كانت الكبّة نيئة لم

تُقْلَ جيداً، عجينة بلا طعم. مجّها في ضيق. سال الدهن الأصفر على أصابعه كدهن الخروع فصرخ: هذا عجين، يا قحبة، عمرك لم تتعلّمي الطبخ. وأحسّ بجسده يرتعش. عاد إلى الطاولة البلاستيكية، وكرع البيرة من جديد حتى أتى عليها. ودخل الحجرة الثانية، مرسمه المترب، وشعر بالإثم والنغصة. خاطب ربّه في سره: يا ربّ، لِمَ هذا العذاب؟ لِمَ لَمْ تكتب لي أن أعيش حياة سليمة؟ لَمَ جعلت لي هذا التاريخ الهشّ، غير المتقن الصنع مثل كبّة حسنة؟ ماذا فعلت لك لتجازيني هذا الجزاء؟ أسكر؟ كل المنعّمين المرفّهين يسكرون، وبأحسن من هذه البيرة الخضاضة. ودقّ على صدره بجمع يده، ودار حول نفسه كالسكران، فدارت معه أدوات الرسم والصور واللوحات المركونة على الأرض، التفت إليها، تمعّن فيها. كلّها مرسومة حسب الطلب، مواضيع مفروضة عليه فرضاً. كزّ على أسنانه، وصرخ بها: يا مزق أحشائي اللئيمة. بل لا! أنت بصقات في وجهي قذف بها فم قذر. . أوه، يا ربي!

وترك حجرة المرسم هارباً، ولاذ بحجرة النوم، واستجار بالفراش. ارخى ذراعيه في استسلام تامّ. الكفّان مضمومتان بقبضتين متشنّجتين، حتى أحسّ بأظافره تنغرز بالجلد. حاول أن يسترخي، أن يتغلّب على هذه النوبة من السوداويّة. فكّ أصابع يديه، وطوى ذراعيه أسفل صدره، واستعاذ بالله في جهد صادق مستميت للتغلّب على شيء قاهر خارج إرادته. نهض من ضجعته. استوى قاعداً على الفراش. أطبق كفّيه، وحصرهما بين فخذيه كطفل مذنب. حرّك رأسه حركات دائرية. هل أنا سكران؟ مستحيل! نهض وترك الحجرة إلى الخارج. رأى حسنة متكئة على الحائط ذليلة حائرة، وقد تركت تقلية بقية الكبّة. أحسّ نحوها باشفاق لاإرادي. ما ذنبها؟ ناداها بلهجة ليّنة:

- اعذريني، يا حسنة. البيرة أطلقت الشياطين في أعماقي. اعذريني.

كانت كتلة هامدة، زكيبة مركونة إلى الحائط، إذا حرّكتها يد وقعت على الأرض. لم تبدِ أيّة حركة حين تقدّم منها، صعب عليه أن يعرف أهي تتنفّس؟

- قلت لك اعذريني - وتريّث، وهمس في يأس مميت، دون أن يجرؤ على النظر إلى وجهها - أنت الشيء النظيف الوحيد في حياتي. . أنت شبابي المقبور. . .

وارتفعت العبرة في صدره، فتركها. لا أظنّها ستفهم ما أقوله. نفثاتي ضائعة، واستغاثتي ستتحطّم على جدران أذن صمّاء. تجلّد بالصبر. ورضي بما في اليد، ولكي يتصالح معها، والجوع أغبى المصالحين، تناول بعض مخاريط الكبّة الحلبية من الماعون على الأرض، ووضعها في ماعون صغير، وخرج إلى طاولته البلاستيكية الزرقاء. ووضع الماعون قرب القدح الفارغ، وجعل يلوك الكبّة الهشّة.

بعد ساعة سمع جرس الباب. وكان خليل قد صحا كلّياً من نوبة سوداويّته، ولكن رفاتها ما يزال يقرح جفنيه. نهض وفتح الباب. رأى شهاباً أمامه.

ـ ها، شهاب، أيّ ريح قذفت بك؟

ـ زيارة طارئة للعمل.

ـ أعوذ بالله.

ـ خذ هذه الزجاجات الثلاث من أمستل عربوناً على حسن النية.

تناول خليل الزجاجات بغبطة. كان يريد إعادة التوازن إلى نفسه.

ـ بم أستطيع أن أضيفك؟

ـ لا أريد. شكراً.

ـ عندنا كبّة حلبة ممتازة.

ـ شكراً، تغديت في مطعم الجندول.

ـ أوه، طبقة راقية.

ـ أي، نعم، الطبقات الراقية في صعود.

ـ طيّب، شاركني بقدح بيرة.

ـ لا بأس، لأتحفك بطلب.

ـ أيّ طلب؟

ـ طلب صغير ومريح. دعنا نشرب البيرة أولاً.

وبعد أن شربا البيرة استأنف شهاب الحديث:

ـ هناك عائلة كريمة تريد أن ترسم صورة زيتيّة لابنتها.

ـ أعوذ بالله. رجعنا إلى تكبير العيون، وتصغير الأنوف؟ لا، يا عزيزي، اعذرني. ضقت من ممارسة هذه المهنة.

وطوى خليل جذعه، وبدا عليه كدر حقيقي.

ـ خليل، أنا لم أطلب منك طلباً فنّياً على الإطلاق.

ـ وهل هذا طلب فنّي؟

ـ سيكون بلمساتك الفنّية.

ـ ألم أقل إنه مختصّ بتكبير العيون وتصغير الأنوف؟ لا، يا أخي، قرفت والله، ووصلت الروح إلى الحلقوم. تعال، أفرّجك على رفات حياتي. ماذا فعلت في الدنيا لأجازى هذا الجزاء؟

حاول أن يجرّه إلى المرسم، ولكن شهاب سحبه من يده:

ـ لنشرب أولاً . . اشرب تهدأ.

جلس خليل ثانية. وقال بعد لحظات صمت:

ـ بصراحة، تعبت، يا شهاب. والله العظيم تعبت. أصابعي أصبحت مناقير تدقّ في جمجمتي، كلما استخدمتها في الأصباغ والتخطيط.

ـ احسبها عليَّ هذه المرة. وأنا أخوك، ولن أخونك. سألبّي كل طلباتك، بمقدّساتي.

التاع خليل، وقال بحرقة:

ـ وأيّ طلبات لي غير أن تترك لي حريّة هذا . . وهذه . . واشار إلى رأسه، وأصابع يده اليمنى.

ـ كأن أحداً يمنعك من التفكير. فكِّر، يا أخي، فكِّر . .

ـ فيم أفكِّر؟

ضحك شهاب وقال:

ـ في تحقيق طلبي العزيز عليَّ . . إنها عائلة صديق جديد ستلقى منه كل محبة واحترام، وسيفتح لك أبواب بيته، ويغدق عليك.

ـ والطلب الذي أتحفني به المدير العام اليوم؟

ابتسم شهاب، وقال بلهجة تآمرية هامسة:

ـ يمكنك أن تتهاهل فيه، وحتى أن تهمله.

ـ هكذا، ببساطة، أهمله . . هل تريده يخرجني من وظيفتي؟

ـ لا، لا أريدك.

ـ فكيف إذن؟

ـ الذي تتصوَّر أنه سيخرجك من وظيفتك، سيخرج هو من وظيفته. ولا أحد يعرف ماذا سيكون مستقبله. ولكن هذا بيني وبينك . . أوه، يا خبيث، جعلتني أبوح بسرّ.

● انحدر الشيخ عبد المنعم في الشارع باتجاه مشتمل خليل متبوعاً بعباءة متكّورة تتدحرج في أعقابه، لا تكاد تلتقط أنفاسها، حتى وقف أمام المشتمل، واستدار استدارة نحو العباءة المنتهية بوجه بدري مدوّر، وقال:

ـ يا لله، نادي على حسنة، وادخلي أنت أولاً، وسأظل أنا على الباب انتظر الدعوة.

تحركت العباءة حركة ميّاسة، واقتربت من الباب، وصاحت بصوت فاتر متكسر:

ـ حسنة، يا حسنة!

ودفعت الباب قليلاً، وحشرت جسمها في الفتحة الضيّقة ووقف الشيخ ينتظر شاعراً بشيء من القلق والحرج، وكأنه يقصد هذا البيت لأول مرة، مستجيباً لدافع غامض يخضع له دائماً، وهو أن «يدردش» مع جاره الرسّام، ويفتح له صدره. أطلّ خليل وعلى فمه الأحمر العريض ابتسامة قرمزية، بعد أن قذف عقب السيكارة منه:

ـ تفضّل، شيخنا!

قبل أن يتحرّك الشيخ قال:

ـ بصراحة ـ ودخل الباب إلى النصف وأكمل جملته في الجانب الآخر من البيت ـ أنا زعلان منك، زعلان.

ـ اعوذ بالله. والسبب؟

ـ أنت تعرف لماذا وكيف ومتى. تعرف كل شيء.

ـ علّام الغيوب؟!

وضحك خليل ضحكة لم يعرف الشيخ كنهها، ولا حتى شكلها، فقد كان يسير إلى الأمام، ولم ير كيف انعكفت شفتا خليل الحمراوان وتحوّلتا إلى هلال من الخيبة. صعد الشيخ إلى الطاولة الصغيرة، وارتاح لمنظر الطاولة البلاستيكية المألوفة له، المهيّأة لتستقبل ذراعه المبسوطة عليها، ومن هناك يطل على أعماق هذا المشتمل المريح الشبيه بعشّ لحبيبين لا يعرفان هموم الدنيا. جلس الشيخ مرتاحاً. ناغاه خليل:

ـ الله بالخير، اغاتي.

لوى الشيخ رقبته:

ـ موقلت لك زعلان.

ـ السبب، أريد أن أعرف السبب؟

هزّ الشيخ رأسه المدوّر اللامع:

ـ السفرة.. السفرة التي لم تقع قلبت مزاجي رأساً على عجيزة، وأطلقت شياطين ظنوني القديمة.

ـ الحمد لله على أنها لم تقع.

ـ نحمده ونشكره ونسبّح بآله.. شتريد بعد؟ ولكن الشياطين انطلقت وانتهى.

ولم يعرف خليل عن أيّ شياطين يتحدّث الشيخ الذي كان بصره مثبتاً في مربع نافذة المطبخ العريضة، حيث كان يحوم شبحا امرأتين، وعرف خليل أن الشيخ مشغول باختلاس النظرات. تركه يمارس هواه المألوف ولم يتأذّ كثيراً.

ـ يا شيخ، لا تزعل، ولملم نظراتك، وأبعد شياطينك.

ضحك الشيخ بعد أن أكتشف أمره، وقال يداري شعوراً قديماً بالإثم ويحاول تلطيفه:

ـ انظر إلى هناك، كيف انسجم مجتمع المدينة والقرية، انظر إلى حسنة وسنيّة.

ـ وأنت إلى أيّ مجتمع تميل؟

ـ إلى كليهما.. أنت تعرف انني قضيت طفولتي في الحيّ.

ـ أعرف، وأعرف أن في الثلاجة زجاجة بيرة باردة، هل تشرب قدحاً؟

ـ لا، شكراً. بعد ذلك النهار المشؤوم قضيت ليلة ليلاء.

ـ تأذّيت من خيانة الآخرين؟

ـ تأذّيت من خيانتي لنفسي. احتسيت زجاجة بيرة. ولكن أقول الآن: الحمد لله على أننا لم نشترك في تلك السفرة التي تدور عنها شائعات توجع الرأس.

فضّل خليل أن يجلب البيرة بنفسه حتى لا تقع حسنة فريسة لأنظار الشيخ النهمة، وعندما عاد قال مهيب النبرة:

ـ الشائعات غذاء نتصوّر أنه يشبع جوعاً مزمناً في أنفسنا.

وفتح الزجاجة، وأدخل عنقها في القدح، وسكب السائل اللوذعيّ على حدّ تعبيره، وشرب واقفاً وفي ظمأ، وحين جلس قال الشيخ مجارياً إياه بفلسفته:

ـ نعم، غذاء تضوى به الأجسام. ,ولولاه لمتنا جوعاً، وحتى عطشاً.

فاستخدم الشيخ تعبيراً مستعاراً آخر.

ـ صحيح. تغذيتنا سيّئة وغير صحيحة منذ نعومة أظفارنا. خذ الرزّ، ماذا به غير النشا؟

مضى خليل يجاريه:

ـ والبيرة، ماذا فيها غير الشعير؟ ولكنها ترضى حاجة في النفس صدّقني، يا شيخنا، تشبع جوعاً مزمناً فينا تراكم عبر مجاعات التاريخ.

ـ أوه، هذه الكلمات الكبيرة. . لا تحدّثني بهذه اللهجة ارجوك.

ـ وأنت أيضاً لا تحدّثني عن الأغذية السيّئة، عن الشائعات. هل تتصّور من كل عقلك أن اغتصاباً وقع في أم الخنازير؟ وعلى فتاة جسور مثل سهام؟

تراجع الشيخ عبد المنعم، وعاد إلى المناورة:

ـ لا أظنّ، لا أظنّ! إذا حكّمت عقلي الواعي قلت إنه خيال سكارى ومهزومين، وإذا دخلت إلى تلك البقعة التي ظلّت تتعفّن خلال نصف قرن قضيته في هذه الدنيا، أقصد العقل الباطن، قلت: ربما وقع.

ـ عقلك الباطن يتغذّى بالأطعمة الفاسدة التي تقدّم لعقلك الواعي.

ـ لا أدري، ولكن أيّ شيء لم يقع في هذه الدنيا؟ هل هناك شيء مستحيل؟ جمع الماء والنار؟ البارحة في تلفزيون الجيران رأيت سطح البحر يحترق. أليس هذا جمعاً بين الماء والنار؟

ضحك خليل ضحكة مكتومة، وأراد أن يعترض، ولكنه فضّل السكوت عن تأويل ما رآه الشيخ، وأصر على رأيه الأول:

ـ اغتصاب سهام، على فظاعته، يعتبر في مقاييسنا نصراً مؤزّراً، ولكن أي واحد لم يتباه به، مع أن العراقيين يتباهون حتى بعيوبهم.

ـ ولماذا لم يتباه به أحد؟ هذا جابر الفرّاش يتبختر في الدائرة كالديك، ويردّ على جميع الأسئلة الهامسة بابتسامة تأكيد.

ـ وهل تتصّور هذا التَفِس، السكّير، الذي يسقط من أول ربعيّة عرق يناطح جبلاً؟

وعاد خليل إلى قدحه مشمئزّاً، فتراجع عبد المنعم ثانية:

ـ من يدري، الهدف وحده مُغْرٍ.

اطلق خليل ضحكة كصيحة قذفت من فمه رائحة جعلت الشيخ يلوي رأسه من رائحة الخمرة. وبينما كان خليل يشعل سيكارة جديدة تذكّر كيف كان عبد المنعم يرمق سهاماً، حين يراها في المؤسّسة. يرمقها مقبلة، ويدير النظر إليها مدبرة، ويلتهم بعينيه الصغيرتين الجشعتين ربلتي ساقيها الممتلئتين، وردفيها الصلبين، وظهرها المنتصب. وعادت إلى ذهنه صور ذلك الجوع المزمن الذي يظهره هذا الشيخ إلى الجنس بنظراته وتعابيره، ولا تسلم منه امرأة تقبل عليه أو تدبر، وحتى حسنة لم تسلم من جنونه الشبقيّ هذا. نظر خليل فرأى الشيخ نعمة مطأطأ الرأس، ينقر كرشه بأصابعه القصيرة، فعرف أنه تأذّى. مازحه هازّاً إصبعاً في الهواء:

ـ عرامتك، عرامتك يا شيخ نعمة، لا تكسرها إلا الخمرة.

ونكس اصبعه إلى القدح. فقال الشيخ في مسكنة:

ـ وهل ذنوبي عند ربي قليلة؟
ـ إذن، لا تخض بأعراض الناس.
ـ لست أنا الذي اخترع هذه الشائعة.
ـ ولكنـك تلوكها.
ـ أنا أتساءل مثل الآخرين: معقول؟

غرق خليل في صمت قصير طلع منه قائلاً:

ـ أظن هناك من له مصلحة في تشويه سمعة فتاة شجاعة.
ـ وأنا أيضاً.

وضع خليل ذراعه إلى الأمام، وقال:

ـ خذ رائداً، على سبيل المثال. صار بـوقاً ضخـماً لهذه الشـائعة الخبيثـة.. ربما لـيرضي هوى في نفسه.
ـ أعرف.
ـ ومن يدري. ربما هو العجز يـا شيخنا ـ ونهض خليـل من مكانـه وامتصّ مصّتين من سيكارته، وأطلّ على صلعة عبد المنعم المنورّة يبدّد الدخان عنها بيده ـ إنه العجز بعينه. أريد أن أسألك بضميرك الذي أرجو أن لا يكون قد فسد..

ـ أرجوك!
ـ أقصـد كـما تفسـد المعـدة من الأطعمـة الـرخيصـة. كبة حلب، حـامض شلغم، كجرى.. اسألك بضميرك الذي صاحبك كل هذا العمر الطويل. لم هذه النزعة الفظيعة في تشويه كل ما هو جميل ورصين وعاقـل؟ لم تُلطِّخ الأشياء الحلوة بـالوحـل، وتبذل المحـاولات لإفساد ما لا يفسد؟ ما هذه الرغبة؟ من أيّ مستنقع من العقل الباطن تصعد؟

وكان خليل في جملته الأخيرة متوتّراً وعصبياً حتى تندّت عيناه الحزينتان، وامتلأ صـدره النحيل بالعبرة. أشفق الشيخ عليه، وجاراه:

ـ حين يريد إنسان أن يغـطّي على عيـوبه، يلصق عيـوباً أخـرى مماثلة عـلى الآخرين. جابر الفاسد ينشر الشائعات الفاسدة.

ـ جابر شرطي لا أكثر.

تبرّأ الشيخ نعمة. وقال:

ـ لا أعرف. .

ولكن خليل تابع قوله:

ـ ولم كلّ هذا؟ لأي شيء؟ لتبرير عيوب الذات؟

سكت عبد المنعم وشعر بأنه يدفع دفعاً إلى عالم دفين في أعماقه، لا يريد أن يكشفه لأحد. وعاد خليل يكمل خطبته:

ـ لم؟ ألأنهم يريدون أن يقولوا: ما الداعي إلى العفّة والطهر والجمال، والخير والحرية، إذا كان كل شيء في الدنيا داعراً، مبتذلاً قبيحاً، شرّيراً؟

كان خليل يمسّ عند نطقه بكل صفة إصبعاً من أصابع يده. كان صوته عاطفيّاً وشجيّاً كصوت إنسان متعذّب، تأثّر الشيخ نعمة، وأشفق على جاره، لا سيما حين رأى عروق رقبته متوتّرة، فحاول أن يصعد إلى مستواه الأخلاقي الرفيع، فتساءل:

ـ أتعرف لماذا كلّ ذلك؟ لأن الرغبة في انتهاك الحرمات متضخّمة عندنا تضخّم اللوزتين.

وافقه خليل:

ـ ربما، ربما. . عندنا هذا المرض.

ـ وعميقة في داخل النفس ـ واستقام للشيخ منطقه، فضرب الطاولة بذراعه المبسوطة عليها منذ وقت، حين بدأ يستريح ويتفلسف، وصاح في ثقة مما يقول ـ وهذا ما أسميه بالاغتصاب، سواء وقع بقضّه وقضيضه، أو على مثله ومثيله. . هذه شياطين ظنوني القديمة التي أخذت تؤرّقني في الليل.

ورفع خليل الزجاجة ورآها فارغة.

● كان جابر الفرّاش يتمشّى في الطابق الثالث بشوشاً طلق الأسارير، يوزّع الابتسامات اللؤلؤية لكل خارج من رأس السلّم، أو طالع من باب المصعد، والجميع عرفوا أن جابر نشوان كسر خمار البارحة بكأسه الصباحيّة المعتادة والمسموح بها، فان ذلك لا يخلّ بواجباته، بل يجعله أكثر طلاقة وأريحية، وأميل إلى مبادلة الحديث، وتلبية الخدمات الإضافية. كانت المبرّدة المنصوبة في أقصى الممر ترسل مويجات من الهواء البارد البليل فتحرّك

قميصه الزعفراني من الفانيلة الخفيفة، فيتكسّر على ثنيات صدره وبطنه، ويتقبقب ظهره.
خرج موظفان من إحدى الغرف، ونظر أحدهما إليه من بعيد، وقال لصاحبه:

ـ انظر إلى جابر من بعيد، ألا يبدو لك بوجهه الأسود وقميصه الأصفر مثل زهرة عباد الشمس؟

نظر الثاني، وتمعّن، وقال:

ـ صحيح. زهرة عباد الشمس معدنيّة.

كانت قطرات العرق تتوامض عليه من بعيد، وتمنح بشرته صلابة المعدن. شعر جابر بنظرات الموظّفين فلوّح لهما بحرّية غريبة على فرّاش. ولما رآهما واقفين في مكانهما لا يتحركان تقدّم متهاهلاً منتشياً، فقال الموظف الأول حين أقبل جابر:

ـ أنت اليوم ترف. كأنك في إجازة.

تألّقت شفتا جابر بابتسامة صدفية، وقال:

ـ اليوم الذي لا يأتي فيه المدير العام أعتبر نفسي في إجازة.

وحين رآهما ينصرفان عنه دون تعليق أضاف، وهو يسير وراءهما:

ـ ولكنني، على عادتي، مستعدّ لكل الخدمات.

دخل الموظفان الغرفة، فدخل وراءهما وأغلق الباب، ووقف ينتظر الإشارة، مبتسماً تلك الابتسامة اللؤلؤية الصافية وسيماً متناسق التقاطيع، لولا تلك الحمرة المرعبة في عينيه.

قال الموظف وكأنه يتابع حديثاً فرغ منه قبل لحظات:

ـ إذن، قمت بالأصول.

ـ حسب الأصول. أبو حميد، أنا قدّها. كيف تراني؟ ألست دائماً بالخدمة. ما يطلب مني أفعله.

وبعد ذلك تحوّل الحديث إلى همس ومساررة:

ـ وفعلته؟

ـ الواجب هو الواجب.

قال الموظف الآخر:

ـ وفي ضوء الشمس الحارقة؟

وثنى أبو حميد:

ـ وتعتبره واجباً؟

ـ قالوا لي افعل ذلك، فكان بالنسبة لي واجباً. خلاص. انتهى.

ـ على كثرة الناس؟

ـ لا يهمّني الناس. راقبتها من بعيد. أينما تذهب أسير وراءها كظلّها، حتى حين كانت تلعب كرة الطائرة، وتفلت الكرة منها فتلحق بها، وأنا وراءها. تدخل في الزرع فأدخل وراءها.

ـ وقمطتها؟

لوى جابر رأسه بمسكنة:

ـ كنت أساعدها.

ـ ها، مساعدة.

ـ أنا أعرف الأصول، أبو حميد.

ـ على الأخص إذا كنت شارباً.

ـ في مثل هذه الأحوال أعرف حدودي، وما أتجاوزها.

ـ يعني كم؟

ـ قليل جداً. أنا بعد الربعية أسقط. ولهذا يسمّيني الناس جابر الساقط. ليس لأن أخلاقي ساقطة. أبو حميد، أنا مثقّف. كنت أحفظ ديوان عبود الكرخي وقصائد الرصافي، ولولا الخمرة لوصلت الآن إلى الجواهري، الله يذكره بالخير، والسيّاب طيب الله ثراه.

فتساءل أبو حميد بحرقة مكتومة:

ـ ولكن كيف؟ كيف قدرت؟ في أية بقعة؟

ـ لا تهمّني البقعة.. أشوف جيداً، ونظري قويّ. فلا تنظر إلى الحمرة الخدّاعة في عيني. عندي عين العقاب.

ـ ولكن قل لنا كيف؟

رفع جابر ذراعه معترضاً:

ـ إلا هذا! هذه أسرار المهنة. هنا تأتي الشطارة. مع السلامة، جررتموني إلى الحديث. أنا صاموط لاموط.

وهمّ بالانصراف فصاح به أبو حميد:

ـ أواش. موأنت دائماً بالخدمة.

استدار جابر. وقال بحماس:

ـ مستعدّ، تفضل، كم زجاجة تريد؟ أنا اليوم رائح لها.

نهض أبو حميد، واتجه إلى المشجب الذي تدلّت منه سترته، وأخرج ديناراً.

ـ اشتر زجاجتين والبقيّة لك..

تناول جابر الدينار، وخرج يتألّق بابتسامته اللؤلؤية ويتوهّج بعينه الحمراء.

وهكذا هو دائماً يتملّص حين يصل الحديث إلى الجدّ، ويدخل في التفاصيل، وينتهي الأمر إلى عرض خدماته، وأحسنها أن يشتري زجاجة عرق من امرأة مسيحية يعرفها تبيع الزجاجة بثلثمائة فلس.

كان جابر من أولئك السود الذين خفف الزواج المختلط من تقاطيع وجوههم الحادّة، وجعلها ناعمة متناسقة. فكانت له شفتان رقيقتان ناعمتان، وخدّان أملسان، وعينان ربما كانتا نجلاوين صافيتين في زمن ما، قبل أن يدمن على شرب العرق. وكان له جبين صاف لا بالعريض ولا بالضيق، ينحصر كرخامة سوداء بين حاجبين خفيفين، وشعر أجعد بلا خشونة. وكان يقول عن نفسه: إنه من عائلة محترمة كانت لها أملاك في الديوانية صادرها الإصلاح الزراعي في زمن عبد الكريم قاسم، وبذلك حرم من إتمام تعليمه، وتشرّد مع أفراد عائلته في أرجاء العراق، حتى استقّر به المقام في بغداد، وبدلاً من أن يدخل في جامعتها، كما يجب أن يكون، عَمِل حارساً فيها، وخالط الوسط الجامعي، وأغرمت به إحدى الطالبات غراماً قوياً حتى كادت تترك أهلها، وتفرّ معه إلى الكويت. ولم تكن الوحيدة من بنات جنسها. فكم من فتاة فتنت به، وجُنّت جنون المخابيل، كما يقول، ويعقّب بابتسامته التقليدية: فأنا جميل على كل حال. من قبل كانت عيناي بلون الحليب الصافي، والعقيق الحقيقيّ. ولكن الخمرة الملعونة هي التي جعلتهما بهذا الشكل القبيح. وغالباً ما كان الناس يصدقون به. فان قامته الممشوقة، وجسده المقدود، وسلاسته، واستعداده الدائم لتقديم الخدمات كانت تؤهله لأكثر من ذلك. ولكن الحظ عاكسه حين أخذ يسرف في شرب العرق، حسرة على زمان خائن، وحظ أعور، فطرد من الجامعة، وتنقّل في أعمال كثيرة، وعاشر أصحاب المقاهي المشبوهة والحانات الّتي تحتاج إلى حماية من الزبائن المزعجين. وكان له وكره المفضل في مقهى الشاطىء الجميل، حيث يكون رهن الإشارة في المآزق المفاجئة حتى رآه رجل من خرّيجي الجامعة، وتوسّط له ليعمل فرّاشاً في المؤسسة، وأكثر..

● كانت شروق تجلس جنب عطيّة، أخت عطا. والفتاتان تنتظران قدوم عطا من الدائرة.

ـ كل شيء أتوقّعه إلا هذا.

كانت «المَدْخنَة» تدخّن بشراهة، وكانت عطية تطرد الدخان من أمامها علانية وبحركات عصبية ملحوظة، وشروق لا تلتفت إلى ذلك، لأنها كانت مستغرقة في أفكارها، ومستاءة جداً. أكملت:

ـ الآن صار عطا مصدراً آخر للشائعة الخبيثة بينما كان جالساً إلى جانبي طوال السفرة، وكنت أدخّن، كما أنا الآن، والأفندي منبطح نصف انبطاحة، ولا يخجل، منفوخ من الأكل. ما يهمّني. تعلّمت عليه. أجد فيه شيئاً يجذبني إليه بصراحة. أنت مثل أختي، وتعرفينني في المتوسطة، إذا انجذبت إلى شيء، لا يخلص مني.. هذا التدخين.

وأشارت إلى السيكارة التي ابتلعت نصف دخانها.

ـ تعرفين، شروق؟ أنا لا أصدق.
ـ لا تصدّقين بالشائعة؟ طبعاً.
ـ لا، لا أصدق بما يقولونه عن عطا. المساء كلّه يقضيه وهو جالس في مكان واحد لا يتحرّك، وحتى لا يتكلم.
ـ أنا أيضاً أقول لك. ولكن هذا الحاصل. رائد يستشهد به وينشر أقواله بين الناس. كأنه حاضر ليلة الدخلة، وأي، وأي.. راح أتخبّل.

وكانت تنفث الدخان تباعاً مع كلماتها الحارّة الضجرة، وعطيّة تكتم غيظها وانزعاجها من الدخان، فشروق، على الأقل، زميلتها السابقة، وتشمل أخاها عطا بالرعاية والحنان، وتخلص له ولا إخلاص أخته من أمه وأبيه. أشفقت عليها:

ـ لا تحمسي، شروق. شنو هذا منك؟ راح يجي وتخلّيه يعترف.
ـ وين راح؟ الدوام انتهى من زمان.

وأحسّت بالضجر وضيق النفس. طمأنتها عطيّة:

ـ على جيه! وتتصوّرين عنده حيل يتمشّى بشارع أبو نواس؟ راح يجي، وتشوفين ما عنده قوة حتى يسدّ الباب وراءه.

ـ سمعة البنت نزلت للحضيض. الألسن تتفنّن بحكايات السوء. وأنت تعقلين، يا عطيّة، أن هذا يحصل في عزّ النهار، وأمام الناس؟

صمتت عطيّة، وكأنها متردّدة، ثم قالت بفتور:

ـ ما أعرف.

ـ يحصل هذا؟

ـ قلت لك: ما أعرف! الله خلاّني بين هذي الجدران إكراماً لعطا. يا ريتك تأخذينه يا شروق، وتريحيني.

ضحكت شروق، وسحبت سيكارة أخرى. وقالت دون أن تردّ على طلب عطية:

ـ في طريق العودة قعدنا داخل المركب. رأيتها تعبانة تكاد تغفو في مقعدها. سألتها: سهام، كأنك راح تنامين! قالت: تعبت، لعبنا الطائرة، وأخذنا اللعب. وبالفعل سألت فتبيّن انها اشتركت مع عفيفة وعدنان ورؤوف وصبيحة. كلهم اعترفوا بذلك. ولكنهم قالوا: هذا قبل الغداء. أما بعد الغداء فهم لا يعرفون ماذا حصل. كل واحد سرح لوحده. أوه، يا ربي، كأنما مؤامرة على البنت.

ابتعدت عطية عنها، وقالت خارج سحابة الدخان..

ـ دخّني، دخّني، ولا تنقهري. كل شيء يعرف في الآخر.

ـ في الآخر! صحيح في الآخر. ولكن بعد خراب البصرة.

كانت عطيّة في مأمن من الدخان، تتكىء على الثلاجة بسلام، وربما أمدّها ذلك بشجاعة لتقول:

ـ البنت تثبت عفافها بنفسها.

وفتحت باب الثلاجة بحركة لاإرادية، ورأت زجاجات المرطبات، وتذكرت انها لم تضيّف زميلتها، فسألتها:

ـ تشربين بارد؟

رفعت شروق رأسها، واستطاعت أن ترى من خلال هالة الدخان.

ـ الله يخلّيك.. ذاك الـ «كرش»!

جلبت لها عطية زجاجة «كرش» وأعطتها المفتاح، وأفلتت منها بسرعة، ونزلت إلى

باحة البيت تتنسم الهواء الطلق بعد أن أشبعتها شروق دخاناً، وجفّفت بلعومها. وبعد قليل جاء عطا. دخل الباب كالمتعثّر، وتهادى رخو الخطوات. فصاحت به عطية:

ـ ها، اش قلت لك؟ ماسدّ الباب. عطا، سدّ الباب وراك.

ـ تعالى أنت سدّيه.

وحين لمح شروق رفّت عينه اليمنى بعصبية.

ـ ها، شروق؟ اش جابك؟

ـ قلبت الدائرة عليك.

ـ خير، إن شاء الله؟

ـ أين كنت؟

ـ الملعون رائد. . .

ولم يكمل. فصاحت شروق:

ـ سيقتلك رائد هذا.

التفت عطا إلى عطيّة:

ـ عطية، راح أموت من الجوع.

ـ هذا أنت، من شفتك وشفتني، ميت من الجوع.

قالت عطيّة ضاحكة، فردّ عليها بصوت ذائب:

ـ ارجوك، لا تغثيني. .

وجلس بالقرب من شروق، ورمقها بطرف عينه الثابتة. .

ـ أخبارك؟

ـ أخباري أخبارك. الناس كلها مشغولة بأخبارك. قل لي، عطا: متى رأيت سهام، ونحن الوقت كلّه قرب النار الخامدة!

سكت عطا، وأدار رأسه إلى الجهة المعاكسة. كررت شروق:

ـ قل لي، لخاطر الله، عطا.

ـ شنو؟

ـ من أين كان لك الوقت لتراقب الناس، وترى فضيحة تهزّ الكائنات؟

ـ أي فضيحة؟

ـ ما تعرف؟
ـ لا، ما أعرف.
ـ معقول؟ الناس كلها تستشهد بك.

تكوَّر عطا وكأنما يتلقّى ضربة، وعصر نفسه عصراً كمن يعاني مغصاً، وجعلت عينه ترفّ بسرعة، وقال هامساً:

ـ مالي شغل.
ـ كيف مالك شغل؟
ـ كل ذلك من رائد.. يخرط وأنا ساكت.
ـ يستشهد بك.
ـ أنا ساكت، فكيف يستشهد بي؟
ـ ولكن السكوت من الرضى، يا أستاذ. أنت ساكت، وهو يلفِّق على لسانك الأقاويل.
ـ والألسنة قليلة؟
ـ على لسانك أنت بالذات، لأنه معروف عنك أنك لا تكذب.
ـ مالي غرض ـ ودفع ذراعه نحوها بحركة وانية ـ عطيّة، راح أموت من الجوع. شروق لا تغثيني. معدتي خالية، وبعد شوية أنهار.

سكتت شروق إشفاقاً. كانت تشعر بأنه يعاني من ذلك الشيء الأبديّ الدفين في صدره، والذي لا يستطيع التعبير عنه باللسان، ولكنه ظاهر جليّ في كل تصرّفاته وأحواله. نادت عطيّة بعد دقائق من صمت متوتّر.

ـ تعالوا إلى المطبخ. الغدا حاضر.

بعد الغداء عادت شروق إلى التدخين. رجتها عطيّة ـ الله، يخليك، اطلعي من المطبخ. المكان ضيِّق.

ـ تؤمرين.

وطلعت إلى الحوش تدخّن بشراهتها المعتادة. وحين جلسوا ثانية، عادت تقول بإلحاحها الشديد، وكأن لها حقاً شرعياً على عطا:

ـ عطا، لماذا تخضع لرائد بهذا الشكل؟

بعد تردّد:

ـ يعني.. أفادني شويه.

ـ بأيّ شيء أفادك؟
ـ نقلني من الارشيف.
ـ حتى يستغلّك.
ـ ما عليّ! أنا أقدّم المعلومات، وهو بكيفه يكتب.
ـ لا، يستغلّك بتشويه سمعة الناس.
ـ مالي غرض.
ـ طيّب، تقدر تكذّبه؟
ـ أقدر.
ـ صحيح؟

التفت عطا إلى الجهة الأخرى بعيداً عن مصدر الصوت. فتابعت شروق إلحاحها:

ـ عطا، تحرّر من الخوف، تحرّر من هذا الجمود. ماذا جنيت في حياتك لتخاف؟ ماذا؟ قل لي.
ـ لا شيء.
ـ إذن، اترك «مالي غرض» هذه. هل لك غرض في تشويه سمعة فتاة شريفة؟ قل لي: لو جاءك شخص غداً، وقال لك: شروق غير شريفة، لأنها تدخّن أمام الناس، فهل ستصدّق؟

سكت. ألحّت:

ـ هل ستصدق؟ أجب.
ـ ما أدري . . . ما أصدق.
ـ أنت عجيب، يا عطا، لا أحد يعرف ماذا في أعماقك.
ـ لا شيء.
ـ أنا أعرف. إنه الخوف من قول كلمة، من المواجهة. جابِهِ الأشياء، يا عطا، اعترض، قلْ كلمتك، وإلا سيسحقونك.

صاحت عطيّة:

ـ أرجوك، شروق. اتركيه، ما هذه المحاكمة؟
ـ إنه الخوف، يا عطية، وليس الكسل، مثلما تتصوّرون أنتم. الخوف من الاحتجاج، من القيام بشيء فوق العادة. ولو تخلّص من عقدة الخوف لدبّت الحياة في هذه . . . هذه . . . هذه.

ولانفعالها لم تجد الكلمة المناسبة لوصف تلك الكتلة الهامدة الجالسة إلى جانبها. فنغزت صدر عطا باطول إصبع من أصابعها المصفوفة. جفل عطا، ورفع ظهره، وقال:

ـ لا، لا، لا..

ـ نعم، أريد أن أستفزّك، أحرّك أعماقك لتخرج من خوفك وتواجه العالم.. وسأجعله هذا واجبي المقدس.. ولهذا سأقبل بك زوجاً.

هللت عطيّة بين الجدّ والهزل، وعرق جبين عطا، فمسحه بمنديل.

● ـ هذه حجرتي الحقيرة، يا عصام.

وصلا إليها أخيراً، بعد أن استقبلهما فناء واسع مبلّط بالآجر المربّع فيه نخلة هزيلة، وشجرة مجهولة الهوية، وارتقيا الدرج، وصعدا إلى الطابق الثاني، قابلهما سطح واسع في آخره حجرتان، وعلى اليمين ممرّ ضيق مسيّج بدرابزين أخضر. مرّا بفراغ وحجرة، ثم أخرى هي حجرة رائد. في الحجرة رائحة كتب وجرائد وملابس قذرة، وأطعمة بائتة. وتحت المنضدة الواطئة زجاجات فارغة. وسطح المنضدة من الزجاج الأسود، وأرجلها من الالمنيوم، تنوء بكتب ومجلات، وأوراق كتابة، وقدح بلاستيكي للأقلام، وعلب سيكائر. وفي الحجرة أريكة سوداء القماشة مغبّرة، وبعض المقاعد السوداء الجلد، كأنها مستعارة أو مشتراة من مكتب مفلس لسيارات الأجرة، أو استئجار البيوت. وعلى رفوف صغيرة في الجدار المقابل بعض التحف من السيراميك، وعلب بيرة أجنبية صفراء وزرقاء وخضراء، وأقنعة، وسبح شرقية. وعلى الجدارين المتقابلين من يمين وشمال رفوف أخرى من قضبان الحديد النحيلة مصبوغة بالأسود عليها كتب متفرقة. وكل شيء سواد في سواد.

ـ تفضّل اجلس.

ورفع رائد محفظة أوراق قديمة، ونفض الغبار عن مقعد الجلد. جلس عصام متوجّساً. وأجال بصره في أرجاء الحجرة، فرأى بعض اللوحات القديمة مركونة في زاوية، قال رائد إنها لفنّانين عراقيين من زملاء خليل إما جرفهم النسيان، أو تحوّلوا إلى لون آخر من الفن أسهل وأروح. ولم يبد عصام أي استفسار، بل نظر إلى اللوحات مشدوهاً. وكأنما يحاول أن يتذكّر شيئاً غاب عن ذاكرته.

ـ هل أصبّ لك قدحاً من البيرة الآن؟

ـ على كيفك.

ـ أوه، لعين أنا ـ وضرب جبهته بجمع يده ـ نسيت أن آخذ البيرة من البقال. دفعت الثمن له. . . سأخطف رجلي. .

أمسكه عصام من يده:

ـ لا حاجة، اجلس.

ـ حسناً، وأنا أيضاً لا أريد أن تجلس وحدك في هذا الخمّ. وتتأمل مآخذ حياتي أكثر. هذا أنا، يا عصام، وهذه عيشتي. أنا رجل طارىء على بغداد، تدحرج إليها من الشمال. أنا رجل مقطوع الجذور هنا. كل هذه البيوت مسكونة بعوائل مسيحيّة نازحة، وأنا المسلم الوحيد بينها. دعنا نسلي أنفسنا بقدح من العرق أو الويسكي. اشتريت اليوم نصف زجاجة منه خوفاً من أن أقع على زجاجة مغشوشة تباع بدينار ونصف تحت العباءة. ها، ما رأيك؟ سأصبّ لي عرقاً، ولك ويسكي. أنت تحب الويسكي على ما أظن. يذكرك بانكلترا، ولندن. ماذا كنت تشرب في أوروبا؟

سكت عصام. أخذ رائد يفتح زجاجة الويسكي دون أن ينتظر ما يقوله عصام. ولما فرغ من إعداد الكأسين، عاد يتحدّث:

ـ ماذا كنت أقول لك؟ نعم، عائلات نازحة، وأنا أيضاً من عائلة نازحة. . ولو كنت مسلماً. في بلدتنا الشمالية لا يستنكف الناس من مزاولة هذه المهنة.

ودقّ كأسه بكأس عصام.

ـ صحّتك.

وبعد أن فرغ من مصّة طويلة من كأسه، أخذ يتحدّث عن بغداد من جديد.

ـ أنا طارىء على بغداد. جئت إليها غازياً، ومن إهمال الاقاليم شاكياً. المزّة، حقيرة، ها؟ سأنزل وأجلب الصحون الأخرى. من أم كمال. هي المرأة الوحيدة التي تعطف عليّ. وتطبخ لي أحياناً.

شرب جرعة كبيرة أخرى، وخرج قائلاً:

ـ سأكمل حديثي لك عن بغداد.

ولما عاد بالصينية وعليها بضع صحون من المزّة، وطاسة لوبياء يتصاعد منها البخار قال:

ـ عمّ كنا نتحدث؟ عن بغداد؟

ـ نعم، عن بغداد. ولكن قل لي، يا رائد: لماذا كل هذه الكراهية التي يحملها لبغداد النازحون إليها؟

ضحك رائد منتشياً، وتناول كأسه. قبل أن يفرغ ما في الصينية على الطاولة الصغيرة قرب الأريكة، شرب جرعة طويلة، وقال:

ـ تعجبني هذه الكلمة منطوقة من شفتيك البغداديتين. أنا اعرف أنك تدعي أنك بغدادي بالولادة. لا علينا، نازحون نعم، كل الذين هم من أصل غير بغدادي هم نازحون بالنسبة لأهل بغداد، بالفصحى والعامية. إلى هذا الحدّ يحتقرونهم. ولكنني ـ وشدّ قبضته في الهواء ـ سأغزوها رغم هذه الكراهية والاحتقار، أو بسبب هذه الكراهية والاحتقار. لقد جئت لأعرّي حقارتها كأية عاصمة من عواصم العالم، ولأنها بغداد التي تعوّدت على مذلة المغول والتتر وحكم السلاطين، عثمانيين وغيرهم. ومع ذلك فهي تبخل على أبناء قطرها فلا تشملهم برعاية، وتتركهم يقاتلون في مختلف الطرق المشروعة وغير المشروعة ليثبتوا هوياتهم... بغداد تحتقرهم وتحب نفسها.

ـ بالعكس، أعتقد أن أهل بغداد كوزموبوليتون، وليست لهم نعرة البلدات الصغيرة في العراق. البغداديون هذا طبعهم، لا يتضامنون بينما التضامن موجود بين أهل كل مدينة عراقية.

ـ لا، يا عصام، أنت مخطىء. انظر إلى أهل بغداد حين يتحدّثون؟ يشيرون دائماً إلى الطرىء عليهم. هذا من الحلّة، وهذا من أهل الموصل، وهذا راوي، وهذا عاني... اليس ذلك احتقاراً؟

ـ لا أظن. هذه عادة وليست احتقاراً. البغداديون أيضاً يشيرون إلى محلاتهم، حين يتحدثون عن الاشخاص. هذا من الفضل، وهذا من الشواكة، إلى آخره.

لم يكترث رائد بكلام عصام، واستأنف ليقول ما في ذهنه:

ـ ثم إن حكام العراق المتعاقبين، في السابق، بالطبع، لا يهتمون إلا ببغداد، ويتركون المدن العراقية الأخرى تذوي في عزلتها.

وعاد إلى صفّ الصحون. ثم نظر في ساعته، وقال دون أن يترك عصاماً يردّ:

ـ تأخر اللعين.

ـ من دعوت؟

ـ ماذا عندنا غير شهاب وخليل. عطا كسول لا يتحرّك من بيته، وأنا أحتقره، ثم إنه مقبل على زواج. و. . .

والتفت إلى عصام فرآه واجماً. فسأل:

ـ ألا يعجبك المدعوون؟
ـ لا، أبداً.
ـ ربما، لا يستهويك مجيء شهاب؟
ـ لا، أبداً.
ـ أريد أن أكون حمامة سلام بينكما. منذ زمن بعيد لم أقم بهذه المهمة.
ـ وهل بيننا خصام؟
ـ لا، ولكن ربّما جفوة، سبّبتها تلك السفرة اللعينة. ولكن شهاب المسكين لم يكن إلا شاهداً بارداً ومعزولاً لحادثة مبتذلة من كثر ما مورست في التاريخ.

سكت عصام. كان متردّداً بين منطلقات عديدة للاعتراض عليه. ولكن تردده لم يطل. فقد قطعه صوت صدر من قاع البيت. خرج رائد. ودلّى جسمه من الدرابزين، وصاح من هناك:

ـ تعال، عيني، تعال. أنت تعرف الدرج.

لم يفاجأ شهاب بوجود عصام. سلّم عليه ببشاشته المعهودة فقال رائد مهللاً:

ـ فاتحة خير.

وصفق.

ـ ماذا تعني؟
ـ انفتح الطريق للمصالحة، مثلما انفتح الطريق يوم الجمعة إلى رحم تلك الغجرية.

قال شهاب ضاحكاً:

ـ لم يكن أيّ من الطريقين مغلقاً.

ضحك رائد بصخب، وقال:

ـ تعجبني أنت. دائماً رائع دعني أعمر لك كأساً مضاعفة، عقاباً على تأخّرك أو جزاءً على روحك الأريحيّة.

وقبّل شهاب من جبينه. طبطب شهاب على كيس من النايلون كان قد وضعه على الطاولة الصغيرة، وقال:

ـ لا أعرف أية أريحية جعلتني أجلب لك فودكا روسيّة.

قل رائد:

ـ إنه الغزو القادم من الشمال، كما يقول الصينيّون في أدبياتهم. على العموم نقبل بالفودكا، لأن الذي يدخل من هنا يخرج من هناك.

وأشار إلى فتحتيه المكشوفة والمستورة.

ـ افتحها، يا أخي، افتحها..
ـ ماذا تعني؟
ـ الزجاجة.. تشرب مع الثلج، أليس كذلك؟
ـ نعم، وسأترك عرقي، وأشربها معك.

تشاءم عصام من سير الجلسة، وتململ في مكانه. وراقب رائداً يفتح الزجاجة الجديدة، ويصبّ منها نصف قدح لشهاب ولنفسه. كانت يده ترتجف. قال له:

ـ يبدو أنك تشرب على معدة خالية.. كُلْ، يا أخي، كُلْ. أدار رائد إليه وجهاً محمراً، وقال معاتباً:
ـ ماذا تريد أن تقول؟ ظهر عليّ السكر مقدماً؟

تراجع عصام.

ـ لا، وعفواً. ولكنك منفعل أكثر من اللازم.
ـ انه الابتهاج، لا أكثر.. طيّب لنشرب نخب صحة الضيف الجديد، هيا!

وجرع كأسه جرعة واحدة كبيرة مخافة ان يراجع نفسه، أو يحتجّ عليه الضيفان، وأحّ مقلصاً شفتيه، وتواردت الكلمات الحادّة على ذهنه قبل أن يعود وجهه المتقلص إلى سابق وضعه. وكالعادة سأل:

ـ عمّ كنا نتحدث؟

قال شهاب.

ـ عن المعد الخالية.

ـ التي تسيطر عليها المعد المتخمة؟ سيكون حكم التاريخ قاسياً. ولكن لا أحد يعرف لمصلحة من؟ وذلك عذاب السعير.

قال شهاب:

ـ هناك من يعرفون جيّداً.

ـ تقصد من أمثال السيئة السمعة سهام؟ هؤلاء سيموتون قبل أن يروه.

شعر عصام بضيق في صدره. وتأسّف لأنه لبى الدعوة. داوى جرح نفسه بجرعة صغيرة من الويسكي، ولكن الأفكار صارت أكثر حِدّة ومضاء في ذهنه. قال كالصائح:

ـ لم هذا كلّه؟ إلى متى تصبحنا سهام وتمسينا؟

قال رائد متبرّئاً:

ـ وهل تحسب أن لي ثأراً عليها؟ لا، والحيّ القيّوم.

ـ إذن، يكفي.

ـ طيّب، يكفي.

ولكنه مدّ يده إلى الطاولة، فوقعت على كأس عرقه مصادفة، فرفعها إلى فمه ساهياً، ولربما لم يفطن إلى تغيير طعم الخمرة الجنوبية والشمالية لتزاحم الأفكار في ذهنه، وهي تريد أن تطل على لسانه. بعد لحظة صمت عاد يقول:

ـ ولكنني لا أحبّ اولئك الذين ينزلون من عليائهم البرجوازية، لينظروا إلى المساكين بشفقة ملاك من ملائكة الرحمة. لا أحبهم، على الإطلاق. هؤلاء كذّابون يعيشون على الموضة، يريدون أن يجمعوا المجد من أطرافه: سؤدد البرجوازية ودين الطبقة العاملة، هؤلاء لا يقاسون ما يقاسيه المساكين، ويتحدّثون باسم المساكين؟ يريدون أن يبيعوا التقدّمية على رؤوسنا؟ يتحدّثون عن الذين يعانون الجوع أو يأكلون الطعام السيّىء، وهم انفسهم لم يعانوا من ذلك؟ انها تريد أن تبيع كل هذا لي؟ أنا الذي عانيت وشقيت. وتسمّمت بالأطعمة الفاسدة. وتريد أن تكون الفنار الذي تنجذب إليه السفن الضائعة في بحر الجوع والحرمان؟ أنا أنا، وهي هي.

صاح به شهاب:

ـ طيّب، لا تصرخ ـ دعنا نغيّر الموضوع.

ـ طيّب، غيّروه. خذوا راحتكم. هذا بيتكم، وإن كانت بيوتكم تتألف من غرف

كثيرة. ولكن هذا موقفي المبدئي. وهذا سبب فرحي حين كسروا أنفها. وممن؟ من البسطاء. انتم تعرفون من فعل ذاك، ولا حاجة إلى الإعادة.

ونظر إلى شهاب نظرة ذات مغزى. قال عصام بانزعاج وعصبية:

ـ اسمع، إن هذه الاقاويل تورّطك أنت قبل أن تورّطها.

ـ أنا رجل.

ـ تورّطك من الناحية القانونية.

ـ أوه، القانون. هل يوجد قانون في أم الخنازير؟ ثم هناك شاهد حيّ.

قال شهاب:

ـ عند الجد سيتبرأ.

خزره رائد بنظرة حادّة:

ـ لم أتوقع ذلك منك.

صاح عصام مغتاظاً:

ـ يا جماعة. دعونا من هذه المسألة. لماذا نصبح ونمسي على هذه الأغنية؟ أنت نفسك، ي رائد، قلت إنها حادثة مبتذلة من كثر ما مورست في التاريخ.

ـ أي، نعم.

ـ لنسكت، إذن.

ـ طيّب، سكتنا.

وبدا مقهوراً، حتى أنه جمد في وضعه الذي لم يكن مريحاً، وراح يكرّر ساكن الأوصال:

ـ سكت، ساكت، ساكت...

وساد صمت مرهق لدقائق ذكّر رائد بصمتهم المدحور حين كانوا منبطحين على الشاطىء، وقد فاتهم المركب. فبدأ يستعين بالخمرة ليلمّ أشتات نفسه، ويتغلّب على التبعثر في أفكاره. رآه عصام يستزيد منها فقال:

ـ على كيفك.

ردّ رائد دون أن يرفع بصره:

ـ لم يبق إلا الخمرة نجرعها.

عتبه شهاب:

ـ وهل جئت بنا إلى هذه الحجرة لنجرع الخمرة؟

رفع رائد رأسه بحركة رفض:

ـ لا.

واهتزّ الرأس قبل أن يستقّر على يديه المضمومتين، ويتّخذ وضع المتأمَل.

ـ طيّب؟

ـ حسناً، حسناً.. ماذا أقول لكم؟

وبسط يداً واحدة، وبدا وكأنه يداري شيئاً يخجل أن يبوح به. انتظر ضيفاه ما ينطق به. فرفع رأسه ولاحت ابتسامة شقراء مرتبكة على شفتيه المبلّلتين. وقال:

ـ دعوني أشرب أولاً.

ـ أوه، لا تستعجل كثيراً..

ـ الكلمة لا تخرج بغيرها..

واختطف كأس الفودكا، وشرب جرعة كبيرة منها حتى قبل أن ينتبه الضيفان، ويحتجّا.

ـ طيّب، الآن أقول لكما.. جئت بكما إلى هنا لأعلن (كان يتكلم بلهجة خطابية متخشّبة الكلمات، وعيناه تتدحرجان ككرتين من الزئبق الرمادي) لأعلن... أنني قرّرت.. أن يكون لي... عيد ميلاد.

أفلتت من شهاب ضحكة رعناء، واهتزّ كتفا عصام بضحكة أخرى حاول تجميلها بقوله:

ـ مبروك.

ـ نعم، نعم ـ وسأجعله هذا اليوم من أيار... شهاب، لا تضحك... لماذا لا يكون لي عيد ميلاد؟ لمجرد أن أبي كان من الغفلة وهموم العيش بحيث لم يسجّل اليوم والشهر؟ فلماذا لا يكون لي عيد ميلاد مثلك، ومثل عصام، ومثل الأبله عطا، وكل أولئك الذين ينعمون بمكان دافىء تحت الشمس.

ـ يوم ميلادك الأول من حزيران حسب القانون.

ـ لا، لا، أريد مع القطيع.. مع كل المنسيين من آبائهم، الحثالة الذين يكون ميلادهم في أحيان كثيرة عبئاً جديداً يضاف إلى كاهل الوالد. أريد أن يكون لي يوم خاصّ

بي، يوم إطلالي على هذا العالم الرجراج، وأطالب بحصّتي فيه. من أنا إذن؟ حشرة، ذبابة ليس لها تاريخ؟ ولهذا السبب فكّرت في أن أجمع أصدقائي، وأعلن لهم يوم ميلادي، وأنني جئت إلى هذا العالم لأكون مثل الآخرين، جئت لأبقى...

كانت ضحكة شهاب باهتة ناشزة، مثل عطسة في حفل مهيب ـ خفّفها بأن قال:

ـ ومن ينكر حقّك في يوم ميلاد؟
ـ وفي خيرات هذه الحياة أيضاً.
ـ يا أخي، من يمسكك، تفضّل واغرف.

كان السكر واضحاً على رائد من الانتفاخ الذي ظهر تحت عينيه، وانسبال جفنيه الترابيين، ومن عرق جبينه، وترنّح رأسه بين كتفيه، قال عصام محذّراً:

ـ فقط ألا تعتبرنا حرّاس الجنّة.

ثنّى شهاب على كلامه مسرعاً:

ـ بالضبط. نحن نكافح في سبيل ما سميّته مكاناً دافئاً تحت الشمس.

رفع رائد إليه رأسه بصعوبة، ونظر إليهما غير مصدق، وقال:

ـ انتم؟ واي واي..
ـ صاحبنا سكر

ارجع رائد ذراعاً رخوة.

ـ لا، أبداً.

وارتطمت ذراعه بزجاجة الفودكا، وحاول أن يمسك شيئاً وهميّاً، ولكن يده وقعت على حجره. فنكس رأسه مخذولاً، وخمد مستسلماً إلى رخاوة قاهرة حدّدت تعامله مع الأشياء، ومحاولاته. وبعد خمس دقائق لم يعد يحاول شيئاً، ولم يعد يسمع همس الصديقين. كان في عالم يتقلّص باستمرار ليسقط في خدر النوم.

ـ نام التعيس.
ـ حسناً فعل.
ـ دعه يحلم بالجنّة.
ـ يريد حصّته من الغنائم.
ـ افتح، يا سمسم!.

وسقط الآخران في بحر الصمت. حاول شهاب أن يخرج منه بمحارة:

ـ أما تزال غاضباً عليّ؟

ـ اترك هذه الكلمة.

فتح المحارة قليلاً:

ـ بعد أيام سيُمحى التاريخ القديم.

نظر إليه عصام مستفسراً، فأخرج شهاب طرف اللؤلؤة:

ـ ويبدأ تاريخ جديد..

ـ ماذا تعني بذلك؟..

أطبق شهاب كفّه على اللؤلؤة:

ـ لا تطالبني أكثر. ستعرف الأمور في مواقيتها.

غافله عصام وضرب على كفّه في محاولة لزحزحة اللؤلؤة:

ـ وهل تحسبني أطرش أو مغفلاً إلى هذا الحد؟

ـ لا، بمقدّساتي. أنا أخوك. ألم نتربَّ في شارع واحد؟

تذكر عصام كلمات أبيه:

ـ ولكن السبل اختلفت بنا بعد ذلك.

استرخى شهاب، ونظر في وجه صاحبه:

ـ ماذا تقصد؟

وبدأ رائد يشخر شخيراً مقبضاً.

● للمرة الثالثة يأتي خليل إلى هذا البيت، وللمرة الثالثة يحاول أن يضع الخطوط الأولى للصورة المكلَّف برسمها فيعجز. يبهت ويعجز. كان يرى أمامه فتاة نضرة كوردة، سمراء سمرة عميقة وصافية كالزلال قرب نافذة مترعة بالضوء؛ ووراء طنافس زاهية ومزهرية عجيبة. والفتاة مستسلمة لقدرها في الرسم، تشبك يديها في حضنها، جالسة على مقعد وثير كملكة مخلوعة عن عرشها، وتحاول أن تشغل عينيها بأشياء خارج هذا الرسّام الكهل الذي يبدو عصبيّ الحركات، زائغ النظرات، يفكِّر في شيء، ويقوم بشيء آخر. سقط القلم من يده

عدّة مرّات، وحين كان ينحني ليلتقطه، كانت ترى وجهه يحمرّ احمراراً شديداً، ولا سيما في المنطقة حول فمه، ويبدأ عملية الرسم البطيئة المضجرة التي تبدو بلا نهاية.

الصالون الفاخر الرحيب خالٍ، أفرد لهما خصيصاً، ولكن الرسام كان يشعر بأنه مراقب. ظهره أكثر حساسية من عينيه، يحسّ عليه وخز نظرات متلصلصة، وأحياناً، حين تكفّ المراقبة، ويصمت الصوت النسويُّ الآمر، كان يحسّ بوقع أقدام صغيرة تدبّ خلفه، فيعرف أنها تلك الصبيّة الشقيّة التي كانت تستبيح كل شيء بلمساتها، وتعبث بالأصباغ والفرش حتى يقول لها صوت هامس متوجّس: لا تلعبي! كانت الفتاة التي تجلس أمامه تحرّك شفتيها الجميلتين المقوّستين المرسومتين بلون وردي بنّي فاتح يعجز الفنان عن رسمه ومحاكاته. وبعد ذلك تقول: سوسن، روحي لأمك! وخلال ذلك، تكون عيناها الساختنان بأهدابهما الغيورة قد لمستا لمعان النصل الحادّ، وقسمات وجهها الأخرى هادئة رصينة منغمرة بصلاة صامتة. وكان خليل يقول باستحياء: دعيها تقعد، ولكن لا تلعب بالأقلام، وتوسّخ السجاد! وكان، بالفعل، بحاجة إلى هذه المساعدة البريئة التي يقدّمها وجود صبيّة تمتصّ بعض التوتّر في مفاصله، فإن انفراده بهذه الفتاة كان يشعره بنوع مقلق من الحرج، ويجعله يفكر في أشياء خارج اللوحة المكلف برسمها. ولكن نظرات الصبيّة المستبيحة لكل شيء، وذلك الصوت النسائي الصادر من أعماق البيت، وشعاع النظرات التي ترسلها إليه الفتاة الوادعة الحزينة كانت تربكه، وتُخِلُّ بانسياب ضربات قلمه، وتشتّت فكره المشتّت أصلاً.

منذ التخطيطات الأولى شعر خليل بأنه مكلّف بمهمة صعبة تعجز طاقاته المتبلّدة مع الأيام عن النهوض بها، عن نقل كل هذه النشقة الصاعقة من الجمال، هذا الوجه الفاجع برصانته اللاطفولية، المشعّ بوهج الشباب. طوال ممارساته السابقة في نقل الوجوه بالألوان، أو حتى بالقلم الأسود أو الفحم كان يشعر بأنه يقوم بعملية تشويه متعمّدة، وتهريج بالألوان، بعيداً عن المقاييس الانسانية. كلّ يزيّف عن وعي وإرادة، ويخرج عن الواقع المألوف. وبقدر ما كانت هذه العملية ترضي أصحاب الطلبات، كانت تشبع رغبة نفسية خفيّة في نفسه، في العبث والاستهتار وتدمير الذات، كنوع من الاحتجاج الأبله على ما يمارسه من امتهان وابتذال للفنّ، ولكنه الآن لا يحسّ بأنه في حاجة إلى تزوير أو امتهان، ولا احتقار للنفس، بل على العكس، كان يحتاج إلى أن يشدّ شتات نفسه، لينقل الواقع إلى الجنفاص.

ومع ذلك فقد كان العجز يقعده. فإلى هذا الحد كلَّت ملكاته؟ كانت الفتاة نفسها تبدو سئمة في لحظات سهومه وتيبّسه. وكان السأم يلقي ظلاً شجياً شريداً، وكأنها في تلك اللحظة قطعت مرحلة متعبة من تلك المراحل التي قطعها هذا الرسام من اليتم والضياع

والضيق برغبات الآخرين. وكان هذا الظلّ يعطي لوجه الفتاة بُعْـدَ همٍّ مكظوم، واختـلاجة زعل، وكأنما أحرجت من نكتة فاحشة قيلت في حضورها.

كان خليل يحاول إطالة الوقت لتعود قابلياته السابقة إليه، ويستحضر لحظات بعيدة من الماضي كان يعرف فيها كيف يلتقط ومضات الإحساس المبصر. والآن، حين انسلّت سوسن لآخر مرة، التفت فرأها، وقال بصوت كوسوسة الحلي:

ـ اجلسي ـ اجلسي، سأرسمك.

انتبهت الفتاة، اتسعت عيناها بألفة بيتية:

ـ أبي وعدها بذلك، حين تصير عاقلة.

قالت سوسن:

ـ أنا عاقلة، من يخلص الصيف أروح للمدرسة.

ـ سأرسمك مؤكداً. بس انتظري، حين أنتهي من رسم شذر.

وسأل نفسه: متى أنتهي من رسمها؟ يوم القيامة؟ ونظر إليها محاولاً جهد مستطاعه أن تكون نظرته حيادية، لاقطة، نظرة رسام إلى موديل، ولكن نظراته اهتزّت حين التقت برصانة عينيها الصافيتين. طبَّش بالفرشاة في الهواء، ثم عاد فضغطها على إبهامه، عادة لا يستطيع التخلّي عنها، موروثة من عهد الصبا، حين كانت براعم العادات تطلع، أيام كان يخرج مع فنانين مخابيل إلى أنبار الضوء، وبساتين الظلال الساخنة.. والآن يخيل إليه أنه يوشك أن يعثر على كوة تطل على ذلك الماضي..

سمعت الصبية صوت أبيها، هبّت من ربضتها قرب قدميه مردّدة: باباجا، باباجا! واندفعت إلى داخل البيت. شعر خليل بهمّ ينزل على صدره كالرحى. سيأتي هذا الرجل، ولا يراه قد رسم غير بضع خطوط عريضة. سمع صوت الأب الخشن وراءه:

ـ الله يساعدهم
ـ اهلاً، أبو شذر.
ـ كيف الشغل؟
ـ ها أنت ترى.

وتعمّد خليل ألا يلتفت، حتى لا يرى اختفاء البريق الضئيل في تينك العينين الجشعتين، ولكنه شعر بنظراته تحرق قفاه. وسمعه خليل يقول متلمساً في صوته ضيقاً:

ـ لماذا أبدلت المزهرية الفاخرة بهذه المزهرية الكسيحة؟

ـ لغاية في نفسي، انسجاماً مع فكرة أريد أن أعبّر عنها. وعلى العموم لا حاجة إلى ديكور على الإطلاق.

ـ لا، يا أخي. نظرتنا تختلف. يجب أن تبرز جوّ الرفاهية الذي تعيش فيه شذر.. اشتريت المزهرية قبل أسبوعين بثمانين ديناراً خصّيصاً لهذه المناسبة، ولا تعجبك!

كانت المزهريّة المقصودة تنمّ عن فساد ذوق كل زركشة الشرق وغمناته رسمت على سطوحها بذلك الإسراف الأرعن الذي يصرفك عن الجوهر. وألقى خليل الريشة مستاء، وفرك يديه، وقال:

ـ لنؤجّل الرسم إلى غد.

تلقى الأب هذا التأجيل بتقطيبة انزعاج وقلق. فقال خليل:

ـ سآخذ باقتراحك السابق. سأرسم سوسن في فترات استراحة الأعصاب.

ـ اقتراحي جاء عرضاً. لأنني رأيتك متضايقاً يوم الخميس. ولكن مهمتك الأساسية أن تنجز الصورة قبل حلول الذكرى العاشرة لوفاة أم شذر.. يعني قبل رأس الشهر.

ـ سأحاول.

ـ كيف ستحاول؟ كل شيء أمامك: الفتاة ومختلف الديكورات.

تأفّف خليل، وازداد عصبية، وقال:

ـ فعلاً. نظراتنا تختلف كما يبدو.

وأخذ يجمع أشياءه. قال الرجل بتراجع ملموس:

ـ ولكن الهدف واحد.. أن ننجز صورة شذر.

ـ أنت أم أنا؟

ـ أنت بالدرجة الأولى. وأنا أعاونك. أُوفّر لك الجوّ.

هزَّ خليل رأسه بأسى، وقال في سره: لتخرج صورة مبتذلة مثل صوري في السابق؟ بينما كان في لحظة من الاستعداد النفسي والذهني لأن يبتر الجزء التجاري من حياته، والذي يشكل ـ وا أسفاه ـ تسعة أعشار حياته، كما يخمّن في لحظات الانتقام من النفس، وأقلّ من ذلك بقليل حين يتصالح مع نفسه قليلاً. ولكنه الآن مستعدّ لخوض معركة العودة إلى البدايات السارة، بشرف وإخلاص مستهدياً بتلك الوداعة الواثقة، والطمأنينة الساهمة المشعّتين من الوجه الموجود أمامه. ولكن الرجل، عباس ونداس، كان يهشّه بعصاه الغليظة، مثل صاحب أي طلب، ويحصره في زاوية ذوقه الفاسد، ولا يدعه، لحظة واحدة، يغادر ذلك

العالم الذي بناه الآخرون على أنقاض عالمه القديم بنزواتهم المبتذلة، وقبروا موهبته في قبوها العفن.

سمع خليل صوت الزوجة:

ـ عباس، الأكل راح يبرد.
ـ حالاً.. تفضل تَغَدَّ معنا.

لم يستجب خليل لهذه الدعوة المجانية، فقد كان يعرف أنه سيحاصر بين مخارز عيون، بعضها متّجه إلى ضميره، وبعضها إلى عقله، وبعضها إلى حسّه الفنيّ.

بعد لحظات ظهرت الزوجة الزوبعة نفسها. وساقت زوجها سوقاً، وبلا ذوق أو احتشام، إلى مائدة الطعام الذي كانت روائحه الشهيّة تنبعث من الأعماق التي لم يرها خليل، ولا يحتمل أن يراها في وقت من الأوقات. تبادل خليل نظرات تائهة مع شذر. كانت تجلس حزينة مستسلمة إلى إرادة الآخرين، ومنها إرادته هو، إذا كتب له أن تكون له إرادة معها. وكانت شذر منذ لقائه الأول تبدو مطواعة سلسة، دافئة سخيّة ذلك السخاء المبذار الموجود عادة عند الذين لا يملكون مصيرهم بأيديهم، والذين يشعرون بيأس المقاومة وعبث الاحتجاج. وقف خليل محرجاً، ولو استدار لرأى في عيني الزوجة البديلة قوة نابذة كان يشعر بإنها ستطوّح به إلى أسفل سافلين حين كان يدخل هذا الصالون المترف، ويجلس أمام ابنة ضرّتها المتوفاة.

وعندما خرج خليل إلى الشارع، وتنفّس هواء السعدون النقيّ، قال لنفسه:

ـ عسى أن يكون البقّال الوفي قد أبقى لي زجاجتين من البيرة.

● نفّذت شروق وعدها، وعُقِد قرانها على عطا. كانت حفلة الزفاف بسيطة، وشروق، كما هي دائماً، قوية بوجودها الملحاح، تفرضه على الجميع، وتتألّق كشمس في صباحات الأول من آذار، رغم كيانها المصغر، وحجوم أعضائها المتواضعة. كانت تبدو، وهي في الخامسة والعشرين، فتاة توشك أن تشبّ بكل عنفوان شباب جسور، وتمرع في بستان أنوثتها الرّيانة. كانت تتوهّج وهجها الداخلي تنفثه مع دخان سيكاراتها الخارقة، منفصلة عن كل ما يحيطها من ظرف، وكأنها تسير على خطّتها الخاصّة في تغيير الحياة، مبتدئة بنفسها. قاطعها أهلها ليس لأنها مشبوهة تدخّن علناً أمام النساء والرجال، بل لأنها تتحدّى التحدي، وتحقّق رغباتها في أن تكون هي هي بدون مجاملة أو تزوير، وتقدم على هذه الفعلة

الشنيعة، أن تعلن رغبتها في الزواج من عطا، وتتزوّجه غير خائفة من لوم الآخرين، لأنها تشعر بأنها إنْ لم تتزوَّجه، فستلوم نفسها، وهذا أفظع. فقد كانت تتلمَّس في عطا انسانية غافية، على حدِّ تعبيرها، وتعتقد أنه لن يخونها، وأنه سيتمسَّك بها، ويدافع عنها ولا كل الأزواج.

جلس رائد جنب عطا، لأنه رئيسه في القسم، وله أفضال عليه، ولكنه في هذه الليلة المشهودة، ليلة الدخلة، لم يعفه من وخزاته المسمومة. همس له:

ـ ستملأ حياتك دخاناً. أنا متأكّد من ذلك ضمن أشياء أخرى. ولكن مَنْ حياته صافية، يا عزيزي عطا؟ ـ وسكت دافعاً حنكه المدور إلى حنكه ـ أضاف: ـ المهم ألاّ تملأها حرائق وفضائح.

التفت شهاب إلى عطا فرأى عينيه الاثنتين ترفّان، والارتباك والحيرة يضرسان قسمات وجهه. قال، وقد سمع جزءاً من همس رائد:

ـ لا تهتم، يا عطا، مزاج رائد أمرّ من الجرعة الأولى من الخمرة.. هيا، نشرب.

هزّ عطا كفه المبسوطة قرب قدحه المملوء بالبيرة، فلكزه رائد:

ـ أيّ عرس بلا خمرة؟ اشرب لتعزّز رجولتك.

قال عصام:

ـ لا تصدّق! الخمرة تعطي الانسان رجولة كاذبة ـ وحدجه وخفض صوته ـ بينما أنت تحتاج الليلة إلى فحولة حقيقية.

قال رائد هازّاً رأسه:

ـ لا أعتقد.

همس شهاب في أذنه.

ـ يعني لا يركب؟

ـ أشكّ.. ولكن الذي أشكّ فيه أكثر أنه سواء أركب الليلة أم لم يقدر، فانه سيظل مركوباً من قبلها إلى يوم القيامة.

قال شهاب:

ـ لا يهمّ. عنده ظهر قويّ.

ـ اشرب، يا صاحب الظهر القويّ.

ظل عطا ممتنعاً عن الشرب. كانت شروق وعطية تتبادلان النظرات في ضيق، ولا

تصل إلى سمعها إلا كلمات مبتورة، وكانت عطيّة أكثر قلقاً منها، تدير عينيها ولا تعرف أين تحطّمها لتستريح. تماماً كما كانت لا تعرف ماذا تفعل بيديها اللائبتين على حضنها. همست لشروق:

ـ راح يورّطونه.

ـ لا تخافي.. لا يشرب.

ـ سترين.. ضعيف أمامهم.. ستعرفينه أكثر بعد ذلك.

وكانت تشعر بضعفها هي وانكشافها في مجتمع رجالي له نكاته وغمزاته ونظراته الوقحة. وكانت ذراعها اليسرى وهي تضغط على ذراع شروق النحيلة لا تشعرها بدفء وحماية، فيظل قلبها يدقّ مدمدماً بين حناياها، وكأنه يستعجل الوقت لينقضي هذا العرس الذي لا فرحة فيه ولا حرية، ولا أقداح شربت تدور على الجالسين. كانت تأمل أن تأتي أختها الكبرى مع زوجها. كانت تترقّبها منذ بداية الحفلة، ولكن لرجال توافدوا، ولم تحضر اختها ولا زوجها.. ربما سيحضران بعد فوات الأوان، وخروج الرجال الغرباء. تركاها وحدها لا تعرف ماذا تقول، ولا كيف تتصرّف. الخوف والترقّب يشلّان حركتها، فلا تجرؤ على الإمساك بقدح «كرش» خوفاً من ارتجاف أصابعها. وشروق إلى جانبها، هي الأخرى، تبدو حائرة مرتبكة. خانها أهلها أيضاً، وخيانة الأهل في مثل هذا الوقت تبرئة وقبر، أنت وربّك، يا موسى! أحسّت عطيّة بالشفقة على شروق، مسّت أصابعها المصفوفة على حضنها، وقالت وكأنها تخاطب نفسها: أولاد الحلال نكتوا. وكانت تقصد أهلها وأهل شروق. طيّب، يمكن أن تعتب على تحسين أخي شروق لأنه قاطعها منذ بدأت تدخّن علناً، وأمام الرجال، بتلك الشراهة العجيبة، وكأنما «تمصّ حامض حلو». ولكن أين الآخرون؟ حتى عمّتها التي تقول شروق عنها إنها تقف أمام التجّار في سوق الشورجة، وتستقبح معهم، لم تأت وتبارك، ثم تذهب إلى تجّارها لتتقابح معهم. وفهمت عطيّة ذلك السهوم الذي تراه في عيني شروق، حين تلتفت إليها، وترى تقاطيع وجهها الحلوة متوتّرة مشدودة، وكأنها تركزت كلّها بالانتظار. وكانت تعرف من كانت تنتظر، وتخشى في سرّها من وصول من كانت تنتظر. فان اللغط الهامس الذي كان يصل إلى سمعها نثار منه يجعلها تتوجّس من شيء لا يليق بالعرس. وسمعت شهاب يتهامس مع رائد عن ديك سكّير، ورائد يردّ عليه: نحتاج إلى مثل ذلك الديك لنتونّس. وقال شهاب: «والعريس ألا تحسبه ديكاً هراتياً؟» والجوّ بارد، مقبض، لا فرحة ولا تورّد خدود، ولا هلهولة، ولا ترقرق عيون بدموع الفرح. وسأل رائد فجأة:

ـ أين خليل الملعون ليشهد تعمير حياة؟

قال عصام:

ـ خليل نفسه يكافح لتعمير حياته، ولكن في جبهة أخرى.

كان الجوّ يفتقد الرصانة، والأنخاب تشرب بدون سبب وجيه، والأحاديث تتشعّب لتتطرّق إلى ما يثير الشبهة ـ كانت الحفلة تحتاج إلى من يشدّها. اعتمد رائد على راحة يده، ونزَّ وجهه الترابي الأشقر بعرق أوائل السكر، فصاح كالنائح:

ـ يا ناس، راح أتخبل!

تصدّى شهاب له:

ـ يعني لسه بعدك؟

ـ يعجبني حضور البديهة عندك. ولكنني سأتخبّل من صدق.

ـ والسبب؟

مال رائد إلى صدر شهاب: وعاد إلى همسه المشبوه:

ـ لماذا لم تأت الفتاة المصون حتى الآن، إذا لم يكن هناك مانع قوي يمنعها من حضور زفاف زميلتها وصديقتها؟

كشّر شهاب وقال:

ـ لاتثخنها، وتغزل بمغزلك القديم.

ورفع كأسه، وقال:

ـ عزيزي عطا، صحّتك.. اجعل شروق تشرق علينا ببدر جميل.. صحّتكم جميعاً! بالرفاه والبنين.

ثنّى عصام قائلاً:

ـ أرجو أن يكون كذلك في آن واحد أو بنفس الترتيب: الرفاه وبعده البنون.

ضحك رائد، وقال:

ـ تعجبني جداً. ولكن العكس يحصل دائماً. يجيء البنون بكثرة، ويتأخر الرفاه أو لا يأتي قطعاً. قاتل الله بنين بلا رفاه كما عند شيخنا عبد المنعم.

وضحك ثلاثة كانوا صامتين منذ بداية الجلسة. ولربما ذلك ينطبق عليهم. وبعد ذلك تمزّقت المائدة إلى شراذم، حين بدأ الآخرون يتكلّمون. وفجأة هبّت شروق من جنب عطا وأشرق فمها العريض بابتسامة طفولية وغنّى صوتها الغرد:

ـ سهام، حبيبتي سهام.

التفت بعض الحاضرين، وجمد آخرون في الوضع الذي كانوا عليه، بعد سماع الصوت. جمدوا هلعين، وكأنهم سيرون، إذا التفتوا، جثة تتحرّك. ولكن الوجوم الذي قوبلت به سهام يكسف التماعة الفرح التي لوّنت وجه سهام حين هجمت على صديقتها لتحتضنها وعطا بذراعيها، وتدني وجهها من وجه شروق.

وتقول:

ـ مبروك، ألف مبروك.

تنحّت عطيّة من جنب شروق متخلّية عن مكانها للضيفة الجديدة التي لم تكن تعرف ماذا تلوك الألسن عنها. التفتت الضيفة إليها، وقالت:

ـ وأنت أيضاً، عطيّة، مبروك، تخلصت من حضانة عطا. .

وهمست لها بشيء تندّى له وجه عطيّة، وقالت بخجل:

ـ الله يخلّيك.

وابتسمت بحياء. كانت تكبر عطا بثلاثة أعوام، وعطا يزحف نحو الثلاثين، ولكنه يبدو أكبر منها سناً، أما هي فقد كانت في لحظات الصفاء تشعّ من الداخل. كانت تحيا بقوة جلدها وصبرها، وحبّها لأخيها الوحيد بينها وبين أختها جميلة، ترعاه بعد أن تزوّجت أختها، ومرضت أمها ذلك المرض العضال بعد الحجّ. وتوفّيت بين يديها وكانت تعيش في أمل غامض، وحبّ لعطا يعطيها شيئاً من السلوى. وكانت تخاف عليه وعليها من الترهّل والشيخوخة المبكرة، وتكثر من استخدام الخلّ في طعامها، لأنها لا تعرف في أية جريدة قرأت ان استعمال الخل يمنع من السمنة أو يقلّلها. والسمنة هي الآفة الكبرى للمرأة التي لم يخصّها الله حتى الآن بزوج يقاسمها فراشها أو تقاسمه فراشه تسمن وتترهّل، ويذبل رونقها، ولا تعود تصلح إلا للطبخ وغسل الملابس.

ضاق رائد من الجوّ الحنون. فلكز شهاب، وهمس له:

ـ جاءت لتشهد على. . .

أسكته شهاب بضربة حادّة على ركبته، وهمس:

ـ أخذت كفايتك. . .

تلفّتت سهام فيما حولها، وقالت:

ـ والرسّام؟

تبرع ثلاثة ليعلنوا عن آراء مختلفة، قال شهاب:

ـ مشغول بغيري.

قال عصام:

ـ يشيع شيئاً من ألق الشباب في حياته الزاحفة إلى...

وأكمل بحركة من ذراعه. وقال رائد:

ـ مسرف في تأجير أصابعه.. هذا هو الصحيح.
ـ لو كان صحيحاً لجاء إلى السفرة.

قال عصام:

ـ جررته إليها، ولكنهم نكتوا بنا ـ ورأى عينيها اللوزيتين تلتهمانه، فتراجع مخافة أن يكون قد كذب امامها وقال ـ أو تأخرنا عن الموعد في أحسن الاحتمالات.

ـ فاتتك السفرة ـ قالتها بثقة ـ كنت سترى كيف تبدو بغداد من بعيد بلون الطين الغريني. ضفافها هشّة مباحة..

قال رائد بتعجّب مبالغ فيه:

ـ عجيب بغداد مباحة لأم الخنازير!

لاحت جملته قبيحة وسط صمت متحفّز جعله يكمل:

ـ سمعت أن أم الخنازير تختفي أثناء الفيضان.
ـ لا تختفي.. باقية دائماً.. معمورة بالأشجار والأدغال.
ـ التي يمكن أن يباح فيها كلّ شيء؟

حدجته بنظرة حادّة:

ـ ماذا تقصد؟
ـ يعني... السكر والعربدة.

قالت بحدّة:

ـ ولماذا توجه ذلك إليَّ؟ سل الذين سكروا وعربدوا... سل صديقك شهاباً مثلاً.

ابتسم شهاب متبّرئاً:

ـ لا، والله. شربت، ولكن لم أعربد ـ وحاول أن يوجّه الطعنة إليها فاضاف بعد وقفة قصيرة ـ كنت أتفرَّج عليكم وأنتم تلعبون الطائرة. .

واكمل مع نفسه: «ورأيت كيف تشبّ خصلات شعرك الأشقر. .»

ـ ولماذا لم تلعب معنا؟

ـ كنت أتنزّه مع صديق هو صندوق ولايات يلعب بالأسماء.

ـ لا شغل لنا بالأسماء. . على الأخص إذا كان أصحابها غائبين.

وسقطت صاعقة الصمت. وكانت شروق اكثرهم ذهولاً وحيرة. كانت تريد أن تبرىء صديقتها، ولا تريد في الوقت ذاته أن تفسد حفلة العرس. قالت بعد أن سيطرت على أعصابها:

ـ اعجب لماذا لا يحوّلون هذه الجزيرة إلى منتزه للناس البسطاء، مصيفاً لهم.

أسرع شهاب ليقول:

ـ ستُحوّل حتماً. نحن في حركة تعمير جبّارة. ولكن هل سيكلف الناس البسطاء أنفسهم ليذهبوا إليها؟

قال رائد:

ـ بسطاء الناس مشغولون بهمومهم اليومية. اسكت، عمي. .

قال شهاب:

ـ والهموم اليومية ستقلّ أيضاً.

سألت سهام عصاماً، وقد حدجته بعينيها العسليّتين:

ـ ما رأيك، يا عصام؟

كان عصام مشغولاً بأفكار أخرى، فانتبه وسأل:

ـ ماذا؟

ـ هل ستقلّ هموم الناس اليومية؟

كان يبدو ضجراً. زفر من صدره النحيل، وقال وكأنه يناجي نفسه:

ـ قد تقلّ ولكن ستنشأ هموم أكبر.

ضحكت سهام ضحكتها الصدّاحة، واكتسى وجهها المستطيل المتورّد الخدّين هشاشة

الطفولة وبراءتها. وأزال ذلك شيئاً من التوتر الذي قيّد الحاضرين منذ قليل. ولكن تلك الهشاشة اختفت بلمح البصر، وانقلب تورّد الخدين إلى حمرة تتولّد أحياناً حين ينطق اللسان بشيء جدّي أكبر من أن يتحمّله المجلس:

ـ الهموم تكبر مع الزمن سواء لدى الانسان أو لدى شعب كامل، إذا كان أيّ منهما يجاهد ليملك مصيره.

تأفّف رائد تأفّفاً مسموعاً، وقال بسخرية باردة:

ـ المصير، يا سيدتي، صار كالبعبع تخوّفنا به كل الجهات.

خزرته بنظرة قصيرة مستهينة، وقالت:

ـ أولاً، لا تقل سيدتي، فأنا لست سيّدة أحد. أنا سهام إبراهيم ـ وتطلعت إليه بنظرة سابرة، واكتست عيناها لون الكهرمان الداكن، وأردفت تقول ـ وثانياً: المصير موجود سواء اردت أم لم ترد. والتخويف به لا يتمّ دائماً، ولا لكل الناس، لأن عملية التخويف تتمّ عادة بين قطبين حسّاسين عامرين بالعواطف الإنسانية، مثل الخوف والشجاعة، والخسة والضمير، وما إلى ذلك.

قال رائد بمزاح بارد:

ـ يعني أنا لست مشمولاً بهذه العواطف؟

ـ الأمر راجع لك.

وساد جو جديد. وظهر ما كان متغيّباً في أوّل الجلسة. كانت سهام بحضورها تجمع شتات الآخرين، وتوجّه انتباههم إلى ما يدور في ذهنها. وحتى أولئك الذين ظلّوا طوال الجلسة يقلّبون أبصارهم بين المتكلّمين، وعلى شفاههم ابتسامات متحجّرة، ولم يتفوّهوا إلا بكلمات ضئيلة فيما بينهم، فركوا أيديهم وتشجّع احدهم وقال:

ـ الخوف، والحمد لله، موجود.

وقال صامت آخر:

ـ المصير مذكور في القرآن، فكيف ننكره؟

ـ أحسنت يا حاتم، ولكنه مشفوع بكلمة أخرى، ومن يريد بئس المصير؟

عاد شهاب يقول:

ـ وقانا الله شرّه.

حدقت شهام في وجه عصام، وقالت باسمة:

ـ وأنت، ما رأيك، يا شاعرنا القديم؟

ـ شاعركم القديم؟

ـ هل نسيت؟

وضحكت لوحدها رافعة حنكها المدبّب، إلى فوق، حتى لاح عنقها وردياً أملس لامعاً. وبدا عصام كالمحاصر. قال بندامة:

ـ آنذاك كنت ألهو.

ـ بينها كنا نشعر بأنك جادّ. فنتلقف أشعارك على أنها تعبير عن مشاعر جادّة.

غمغم عصام، وقد أحس بحرج:

ـ نعم، جادة، ولكن، ربما كنت أبالغ في جدّيتها. ها أنا دائماً، أبالغ في عواطفي.

قالت شروق بصراحتها الساذجة:

ـ المبالغة نوع من الكذب على النفس.

عاجلها عصام:

ـ احسنت.. كنت أكذب على نفسي.. أهذا يرضيك؟

وكانت نبرة الغيظ ظاهرة في تهدّج صوته؛ قالت سهام معتذرة:

ـ العفو. أنا المذنبة في إثارة الموضوع. ولكن نيّتي كانت صافية. كنت أريد أن أعرف أما زلت تمارس الشعر، كما كنت تمارسه في زياراتك السابقة لكلية الآداب؟

قطع عصام الحديث بهزّة عنود من رأسه:

ـ لا، لا وقت للشعر الآن.

● سرّت شروق كثيراً بموقف سهام، وصارت فرحة العرس فرحتين بالنسبة لها، فرحتها بعرسها وفرحتها بتحدّي سهام للطاعنين بشرفها، والمتشكّكين فيه. فالتي يطعن بشرفها لا يمكن أن تقف هذا الموقف الشجاع. وتردّ هذا الردّ المفحم، وتجعل الرجال يخرسون، أو يبلعون ألسنتهم، كما يقول المثل، أو ما يشبه المثل. كانت شروق تعرف صديقتها منذ سنوات، وتعرف قصتها مع عائلتها، وهي عائلة معروفة ميسورة الحال تملك

بيتاً راقياً عند الكسرة. وكان أبوها غنياً، وإن كانت حالته قد تدنّت في أواخر عمره، وبقي يعيش على إيراداته القليلة، ولكنه ربّى أبناء من بينهم محامٍ معروف، وطبيب أخصائي يقبل عليه المرضى، ومهندس، ولكن سهام منذ أن وعت نفسها كرهت وسطها العائلي الراكد المنكفىء على نفسه، وكانت تقول إن أفراد عائلتها لا يعرفون شيئاً خارج همومهم اليومية، التي لا تخرج عن المال ثم المال ثم المال إلى يوم يقبرون، فيغادرون الدنيا وهم لا يعرفون ما يجري خارج جدران مكاتبهم أو غرفهم، وليست لهم الرغبة في التعرّف على ما يجري في العالم، وما يعانيه الناس.. بينما نذرت هي نفسها لكل ما يستنكف أفراد عائلتها حتى من تسميته أو التساؤل عنه، وكأنها بأعمالها واهتماماتها المضادّة لاهتماماتهم تحتجّ على البلادة والعقم اللذين يخيِّمان على حياتهم العائلية. وكانت لسهام مواقف شجاعة سواء في حياتها الجامعية أو في عملها كباحثة اجتماعية، أو في وظيفتها في قسم العلاقات في المؤسسة، زميلة ورفيقة لشروق لا تسكت على كلمة تشعر بإنها تمسّها أو تخدش كرامتها، كما فعلت يوم أمس في حفلة الزفاف. وكانت شروق تعبر عن إعجابها بطريقتها الصادقة البسيطة. واليوم أيضاً ارادت أن تفعل ذلك.

ولكن سهام دخلت الغرفة، في اليوم التالي، محمرّة متوتّرة القسمات، تكاد ترتجف، وانهدّت على مقعدها في صمت مأزوم، حتى أن الابتسامة الاعتيادية غاضت من فم شروق العريض، ولاح اندهاش مروَّع على وجهها، وراحت تحدق في رفيقتها ذاهلة حيرى، تنتظر أن يفلت من سهام ما يغلي في أعماق نفسها، كما هي دائماً. ولكن سهام لزمت الصمت معبأة بغيظ جعل شروق نفسها تتعبأ بغيظ مثله لم تصطبر عليه طويلاً، فسألت:

ـ سهام، ماذا بك مخطوفة؟

لم تردّ سهام رأساً. عبثت بالأوراق أمامها، وقالت في لحظة تصاعد السورة إلى حدّ لا بد ولا يمكن إلا أن تتحول بعده إلى كلمات يفيض بها اللسان:

ـ هذا الوسخ جابر.

جفلت شروق، والتفتت إلى زميلتها بكل حواسّها المستفزّة، متوقّعة أن تظفر بشيء يردّ على بعض وساوسها.

ـ ماذا فعل؟

لحظات صمت ثم جاء الفيض:

ـ كنت أصعد الدرج، فرأيته واقفاً في آخره يبتسم ابتسامته القبيحة، وعيناه بقعتان من دم. وحاول ان يمسّ يدي بابتذال وقح، وفي أنفاسه رائحة العرق الكريهة.

تساءلت شروق باستغراب طفولي: ـ كيف يصبرون على هذا العربيد؟، يأتي إلى الدائرة سكران؟

اهتزّ صدر سهام بما يشبه نفثة سخرية.

ـ كيف يصبرون عليه؟ قولي كيف يصبرون علينا؟

ولم تجد شروق ما تردّ به. كانت تحيط رفيقتها بنظرات مشدوهة متسائلة، قالت سهام كمن يسائل نفسه:

ـ لا أعرف ماذا يريد هذا الوسخ مني.

وجعل ذلك شروق تتسمّر في حيرة صاعقة، وتحملق فيها طالبة إيضاحاً أكثر؛ ولم يطل انتظارها، حين قالت سهام:

ـ كان يراقبنا طوال سفرتنا إلى أم الخنازير. فطنت إلى ذلك رأساً، حتى ونحن في المركب، وبعد ذلك لم يتركني لحظة واحدة. كنت أرى عينيه الحمراوين أينما أذهب، عندما كنا نتحدّث، وعندما كنا نلعب الطائرة، وحين كنا نجلس على الأرض نتغدّى، وفي كل مكان. تصوّرت أنني وجدت فرصة لأهرب من عينيه الدمويتين. تسلّلت إلى ركن منعزل، في بقعة أعشاب طويلة، واحتميت هناك لأستريح، وأزيل عني بعض التعب والتوتّر، واستلقيت على العشب، وتصوّرت أنني سأغفو دقائق. كان النعاس يطبق على جفوني، واستدرت على جنبي، فرأيت عينيه المرعبتين كعيني جنّيّ مسعور تنظران إليّ من بين سيقان العشب. نهضت كالمجنونة، وصحت كازة على أسناني: خنزير! وأردت أن أفضحه وأكشف أوراقه. ولكن الجبان فرّ.

تساءلت شروق:

ـ عن أي اوراق تكشفين؟

نظرت سهام إلى زميلتها وكأنها لا تعرف أهي تتساءل عن صدق. ولما رأت التساؤل يدور عينيها الواسعتين قالت:

ـ إنه جاسوس.. مخبر.. ولكن لحساب أية جهة كان يعمل في تلك السفرة؟

وفترة الصمت التي أعقبت ذلك تركت كلّ فتاة تتّجه في تفكيرها إلى جهة مختلفة عن جهة الأخرى. ولم تعقّب شروق على قولها بشيء، فقد كانت محرجة في التصريح بأي احتمال من الاحتمالات التي طرأت على بالها.

قالت سهام ـ على كل حال لا أظن بقاءنا في المؤسّسة سيطول بعد تعيين المدير الجديد.

ظلّت شروق مشدوهة، وفمها العريض مفتوح كعلامة تساؤل خطّتها يد طفل. حاولت أن تقول شيئاً يلمح إلى موقف عائلة سهام، ولكنها فضّلت الصمت في آخر لحظة. فقد عرفت أنها ستثير، عند ذلك شجوناً في نفس صديقتها، كما أنها كانت متلهّفة لأن تعرف، ولو من طرف خفي، ما يشير إلى معرفة سهام ولو بشيء يسير مما كان يدور حول شرفها.

وبعد ذلك، حين خلت شروق إلى نفسها، قالت لنفسها:

«لا أظنّها كانت تعرف، ما دامت تعتزم البقاء في وظيفتها حتى يستغني المدير العام عن خدماتها».

● ظل عصام عدة أيام ممتعض المزاج فاتر الهمّة محلول المفاصل، حتى أراد أن يزور الطبيب ليطلب إجازة مرضية. ظلّ في خلواته مع نفسه يفكر طويلاً في كلام سهام، واستجوابها له، وتذكيرها إياه بعهد كان يودّ من كل قلبه أن يطمره ويهيل عليه التراب. كان وجه سهام ذو القسمات المسبولة والعينين اللوزيتين يملأ خياله فيقول لنفسه: إنها كانت تتلمّس جراحي النفسية بأصابع طويلة كالأزاميل، وتفتح نوافذ الماضي، بينما كنت أريد نسيان حماقاتي السابقة، حين كنت أجيء إلى كلية الآداب وفي جيب صدري مقطوعة شعرية، وفي قلبي وهج الرعونة العمياء، فأجد لميس جالسة في جمع من زميلاتها، تائهة في بحر الإصغاء، فلا تتنبه إلى وجودي. وغالباً ما تلكزها إحدى زميلاتها، فترفع إليّ وجهاً عليه أشواق الهائمين، وتشعّ الشمس في عينيها بلون بنفسجيّ. وأنتظر أن تتحرّك ولكنها تطيل النظر إليَّ بغمازتيها، ولا تجد الرغبة في مغادرة العوالم التي كانت تبحر فيها حتى تستحي أخيراً من صديقاتها قبل أن تستحي مني، فتنهض للقياي، وكأنني أنتزعتها من دائرة المغناطيس.

ثم راح يقول لنفسه: لم أكن أقدّم لها غير الأحلام منظومة في قصائد، بينما كانت في ذلك الوقت تتساءل، وتتعطّش إلى محطّة ارتكاز تأوي إليها من السرى الهائم في دنيا التوقّعات. وكان ذلك الزمن، أواسط الستّينات، يعجّ بها، يجري نزال فيه بين أكثرية متمسّكة بأصول اللعبة مثل سهسام ابراهيم، وأقلية صدامية همّها أن تحقّق ما تريد. وكانت لميس لا من هؤلاء ولا من أولئك ولا تحفل بالعواطف النبيلة وتؤمن بأن السباق على المستقبل لا يختلف كثيراً عن سباق خيول مدرّبة على ذلك، تحب أن تراقبها، دون الاشتراك فيها، مثلما كانت تفعل في سباق الخيول الحقيقي الذي كان قريباً من بيتهم. بعكس صاحبتها سهام التي كانت تضلع مع الأكثرية الأصولية، وتشترك في خططهم العاقلة جداً، والمخيبة للآمال

غالباً. وأراد عصام أن يثير اهتمامها، فقال لها إن الشعر حصان جيّد يمكن التسابق عليه أيضاً، يستطيع أن يقطع شوطاً جيدّاً، ويوصل إلى ما يحلم به الواقع الأسيان. وكان يدخل اللعبة من هذا الجانب، ويعدها بجليل الأعمال، ويزرع الأشواق في عينيها المتلوّنتين أبداً بألوان غير واقعية، ولعلها انساقت إلى هذا اللهو الخبيث، والشعر أحياناً يصير نوعاً من هذا اللهو، ونسيت أنها في حكم المخطوبة لأبن خالها، وانغمرت في لعبة المناديل الملوّنة، كما كانت تسمّيها. وكان عصام يلهب شوقها إلى هذه اللعبة، ويأتيها كل بضعة أيام بوصف جديد للون عينيها، وأرنبة أنفها، والتفاتة نحرها. وخلال بضعة شهور أجّج عصام كل كوامن الأشواق في قلبها الناعس على شاطىء الترقّب والانتظار. ثم اختفى لبعض الوقت، واعترى لميس ما يعتري طفلة فقدت لعبتها المفضلة، عروستها الناطقة، ولا يريد أن يقول فارس أحلامها. وعندما التقيا بعد هذا الانقطاع كان لديها الكثير من اللهفة للقائه، لأن سمعتها بدأت تهتز واسمها ارتبط، من حيث تريد أو لا تريد، بذلك الشاب الوسيم الذي كن يكثر من زيارته لها في كلّيتها، ويدسّ في يدها مناديل ورقية ملوّنة. وكان لا بد للميس من أن تحتمي بخيمة الستر. ووقع المقدور، وتمَّ الزواج على غفلة من الزمن العاقل، وغوفلت لميس في الأشهر الأولى من الزواج بأنها حامل. وبمجيء الطفل قطعت دراستها في كلية الآداب. وهذا ما نغّص حياتها فيما بعد، وغيَّر من سلوكها، وجعلها عصبية وتغار عليه حين يطيل غيبته عن البيت. وكانت تلوي وجهها، وتدكّ على قائمة السرير بقبضتها، وتقول: ربطتني بالمطبخ والسرير والطفل يا ظالم، أهلي يتشفّون بي - لم يعرف أنها كانت في حكم المخطوبة إلا بعد الطلاق - وأهلك. . . ولم تكمل، ويقلّب عصام محتمل التأويلات في ذهنه. فقد كان أبوه إلى جانبها، يحاول أن يساعدها. ولكنها كانت تشمّ فيه رائحة البهارات وعرق الجبين، وكل روائح سوق الشورجة الزنخة. . ربما. . لم تقل ذلك. . ولكنها لم تكن تقبل مساعدة من أهله. . وتنتهي إلى القول: قصفت عمري. . . فيردّد عصام في نفسه مَنْ قصف عمر الآخر؟ فقد صارت له مشاريعه الخاصة، وكانت الوظيفة المتواضعة، دون مستوى أحلامه. وقد ترك جواد الشعر يكبو به، وأعجبه أن يمتشق حسام العلم. .

ارتخى عصام على ظهر كرسيّه الجاسي، محاطاً بعيون الموظفين الجاسوسية. كان انثيال الذكريات عليه كالتيار الكهربائي الهادىء يسخن أعصابه إلى حدّ الكيّ. كان الضحى قد ارتفع، وهو في هذه الحال يتقلّب على رمضاء نار داخلية تزيد من وقدتها شمس أيار المنعكسة على الجرارات الملونة لدولاب إضبارات فارغة تقريباً، لأن قسم المتابعة لم يتأسّس إلا قبل مدة قصيرة، والأقسام الأخرى لا تريد أن تتخلّى عن أسرارها، ولا تريد أن يتابعها عصام أو غيره. تناول عصام ملفاً، وقلب أوراقه القليلة. وكان من عادته أن يضع على الهامش

ملاحظاته ويترك الأمر للمدير العام ليبتّ بالقضية المطروحة. ولكنه لا يعرف كيف عنّت له فكرة الدخول إلى المدير العام الجديد، وطرح الموضوع عليه مباشرة. وكان هذا المدير قد اجتمع مع رؤساء الأقسام، كل على انفراد، وتخطّاه لسبب مغيظ فأراد أن يعلن عن نفسه بنفسه.

قلّب المدير العام الأوراق صامتاً، وبدت اللحظات دهوراً من الصمت الجليدي. وتناول المدير القلم الشيفرز، وقبل أن يوقّع سأل دون أن يرفع بصره:

ـ أنت خريج انكلترا؟

ـ نعم، جيلسي.

ـ بسنواتها الكاملة؟

استغرب عصام، ولكنه ضبط نفسه، وقال:

ـ نعم، اربع سنوات.

ورفع المدير العام رأسه، وانسرح على مقعده من الجلد الناعم، ولاح شبح ابتسامة غامضة تحت شاربه:

ـ يعني تحمّلت صدمة الغرب؟

نظر عصام إليه مستفسراً. وقابلته عينان حادّتان جادّتان.

ـ يبدو أنك لم تفهمني..

ووضع قلم الشيفرز، وبدا وكأنه يرزنه. لاح له عاقلاً ورزيناً. عندئذ أكمل:

ـ أقصد ليس كل الناس يتحمّلون صدمة الغرب. الحياة الطليقة، الحرية الفالتة، أنواع التسليات، ومبتكرات العلم والتكنولوجيا.. كل يوم شيء جديد.. لا، ليس كل الناس.. في عهد سابق ذهب جار لنا، لم يكن من أهالي بغداد في الحقيقة، أرسل إلى نيويورك، ليكمل دراسته. فماذا تتصوّر؟

وعاد المدير العام فرفع القلم ثم ألقاه بقوة:

ـ تخبّل.. اختلّ عقله، فاضطرت الحكومة إلى إعادته إلى بغداد على وجه السرعة. ولما سألوه: ماذا جرى لعقلك؟ لماذا اختلّ؟ قال بصراحة المجانين: وكيف لا يختلّ؟ أكون مستغرقاً في التفكير في مسألة رياضية، وأسرح، وإذا بالعمارة التي أسكن فيها تهتز حتى أتصوّر أن زلزالاً قد وقع. وأمسك رأسي، وأتشاهد. وعندما أفيق من الصدمة أعرف أن قطاراً

معلّقاً مرّ فوق رأسي. السيارات والقطارات في الأنفاق، والإعلانات تلتهب فوق الرؤوس كنار جهنم، والصورة تقدم عليك كالعقرب حتى تكاد تلدغك.. فتفزّ.. فكيف لا أتخبّل؟

وسكت المدير العام وكأنما شعر بأنه أسرف في الكلام، وتجاوز الحدّ لموظّف صغير. تناول القلم من جديد، وأخذ يمرّره على الهوامش ثانية، ووقّع. وحين عاد إلى ظهر مقعده، مؤذناً لعصام بأن يرفع الأوراق من على المكتب، سأل:

ـ على العموم. أنت مرتاح في وظيفتك؟

لوى عصام رأسه، وقال بتخلص مقبول:

ـ شيء على شيء مرتاح.

فأحسّ بنظرة المدير الواخزة تخترقه. وما قاله عصام بعد ذلك خلق روضة من الأمل في ذهنه:

ـ الانسان يرتاح إذا كان يشعر بأنه يؤدّي خدمة لوطنه.

ـ هذه الخدمة لا تؤدّى بشكل جيّد، إذا كان الانسان يشعر بالغبن، وبأنه في موقع لا يناسب مؤهّلاته.

كأن المدير نفذ إلى ذهنه. واضطرب عصام، وكأنما سيقول المدير العام في اللحظة التالية قولاً أكثر صراحة وكشفاً عما في نفسه، ولم يعرف عصام ماذا يردّ، وأمل أن يتحوّل المدير العام إلى الإشارة إلى غبنه. ولكن هذا اعتصم بالصمت المقلق يريد أن يعطي للموظّف الذي أمامه فرصة لإظهار صراحته، وإطلاق مشاعره الحبيسة. وفقد كلاهما الأمل في تحقيق ما يريد. مدَّ المدير العام ذراعه إلى جهاز التلفون الداخلي، وضغط على رقم، وطلب حضور موظّف، فعرف عصام أن لقاءه الأول مع المدير الجديد قد انتهى. رفع الأوراق من على مكتبه، ووضعها في الإضبارة وحين همَّ بالخروج سمع صوت المدير العام وراءه:

ـ قل لي... صحيح أن كلية جيلسي غير معترف بشهادتها؟

جفل عصام، وأحسّ بطعنة تنفذ إلى خاصرته، حتى أنه لم يلتفت رأساً، وحين التفت ورأى عيني المدير العام تختبرانه، قال بصوت جاف:

ـ كيف غير معترف بها؟

ـ هذا ما سمعته.. يقال إن لقب مهندس سحب من كل الذين تخرّجوا منها.

وجد عصام نفسه مضطراً إلى الدفاع عن شهادته ولقبه:

ـ على كل حال أنا مستعدّ أن أدافع عن شهادتي. أنا مسجل في نقابة المهندسين.

ولم يقل المدير شيئاً، وياليته نطق بأية كلمة كافرة، فان صمته ترك عصام على حافة بئر عميقة، وعندما خرج منه أحسّ بخيبة ومرارة، وكأنه بالفعل مقبل على امتحان آخر للدفاع عن لقبه، مقبل على شيء خطر وخبيث يزرع الجنون في أصلب الرجال سواء مَنْ اجتاز صدمة الغرب منهم أو من لم يجتزها.

وبعد الدوام تضخّم الشعور بالانكشاف والوحدة، وحاجته إلى مسند يقيه من الانحدار، حاجته إلى شيء دافىء، حقيقي، نظيف، ثابت مغروس في الأرض، مأمون لا يخونه، ولا يتخلّى عنه، ويسحب منه اعترافه به... فساق سيارته إلى شارع فلسطين، ووقف في البقعة نفسها التي تقف فيها سيارته عادة، وزمر، وحين أطل عليه وجه ابنه الحبيب بعد دقائق، وجاء يركض إليه نقياً بريئاً تطلّ اللهفة من قسمات وجهه، شعر بالأمل والرغبة في الدفاع عن نفسه، وعمن يحبّهم.

قال الصبي:

ـ هالمرة وين نروح؟
ـ إلى آخر الدنيا.. إلى أي مكان تشاء..
ـ إلى القهوة أم السمك..

● كان والد شذر يبقى في بيته حتى مجيء الرسام، ويظلّ في البيت حتى ينصب خليل عدته، ويصفّ أقلامه، ويتأهّب للرسم. اليوم وجد خليل عباس ونداس قد غيرَّ الديكور. فجعل إلى جانب المزهرية.. أم الثمانين ديناراً جهاز تلفون من المرمر، وطرفاه من البرنز الذهبيّ البريق. وكان لمعان البرنز يستطيل ليصير ابتسامة سخرية تزري بوجه الفتاة، وتضفي الشحوب عليه، وعلى شعرها الحنّائي ليصير رفات لون.

قال خليل غير مخفٍ استياءه.

ـ لم كلّ هذا؟
ـ لتظهر الصورة أبهى وأترف.
ـ دعني أخطّط الصورة أولاً...
ـ طيّب، نغطّي الديكور بقماشة حتى تكمل التخطيط.

وهرول عباس إلى الداخل، وجلب مفرشاً أحمر، وفرشه على الديكور، فتوهّجت الخلفية بلون همجيّ فاجع:

غضب خليل، وصاح:

ـ ارفعه أرجوك.. دعني أشتغل خارج هذه الزوائد التافهة.

ـ زوائد تافهة؟.. كلّها فلوس..

ـ اترك الفلوس جانباً الآن.. اترك كلّ شيء ودعني أخطّط.

ـ أتركك، ولكن إلى حين..

وغادر الرجل، وامتعض الرسّام، فأفرد ذراعيه بحركة يائسة، وبقي وقتاً لا يعرف ماذا يفعل، ولا يريد أن يفعل شيئاً غير أن يتراخى وينتظر زوال الاهتزازات في شعيرات أعصابه. وبعد أن هدأ قليلاً تناول الورقة، وأخذ يخطّط. وسأل شذر بعد برزخ عميق من الصمت، يحاول أن يشركها في إحباطه:

ـ هل أنت موافقة على ما يفعل أبوك؟

لوت رأسها إعراضاً، ولم تجب. فتابع يقول موضّحاً:

ـ هل تتصوّرين أفعاله من مظاهر الحبّ لك؟

لاذت بالصمت مرة أخرى. وسكت خليل مخنوقاً بمشاعره. وبدأت دورة أخرى من دورات الصمت الموسوس. وكانت شذر في الغالب لا تبادله إلا كلمات قليلة، وتحتمي بالصمت من كلّ ردود الأفعال والأقوال، ولا تظهر انزعاجها إلا حين تتمادى اختها سوسن بالعبث بادوات الرسّام، وكأنها تخصّها. وكان هذا الصمت الذي يتمطّى كثيراً، ويترسّب رصاصاً في قلب الرسام، يربكه، ويوسوس في صدره، فيتصور أن ما يقوم به هو عملية تعذيب وليس رسماً، وأن الفتاة تتخشّب حين تجلس أمامه ليرسمها، وتلتزم وضعاً مفروضاً عليها، وتتأذى منه أذى يظهر أحياناً في تلك الثنّيات الدقيقة التي تحوم حول شفتيها كاختلاجات غضب، وفي ذبول الجفنين بما يشبه الوعكة المرضية، وفي تبرقع الجبين في غلالة حزن. كل ذلك إكراماً أو خوفاً من أبيها، ولولا ذلك لتركت المنصّة، وخرجت هاربة باكية. وكان خليل يحاول أن يستنطقها، وفي هذه المرة حاول أن يبثّ بكلامه الدفء والليونة في أعطافها التي كان يشعر بأنها تتيبّس أمامه، وتفقد طبيعتها. بعد وقفة قصيرة أعاد الكرة، ودخل إلى قلبها مدخلاً آخر:

ـ هل تفطنين على المرحومة أمك؟

قالت رأساً، ولكن بخجل كسير:

ـ أفطن.

ـ توفّيت، وأنت في السادسة؟

ـ يقولون. .

واستعذب هذا الحديث الانفرادي الهامس، بعد لحظة، دخل في ذلك العالم الأثيري، عالم الطفولة السريع العطب، وهمس مثلها:

ـ أما أنا فلا اذكر أمي إلا خيالاً.

وتمطى نصف وجهه الأسفل في ابتسامة استغفار، وهزّ رأسه دون أن يرفع عينيه، وقال:

ـ أنا يتيم مثلك. ماتت أمي، وأنا في الثامنة، أنا لا أكاد أذكر وجهها، ولكن أذكر ثوبها الأسود الذي كانت ترتديه حداداً على خالي. وفي ذلك اليوم حملتني عمّتي إلى بيت جدّي، وقالت ستعيش هنا أياماً حتى نصلح البيت. ولما عدت لم أجد أمي. ولما سألت قالوا: لحقت بخالك في الغريرية، ولم أكن أعرف ما هي الغريرية، وربما أنت لا تعرفين هذه المقبرة. عندها انتظرت وانتظرت ولم تأت أمي.

وأطلق حسرة، ونظر إلى الفتاة خلسة. كانت قد تخلّت عن الوضع الذي التزمته، ونكّست رأسها حتى نفرت خصلة من شعرها كانت محشورة وراء أذنها، ولكنها بقيت على صمتها.

فراح خليل يزيد لوعتها أو لوعته:

ـ مهما يكن حبّ الأب واهتمامه، فإن حنان الأم لا يعوَّض.

وكان صادقاً في تجربته. مرَّ به حنان الأمّ كالطيف، ولم يذكر جبروت أبيه. هزّ رأسه، وتفتّحت زنبقة فمه الحمراء عن ابتسامة مريرة حيث تدفّقت الذكرى على ذهنه، وراح وكأنه يحدث نفسه:

ـ كان أبي يضربني حين يراني ملطخاً بالصمغ، حين كنت أقصّ الأوراق الملونة، وأصنع منها اشجاراً وبيوتاً وحيوانات، وألصقها على ورقة بيضاء كبيرة لتصير صورة. وكان يشتمني شتماً قبيحاً: أبن الـ . . .، يعني يشتم نفسه أو أمي، حين يرى ملابسي قد تلطّخت بالألوان المائية. وبعد أن كبرت وصرت أرسم كان يقول لي: ما الفرق بينك وبين صبّاغ الأحذية؟ صبّاغ قنادر!

وصـدرت من فوق ضحكـة قصيرة، وخجـل أن يرفـع رأسه لـيراها وقـد تحّـررت من الوضع الذي تنشدخ أمامه فيه ليرسمها، وصارت طبيعية، بيتية. وصمتت شـذر وخيل إليـه أن في الصمت مقلباً، فرفـع بصره على استحيـاء، فرأى عينيهـا الدعجـاوين تبتسمان بحنـان أخت صغرى، وكأنه كذب كذبة محتملة تجلب العطف. وقلب الموضوع:

ـ أبوك شيء آخر، كما أعتقد. ها أنا ارى كيف يحيطك بهذا الترف.

وأشار بذراعه إلى الصالـون، حيث تراكمت بـلا ذوق أشياء غـالية ومتنـافرة. وجعـل الرسام يمطّ شفتيه الحمراوين، وينظر إلى هذه الأشياء بعداء وحنق، وكأنها قيود تثقل حركات يديه. لمع جبين الفتاة لمعة خفيفة. حين استدارت باتجاه النافذة ربما لتستنشق هـواء طازجـاً، كأنها بهذه الالتفاتة تقدّم ردّها الصامت إلى هذا الرجل الذي يخجلها بسرد قصص مضحكة عن حياته الخاصة، ويبدو لها كطفل متضخّم. رمقها خليل وشبك أصابعـه، وأسند القلم في الفجوة بين إبهامه وسبابته، وجابهها:

ـ أنت متضايقة؟

جفلت بحركة انعكست على محيّاها كله.

ـ لا، وأنت؟

ـ أنا؟

وابتسم خليل معتذراً، ووضع القلم مع الأقلام الأخرى، وزفـر زفرة سمعتهـا الفتاة، فقالت أوّل جملة طويلة لها:

ـ إذا كنت تعبان، تسلَّ برسم سوسن.

قال مرخياً كتفيه كمن يلقي شيئاً عن كاهله:

ـ ربما هذا أفضل.

وكان يودّ لو يقول لها أكثر، لو يشرح لها سبب ضيقه وتعبه، وحالته العصبيّـة المتوتّـرة، وعجـزه عن القيام بعمـل مثمر. ولكنـه كان يعـرف أن أذنين مـرهفتين، وربمـا أربـع آذان، تنصت إليه من وراء الجدار. عاد يقول:

ـ لطيف. أين سوسن؟

نزلت الفتاة من مقعدها المـوضوع عـلى منصّة مخمليـة، كما صمّم أبـوها، لتبـدو ملكة سبأ، على حدّ قوله، بلقيس العراقية، وقبل أن تصل إلى الباب، هتف الرسام متضرّعاً:

ـ شذر!

وكانت هذه المرة الأولى التي يناديها باسمها. أفلت الاسم من لسانه عفوياً، وتألّق أمام وجدانه كهذا الحجر الكريم. حوّلت الفتاة إليه عينين متسائلتين مطواعتين، وتريّث قبل أن يهمس حتى لا تسمع صوته:

ـ أنت لا تعرفين سبب ضيقي؟

ولكنها سمعته، ربما لأن الصوت خرج من أعماق صدره المحموم. التفتت إليه، وتوقّفت في مكانها. على مقربة دانية منه. وبدا وجهها الأليف الوديع يحمل أكثر من طاقته من الاندهاش والذهول. تقدّم خليل خطوة أخرى. وقال كالمتوسّل:

ـ انتظري لحظة..

أطاعته الفتاة. شعر خليل بغصّة واخزة في حلقومه. فتكلم ببطء وبلا ترابط:

ـ شذر.. كل هذه الأشياء.. توافه.. قنزحيات.. وهي لا تناسبك، يا شذر، لا تناسبك على الإطلاق..

وصمت مِنْ تزاحم العواطف في صدره. ونظر إلى الفتاة على بعد ذراع منه. كانت تنكس رأسها مرتبكة خجلى:

ـ شذر، لا يجوز هذا، وحق النبي العربي!

بسطت الفتاة ذراعيها، وقالت بصوت مهشّم:

ـ شتريد أسوّي؟ ـ ثم اكملت بعد فاصلة ـ ظهري تخشّب من الجلوس على المنصّة.

وشعر خليل بأن في ذلك عتباً عليه، نقداً لإخفاقه وتراخيه في إنجاز مهمة طالما قعد لها، وأنجزها بيسر، وبلا وجع رأس، وجد نفسه محاصراً مقهوراً. فهبّ مدافعاً عن نيّته:

ـ شذر، أنا لا أحب هذه الزخارف.. أريد، أريد، يا شذر، أن أرسمك لوحدك... على الطبيعة... في الطبيعة.. فيا ليت والدك يقبل.. يقبل أن أخرج بك من سوق الهرج هذا، وأطلع بك إلى الطبيعة.

وسكت ليعرف وقع كلامه عليها. ولم يرفع بصره ليرى ابتسامتها المتحسّرة، التي أثارتها كلمته المفهومة جداً لها، سوق الهرج، الذي سمعت به، ولم تره، ولكن الناس ينطقون به فيثيرون في الآخرين ابتسامة رثاء شبيهة بابتسامتها هذه.

ومضى الرسام يقول مصرّاً على ما يريد:

ـ اطلع بك إلى الطبيعة، أرسمك قرب شجرة نبق على شاطىء النهر، قرب نخلة، شجرة دفلى.. أريد، يا شذر، أن أضعك في موضعك الصحيح.. شذر ـ ودقّ جمع يده اليمنى على

كفّه اليسرى ـ أنت والطبيعة العراقية شيء واحد. . أنت. . .

كانت اصابع يده تتشنّج، تنبسط وتنقبض، وكأنها تساعده في حركاتها هذه، في سدّ الثغرات في لغته المنطوقة، وهو الذي لم يتعوّد على التعامل بالكلمات، ولا على مثل هذه المواقف، لم يكن يعبر بالحرف، بل كان يحلم بأن يكون اللون، وضربة الفرشاة لغته المعبّرة الخاصة به.

نكست الفتاة رأسها مرة أخرى. في حياتها القصيرة، منذ أن وعت، لم تسمع مثل هذا النشيج الكلامي من رجل راشد، ربما لا يقلّ عن عمر ابيها، لم تسمع رجلاً متوسّلاً، استغاثة كهذه الاستغاثة. لم تعامل هذه المعاملة طوال حياتها، ولم تشمل بمثل هذه المدائح. كان أبوها، إذا اراد أن يظهر عطفه عليها، اشترى لها شيئاً تسرّ به، دون أن ينطق بكلمة.

وفي الصمت المحرج الذي لم يرده أي واحد منهما، ولم يعرف كيف يتخلّص منه، ارتفع الصوت النسائي الهادر:

ـ هاي اش صارت الصورة؟ قصة عنتر؟

ودخلت سوسن تتبعها أمها، فرأت الرسّام وابنة زوجها متقابلين مبهورين، كأنما ضبطا في الشروع بتبادل القبل.

صاحت المرأة:

ـ ما هذا العذاب؟ أنت ترسم لو تخرب بيوت؟

اصفرّ وجه الرسّام، وبوغت، وغاض الدم حتى من شفتيه المترعتين بالدم، صاح:

ـ أنا لا ارسم. ولكن مهجتي تتفتّت، لأفعل شيئاً يرضي ضميري. . أنا أخلق!

ـ تخلق؟ صرت ربنا لتخلق؟ انظر إلى شكلك. .

صاح بها:

ـ إذا كان شكلي لا يعجبك فهذا موشغلي. . شغلي ما يخرج من يدي، ويرتاح له ضميري.

ـ اترك ضميرك على صفحة، وارسم ولا تفسد شكل البنيّة.

وقادت المرأة سوسن وشذر من يديها، وقالت وهي تعود بهما:

ـ يريد أن يخلقها من جديد. . الأحسن أن يخلق شكله من جديد. .

أسرع خليل في جمع أدواته خجلاً منّ نفسه، ومن الفتاة التي لم يرد أن يلتفت إليها، خوفاً من أن يرى شبح الخيبة يظلّل وجهها الصافي.

• ترك رائد المقالة التي كان يكتبها، ونظر إلى عطا. كان هذا يجلس إلى مكتبه، ينقل شيئاً من دفتر كبير مشغولاً متأنّي الحركات ويبدو مرتاحاً مطمئنّ النفس، مورّد الوجه، مصقول الجبين، يستقرّ شعره الاجعد مموجاً على رأسه الكبير، ويرسل لمعة خفيفة تتغير بتغير حركة رأسه. وبدا لرائد وكأنه شخص آخر يختلف عن عطا الخامل، المهمل، البطيء الحركات، فقال لنفسه: أمن المعقول أن الزواج يمكن أن ينفخ في عجينة رخوة لتصير أحد طيور الجنّة؟ وانبثق في داخله يعسوب لاسع جعله يتململ ليقول شيئاً يخرجه من حالة الاستقلالية هذه:

ـ كيف الحياة الزوجية، يا عطا؟

رفع عطا رأسه عن الورق، وابتسم ابتسامة خجلى، وقال:

ـ يعني
ـ يعني مرتاح؟
ـ مرتاح.

طفر على لسان رائد:

ـ وهل وجدت العروس ثيّباً؟

امتعض عطا من هذه الكلمة الجديدة عليه، لمجرَّد أنه لا يعرفها. قال يحرجه:
ـ ولماذا تسأل؟
ـ اريد أن يرتاح قلبي..
ـ ليكن مرتاحاً..
ـ يعني وجدتها ثيّباً؟

مرة أخرى يجابه عطا بهذه الكلمة العويصة، فأجاب جواباً حيادياً ليغطي جهله بمعناها:
ـ هذا لا يحتاج إلى سؤال.
ـ يعني، ثيّب؟
ـ ثيّب، ثيّب، يعني كل النساء عندك عاهرات؟
ـ لا، طبعاً، ثيّبات.
ـ بالطبع.

وغص عطا بحنقه، فضحك رائد بنشوة. ادرك أن عطا لا يعرف معنى الكلمة، وانطلت عليه النكتة. نظر إلى وجه عطا الذي ازداد تورّداً. فأراد أن ينتزع منه الاعتراف بالكامل.

ـ يعني لا تزعل إذا قلت انك تزوّجت ثيباً.

ـ على أي شيء أزعل؟

واستغرب عطا، ووضع القلم، ونظر إلى الجهة اليسرى حيث المنارة مزرقّة مصفرّة. وقال لنفسه: لماذا يستعمل رائد كلمة ثيّب بدلاً من عذراء؟ إنّه مجنون يحب الكلمات الميتة يُزّوق مقالاته بها.

وكان رائد يزوّق مقالة بالفعل. كانت الأسطر الأربعة تتراقص أمام عينيه في عرس الكلمات الثيّبة، يتصرّف بها النخّاسون حسب مستواهم العقلي، وميزانهم الاخلاقي، ووجدانهم المتقلب مع الطقس.. وقال رائد لنفسه: هذه الجواري الوحيدة التي أمتلك حقّ التصرف بها.

ولم يطل تصرّفه بجواريه. دخل عليه خليل يحمل عدة الرسم، محمرّ الشفتين والعينين، مخدّد الوجه، كأنه خارج من معركة مع الشيطان. بدا متعباً مكدوداً لاهث الأنفاس. تلمّظ، وقال:

ـ أوص لي على بارد.

وتهالك على كرسي.

ـ ماذا حصل لك؟ تعاركت في الشارع؟

ـ انتظر.. دعني التقط أنفاسي.

ولما حضر البارد قال خليل بعد أن شرب جرعة كبيرة منه:

ـ اسمع، يا رائد، أريد أن تكتب لي مقالة.

ـ تفضّل، ديباجتها جاهزة عندي.

ـ أنا لا أمزح.

ـ وأنا أيضاً.

ـ هل تؤمن بالفن؟

ـ مثلما أومن بالقدر.

ـ الفن الحقيقي الصادق.

ـ جارية، جاريتان، ثلاث . . .

عدّ رائد باصابعه. غضب خليل:

ـ قلت لك: أنا لا أمزح.
ـ قلت لك: وأنا أيضاً.
ـ أليس الفن خلقاً، معاناة؟ . .
ـ كل شيء هو. . .
ـ أنا أتعذّب . . وأنت تهزل . .
ـ وماذا تريد مني أن أفعل؟
ـ لا أريد شيئاً . . ولكن هل تعرف أن الناس يتصوّرون الفنان جالف صحون وقدور؟ يريدون أن يجلف الصدأ من أجسادهم، وأرواحهم المسخمة . . أنا ضد هذه الفكرة . .
ـ وأنا أيضاً . .
ـ الفنان يرى ما لا تراه عيون الآخرين، وإذا . . .
ـ اسمع ـ قاطعه رائد ـ الكلمات كالحبال إذا شددت عليها بقوة خنقتك.

صرخ به خليل: ولماذا لم تختنق حتى الآن؟

وتركه قبل أن يتمّ شرب «البارد». صاح رائد عليه من الباب:

ـ اسمع، اسمع . . أردت أن أحدّثك عن قصّة عطا . .

رفع عطا عينين مفتوحتين، أدار وجهه دورتين متتابعتين نحو الباب، ونجو المنارة. وصعد خليل إلى غرفة شهاب، وقال من الباب:

ـ شهاب انتهى . . لن أستطيع مواصلة العمل مع صاحبك

نهض شهاب من وراء مكتبه مندهشاً:

ـ ماذا حصل؟ الم تكمل الصورة الملوّنة؟
ـ في الجحيم تذوب كل الألوان وتتبخّر . . وبيت صاحبك عباس جحيم حقيقي.
ـ أنا لا أفهم. تعاركت معه؟
ـ كان بودي منذ اليوم الأول أن أصرخ في وجهه: اذهب إلى جهنم، أيها الجلف الذي يخفي جلافته برباط مستورد من باريس، ولكنني تحملت حتى انفرت مهجتي.

حدق شهاب في وجه خليل المجزع المحتقن:

ـ ماذا فعل معك؟

ـ كلما دخلت إلى بيتـه، رأيت ديكوره الفظّ منصـوباً، رأيت التحف الميتـة تخنق الجمال الحي. إنه يصمّم لي كل شيء بذوقه الفاسد، ولم يبق إلا أن يمسك بالفرشاة ويرسم.

قعد شهاب إلى جانب خليل.

ـ اسمـع، خليـل، لا تكن متهـوراً، ولا تسيء إلى عـلاقتـك مـع رجـل سينفعـك في مستقبل الأيام. أنت لا تعرف الرجل، ولا تعرف كم هو كبير.

قال خليل مستهزئاً:

ـ نعم، ضخم ذو شـاربين سميكـين، وأنف جبار، تجلس عليـه نظارة سميكـة، ولـه صوت أقبح من صفـارة إنذار، ولكنـه فارغ فظّ.. لا أعـرف ماذا يـريد.. لم لا يـذهب إلى أحد الرسامين في الحيدرخانة ليكبر صورة شمسية لابنته؟

وشعر خليل بالأسف رأساً لأنـه ذكر الابنـة، وعضّ على شفتـه السفلى، فـراح شهاب يربت على يده المرتخية.

ـ اهدأ، اهدأ. الآن سـأطلب لك قهـوة مسكّنة. وليتني أستـطيع أن أطلب لـك شيئاً أقوى. ولكن الدوام على وشك الانتهاء. وسنذهب معاً إلى بيته.

ـ لا، لن أذهب.

ـ ما هذا الجنون، يا خليل؟

ـ جنون أن أرسم على طريقته.

ـ ولكنـك كنت تفعـل ذلـك. فعلتـه منـذ أن عـرفتـك. كنت تجـاري النـاس، وتلبّي طلباتهم، ولا تحتجّ ولا تبدي تذمّراً من كل ما يطلبونه منك.. كنت..

ـ كنت أزوّر.. نعم، كنت أبصق على تلك الوجوه القبيحة المتنافرة الملامح، تلك التي تريد أن تجمِّل نفسها. أمـا الآن، في هذه القضيـة بالـذات، فلست بحاجـة إلى تزويـر، بل بحاجة إلى صفاء مع النفس، إلى التعامل مع الألوان بطريقة مهـذّبة، بحـاجة إلى أن أعرف ذلك الشيء الغريب الـذي يجعل شـذر بهذا القـدر من الدفء الإنسـاني.. أريد أن التقـطه بصفاء ذهن وراحة أعصاب، أن استغرق في ذلك.. السحر.. لست أدري ماذا أسمّيه...

ـ الله، كأنك عاشق

تلوّع خليل بصوته:

ـ إنها في عمر ابنتي.. لو كنت قد تزوّجت في وقت مقبول..

ـ إذن، لماذا تحرق نفسك؟ كل شيء قشمـرة، يا خليـل، كل شيء لا يحتـاج إلى حرق أعصاب...

ـ في هـذه الحالـة يحتاج إلى شيء أعـزّ من حرق الأعصـاب، إلى عـذاب يقتـل سمـوم الصدأ المترسّبة في العقل والقلب. . .

نظر شهاب إلى خليل، وكأنما ينظر إلى شخص غـريب عليه. كـانت الصفرة والحمـرة تتناهبان ذلك الوجه الطفولي الشائخ، بفمه الملموم المتباعد الأسنان، الأحمر الشفتين. وشعـر شهاب بأنه على وشك أن يفهم شيئاً في هذا الرجل الذي يعرفه منذ عدة سنوات. قال:

ـ دعني أعالج الموضوع. أنا لا أريدك أن تغضب أباها. . . ربما ينفعك في يوم ما. . اعمل بشعاري: اخدمني أخدمك.

● مرض المدير العام الجديد، ودخل المستشفى، وبدأ رؤسـاء الدوائر يزورونـه. ومن ضمنهم شهاب، وحتى خليل الرسام. وكان هاجس التشكّك في لقب مهندس ما يزال ينخـر في نفـس عصام، ويؤرّقه ليـالي كثيرة. ولم يعـرف ماذا يخبىء القـدر له، لا سيـما وأن المديـر العام بدأ، قبل مرضه بأيام، بحملة تنقّلات، ولعلّ دوره لم يأت بعد. وإن كان عصـام يهوّن الأمر على نفسه ويقول لها: ماذا سأخسر وأنا في شعبة المتابعة؟ وذات مرة، وفي لحظة نزق كثيـراً ما استبدّت بعصام سواء في طلاقة للميس، أو دخوله كلية كان يعرف مسبّقاً أن الناس لا يرغبون في دخـولها، لأن شهـادتها كـانت على كفّ أهـواء الموظّفـين الكبار. . في لحـظة مغامـرة قـرّر عصام، وبدون علم أي إنسان، أن يزور المدير العام. فهو يتذكّره بـالتأكيـد، ولا يستصعب زيارة موظف يبدي له ولاءه واهتـمامه بصحّتـه. اشترى بـاقة ورد جميلة، ولبس أحسن حلله، على ربطة عنق مورّدة، وذهب إليه في مدينة الطبّ.

وحين دخل رأى الحجرة مملوءة بالورود والأزاهير. وجد المدير العام يتنـاول دواء من يد ممرضة طويلة نحيلة الخصر، لها هالة من الشعر الأسود الوثير تتقنزع عليه طاقية الممـرضات. سلّم عصام عليه، وتمنّى له الشفاء العاجل. صافحه المدير العام مرحّباً بشوشاً، وتحيّر عصـام لا يعرف أين يضع باقة زهوره. فطن المدير العام إلى حيرته، فقال له:

ـ أعط باقة زهورك إلى هذه الوردة.

رمقته الممرضة من طرف عينهـا رمقة زرعت الـرجفة في كيـانه. كـانت جميلة، ناصعـة البشرة، وطفاء الأهداب، في عينيها حول خفيف يعـطي مسحة الـرقة والأنـوثة لكـل وجهها المائل إلى الـطول، قدّم لهـا عصام البـاقة بصمت وعـلى استحياء. فمسحت يـدها بـردائها، وتناولت الباقة منه لاوية جيدها الناعم ليّة غنج لطيفة، قائلة: شكراً جزيلاً.

قال المدير العام عند خروج الممرضة:

ـ هذه الممرضة ترعاني أحسن رعاية.. تستأهل ورود الدنيا كلها.

ـ وأنت تستحقّ كل رعاية. وهؤلاء يسمونهنّ ملائكة الرحمة.

ضحك المدير ضحكة صداحة عالية لا تناسب المريض. كان يتكيء على المخدّة عريض المنكبين. يكشف زيق بيجامته المفتوح عن صدر مشعر معافى وعروق رقبة متوتّرة قيلاً، تغيب تحت ترقوتين باردتين. كان رجلاً صلب العود، كما يبدو، وصلب الإرادة أيضاً، من أولئك الذين تظهر كلماتهم المنحوتة الواثقة طغيان إرادتهم، مع خشونة واضحة في الصوت والنطق بالكلمات بقطعية لا رحمة فيها. حتى حين خرجت منه كلمة «مرسي» الانجليزية، بدت لا تمتّ إلى الرحمة بصلة. ولكن لماذا لجأ إلى أن يبادله بعض الكلمات الانجليزية في أول لقاء فردي؟. أهو ما يزال يتشكّك في شهادته، ويريد أن يعرف هل يحسن الإنجليزية حقاً؟ أم أنه يريد أن يفهمه أنهما، على كل حال، من مصدر واحد في التحصيل والمعرفة؟ وانجلى الأمر حين أخذ المدير يتحدّث عن صدمة الغرب مرة أخرى. وانتهى إلى السؤال:

ـ هل تأذّيت من كلامي آنذاك؟

ـ لا، أبداً.

ـ ربّما يجب أن تشعر بالاعتزاز، في الحقيقة، لأنك، كما يقول المسيحيون، خضت تجربة يجب أن تخاض على نطاق واسع.

تجرأ عصام أن يقول:

ـ حاولت أن أخوضها بشرف..

ـ لا أشكّ.. لا أشكّ.. وها أنذا أراك أمامي محتفظاً برصانتك... الغرب يعرّض الإنسان لأنواع عجيبة من الصدمات تصرع عقولاً جبارة.. هناك صدمة الحب، صدمة الجنس، والخمرة المبذولة، الأفلام الخلاعية التي تعرض في سينمات علنية.. انواع.. انواع.. إلى جانب، أو في وسط كل ذلك، صدمة التكنيك الجبّار، والإنسان الآلي. والعقل الذي لا يستطيع أن يحتفظ بتوازنه وسط هذا السيل الجارف يكون مصيره مثل مصير ذلك المخبول.. أنت تذكره؟ المهم صلابة النفس، صفاء العقل وتوازنه.

ابتسم عصام ابتسامة معتدلة مرسومة بدقة يمكن أن يقاس عليها صفاء العقل، فتابع المدير العام كلامه بعد وقفة قصيرة، وكأنه يستدرك:

ـ أنا لا أريد أن يذهب الجميع إلى الغرب، ويمرّوا بصدمته هناك. ولكن أن يمروا

بصدمته داخل قطرهم. أقصد أن يستوعبوا كل عظمته العلمية والتكنيكية والحضارية. . شرط. .

ورفع إصبعاً طويلة إلى فوق:

ـ أن نحتفظ بتقاليدنا. . ليس العرب وحدهم يتمسّكون بتقاليدهم العريقة. . الأمم كلها. . الأمة الأميركية التي هي خليط من أقوام كثيرة فكيف نحن العراقيين، أصحاب شريعة حمورابي، ومعارك صلاح الدين الأيوبي؟

دخلت الممرضة، وناولته بعض الأقراص، وقالت:

ـ هذه قبل العشاء. .

ـ تؤمرين. . ماذا في المستشفى غيرك وغير الأقراص؟

ولما خرجت، سأل:

ـ هل ألقيت عليك خطبة منبرية؟

ـ لا، العفو.

ـ وهل تتصوّر العملية سهلة؟ إرادة، قبضة من حديد، نظام صارم، عناد، نعم، يا عصام، عناد.

همس عصام غير متأكّد من صحة قوله:

ـ روح جديدة.

ـ بالضبط، روح جديدة على كل المستويات، ولتنظيم الانيترور. هل أنت معي؟

ـ نعم، أتابعك.

ـ المرض فاجأني مع الأسف. المرارة لعنة الله عليها. وإلا كنت عازماً على تنظيم داخل بيتي. أقصد المؤسسة، وجعلها طليعية.

وبدأ المدير العام يتكلّم عن المؤسسة، وعصام خافق القلب، لأنه كان يتصوَّر أن المدير سيقول شيئاً يخصّه، شيئاً ينهي حالة الشك والحصار. ولكن المدير كان يقترب إلى الحد الذي لا نكوص بعده. ثم يزوغ إلى موضوع جانبي، ويبتعد، ويترك عصام معلّقاً في الهواء. وأخيراً تلمّظ المدير كثيراً، وكأنه يستدرّ مرارته ونظر في ساعته، وفعل عصام مثله، وقال ـ أنا آسف، أطلت الجلوس. أستأذن.

ـ لا، بالعكس. نظرت إلى الساعة لأعرف متى أتناول الدواء. ما يزال هناك وقت، وما دمنا جالسين لوحدنا. هذا فراغ لا مثيل له. لعلّك عرفت الآن كم كنت صريحاً معك. .

ـ أشكرك جدّاً. .

ـ ربما لأنك شاب وديع، خاض مثلي صدمة الغرب، وللمرء طموحات بالتأكيد. يبدو لي وكأنني أعرفك منذ زمان. هل ستكون صريحاً معي أيضاً؟

ـ بالتأكيد. .

ـ كم سنة قضيت في المؤسسة؟

ـ اربع سنوات.

ـ لا بد أنك تعرف موظّفين كثيرين.

ـ بقدر اتصالي بهم بحكم العمل.

ـ والصداقة. .

ـ والصداقة أيضاً. .

ـ طيّب. . لنأخذ شهاب أحمد رئيس دائرة التسويق، لا بد أنه صديقك. ولعلكما من بلدة واحدة. .

ـ نعم. . وإن كان ذلك منذ الطفولة. .

ـ مهما يكن. . لنترك كل ذلك. . ما رأيك فيه؟

وخيّل لعصام أن كل دمه تجمّع في وجهه، لأنه أحسّ بتوهج في وجنتيه وخديه. وصمت قليلاً ليقول بعد ذلك بتوجّس:

ـ نشيط حيويّ.

ـ اها، نشيط، حيوي. . وفي أي مجال؟

ـ في مجاله الخاصّ، في دائرته. .

ـ اها. . جواب مفهوم. . وذاك المشرف على قسم الإعلام؟

نظر عصام إليه، وحكّ صدغه.

ـ تقصد رائد؟

ـ نعم، نعم. .

ومرة أخرى شعر عصام بأن المدير العام يحدّد مجرى تفكيره، أو يؤطّره. قال بغموض:

ـ من التاركين.

ـ تعبير حلو، من التاركين

ـ وكصحفي شايل نفسه.

ـ طيب لنترك الماضي جانباً في الوقت الحاضر. ما دام شايل نفسه.

وشعر عصام أن المدير العام يريد أن ينتزع منه شيئاً.

قال ليبرّر اندفاعته العفوية:

ـ للماضي حسابه أيضاً. ولكن في كل ميدان يوجد تاركون ونادمون ومكّفرون عن خطاياهم.

ـ تعجبني.. التكفير عن الخطيئة.. هناك خاطئات يذهبن إلى الحج في آخر أيّامهن.. هذا أيضاً تكفير عن الخطيئة.

وودّ عصام لو تلمّظ أيضاً، لأن حلقه قد جف، ولكن خشي تأويل المدير العام الذي كان يدفعه إلى مواضيع لم تكن تشغل جانباً كبيراً من تفكيره، ولم يكن قد دار في خلده أن مديره الجديد في أول لقاء شخصي معه سينصب له امتحاناً، ويمرّره عبر أنابيب الغاز المضغوط. سكت عصام محرجاً، وشعر المدير العام بأنه أسرف كثيراً في استجواب موظفه، فقال مستدركاً:

ـ على العموم شعارنا أن الموظفين سواسية، لا فرق بين مواطن ومواطن إلا بخدمته للمصلحة العامة. الظاهر أنني أسرفت. أنا في طبيعتي متسامح، وربما المرارة جعلتني أدقّق أكثر من اللازم، وينقلب الحرص إلى حالة غير طبيعية.. لنترك الموضوع.. هل ترى تلك العلبة الصفراء؟ فيها عصير أناناس، خذ قدحاً، واشربه وامسح ما أثارته فيك مرارتي المضطربة.. لعنة الله على كل المرارات صفراء كانت أم حمراء.. حين تُخرج الإنسان عن اتزانه.. طيّب، سؤالي الأخير، هل كنت في السفر إلى أم الخنازير؟

بوغت عصام، وقال:

ـ لا، مع الأسف.

ـ ولماذا؟

ابتسم عصام ابتسامة حزينة، وقال:

ـ تأخّرت في النوم.

ـ إذن، لا تستطيع أن تخبرني بما حدث في أم الخنازير مما تتناقله الألسن.

فكر عصام، وانعقد حاجباه، فقال المدير يسعفه:

ـ لا حاجة إلى التعب.. أنا أعرف كل شيء. لا يهمّ. ستقول لنفسك هل جئت للزيارة أم للتحقيق؟ دعنا نطرق مواضيع لا تزعج. الحر بدأ هجومه على بغداد.

وفجأة طرأ على بال المدير العام أن يسأل:

ـ هل أنت متزوّج، يا عصام؟
ـ كنت.
ـ يعني مطلّق.
ـ رغبتي في التحصيل أجبرتني على ذلك.
ـ ولست نادماً؟
ـ لا أدري.

لمع وجه المدير العام بهناءة عجيبة لم تبد لعصام مبرّرة. إلا إذا اعتبر المدير «لا أدري» عصام نكتة تبعث على البهجة. ودخلت المرضة لتنقذ الموقف. كانت تحمل قدحاً صغيراً فيه سائل بنّي، وقالت:

ـ اشربه امامي..
ـ مرّ، زقّوم..
ـ ولكنه ضروري.

تناول المدير العام القدح الصغير:

ـ أحياناً يكون الأمر كذلك، مر، ولكنه ضروري.

وشربه جرعة واحدة، وقدم للمرضة القدح الفارغ.

ـ تسلم يديك.
ـ بالعافية.. انظر كيف شربته.
ـ كل شيء من يَدَي الجميلِ حلو المذاق.. انظر، يا عصام، أيّ وجه صبوح لها.

رمقها عصام بنظرة خاطفة. كانت جميلة بالفعل. فتية، ومضرجة بحمرة شفافة، في قسمات وجهها عذوبة، وليونة مستحبّة، كأنها متهيئة دائماً للتواشج مع الآخرين.

وعندما خرجت قال المدير العام:

ـ قلبها من ذهب،.. ودعك عن الأشياء الأخرى.

● توقّفت سيارة لامعة أمام الباب تماماً، وسدّت الطريق الترابي بما يشبه جلد سمكة براقة، وحجبت الرؤية، جفلت حسنة التي كانت في المطبخ، فصاحت من مكانها وراء الطباخ الغازي:

ـ خليل، سيارة واقفة على باب بيتنا.

كـان خليل يقلّب التخطيطات التي صنعهـا لشذر، فـاهتزّت في يـده، عرف الحقيقـة فوراً. أخفي التخطيطات وراء اللوحات المـركونـة المغبرة، ومسح يده، وأمـال رأسه قليـلاً، فرأى سيارة الفـولفو التي يعـرفها. خفق قلبـه بين الـرهبة والتـوقّع. لم ينتظـر طويـلاً. سمع جرس الباب، يدق والصوت الغليظ:

ـ هذا بيت الفنان خليل؟

ابتسم خليل. تفتّحت وردة شفتيه عن ابتسامة مـرتبكة. اجتـاحت كيانـه حرارة حمّـام عمومي. لأول مرة يسمع اسمه مقروناً بهذا اللقب. لم يبق إلا أن يقول المنادي: اللي يشتغل في ملهى اخوان الصفا. عدل هندامه الذي لا يصلح لتعـديل، وخـرج ليفتح البـاب. وقال محاولاً أن يضخم استغرابه:

ـ ها، أبو شذر.

ـ مرحباً، أبو إبراهيم. جئت إليك قاصداً ومتسائـلاً: هل من المعقـول أن يفعل فنّـان مثلك هذه الفعلة؟

كـان صوتـه يملأ الآذان، ويصـل إلى الجيران، وجسمـه يملأ مستـطيل البـاب، ورأسه ينوش عضادته العليا. خجل خليل، وقال:

ـ تفضّل، ادخل..

دخل أبو شذر، ووصل إلى المنضدة البلاستيكية بثلاث خطوات:

ـ أين تأمر أن نقعد؟

ـ نقعد هنا، في هواء ربّنا.

كان ذلك نجـدة لخليل. فقـد كان الخجـل يصوّر لـه التهاويـل، حتى تصور أن شـذر نفسها جاءت لتكتشف أين يعيش. سيقول لها، لا، لن يجسر لسانه على النطق بكلمة. وعاد أبوها يقول، ولكن بصوت اكثر اتزاناً:

ـ هكذا تنكّت بنا؟

قال خليل، وهو يحطّ على الكرسي في الجانب الآخر من المنضدة:

ـ فضلت الانسحاب بهدوء، إن لم أقل بشرف.. تبهدلت بما فيه الكفاية.

التفت إليه عباس بكل صدره العريض:

ـ من بهدلك، قل لي. . أنا؟ أم سوسن؟ شذر؟

خفض خليل رأسه، وقال:

ـ مجمل الظرف. . الجوّ العام، كما يقولون، إلى جانب. .

ـ تكلم، تكلم. . . جئت لأستمع إليك، وأعاتبك. . .

تريّث خليل ليزن كلماته الطاردة الجاذبة:

ـ أم سوسن تقابلني بنظرات عدائية، وكأنني. . . كأنني. .

واستعصى عليه أن يكمل. فأسعفه أبو شذر:

ـ هذا تصوّرك. . أنت لا تفهمها. . معذور، ولكنها طيّبة القلب من حيث الجوهر.

ـ وتريدني أن اغوص إلى الجوهر. . ولكن الواقع. . المجابهة اليومية. .

ـ بماذا تجابهك؟

ـ كأنني ضرّتها. .

وجد خليل الكلمة المطلوبة، جابهه عباس باستهانة غير مقصودة:

ـ يا عزيزي خليل، أي ضرّة أنت؟ لا تأخذ الأمور بهذه الحساسية. أنت تعرف أن ذلك شيء طارىء عليها، وعلى البيت كلّه. وضعية لم تألفها أم سوسن من قبل.

حنق خليل عن صدق:

ـ وأنا لماذا أدخل نفسي بهذي العليجة؟ أنت تعرف أنني لم أفرض نفسي، ولم أرد أن أقبل العرض لولا إلحاح شهاب.

ـ أعرف، أعرف. أردت أن أقول أنت أول فنّان يدخل بيتنا.

صاح خليل مغتاظاً:

ـ رسام!

ـ رسام! على رأسي. حصل الشرف ـ ورفع عباس كفه الضخمة على رأسه بتحية. ونظر إليه بعينيه الشبيهتين بعيني حصان من وراء عدستين مقعرتين ـ كأنك لا تعرف أنك تعمل من أجل غاية شريفة. ترسم صورة يتيمة. هل سبق أن قمت بهذا العمل النبيل من قبل؟

فاجأه عباس ونداس بالسؤال. لم يقم بالفعل. كان يواجه حالة استثنائية نادرة. ولكنه لم يبح بذلك، بل قال:

ـ وأنت أيضاً تتدخل فيما لا يعنيك، مع الاعتذار.
ـ ما هذا الذي لا يعنيني؟
ـ هذه الديكورات الزائدة.. هذا الإلحاح على إظهار الترف المفتعل..
ـ آه.. يا عزيزي! هذا من حرصي على إنجاح الصورة.
ـ هذا لا ينجح الصورة. ولا يخدمها.. ثم إنك لست أكثر حرصاً مني، على الأقل.. لتبرير نفسي..
ـ ولكن ذلك من كثر حبّي..
ـ حبّك، حبّك..
ـ حبّي لذكرى أمها..
ـ لتشوّه صورة الفتاة الحقيقية، أو تحطّ منها..
ـ وكيف أحطّ منها؟
ـ شذر صورة للنقاء والبساطة، صورة طبيعة عذراء. هكذا خلقتها الطبيعة، وكل هذه الحواشي زائدة.
ـ ولكن أمها، أمها...
ـ ماذا أمها؟
ـ أريدها أن تشعر، وهي في قبرها، أن ابنتها تعيش في نعيم، وأنها ليست يتيمة أو منبوذة، بل محاطة بكل ما تشتهي النفس.

ـ ومن قال لك إن شذر بفطرتها تحتاج إلى مزهرية تهريجية، ولو كانت غالية الثمن؟

ـ وكيف تعرف أمها أنها تعيش مرفهة؟

أراد خليل أن يضحك، فتعبّس.

ـ ستفهم من نجاح الصورة، الرفاهية ليست بالغنى والثروة وحدهما، هناك أغنياء، ولكنهم تعساء

استرخى عباس على كرسيّه، وقال بصوت من أقصى الحلق:

ـ يعني تقصدني؟ ـ واستغرق في استسلام صامت ـ ربما أنت على حقّ.

ـ العفو، أنا لا أقصدك.

ـ لا، أنت محقّ، أنا تعيس.. لأن التي كنت أحبّها ماتت في فقر شديد.

نظر خليل بانشداه إلى العاشق الذي له كل هذه الكتلة الهائلة من العظام الخشنة

واللحم المكتنز، وأوتار الصوت الحديدية، وساد صمت الانبهار، رفع خليل يديه من فوق فخذيه، وهبط بهما ثانية في حركة عجز مسرحية.

ـ أنا آسف. لم أرد أن أثير شجونك.

ـ وأنا أيضاً لا أحب أن أكشف لك أسرار حياتي، يا أبو إبراهيم. ولكننا كنا نعيش وامرحومة أمها في فقر شديد، وأراها أمامي تتحمّل الفقر والعسر بصبر دون أن تنطق بآه.. وحتى مرضها اللئيم نادراً ما كانت تشكو منه. كانت تجلس قبالتي، وتضع خدها على راحة يدها، وتسكت، وكنت أتمزّق... أراها تصفرّ أمامي وتذبل، وأنا لا أستطيع أن أساعدها، وليس لي القدرة المالية على ذلك ـ وعضّ شفته العليا، وقال ـ آه، لا تهيج شجوني. يا أبو إبراهيم.

وبدا لابي إبراهيم شقياً حقاً، رغم ضخامة جسمه، وعلوّ نبرات صوته. بدأ يتضاءل أمامه لينزل إلى المستوى الذي يستطيع فيه أن يقنع ويقتنع. إلا أن عباس استأنف يقول:

ـ وتقول: ثروة؟ حواشي زائدة؟ ولكنك لا تعرف بأيةّ وسائل جمعت هذه الثروة والحواشي الزائدة. ربما لا تعرف ندى الجبين، وانكسار الخاطر، وأرجو المعذرة ـ ومسّ يد خليل الذي كان قد طرحها على الطاولة ـ كنت أتوسّل بالذي يسوى والذي لا يسوى. أقحف على رجلي حتى أجمع الفلوس التي تحتقرها.

ـ أنا لا أحتقرها، ولكن لا أرى لها علاقة بالصورة.

ـ حواشي زائدة؟

ـ أهوه.. نعم، حواشي زائدة تشتّت فكري، تؤطّر الصورة الأصليّة ببيض اللقلق... بالزعانف.. بالبهارج..

ـ ولكن الصورة ستكون يتيمة بدونها.

سكت خليل مديراً وجهه إلى جهة المطبخ، حيث رأى حسنة تنصت لهما لتقول:

ـ الشاي حاضر..

ـ لا المزهرية أمها، ولا البيانو أبوها.

ونهض ليجلب صينية الشاي الجاهزة. ولما عاد أكمل كلامه:

ـ يا أخي، لا أريد لها شيئاً آخر.. أريد أن أظهر عالمها الداخلي. أو ربما عافيتها النفسية، إذا كان هذا التعبير اقرب إلى الفهم. والعافية النفسية تبدو عادة على الوجوه غير المزوّقة، والتي يخنقها جوّ الترف الزائد.. أريد أن أعبر عمّا لم أستطع أن اعبر عنه حتى الآن.. ثقتها بنفسها، تعاليها، ألقها الداخلي، صباها النقيّ، براءة الطفولة والطيبة في عينيها.

قال عباس في شك فظّ:

ـ وهل تقدر؟ . .

ـ أوه، أنت تجعلني أكثر شكاً في نفسي. . ولكن كنت سأحاول. .

ـ أرجوك، يا أبو إبراهيم، لا تزعل مني. . أنا ممزّق ملعون. . أرجوك أن تفهم قصدي. . أنا أريد بهذه اللفتة، بهذه الصورة التي عهدتها إليك، أن أريح ضميري نحو أمها.

ـ سيرتاح ضميرك إذا نجحت أنا في رسم الصورة، وأعطيتها الشيء الذي يميّزها عن سواها.

ـ ما هو هذا الشيء؟

ـ أهوه. . لا أدري حتى الآن، ولكن أحاول أن أكتشفه. . كنت أحاول أن. . أما الآن فقد جعلت هذا الهدف أبعد عني أكثر من أي وقت. . جعلتني أ. . . أ. . . أ. . .

ـ اعذرني، أرجوك. . . كلما رأيت شذر رأيت صورة أمها امامي، ولهذا حين أسعدها أشعر بأنني أسعد أمّها التي ماتت بدائها اللئيم، اللئيم. .

وشعر خليل بأن الجيران سيسمعون صوت عباس العالي، فهدّأه:

ـ كل مرض لئيم.

ـ ولكن مرضها كان أكثر الأمراض لؤماً. . احتباس البول. .

بحلق خليل به، وكأنه لم يفهم كيف يكون هذا، فتابع الرجل يقول، وكأنه يبدأ حكاية جديدة:

ـ كانت جميلة جداً، أجمل من شذر بألف مرة. وكنت أرى ذلك الجمال يتبرقع بالصفرة. كان احتباس البول عندها يجعل حتى بياض عينيها أصفر كالكركم. وكنت أراها تذبل أمامي، وتذوب. وكنت أجنّ، أبكي كالطفل، حين أكون وحدي. كنت أحبها حبّاً قوياً، وأتعذّب من أجلها ألف مرة. ولكنني أكتم، وأهوّن الأمر عليها. الأطبّاء قالوا: لا فائدة، لو كانت إحدى كليتيها عاطلة لأجرينا عملية، وخلصناها منها، ولكن الكليتين لا تعملان. وكنت أكدح كالحمار، لأجمع الفلوس، وأعطيها للطبيب ليغسل كليتيها. وذات مرة همس لي الطبيب المعالج: هذه آخر مرة أغسل فيها كليتيها. قلبها ضعف، ولا يقوى على العملية التي تستمرّ ساعات. لم يبق إلا أن نؤجّل القدر المحتوم شهراً، شهرين، ثلاثة. . . تصور أمامك شخصاً عزيزاً عليك، محكوماً عليه بالموت، وأنت تعلم بذلك. فكيف يكون شعورك؟ كنت أصبحّ الموت وأمسّيه، وحين تقعد على الزاد، وهي قبالتي كانت اللقمة تقف

في حلقي، وتتبلّل عيوني بالدموع. وكانت تراني في هذه الحال، فترفع إليَّ عينيها الكسيرتين، وتقول: أبو شذر لماذا دموعك في عينيك؟ أقول لها: من الفرح، الأطبّاء يقولـون أنت ستشفين. فتنظر إليَّ بعينين مصفرتين تكذّبان كلامي. وكانت تقول بصوت خافت: أنا منتهيـة. أقول: لا، لا.. غسلتين للكلية، وتصـيرين مثل الجنبـدة، وذات يوم أصبحت فـرأيتها إلى جـانبي جثة صفراء شاحبة.. ماتت أم شذر.. ماتت وخلّفتني مع ابنـة في السادسـة من العمر، ولا أحد عندي في الدنيا...

وبدا السيد عباس، وكأنه يوشك أن يبكي، وتأثّر خليل بقصّتـه، لقد كـان يرى جمـال شذر دائماً في غـلالة من الحـزن الفاجـع المثلوم، والانكسار المغلوب غـير المناسب لجـوّ البذخ الموجود في البيت، وكـأن الفتاة تنـطوي على مـأساة خفيّـة. كانت قليلة الكـلام لا تبادلـه إلا كلمات متقطعة، ولكن ملامحها كانت ذات قوة تعبيرية هائلة، حتى كان يحسّ وكـأنها تتحدّث بلغة خاصّة بها. والآن استرجع خليل صورتها، وللحظة خاطفة خيّل إليه أن مصيرها سيكون نفس مصير أمها.. ستتعطل كليتاها، أو تصاب بداء دفين لا يظهـر إلا في النظرات المعبرة في صمتها عن كظيم الأحاسيس.

هـزَّ خليل رأسـه لينفض الأفكار السـوداء، فـاعتـبر عبـاس ذلـك إشـارة إلى التـأثّـر، والمصالحة. راح يتوسّل:

ـ أرجوك، لم يبق للذكرى غير وقت قصير، أكمل الصورة، أرجوك.

ـ لا أستطيع أن أكملها في الظروف نفسها. ستطلع الصورة مبتذلة.

ـ أي ظروف تريد؟

تدفّقت الجملة من فم خليل بجرأة مَنْ يقامر ليكسب شيئاً لا بدّ من كسبه:

ـ أريد أن أخرج بها إلى الطبيعة.

التفت عباس إليه مستغرباً:

ـ ترسمها أمام الناس؟ تجعلها فرجة؟

ـ في بقعة معزولة. اخترها أنت..

ـ حديقة بيتي ألا تكفيك؟

ـ أريدها بعيدة عن النظرات المعادية.

سكت عباس ليفكر. وطال به التفكير حتى قال:

ـ طيّب ـ وأمسك فكيه بين سبابته وابهامـه، وسكت قليلاً قبـل أن يقول محـرراً فكّيه ـ عندي صديق صاحب بقايا بستان في العطيفية.. سأترجّاه.. ربما يناسبك؟

وعاد خليل يملي عليه شروطه:

ـ ولا تتصوّر أنني سأرسم لك صورة ضاحكة.. أنا ارى في شذر حزناً دفيناً، ويعجبني أن أنفذ إلى هذا الحزن.

ـ وتصوّرها يتيمة؟

ـ ليس هذا ما أقصد إليه.. في عينيها بريق قتيل.

ـ تتصوّر ذلك!

ـ لشذر عالمها الداخلي، ربما لم تفطن إليه أنت. ولكنها حين تجلس أمامي أحس بها تبتعد عني إلى ذلك العالم، عالم مغلق على الآخرين.

ـ هذا كان طبع أمها.. الصمت وتحمل المصاعب بصبر، ولكن أيّ مصاعب تتحمل شذر!

ـ وما أدرانا بأسرار النفس؟

ـ أنت فنان، وتستطيع أن ترى أكثر مني.. إنني أترك العملية لك. هل اتفقنا؟

وسكت خليل دلالة على الرضى.

● ـ اليوم خرجت إلى ميدان الحياة الرحب، يا عزيزي شهاب.

ـ في أيّة بقعة منه؟

ـ في البقعة التي فارقتها وأنا موجع القلب.. في إحدى كلّيات الجامعة بغداد العزيزة على القلب والنظر.

ـ رحت تبحث عن ماضيك؟

ـ لعنة الله على ماضيٍّ. لا تذكرني به، لئيم. رحت أبحث عن مستقبلي.. مستقبلنا جميعاً.

ـ وماذا وجدت؟

ـ زهوراً تشرئبّ إلى الشمس.

ورفع رائد وجهه الملفّد منشقّاً عن ابتسامة نيكوتينية.

ـ زهور حقيقية؟

ـ نعم. ولكنها في تنّورات..

ضحك شهاب، وقال:

ـ ما الذي جعلك تذهب إلى هناك؟ نشاطك الهدّام؟

ـ لا، والله، بـل البنّاء.. كنت أحضّر لاستفتـاء مهمّ يشغـل فكـري. أنـا الآن مهتمّ بمستقبل العراق، ماذا سيكون بعد عشر أو عشرين سنة، إذا سرنا بهذه القفـزات العملاقـة؟ هـذا لا يستوعبـه حتى خيال الشعـراء.. وضعت لنفسي سؤالاً، وطفت بـه على الكليـات، حيث الجيل الطالـع. سؤال بسيط وعميق في آن واحد: مـا هو مستقبـل الثورة التكنيكيـة في العراق؟

ـ فبماذا اجابوك؟

ـ بمختلف الإجابات. كلها مستبشرة، خارج الحلم.

ـ أي حلم؟

ـ أقصد أبعد مما يحلم به إنسان. شغّل دماغك، يا أخي.

ـ دماغي شغّال.

ـ باتجاه آخر، كما يبدو.

ـ لا، بمقدّساتي.

ـ احفظ مقدّساتك سرمهر. كل الإجابات ذكية، ولكن أذكى الإجابات جـاءت على شفتي فتاة وقعت في غرامها من أول مرة.

ـ وبهذا العمر؟

ـ الانسان بهذا العمر يتعرَّض للوقوع أكثر.

ـ للوقوع، نعم، ولكن في جُبّ آخر..

ـ آه، يا عزيزي.. أنا عاشق..

ـ ماذا قالت لك حتى تعشق؟

ـ نـظرت إليّ بعينين جـاسوسيّتـين، وقـالت: مستقبـل الثـورة التكنيكيـة متـوقّف عـلى مستقبلنـا نحن. ماذا سيكـون، وأيّ موقـع لنا فيهـا: هل هي التي تسـيّرنا، أم نحن الـذين نسيّرها؟ هل هي منا أم علينا؟ وما إلى ذلك من الأسئلة المخيفة التي كانت تلقيها بكل قسمات وجههـا الحيّة، وتشـدّك إليهـا، وتجعلك عبـداً لهـا، كـما أنـا الآن.... سـأقضي اليـوم ليلة مسهّدة، أتصوّرها، وأحلم بها.

ـ طلع لدينا عطا آخر. يا أخي، اترك هذه الخزعبلات.

ـ خزعبلات أن يتجدّد القلب، وتصبح الحياة أنشودة حب؟

ـ أنشودة عمل في بستان نشوة..

ـ ما رأيك لو خرجنا إلى بستان النشوة بعد الدوام؟

ـ لا، عندي ارتباط..

ـ أنت لا تصلح في ساعة الملمّات.

ونهض رائد، وتمطّى، وقال لنفسه: لا بد أن أبحث عن خَدِينٍ آخر. فقد كان شهاب في تلك الحالات الانطوائية التي يبدو فيها منفرداً بمصائر العالم. مقبلاً على عملية حاسمة، أذنية، صارمة. نظر رائد إليه مرة أخرى. فرأى قسمات وجهه الطويل الأنثوي قليلاً تشبه قسمات امرأة تتآمر للإطاحة برأس، وكأنه ليس ذلك الرجل الذي يتبذل معه على موائد الشرب. وقال رائد لنفسه: أنا أعرف هؤلاء، إذا عصرتهم في ساعة الجدّ لويت يديك، ولم تظفر بقطرة حنان. وكان رائد يحتاج إلى قلب مفتوح، إلى أذن صاغية. انفلت، وقال: مع السلامة. وذهب إلى غرفته. كان عطا ينظر إلى المنارة باستغراقة حشّاش. وحين سمع الباب يفتح جفل بكل جسمه المترهّل، وتيبّس الخوف على وجهه. قال رائد:

ـ جفلت، وكأنني ضبطتك تمارس العادة السرّية.

رفّت وجنة عطا اليسرى، وكأنما سيتلقى صفعة، ولكن رائد كان في مزاج رائق. عصر يد عطا الراقدة على الطاولة قرب سجل الإعلانات، وقال:

ـ أنا أمزح معك. أنت الآن في غنى عنها.

وانشرح وجهه بابتسامة جاهد أن تكون مسالمة.

ـ أوه، يا عطا، كم جميل أن تكون للرجل امرأة! قل لي: ألا تنام الآن قرير العين، ولا تخشى كوابيس ليالي الأرق؟ ماذا تشعر الآن، بعد الزواج؟ قل لي، أنا أخوك. أعرف قيمة المرأة. تذلّ من تشاء، تعزّ من تشاء. إيماءة منها تجعلك تفكر ليالي طويلة. لون عينيها يغرق روحك في لجّة السعادة أو الجحيم.

وطوى رائد جذعه قليلاً، ومشى يتخطّر إلى طاولته، وقال كالهامس:

ـ آه، كأنني لم أحب من قبل، كأنني اكتشفت الحب لأول مرة.

ولما استقر على كرسيه نظر إلى عطا. لم تحركه الزعازع. ظل جامداً سارحاً في سبعة بحور. هذه الطمأنينة، هذا الجمود الحجري الأبلة يودّ لو يكون له، لو كانت الأشياء تمرّ بين يديه كالماء. ولكنه لا يستطيع. هكذا خلق. شعلة ملتهبة. اليوم حين رفعت إليه عينيها، أحس بقلبه يلتهب بنار كبرة. أراد أن يفعل شيئاً، أن يمسكها. كان دائماً يجب أن يمسك الأشياء، قبل أن يقتنع بها. تلك هي حياته. تلمّس الأشياء، حين يقبل عليها، وحين ينفر منها. وكان يقف في تلك الساحة المحاطة بالزهور، والمبقعة برقع جرداء من الثيل، وكانت

قريبة منه. حتى شمّ رائحة جسدها، رائحة ربيعية حارّة، رائحة دعوة ضخمة في العطاء. موضوع شيّق، يا آنسة. يحتاج إلى جلسة أخرى، أو وقفة أخرى، لأننا لم نجلس بعد.. لا مانع عندي. فقط أن يفهم الصحفيون مشاعر الجيل الجديد، ولا يغرقوا في الأوهام. حماس الجوقة، أليس كذلك؟ ماذا تقصدين، يا آنسة؟ لا أقصد شيئاً. طيّب، اتفقنا عيناك تغزلان لي هاوية مستقبل. أشعر بأنني سكران، أو دائخ. رأسي يدور.

ـ ما رأيك، يا عطا؟

نظر عطا إليه بعينين مفجوعتين. اغتاظ رائد:

ـ لا تخف. لن أتحدّث عن الثيّب. ذلك أصبح ماضياً. وعلينا بالحاضر. قل لي: أليس جميلاً، عطا؟

في عيني عطا خيبة أمل. لحق أن يصاب بخيبة أمل في شهر العسل هذا. وحاول رائد ألّا يقسو عليه كثيراً. إنه الآن بحاجة إلى أذن تصغي إليه بصمت. ولا أكثر صمتاً من أبي الهول هذا.

ـ سنذهب بعد الدوام لاحتساء زجاجة بيرة مثلجة، قرب سينما الخيام. ما رأيك؟ ربع دينار، سأدفع أنا.

نقل عطا يدا على يد أخرى. ونظر إلى الشارع.

ـ عطا، المنارة ما زالت باقية في مكانها، فلا تبحلق فيها. أنا الذي سيرحل إلى الجنة أو إلى الجحيم.. طيب، ما رأيك؟ أجبني.

ـ تقلق.

ـ من؟ المحروسة؟ دعها تقلق. أليس جميلاً أن تقلق عليك امرأة؟ أما أنا..

ولم يكمل رائد. نهض من كرسيّه. شعر بأنه يخاطب صنماً. سيختلي بنفسه مرة أخرى، على عادته القديمة في لحظة الأزمات: حين يبدو الآخرون وكأنهم أعجاز نخل خاوية، في لحظات تفتّح النفس أو أكتوائها بجمرات الآخرين. يبدو وكأنك تجابه العالم وحيداً فريداً. وقال رائد لنفسه: سأكتب الريبورتاج، وكأنني أخلو بها. من سبقني إلى هذا المعنى من الشعراء؟ لا بأس. كانت في ثوبها الأبيض الشفّاف عند الصدر، والمنحسر عن الذراعين بسمرتها الدسمة، تشبه إلهة من إلهات بابل القديمة، في موكب من مواكب تقديم القرابين، والصدر الناهد يشمخ بجبروت الطمأنينة الواثقة والنحر ينساب بهدوء الجدول الرقراق. نظرت فرأيت الهاوية. رفعت بصري إلى عينيها، فرأيت رضوانين يحرسان الجنة

يتساءلان عن وجودي، أنا المجلّل بالخطايا، في هذا الفردوس المحروس بإحكام. . آوه، هذيان. . هذيان. . كلمات. . كلمات. . . كلمات. . . اللعنة عليك، يا عطا، تحتقرني بصمتك الحجري هذا. سأنقلك إلى الأوراق، فاهم؟

رفع عطا عينين، فيهما رعب، كأنّما قرأ أفكاره. كان وجهه المدوّر الأبيضاني بتورّماته المتعدِّدة، يبدو كرغيف خبز لخبّازة مبتدئة. تقابل التنّور لأول مرّة. غير أنه نقيّ كالخبز نفسه، أو هذا ما شعر به رائد في لحظة فالتة. ولكنه خبز للآخرين، وليس له. بعد دوران في الغرفة انتابه شعوره القديم، الشعور بأنه محاصر. أفلت. قال لعطا: إذا سأل أحد عني في هذه الساعة المتبقية، قل له ذهب ليكمل ريبورتاج اليوم. فاهم؟ لم يبد عليه الفهم. وأي شيء يمكن أن يبدو على هذه القسمات الذابلة المترهّلة؟ استقبلته في الشارع شمس حارة محمّاة بذرات غبار أصفر - بمن يستجير الآن؟ هل يذهب إلى العم موسى؟ لا، ستراه عينان كان يجب أن تعميا من كثر تحديقتهما بوجوه الآخرين. سار في الشارع الصاخب، مبتعداً بسرعة عن مكان عمله. وشعر رائد بأن بغداد غريبة عليه، ليس فيها شيء من نفسه، لا الماضي ولا الحاضر، ولا المستقبل. ربما. ويريد أن يغزوها؟ تغزوه ولا يغزوها. جابهته بلامبالاته الفرعونية، بغبارها المخلوط بضراط السيارات، بوجود أناسها الخشنة المنطوية على أسرار ممسوحة، وفكر في تلك اللحظة في شيء يقيه من الضياع، في سند، في صديق حين يعزّ الصديق. تنقّل بين أصدقائه القلائل، زملائه. شهاب سقط من عينيه تلك السقطة الشنيعة. عصام أبو هول آخر، يمارس الآن وظيفته بثقة صامتة. يخطّط للمستقبل أيضاً، وليس مثله يلاحق سراباً. وخليل؟ أحس بشوق إلى الرسام. وجهه الجافل المرعوب، شفتاه المصبوغتان بحمرة لا تزول. عيناه الشرهتان تبحثان عن شيء لصاحبهما وحده. يأخذ، ولا يعطي. يستمع إليك، ولا يبوح إلا بما يشفي الغليل. ليس مثلك، يا ثرثار، يا صائد الكلمات الفارغة. ربما كلّ الفنانين بهذا الشكل. يجمعون كل ما يختلج في ضمائرهم، وكل ما تلتقط عيونهم، وتسمعه آذانهم ليصوغوه في لوحة، في قصة، في قصيدة شعر، ليس مثلنا، نحن الذين نفتح أنفسنا على الأثير رأساً، ولا نشعر إلا والبساط يسحب من تحت أقدامنا. اللعنة إلى أين أذهب الآن؟ بغداد مدينة مغلقة، مسدودة بآلاف الأبواب غير المرئية. إلى أين أذهب الآن؟ وأطلّت عليه فكرة، سيشتري ربعية عرق، وبعض المزّة، ويذهب إلى البيت، ويطلب من أم كمال أن تعدّ له مزّته. وسيختلي بخيال تلك العذراء التي تسير في حقل من الأفكار الثورية. ودخل البيت متعباً عرقاً، مبلل الرقبة، وما بين الفخذين. النسمة هبت من أعماق الحوش، وهبَّ من هناك شبح امرأة، ليس كشبح أم كمال البرميلي. تقدّم بتراخٍ وتردّد، ثم ازدادت الهمّة، حين اقترب منها وعرفها.

ـ ها أم الزلف؟

وضحك ضحكة الدهشة وتريّث ليلتقط أنفاسه، ويسيطر على ذهول المصادفة.

ـ من أين نبعت؟

قبّلته بحنان وصمت جنائزي. وقالت مكلومة النبرة:

ـ فتّشت عنك بغداد كلها.

ـ ولماذا؟ أعطيتكم عنواني.

ـ ومن يعرف بغداد من هذه العناوين الجديدة؟ القديمة لا يعرفها الإنسان، فكيف الجديدة؟

ـ هذه سنّة الحياة، التطّور..

لم تفهم، أو بدت غير مستعدّة لمجاراته بلهجته الخليّة. سكتت. نظر إلى وجهها. كان مخدداً يضمر شيئاً خارج توقعاته.

ـ سعدّية، ماذا بك؟ ماذا جاء بك؟ تعالي، قولي: هل وقع شيء للأهل؟

صعدت معه الدرج صامتة. كادت الربعية تنزلق من بين يديه، ولكنه حصرها بين ذراعه وإبطه. أعانته سعدية بحمل بعض أكياس المزّة. وحين فتح باب حجرته أحس بعفونة غريبة وكأنما تركها منذ زمن بعيد.

وضع الأكياس بأمان على المنضدة الصغيرة ذات السطح الزجاجي الأسود. ووضعت سعدية الأكياس التي تحملها. أشار رائد إلى الحجرة المعتمة، وقال لسعدية:

ـ هذا وكري. اجلسي على هذا الكرسي الأسود.

أجالت سعدية بصرها في الحجرة. اللون الأسود هو السائد. ما عدا تلك اللعب الغريبة الملوّنة التي تلمع على الرفّ. أجّج ذلك مشاعرها. فنكست رأسها. وأخذت تبكي.

ـ سعدية. تبكين؟ رأيت اللون الاسود فبكيت؟ عليّ أم على آخرين؟

زاد ذلك من ضرام صدرها. راحت تنتحب.

ـ سعدية!

جلس إلى جانبها.

ـ ماذا جرى؟ قولي ماذا جرى؟ هل مات أحد هناك؟

ازداد عويلها.

ـ أمي، أبي؟

والتهمها بعينيه المحتقنتين. كان يطل عليها، فرأى الاختلاجات البشعة تخرب وجهها الرصين الذي كان يصبح عليه ويمسي.

سكتت مشغولة بتطفيف دموعها، ومسح أنفها، والنشجات البركانية تتوالى على صدرها. وقف ينتظر أن تنطق بالكلمة المرعبة. فقالتها على طريقتها الخاصة، وكأنه يعرف ذلك منذ زمان:

ـ كان في آخر أيامه لا يشكو شيئاً.. طاب.. وفجأة، قبل أسبوع.. ذاك الأسبوع.

وانفجرت مجهشة. انهدّ رائد على كرسي قبالتها. وكزّ على أسنانه مغالباً انفجارات داخلية كانت تقطع أحشاءه. ارتخى محاولاً أن لا يخرجها إلى الأثير. نظر إلى الطاولة. رأى الزجاجة الصغيرة. اختطفها كمنتقم يختطف سكيناً، وأزاح الفلينة عنها بحركة انتحارية، ورفع الزجاجة، وصبّ سائلها المحرق في فمه إلى أقصى ما يستطيع.

ـ هذا سائل الموت أصبّه في فمي ـ ليقربني إلى أبي...

وبكى، لم يبك. اهتز كيانه الضخم فقط، وكأنما بفعل تيّار كهربائي يسري في دمه، حتى تلاشى إلى شحيط أنفاس في الصدر، وفي الصمت الذي استمّر دقائق لم يتردّد غير هذا الشحيط، وفلول نشيج ونهنهة. وانطوى رأس رائد على صدره. وانفلقت عيناه. وتحت الجفنين المطبقين تراءت لرائد مقبرة على مرتفع من الأرض. نفس المقبرة التي كان يمر بها حين كان طفلاً، وكانت أمه تخوّفه من الجنّ الذي يسكنها. أبوه الآن هناك. وتأجّج شيء كالحريق في صدره. رفع رأسه، فرأى سعدية ترمقه بعينين مخضلّتين.

ـ أين دفنوه؟ هل قَبِل المتزمّتون أن يدفنوه في مقبرتهم بعد أن ساعدهم طوال حياته في نزح مراحيضهم؟

ولم يقنع بالردّ الذي قالته سعدية. كان له رصيد كبير من الذكريات يُكَذِّبُ كل ما قالته...

● تربّع الشيخ عبد المنعم في جلسته المفضلة في مشتمل خليل وقال، وهو ينود:

ـ انتهى. قررت أن احيل نفسي على التقاعد.

ـ بعدك شاب، يا شيخ نعمة..

ـ لا، لا، قضيت أكثر من ثلاثين سنة أخدم الحكومات العراقيـة المتعاقبـة. شعر رأسي وقع، حتى لا يظهـر الشيب، ويكشف العمر الحقيقي. وكـل هذه السنـين، وأنا اشعـر بأنني مغتصب.

ـ مستلب، يا شيخ نعمة.

ـ ما الفرق بين الاغتصاب والاستلاب؟

ـ الاستلاب اكثر علمانية. . بكارتك ما تزال معك.

ـ وهل توجد بكارة في هـذا الزمن المثقـوب؟ الاغتصاب هـو عنوان حيـاتنا المفضـوضة البكـارة. كفيلك الله، من البدايـة اغتصبني ابي من المدرسـة، حـين كفّ عن الخـدمـة عنـد الحكومة، وجعلني أشتغل عند ابن خاله الجايجي في توزيع الشايات في سوق الخيـاطين قـرب الكمرك. وكنت أحمل أربعة استكانات في يد واحـدة، وأصعد بهـا إلى الطابق الثـاني في ذلك الشارع الذي كانت مخازن الأقمشة والخياطين فيه ملكاً صرفاً لليهود. وأنا حتى الآن، وأنا في هذا العمر الميمون، أحسّ أحياناً وكأنني أشمّ رائحة الشيرج. وبعد ذلك اشتغلت عامل بنـاء أنقل ققف الطين أو الجصّ على رأسي، وأصعد بهـا خشبة بعـرض شبر، وأوازن نفسي، حتى لا أقع، وتكون وقعتي الأخيرة، لا قومة بعدها. وحين تأسّست مصلحة نقل الركـاب عملت جابي تذاكر بسبعة دنانير شهـرياً، ولكن حـين كنت أسدد الحسـاب، واشترى دفـاتر التـذاكر لليوم التالي، كنت أجد نقصاً دائماً، يعني الدنانير السبعة تصير خمسـة أو اربعـة. . اليس هذا اغتصاباً؟ يغتصبون منك الفلوس التي تستحقّهـا؟ ومنذ ذلـك اليوم وأنـا أشعر بـأنني مغتصب.

ـ مستلب، يا شيخ منعم.

ـ مغتصب، يا سيد خليل. اغتصبتني الحكومات المتعاقبة لقاء رواتب زهيدة.

ـ ولماذا إصرارك على الاغتصاب؟

ـ وماذا عندنا لكي يستلب؟ ولكن عندنا ما يغتصب، لأنه إذا لم تكن أمهاتنا قد ولـدتنا أحراراً، كما يقول عمر بن الخطاب، فقد ولدتنا أبكاراً على الأقـل. والاغتصاب واقـع في كل منحى ومجـرى في حياتنـا. هـل تعـرف لماذا هـذا الإصرار؟ لانني في طفـولتي رأيت حـادثـة اغتصاب انحفرت في مخّي إلى الأبـد. ـ وانزل عبـد المنعم إحدى رجليـه من فوق الأخـرى، لأنها خدرت، وقال وهـو يمسح فمـه بسبابتـه وإبهامـه ـ كان ذلـك في الحي. أنت تعرف أنني قضيت بعض سنوات طفولتي في الحي. كنت تلميذاً في الصف الثاني أو الثـالث، وكانت لنـا جارة تلميذة تدرس في الصفّ الخامس أو السادس، لا أتذكّـر. ولكنها فتـاة ناضجـة. وكنت أشعر بالعزّة ودغدغة في أعصابي حـين كانت تسلم عـليَّ في الشارع، من وراء العبـاية، وهي آتية من مدرستها وتسلّم عليّ أنا من دون خلق الله. وفي البيت كنت أراها تخلع عبـاءتها، وتمشي

أمامي سفوراً يهتزّ نهداها ومؤخّرتها الممتازة، وأرى قوامها الممتلىء الجميل يملؤني بشيء لاإرادي بين الغيرة والحسرة على شيء لا أستطيع أن أمسكه. وذات يوم دخلت إلى بيتها، على عادتي، دون استئذان. فأنا صبيّ صغير لا يثير شكاً، فرأيتها عارية جالسة في طشت تستحمّ، أو بالأحرى لم أرها، ولكن حين عبرت الفناء إلى الطارمة سمعت صوتها الرقيق يناديني: نعمة، نعمة. فالتفت ورأيتها ربي كما خلقني. رأيت كل شيء: ثدييها المكورين، شعرها المبلل يتهدَّل على كتفيها، وجهها، سرّتها. . وو. . إلى آخره ـ لا أريد أن أعدِّد لك كل ما رأيت. فانت تعرف ماذا يوجد عند المرأة، عدا الاشياء التي عدَّدتها.

وصمت عبد المنعم، وانكمش، واستدرك هامساً ـ حسنة طالعة؟

ـ راحت للبقال.

ـ الحمد لله. ومنذ ذلك الحين أخذت أحس بعاطفة عنيفة نحوها. ظلت صورتها وهي عارية في الطشت تملأ خيالي، وتسلبني راحتي حين أخلو إلى نفسي، وتجعلني أتقلّب طويلاً في الفراش. . و. . و. . . إلى آخره. ومنذ ذلك الحين أحببتها رغم فارق السن. عشقتها عشقاً صامتاً ومحموساً. ظللت أتخيّلها عارية، حتى وهي في ملابسها. وبعد عام أو عامين، وعاطفة الحب تسلقني سلقاً، زوَّجها أهلها برجل معقل، لم تره من قبل، وحضرت أنا الزفاف، وبقيت مع القليلين الذين بقوا بعد أن دخل زوجها عليها في حجرة في الطابق الثاني. وظل هناك، وأنا ألوب، وبودّي لو ألتهم الدرج، وأنتزعها منه. خاصّة حين أخذت تمتنع ولا تعطيه نفسها. صاح أبوها من تحت: اسحب الخنجر عليها. وسمعت بكاءها وصراخها، وبعد ذلك صمت تامّ. ثقبها الرجل. اغتصبها وثقبها. ومنذ ذلك الحين ارتبط الزواج عندي بالاغتصاب. وفي كهولتي حققت أنا هذا الاغتصاب ـ الدنيا غاصب ومغتصب ـ حين تزوّجت سنيّة، بعد أن سلبتها من زوجها، وكأن النساء قحط. ولذلك لم أستبعد، حين قالوا: فعلوها بسهام، وسيفعلها آخرون وآخرون. . .

نظر خليل إليه بإدانة. فقد أحسّ، لسبب ما، بإنه يقصده. ألم يغتصب حسنة من زوجها؟ فأراد أن يردّ الطعنة بطعنة مماثلة.

ـ فلذلك تحبّ نساء الآخرين.

مدّ الشيخ ذراعه على الطاولة، وقال:

ـ الفاكهة المحرّمة محبوبة منذ أيام سيدنا آدم.

وكم راقبه خليل وهو يحدج حسنة بنظرات تعرّيها! كم من مرة رآه ينظر إلى صدرها وساقيها. ربما يفعل بها في خياله ما كان يفعله بمحبوبة طفولته. قال خليل:

ـ يقولون عين الشيخ لا تشبع.

ـ وليس عينه فقط، يا أستاذ، أنت فنان وتفهم.

وذكّره اللقب بعباس وابنته شذر، ورفَّ شيء في صدر الفنان. سمع الشيخ يتحسر، فسأل خليل:

ـ على أي شيء تتحسّر؟ على قلّة العشيقات؟

ـ على عمر تقضّى، وراح بوله بشط.. ويالبتني عملت في حياتي عملاً واحداً ألتذّ به.

وتأفف الشيخ ثانية، وانتقلت حسرة الشيخ إلى ذهن الرسام. فتحسر في سرّه. نعم، يا ليتني أنا أيضاً. وقرّر مع نفسه أن يستجيب لطلب عباس، على الأقل لينجز عملاً واحداً يرتضيه في حياته الآيلة إلى غروب...

● بقايا بستان..

عشرات من النخيل، واشجار برتقال، وشجرتا توت معمرتان، وساقية بنية الماء متهدمة الحوافي ترسل خريرها من تحت قنطرة صغيرة من جذوع النخل، فيمتزج الخرير بأهازيج العصافير، ونعيب الغربان. وقال عباس وهو يمسك بيد خليل: هذا البستان كان يمتدّ حتى شاطىء دجلة، حيث كانت حقول الرقي الرملية الهشّة تصل إلى الماء. هزّ خليل رأسه عن دراية، وشعر بدغدغة رخيّة في حلقومه، ودوار خفيف في رأسه ذكّره بذلك الدوار القديم، حين كان يأخذ عدّته ويغادر بغداد، في زمن الخبال الأول، حيث كان الهواء وحده يكفي لأن يسكره ويشعره بخدر لذيذ، وأيّة نسمة تهبّ من بستان، من مجموعة أشجارغائصة في التربة، تهدي إليه نعاساً يرنّق عينيه الحالمتين المبهورتين. تخيّل حبات الرقي المشطبة بالأخضر الغامق والفاتح تربض ثقيلة على صدر الأرض، مشدودة إليها بحبل سرّيّ متين. والآن كانت الطبيعة تتراجع مهزومة مقطعة الأوصال أمام القصور الفاخرة، الهجينة الواجهات. قال له أبو شذر:

ـ ها؟ ما رأيك؟

هزّ خليل رأسه خائفاً أو متهيّباً من النطق بكلمات ستخرجه من حالة الانشداه المسحور بشيء لا تمكن بلورته بكلمات، فان كل حركة ترجّه كما يرجّ سائل رائق في قارورة كدرة القعر. وأخذ عباس يثرثر وراء أذنه بأقوال تشجيع لا لزوم لها. وكان خليل في تلك اللحظة لا يريد إلا أن يصمت الصوت القبيح، ويتركه يراقب مساقط النور من خلال أغصان

الأشجار الوريقة، ويرى حركة الظلال تتماوج ندية متدرّجة من الرمادي الباهت، إلى الرصاصي المسودّ، وقال خليل لنفسه: ربما كانت هذه فرصة العمر!

وكرّر ما قاله أبو شذر: اتفقنا.

ـ غداً سآتي بكما إلى هنا. اعتبر ذلك عملاً ونزهة، والحارس خيون يوفر لكما ما تريدان. . فقط أن تنجز العمل في المدة المطلوبة.

وقال خليل في سرّه: يضعنا تحت الحراسة، وشعر بامتعاض من هذا الرجل، وكأنما يسعل في صحن نفسه الصافية. ورفض العودة في سيارته. وقال: سأرجع لوحدي. . . أريد أن أتمشى.

وظل ساعتين يهيم في الفراغات الخضراء الممزّقة بين مجاميع البيوت، حيث تبدو النخيل والأشجار الأخرى فلول جيش منكسر، وأحسّ وكأنه أحد جنود هذا الجيش المهزوم المتراجع، وأنه بين رفاقه مسحوق وممزق مثلهم، وسيتفتّت كما تتفتّت تلك الكتل الطينية المبعثرة على الأرض بين جدائل عشب يتيم ضائع، إذا لم يقاوم عوامل التعرية والتفتّت، وينتشل نفسه من بين خرائب عبثه الأرعن، ويثأر لحماقاته وتراجعاته المستمرّة. وعندما دخل إلى مشتمله كانت نفسه قد امتلأت بذلك الحزن المطهّر الذي تحسّ به النفس حين تكتشف سبب بؤسها. استقبلته حسنة بكلمتها المعتادة: أصبّ الأكل؟. وبدت جملتها مبتذلة لا تستحقّ الرد. عادت فسألته. رفع رأسه إلى فوق علامة الرفض.

دخل الحجرة التي يستخدمها مرسماً. سيلقي كل هذه الحثالة في الزبالة. ويبدأ حياة جديدة بلا تكبير عيون ولا تصغير أنوف. سيرسم الداخل، ومن الداخل بخطوط مشعّة، بلمسات ناطقة، ويجعل للصورة حياة لا تفنى ولا تذبل. أو هذا ما كان يحلم به.

وعاد يكرّر مع نفسه: سأقوم لأول مرة بعمل حقيقي، أضع فيه كلّ فلول قابلياتي المهزومة، أضع فيه شيئاً من الأرض التي ولدتني، والأم التي أرضعتني، وتوفيت وأنا صغير، من النخلة التي فتحت عيني عليها، من زغردة العصافير في شجرة نبق، للمراجيح، للفرارات، للعلوجة، لكل ما أحببته في الطفولة، وبقي لي منه مذاق حتى في كهولتي الجرداء هذه، قبل أن يفسدوا الأشياء، ويجعلوني أسير الطلبات الرعناء. وبعد هذا، بعد أن أنجز شيئاً مهمّاً أموت مرتاح الضمير. ومن يدري؟ فقد يمدّ هذا العمل في عمري، ويعيد لي شبابي، ويبعث الطراوة في أعضائي المتيبّسة. أوه، يا ربي من الصعب على الفنّان أن يصل إلى الخامسة والاربعين دون أن ينتج شيئاً ذا بال، ولكن اواش من قال أنا في الخامسة والأربعين؟ ربما أكثر. متى ولدتني أمي؟ في أية سنة بالضبط؟ متى حملتني بالقماط لتشربني

شوربة القنفذ؟ لا أدري، والله لم تكن أية حاجة آنذاك لتسجيل الولادات. ابنك، ولا أحد يأخذه منك. وقحط بنين وبنات ما دامت الولادة تتمّ في مواعيدها. بعد الإخصاب بتسعة أشهر. تماماً كالزروع، كالرقي، كأبراج الكواكب، ومنازل القمر. كل سنتين ينتفخ البطن، ويُخرج رأسه وليدٌ جديد. الأرحام مخصبة، وهي أخصب من الأرض، لا تحتاج إلى سماد. ابذر واحصد. والسعيد من أرّخ مولده بيوم مشهود في تاريخ العائلة، أو سنة الجراد، أو الزلزال، أو الكوليرا، ويوم خسوف الشمس أو كسوف القمر. وحتى لو كان التسجيل حاصلاً فلربما ضاعت الاضبارات والتساجيل من كثرة الاضطرابات وتنقّل دائرة النفوس من مكان إلى آخر، ومن نظام إلى آخر، ومن تعداد نفوس إلى تعداد آخر. وما أكثر ما تنقلت أمّ البزازين هذه وكل شيء يحصل في الدنيا. وفرك الرسام يديه. لا عليه، يجب أن يشمّر ساعده. يستجمع كل بقايا الخصب في روحه الناضبة.

وفي اليوم التالي كان جوّ أيار يتنفّس أنفاس حزيران، وفيه غبرة. والشمس تلسع العلباء بسفافيد حامية، وفي العصر ستكسر الشمس من حدّتها، وتكون كالبرنز المجلوّ. وذلك يجعل للألوان ألق البدايات الأولى. ولكن سكرتير المدير العام سأله في آخر الدوام عن اللوحة التي طلبها المدير. وكان خليل قد نسيها في زحمة مشاغله الجديدة ومعاركه مع أبي شذر، وانصراف تفكيره إلى موضوع آخر. فبدا كالفقير الجائع المطالب بدين نُسي في لحظة إقباله على شراء رغيف خبز يسدّ جوع معدته المتضوّرة. لوى رأسه وقال:

- دخيلك، ألا يمكن أن تقنعه بتأجيلها؟
- لا، قطعاً.
- سأنجزها في الموعد.
- وأنت مكلّف بأشياء أخرى.

ظلّت كلمات السكرتير تطارده. في الطريق إلى بيته قال لنفسه: سأرسم شذر بعد الظهر، وفي الليل حين أصاب بعمى الألوان سأشتغل باللوحة، وأجعل الهودج يبدو كالقبر والجمل كالزرافة، وسعف النخيل كقرون الوعل.

وكان أبو شذر دقيقاً في مواعيده. رأى خليل سيارته تدخل شارعه. حالماً خرج عبد المنعم من بيته، ووقف عند الباب يودّعه. نزل أبو شذر باتزانه المعهود. كانت السيارة خالية.

قال عباس ونداس حين رأى خليل يمدّ له يداً رخوة، وقد تكوّرت شفتاه الحمراوان كدملة توشك على الانفجار:

ـ نعم، جئت وحدي. خلّني أخدمك.

فتح خليل لـه الباب. كـان فم الرسـام جافّـاً، ولم تكن له الـرغبة في أن يقـول شيئاً، سكت، وترك ضيفه يدخل أمامه، وحين وقف الاثنان قبـالة الـطاولة البـلاستيكية عـاد عباد ليقول:

ـ لم أجيء بشذر، لأنني أريد أن آخذك إلى البيت.

ـ إلى البيت مرة أخرى؟

وتلمّست يده الطاولة، وكأنه يبحث عن شيء يبلّل ريقه.

ـ نعم، إلى البيت. وجـدنا ذلـك أكثر ستـراً. ولو كـانت لك بنت بعمـر شذر لفعلت مثلي.

رفع خليل إليـه عينين حـزينتين خـاسرتين، ولكنـه في قـرارة نفسه كـان يشعر بـارتياح غامض، وكأنما اتيحت له فرصة سانحة لتأجيل مهمة يشكّ في أن ينهض بها.

ـ راجعت نفسي، ودرست المسألة من كل النواحي. . . فيها بهدلـة، بكل صراحـة. . عيب. ماذا سيقول الناس، ينفرد رسام ببنت في عمر الورود؟. . . موديل؟

جلس خليل على الكرسي. دافع عن شرفه.

ـ استرح. ما هذا الذي تقوله؟ موديل؟

ـ ماذا سيقول الناس، إذن؟ قل لي. . .

ـ انتهى. لن أتكلم. . . حسب ما ترى. الرأي رأيك. .

وضع الرجل قاطعاً حديدياً بينه وبين رؤياه الجديدة، حين تفوّه بهذه الكلمة المبتذلة. . موديل. . فضل خليل أن يبلع مرارته. سيكون كل شيء تافهاً بعـد الآن. تركـه ليطمـر الهوة التي فتحها بينهما.

ـ ارجو ألا تتأذى. . حتى زوجتي تمانع في الخروج إلى البستان. . تجـد في ذلك تقليعـة مصريـة. . كأنني بـاشا من بـاشوات مصر السـابقين، اتـرك ابنتي تتنزّه مـع ريحـاني رسّـام في جنينة. . .

ونطق. . جنينة بشكل مضحك أزاح عن كاهل الرسّام بعض الثقل. نظر إليه من تحت حـاجبيه. كـانت النظارة قـد انزلقت، وهبـطت إلى منتصف أنفه. رفعهـا عبـاس بعجـالـة، وجعلته هذه الحركة مضحكاً بارتباكه وقلة حيلته، حتى لكأنه لا يختلف عن الرسّام حرجاً في

موقفه، وبدا آسفاً على الكلمة السليطة التي قالها «موديل»، ويريد أن يعتذر عنها. سأله بلهجة توسل:

ـ وماذا يضايقك من البيت؟

نفذ خليل من تلك الثلمة:

ـ ونعود إلى عذابنا السابق؟ نفس صالة العرض، نفس الديكور، نفس العيون المعادية؟

كأن عباس كان ينتظر ذلك. أمسك ذراع خليل الممدودة عبر الطاولة.

ـ سأتركك على هواك. لن أتدخّل في الديكور، إذا كان ذلك لا يعجبك.. اقترح أنا، ولك حقّ الرفض. على كل حال أنا والد، ويحق لي أن تطلع ابنتي في أحسن صورة.

سكت خليل. مسح طرفي فمه بسبابته وابهامه. بينما جلس عباس ركيناً على مقعده ينتظر منه شيئاً. جثم كصخرة كبيرة لا تزعزعها الزعازع. ماذا يريد هذا الرجل؟ صورة مبتذلة من الصور الموصاة حسب الطلب؟ هذا ما يريده بالتأكيد. الذوق المبتذل، الضخامة المصطنعة الغليظة، البذخ البائخ، يمكن أن يكون كل ذلك عناوين لحياته. وهذا شيء طبيعي في رجل هذه تربيته. اغتنى فجأة، في غفلة من الزمان أو في تواطؤ مع الزمان، وصار من أصحاب الألوف. فأي شأن لخليل، به؟ أليس غريباً أن يحرص خليل على أن يعطي للصورة أبعاداً غير ما يريده صاحبها؟ وفي لحظة من المنطق السائغ اقتنع خليل بذلك، وخاطب نفسه في سره: لم هذه اللوعة الفجائية من جنابك؟ لم لا تحاسبها كأية صورة من صورك السابقة المعلقة الآن في صالونات عجماء، أو من تلك المهملة المركونة مسربلة بالغبار؟ ما عليك إلا أن تغمس الفرشاة بلون صارخ دسم، وتطلي به الوجنتين والحنك والفم، وينتهي الإزعاج، وتفوز بمردود جيد، وزجاجات محترمة من البيرة. لا أظن الرجل سيقصر معك ما دام متلهّفاً إلى هذا الحدّ. وستحلّ بعض ضائقتك المالية، وتتفرغ إلى مطالب دائرتك الملحّة، ومديرك الشهواني. واطمأن خليل، وقال بعد أن رفع رأسه، ورأى عباس يحدق فيه:

ـ طيب، انتظرني غداً. اليوم مشغول. غداً بعد الدوام.

وحين ودّع عباس راضياً، عاد إلى الطارمة الصغيرة، فرأى صينية الغداء على الطاولة البلاستيكية. رز ومرقة وبصل أخضر، وكراث وكرفس. فجلس خليل يلوك طعامه، ويفكر: نِعْمَ ما فعلته. عشرة دنانير في الجيب احسن من مائة دينار في الغيب، أو ربما أكثر. وضحك منتشياً من هذه الفكرة. كانت حسنة تقبع على الأرض تراقبه على مبعدة منه، مثل كلبة

سوداء. كانت تخشى على عادتها أن يكون الطعام ماسخاً أو قليل الملح. سألت. أجاب:

ـ لا، بالعكس. مالح، مالح أكثر من اللازم. ولكن التمليح ـ ولوى يده المنشورة الاصابع، وأدارها في الهواء نصف استدارة ليعطي للكلمة مدلولها الرامز الذي لا تعرفه حسنة بالتأكيد، لأنه من الملاحة وليس من الملح ـ لأن التمليح عنوان حياتنا. ومنه نضيف الملح إلى طعامنا الماسخ.

وسرّته هذه الفكرة. وبعد الغداء دخل مرسمه المترب. ولكنه ظل جالساً أمام الحمالة زمناً طويلاً دون أن يخطّ شيئاً. فقد كان فكره مشوّشاً، وروحه تترجرج في قربة جلده. وفي الليل لم ينم نوماً مريحاً. ظل يتقلّب على فراشه، واستثقل حسنة، وهي هامدة بجسمها المبسوط على ثلثي السرير. كان يشم أنفاسها الزفرة، ويسمع برطمة شفتيها في النوم. ويعود فيتذكّر البستان ومساقط الضوء فيه، ورقرقة الماء في ساقية، ويأسف لأن فرصة، حُلُماً، أفلت منه. ولم ينم إلا في الهزيع الأخير من الليل. فحلم بأنه يرقد في شيء ضيّق يكتم أنفاسه. حاول أن يتقلّب، ولم يستطع. وفكر في أنه راقد في كاروك، وأنّ قنفداً يسلق الآن، وهو ينتظره، ينتظر أن يسكب في فمه ذلك السائل الذي أنقذ حياته ذات مرة.

● بعد أسبوعين من خروج المدير العام من المستشفى أخذ يتهيَّأ للسفر إلى خارج العراق. اجتمع ببعض رؤساء الدوائر، ولكن اي واحد منهم لم يتلقّ وعداً بالسفر معه، بل إن شهاب، صاحب الذراع الطويلة في المؤسسة، لقي تقريعاً منه، حين همس له:

ـ خفّف من مباذلك يا شهاب. ترى أنا حريص على سمعة المؤسّسة.

وظل شهاب يلوب كالملدوغ، ويحس بالإهانة. ولكن الذي أذهله وعطّل بقية مداركه عن العمل هو أن المدير العام الجديد اختار عصاماً ليصاحبه في السفر. ربط في ذهنه كلمات المدير اللاذعة عنه بهذه المفاجأة العجيبة الغريبة، التي تفري المهجة. واعتبر شهاب ذلك بداية معركة لا يعرف كيف ستتطوّر. فقرر أن يتصرف بحذر. شعر بأن شيئاً غير مأمون دخل على مستقبله في المؤسسة. فان السفر إلى الخارج، وبصحبة المدير العام، هو بداية قصّة لا يعرف أبعادها ونتائجها. حاول أن يستعرض في ذهنه سبب هذه العلاقة المفاجئة بين المدير العام وعصام. لو لم يكن عصام، في الأصل، من أبناء بلدتها لالتجأ إلى غابة الروابط العائلية. ولكن من يعرف جميع مسالك هذه الغابة، وكيف تتشابك، وكيف يحدّد بالضبط فروعها ودهاليزها الخفية؟ ودّ لو يذهب إلى ذلك الذي تعرّف عليه في سفرته المنحوسة إلى أم

الخنازير، فقد رسم له ذلك الرجل الخطوط العريضة لتلك الغابة. وعلى كل حال سيلجأ إليه، إذا لم يستطع ان يهتدي بنفسه إلى جواب يريحه بخصوص هذه العلاقة. أو ربما السبب في هذه الخطوة الغامضة أن عصام يحمل لقب مهندس. ولكن، اواش.. الجميع تقريباً يتشكّكون في صحة الشهادة. فان جميع الذين تخرّجوا من كليته لم تعادل شهاداتهم، وشطبت نقابة المهندسين أسماءهم من بين أعضائها، ولكن عصام احتفظ بلقبه، وبقي اسمه مسجلاً في النقابة. أليس هذا سراً؟ ولكن فضح السرّ لا يجديه شيئاً في الوقت الحاضر على الأقل. إنه يريد أن يعرف سرّ هذه العلاقة. ربما لأن كليهما خريج معهد أجنبي. وكلاهما متورّط بشهادته، فوجدا لغة مشتركة. وكان شهاب قد سمع أن عصام زار المدير العام في المستشفى، والناس رأوه خارجاً من خلوة معه. ربما هو الذي حرّضه عليه، وأعطاه قائمة مفصّلة عن نشاطاته. وإلا فمن أين يعرف المدير العام بمباذله، ولكن أية مباذل لشهاب؟ مجرّد أنه كان يسيّر أمور الناس ليسيّروا له أموره. لأن الماعون الذي تمدّه إليك يد كريمة لا يجوز أن يُرَدَّ فارغاً. وهذا ما يفعله الناس يومياً، فلا يثيرون استنكاراً ولا استغراباً من أحد. لأن ذلك من عاداتنا الحميدة التي تعود في أصلها إلى الكرم الحاتمي وإكرام الضيف، وردّ الجميل بأحسن منه. ووقع شهاب في حيرة، وهمَّ أن يستشير أباه العارف ببواطن الأمور، كما يحلو للأب أن يقول أحياناً. ولكن شهاب يعرف مقدماً أن أباه سيطلق عليه عبارات عتيقة دأب على إطلاقها عليه منذ أن كان صغيراً. اثول. طائش. اللي ما بعرف تدابيره حنطته تاكل شعيره... والآن، طلّع نفسك يا حمار من هذه الوحلة. وشهاب لا ينزعج من وصفه بأية صفة قدر انزعاجه من هذه الصفة الأخيرة التي كان الوالد يردّدها في وقت الشدة دائماً، حين يتورّط شهاب في شيء، ولا يستطيع أن يخرج منه. يتوحّل. فقد كانت تحرّك لواعج عميقة في صدره، وتحيي ذكرى وحشية. والآن أيضاً، حين تصوّر ما سيقوله له أبوه، عندما يستشيره... أنت حمار كبير. ابتسم بحزن مقهور، متقلصاً إلى ذلك الجحش الذي كانه حين دخل ماكينة الطحين، وشهد المنظر المقزز الحقير.. كيف شبَّ حمار هائج على حمارة ذليلة مطأطأة الرأس، كأنما شم رائحتها عن بعد. واقتحمها بوتده، وسط صياح صاحب الحمارة: مريضة والله عمي مريضة، مريضة! وتحمّل الحمار ضربات العصا الموجعة على يافوخه، ولم ينزل عنها إلا بعد أن قضى وطره.. وتخلّى شهاب عن استشارة أبيه. وقرّر أن ينتظر انجلاء الأمر. وقلّص نشاطاته المريبة، ومباذله اليومية، واجّل مواعيد كانت مقطوعة، ودعوات كثيرة مغرية. وعندها أحسّ بفراغ هائل يجرف حياته، فكان يدخل بيت أبيه صامتاً مستوحشاً، حيث يجد أخته ساجدة، من أم أخرى، وهي طالبة في كلية الآداب تتكلم بلغة صحفية ممجوجة تدير الرأس، وتحرّك الأشياء الثابتة من مواضعها.. فيترك البيت مسرعاً، ويسقط في الفراغ ثانية.

في الأسبوع الذي تغيّب فيه المدير العام مع عصام إلى إحدى العواصم الأوروبية، بدا شهاب مثل قفّة تدور حول نفسها. بلا هدف، ولا إرادة. وفي الليل كان يتسلّل إلى بيت امرأة من غير ملّة محمد اقتحمت عليه دائرته مرة، وطالبته بتوزيع عادل لمنتجات المؤسسة، فلا يحرم دكاناً بعينه، ويُعرِّض صاحبه المسكين إلى الإفلاس. وبعد أن ذهب ليفتّش ويكتشف استجاب، فاستجابت له، وصار الجزاء متبادلاً. فكان يهرع إليها في ساعات المرح الطافح، والعسر الشديد، حين يكون بطنه منفوخاً بالبيرة، وفكره مشلولاً لا يستطيع أن يمارس قابلياته الحمارية.

اليوم نفخ بطنه بالبيرة، وذهب إليها. وحين فتحت له الباب فزع، وكاد يرتدّ إلى الوراء. شعرها الذي كان يراه دائماً أسود سبطاً لامعاً كان متناثراً مشرذماً على رأسها، ووجهها محمرّاً مجزعاً، صلب التقاطيع، تمتدّ عليه لطخة سخام قبيحة تبتدىء من تحت صدغها إلى أعلى الرقبة غامرة الخد بظل أسود، وأصابع يديها مبلّلة متشنّجة قذرة، تتشبّث كالبراثن على فخذيها المتلثتين البارزتين. همّ بها. تذكر الحمارة. ولكنها هربت منه، وأغلقت باب الحمام، ولم تفتحه. حين دقّ عليها لم تفتحه. وشيئاً فشيئاً تسرّب نداء الشهوة من جسده. وحين عادت، كان قد عاد إلى وضعه الطبيعيّ الذي عرفته به. جاءته نظيفة براقة الشعر، لامعة العينين، على جسمها المنحوت نحتاً روب بنفسجي بورود زرق، ليس لها شبه بالحمارة مطلقاً. قالت:

ـ آسفة. كنت أغسل أرضية المطبخ. الخادمة طلبت إجازة. هل أصنع لك قهوة؟

لم يعد يهمّه الآن شيء. ستعيد العملية كاملة. سكت عن رضى أو لا مبالاة. فذهبت، واقبلت ثانية تحمل صينية القهوة معافاة، مشرقة الوجه بابتسامة مغيضة. وسألت:

ـ هل شربت كثيراً اليوم؟
ـ ثلاث زجاجات بيرة.
ـ عيونك مبقبقة، ووجهك منفوخ.

عاد هو المريض.

ـ هذا ليس من أثر الشرب فقط.
ـ من التعب أيضاً؟
ـ وأشياء أخرى.

سكت. جلست إلى جانبه على الأريكة، وناولته فنجان القهوة، وتناولت هي فنجانها، ورشفت منه رشفة صغيرة، وفرجت ساقيها، ملقية جسمها على ظهر الأريكة، رافعة حنكها

إلى فوق، وتنهّدت منتعشة، وانحسر طرفا الروب، وكشفا عن ساقين بضّتين. نظر شهاب إليهما بانكسار وعجز.

ـ تكلّم.

ـ عم أتكلّم؟

ـ كيف الشغل؟ كيف التوزيع؟

ـ قصدك التسويق؟ يتمّ وفق مبدأ ثابت.

ـ ما هو؟

ـ ستعرفينه، حين نختلي في الفراش.

ـ الله، خوّفتني.. يعني صراع؟

ـ صراع.

ضحكت وقالت:

ـ لا غالب ولا مغلوب.

ـ سأغلبك اليوم.. اليوم عندي نقمة. والشهوة، كما يقول رسّامنا هي نقمة.. سأنتقم منك اليوم شرّ انتقام.

ضحكت ماريا:

ـ الآن فرحت...

ـ ألا تلذعك حرارتي؟

ـ يا عيني، يا عيني

ووضعت القدح الفارغ على الصينية، وألقت ذراعها وراء رقبته. ومسّت بشفتيها خده الناعم الطويل. وبدت مستعدة لأن تلبي حاجاته، وتتقبَّلُهُ تلوّت أمامه بقوامها اللدن مثل راقصة مصريّة. فتوتّر شيء في داخله، مثل نابض صغير صدىء، أغمض عينيه متخيِّلاً شيئاً مثيراً كانت حمارة الطفولة تبتعد عنه. نخر نخرة الحانق العاجز. نهض، وخلع سترته، ورماها على الأريكة، وتقدم منها بصمت، فارتطم بطنه البارز ببطنها قبل أن يحتويها في ذراعيه.

ـ رائحة البيرة تطلع من أنفاسك.

ـ ساخنق أنفاسك اليوم.

كان يشجّع نفسه، يوتّرها بالخيال والكلام المثير.

ـ أعرف.

ـ سأفترسك.

ـ أعرف.

ـ سأمزّقك.. هيا، ابدئي..

وبدأت عملية استدرار الشهوة. وكانت مريا خبيرة بها. يداها المدرّبتان، مثل يدي مدلكة بارعة، تفركان كل قطعة يابسة من جسده، وتليّناتها حتى صار لأفعى الشهوة فحيح، ورفع رأسه قليلاً، وترول ثم خمد. وحين عاد إلى شهاب وعيه وإحساسه بجسمه شعر بنفور وتقزّز مُفلّ للمفاصل، وتلزّج غرائي في المواضع التي كان يمسّ بها جسده جسد المرأة الراقدة إلى جانبه. لملم أطرافه بحركة نفور، وشعرت المرأة بانكماشه. فنظرت إليه نظرة قطة انتزعت منها لحمة وقالت؛

ـ ها، شبعت؟

ـ لم أكن جائعاً حتى أشبع..

ـ ولماذا جئت، إذن؟

همس في تخاذل:

ـ سأخرج.

ولما خرج بعد أن زال عنه فتور الهمة، ندم على لعبة طالما أراد أن يتخلى عنها، فلم يقدر.

● كانت تجلس قبالته، وتضع يداً على الأخرى، كما اراد لها أن تفعل. واليدان مسبتان على حجرها، والشفة العليا المقوسة قليلاً تعلو باطمئنان على شفتها السفلى الرقيقة، فترسم ابتسامة طبيعية أزلية لا تنتهي، كأنها الردّ العنود على الحزن الربيعي الذي يرين على وجهها. كانت هادئة، وديعة الملامح، ولكن كل قسمة من قسمات وجهها كانت تنطق بشيء مكنون، رقيق، يعجز خليل عن التقاطه، ليس هو حزناً صرفاً، ولا شكوى، ولا حتى ملامة، بل شيء أشبه بتلك الأشياء الغريزية التي تتدرّع بها بعض الحيوانات لحماية نفسها من الأخرى المفترسة، شيء من التحفّز المتردّد، الرهبة من الإقدام على ما هو ضروري، الوداعة التي تقيك من التفكير في شيء خبيث، مؤذ. كانت مستسلمة للقدر، وراضية عن استسلامها، مطمئنّة في الوقت ذاته إلى أن القدر لن يخونها، مهما كان غداراً. رفّت الأهداب رفيف فراشة تحوم حول حوض زهور تتخلّله أشواك. كان خليل قد بدأ يتقدّم في عمله، يرسم تخطيطات بالفحم بجرأة أكثر، مع تظليلات خفيفة حول ما يمكن أن يصفه بالمناطق

الغنية بدفائن النفس. بعض الأحيان كـان يكتفي ببعض الخطوط المنحنيـة، بعض الأقواس في رقعة عذراء تحتاج إلى امتلاء. وكلما رفع عينيه بعد هذه الخطوط اللاإرادية، الباحثة عن نقطة ارتكاز، رأى في الوجه أمامه سمة تبدو له جديدة لم يفـطن إليها بعـد. فكان يضيف أو يعيد الكرة ليسجّلها بعجالة لاهفة تسعى إلى التقاط شيء خاطف كطيف؛ كـرفّة لـون على الـوجه الساكن في ظاهره، المتبدل، المطمئن إلى شيء له وحده. . . شيء يفلت من الرسـام، وينزلق من بين أصابعه.

الآن لم تعد الصبيّة تدخل، وتعبث، وتلين الجوّ. الآن صار الـرسام حبيس قـدره. إما أن ينجح أو يسقط ذلك السقوط الذي كان يطلّ عليه لدى كل عثرة، كل توقّف، ويـوسوس له. وكان هذا العمل الذي يبدو بلا نهاية يلهيه ويلذّ له ويغنيه، كاشفاً له عشرات الخيـارات للنموذج الماثل أمامـه. ولكن الصوت الضخم الـذي ينبعث من أعماق البيت أولاً، ثم يحسّـه وراء ظهره يدبّ كالسلحفاة، كان يشلّ يده، فلا يعمل شيئاً.

جاء اليوم أبوها.

- ها؟

- انظر كم عملت من السكيتشات؟

- وما نفعي من السكيتشات أو الكلبجات: أريد الصورة.

- على مهلك، لا تستعجل. انظر إليها. تتجدّد أمامي.

- أريدها ثابته على الصورة.

- ستكون لك.

- ومتى ستكون والذكرى بعد خمسة أيام؟ هل تقدر أن تنجـز الصورة كلهـا خلال هـذا الوقت؟ وأنت صار لك شهران. . .

ولم ينطق بالكلمة التي كـان خليل يحسّها ويتوجّسها. . وأنت عاجز. . هـل هو عـاجز حقاً؟ لم يرد أن يناقش هذه القضية. نهض من المقعد الصغير مخنوقاً، وقال ملتاعاً، وهو يمسح يده بخرقة:

- أبو شذر، لماذا لا تلجأ إلى أحد رسامي الحيدرخانة؟

- ما كنت أتصوّر أنك ستتأخّر طوال هذه المدة.

- ما يزال الوقت كافياً. سيرسمونها لك خلال ساعات.

وبعـد أن انتهى من هذه الكلمات أحسّ بـالندم، بـالانسحاق للرعـونة التي يهـدم بهـا كيانه. كانت رقبته متوتّرة يحسّ بها مثل دبيب النمل. وكان الصمت صمت محكمة توشك أن تعلن

عن حكمها القاسي. ولكنه أحسّ بشيء من الانفراج، حين تقدّم عباس من التخطيطات المركونة على كرسي، وانحنى عليها، وتناول واحداً منها، ثم آخر، وانشغل في تقليبها. ونهضت شذر من مقعدها، وعدلت ثوبها وراءها، وانتصبت، وتمطّت، وبدا الضيق عليها. وهذا! أشدّ ما يخشاه الرسام الذي يريدها أن تكون متفتحة كوردة في ندى الصباح. شعر بإحراج وارتباك تلميذ مدرسة فاشل. انتهى عباس من فحص الرسومات، ونظر إلى أطراف أصابعه خوفاً من تلوّثها بالفحم، ولم ينطق الحاكم أو المعلم بحكم محدّد، وقال لابنته دون أن يعبأ بذلك الذي تكّورت شفتاه كمن ينتظر أن تُوجه إليه صفعة.

ـ روحي تغدّي. . تعبت؟

نظر الرسام إليها بتوجّس شديد. كانت مسبلة الجفنين، مكفهرة الجبين. التعب واضح. وتمزّق شيء في نسيج قناعته المهلهل. شرع يجمع أشياءه، دون كلام، وكأنه يهرب من سماع الحكم الصارم.

ـ أنت أيضاً يبدو عليك التعب ـ قال عباس بصوته الغليظ المتورّم ـ لنؤجلها إلى بكرة.

ـ بكرة.

ـ وبكرة يصير بكرة.

رفع خليل جسمه المنحني ليرى ماذا يخبىء وجه عباس، حين قال جملته القاتلة. ولكن عباس طوّق كتف ابنته، وخرج. أهذا حكم بضياع أمل؟

وحين انتهى من جمع أشيائه، وغادر الصالون، رأى عباساً واقفاً عند باب القاعة:

ـ تفضّل تغدّ معنا.

ـ لا، شكراً.

ـ لا، صحيح. الأكل حاضر.

ـ خلّيه لبكرة.

كان جاف الحلق، يعجز عن نطق الكلمات. الصاروخ الذي نقله إلى بيته بدا عفن الرائحة مكتظاً بالناس بعد ذلك النقاء والرحابة. قلقل مصارينه فأوجعته، فلم يفكر إلا في الخروج منه بأسرع وقت. وعندما نزل من رأس الشارع المؤدي إلى بيته، وتنفّس هواء مريحاً عادت إليه حاسّة التفكير، فتذكّر كلمات عباس القاسية: بكرة يصير بكرة، واعتبر ذلك تشكّكاً ساخراً في قدرته على إنجاز الصورة. فالغد لن يصير اليوم والصورة تبقى مشروع أمل. وأسف على أمله المشكّك فيه، وأغتمّ. وحين سأله البقال: ثنتين لو ثلاثة قال ثلاثة

مفكراً في ليل خناس يوسوس في صدور الرسامين المشكوك فيهم. وتناول الزجاجات الثلاث أملاً في غد أحسن. استقبلته حسنة بفتور. رأت الزجاجات في الكيس الورقي، فاعتبرتها ثلاث ضرّات جديدات. كان وجهها الممتلىء البدائي مثل لوح طيني أشوري أو بابلي ينمّ عن ابهومة ممسوحة. قال لها يبثّ الحيوية الإجبارية فيها:

ـ هيّئي المزّة.

وأخرج الزجاجات من الكيس، وضعها على الطاولة البلاستيكية وسأل نفسه: من أيّ بار سرقت هذه الطاولة؟ وامتزج مع البار روحاً، وفتح زجاجة حارّة امتلأ أكثر من نصفها بالرغوة، وكرع بعطش جهنمي غائصاً بشفته العليا إلى عمق القدح ليصل إلى السائل الكهرمان، وفرك يده، وقال لنفسه: سأرسمها الآن.. ارسمها من الذاكرة.. كل مساماتي متشرّبة بها.

دخل المرسم الأضحوكة، كما يسمّيه أحياناً. صفّ التخطيطات على طول سفح الجدار، ونقل منصّة الرسم إلى الوسط. وكانت الجنفاصة جاهزة. أتمّها منذ أيام، وأغمض عينيه بتلذّذ ليتذكّر شذر. ليست ثابتة في خياله. ظلّت تتنقل بين أوضاع مختلفة.. الوجه.. الوجه.. دعنا من الوجه الآن.. ارسم خطوط الجسد.. الرقبة، تكوّر الكتفين، الذراعين، الشمعدانين المنتهيين بخمس شموع سكرية.. حاول أن يرسم من الذاكرة. شذر ملء إحساسه. وجهها الحي القوي القسمات يطرف حوله كفراشة عزيزة على الإمساك. هالة، ولكن بتقاطيع وخطوط واقعية تضرب في العمق. أعجبه أن يرسم الأذنين. التقوّسات الانسيابية، شحمة القرط الفيروزية. حمراء كانت أم سمراء؟ أم أيّ لون اتخذت؟ رسم على ورقة أذناً، باربعة خطوط، ونقطة صغيرة في الوسط، ولم يمسّ شحمة الأذن. تركها تنساب مثل قطرة عسل. ثم رسم خط الجبين مع تهدّل الشعر على جانبيه. ومضى يرسم بلمسات خفيفة متفرّقة، حتى نسي الوقت، وفراغ قدح البيرة على الأرض إلى جانبه، وحتى احمرار شفتيه إلى حدّ تفجّر الدم، وذبول النور وخفوته، وتبرقع الألوان بغشاء القدم في اللوحات الكلاسيكية، حتى افتقد الضوء كلياً، وأحس بأنه في أحد دهاليز الحلم. فزّ. تلفّت. وجد الغرفة غارقة في غبش المساء، وصينية الطعام الالمنيومية المثلمة على كرسي، والطعام عليها مثل طعام أهل الكهف، لم يتسنن بعد. وكان قد أغلق الباب مخافة أن تتطفّل عليه حسنة. ولما فتحه رآها في المطبخ مثل صرصار كبير ملتصق في جذر الحائط.

هزّ رأسه مبريراً، وتقدم منها كالحالم:

ـ نمت في الحجرة؟

ـ لا..

حملق فيها. عادت إنسانة ما تزال حيّة، فقال بفرحة طفل استيقظ من نومه فوجد إلى جانب سريره لعبة.

ـ كنت في زيارة...

ـ زيارة؟

ـ نعم..

بدت عليها بلادة قاتلة.

ـ ذهبت إلى هناك.. الشمس.. الهواء.. الألوان..

ضحكت حسنة من هذه الالغاز ضحكة باهتة. قالت مشفقة:

ـ هل أصبّ لك الشاي؟

ـ آوه، ذكرتني.. لم أتغدّ بعد.. ولكن اسمعي ـ واتجه إلى الثلاجة الكسيحة، وقال ـ أظن البيرة باردة الآن.

تناول زجاجة البيرة المغبشة، وتناول قدحاً نظيفاً (إنه يفخر بأن في بيته خمسة أقداح، اثنان منها سليمان) واتجه إلى الطاولة. كان المساء مثل دخان عديم الرائحة يتغلغل في كل شيء، وكان خليل يشعر بنشوة غريبة لا يعرف من أين جاءته، ولماذا جاءته على غير ميعاد.. ربما لأن شيئاً من شذر دخل بيته لأول مرة في حياته.

كرع البيرة بانتصار. وكلما لعبت الخمرة في رأسه، تصوّر خياله المحموم أن الكنز الذي سكّ أول ليراته صار يتنامى في المرسم بشكل خارج عن ارادته.. يكبر، يتضخّم.. ويغني صاحبه، ويجعله يتسامح مع كل خطاياه السابقة، خطايا البشر أجمعين.

● عاد المدير العام من أوروبا ومعه عصام. وبدأ حركة تنقلات جسوراً داخل المؤسسة، حتى شاع أن أي مدير عام لا يستطيع أن يفعل ذلك إذا لم يكن له ظهر قوى. وقال الناس أيضاً إنه المدير العام الرابع خلال سنوات معدودة، ويريد أن يوقف الانهيار، ويحسّن السمعة، وقال آخرون إنها سياسة جديدة لحقن مؤسسات الدولة بدماء جديدة، فان هنك عناصر مغرضة تريد أن تثبت فشل القطاع العام وتشوّه التوجّه الاشتراكي بشكل عام. وعلى كل حال، استطاع المدير الجديد أن يبثّ الرعب في قلوب المنتسبين، ويثير قلقهم ومخاوفهم على مستقبلهم. وصُفّيت المؤسسة من بعض العناصر التي جلبت إلى مؤسسات

الدولة لهذا السبب أو ذاك، وأنيطت بها مناصب لا تصلح لها. فان الانضباط العسكري شيء، والتفكير العلمي السليم في تنمية الاقتصاد شيء آخر. ونقلت سهام وشروق إلى المخازن، في وزارة النقل. وقد قال المدير: قسم العلاقات أخطر من أن يشتغل فيه مشبوهون، وكان منذ أن تسلّم الوظيفة اطلّع على قائمة المنتسبين، وكان يعرف من قبل أن سهاماً من بينهم، سهام المرتبطة بوتر قديم وعميق يصعد إلى قصة معقّدة لا يحب هو نفسه أن يتذكرها، فبيَّت في ذهنه ما بيَّت، وباشر في تنفيذه حتى قبل تسلّمه الرسمي لمنصبه. وكان المدير العام يؤمن بالحل السريع الحاسم، والتنفيذ المحبك الدقيق. فانت إذا كنت تؤمن بضرورة فعل، فافعله بسرعة، وبالطريقة التي تراها أنت أجدى وانسب، ولا لزوم للتردّد، وللتفكير في ردود الفعل لدى الآخرين. فان التردّد يعني اهتزاز الإيمان بما تفعله. وهذا في حقيقته عجز عن الحسم، وشلل في الإدارة. وما أكثر الشياطين التي تتكالب على الإنسان حين يعجز أو يشعر بالعجز. شياطين يمكن أن تدفعه إلى كل شيء، وليس أهونها شيطان النقمة الذي يفرِّخ ما لا حصر له من العفاريت الصغيرة الحادّة الأسنان.

وصدمة الغرب التي يحبّ أن يتحدث عنها كثيراً ليست إلا امتحاناً للإرادة. وقد امتحن ارادته هناك خلال سنتين في امريكا حصل خلالهما على دبلوم بصعوبة. وترك الغرب كارهاً له. ولكنه كان يعرف أن الغرب يملك تكنولوجيا، وهي الكلمة التي تتردّد بكثرة في الجرائد والكتب والنشريات الأخرى، وتنطق بها الأفواه، وكأنها تغصّ بلقمة دسمة. والتكنولوجية معناها القوة، والقوة مظهر ممتاز للإرادة. كان يقول في مجالسه الخاصة، نحن، في الشرق، لنا مشاكلنا الخاصة، ولنا أيضاً طرقنا الخاصة لعلاجها، ولكن لا بأس من الاستفادة من تكنولوجيا الغرب لعلاج هذه المشاكل بالطريقة التي نراها نحن مناسبة.

ولم يكن تفضيله لعصام راجعاً إلى إعجابه بهذا الشاب الهادىء الصموت في الغالب، ولا لأنهما خاضا تجربة الغربة معاً، كما يجب أن يعلن، بل إلى سبب آخر. فقد عرف بطرقه الخاصة أن شهادة عصام موضع شك، وأن زملاءه في نفس الكلية لم يعترف بشهاداتهم، وأن الرجل لا بد أن يشعر بالغبن، إذا كان بالفعل قد حصل على شهادته باستحقاق، والشعور بالغبن يدفع الانسان المغبون إلى جليل الأعمال وسيئها، يصنع المجرمين مثلما يصنع الرجال العظام أيضاً، وقادة الأمم. وقد عانى جليل محمد جليل هذا الشعور كثيراً في سنوات تكوينه، وفيما بعد في مشاكل الأرض، وفي خصوماته العديدة مع اخوانه واعمامه الذين يريدون أن يحتفظوا لهم بحصة الأسد لمجرد أنهم يتصوّرون أنهم أحق منه بها، ولهم القدرة على تنميتها لمصلحة العائلة كلها. ولكن النتيجة كانت دائماً مخيبة للأمل، والخسارة فيها أكثر من الربح.

وهكذا صار المهندس عصام مدير مكتب المدير العام، إذ أصرّ المدير العام على الالتزام بالمبدأ الصحيح، وهو أن يكون في كل لجنة أخصائي يحمل لقباً علمياً، وأن لا توكل الأمور إلى المنفّذين الذين لا يعرفون عن أيّة مسألة إلا جانبها الحسابيّ فقط، فيقعون في أخطاء تقنية لا تغتفر، ويتورّطون في مواصفات لا تصمد للواقع والتطبيق.

شعر عصام في الأسبوع الأول من مباشرته بمنصبه الجديد بأنه يعرف المدير العام منذ زمن طويل. حقاً إن السفرة حطّمت حواجز كبيرة. فالفندق، والمطعم، والمشرب كان يجمعهما، وكانا يجلسان إلى مائدة واحدة، وتبدأ العيون بالتقاط الوجوه الجميلة، والقدود الريّانة، وتقيم علاقات سرّية معها. وذكرت صدمة الغرب على المائدة ومقعد البار العالي أكثر من مرة، وثمل عصام ذات مرة، فباح لمديره بأول صدمة قوية له في الغرب.

ـ سافرت، ذات مرة، في الباخرة من بيروت إلى مارسليا.. في الدرجة الثالثة، بالطبع، في القبو، في أسفل سافلين، حيث كان ثمانية اشخاص يتعلّبون في تخوت مصفوفة بعضها فوق بعض. وقرب رؤوسنا أو حتى فوقها كوى مستديرة كنا نرى منها ذرى الأمواج تتكسر على زجاجها أحياناً. وكنا نقضي أغلب اوقاتنا على سطح الباخرة، ونتناول الغداء في أماكن محجوزة. ومن حسن الحظ أن فتاة ألمانية كانت تشاركني المائدة، عرفت فيما بعد أنها جاءت إلى بيروت لتتمرّن على الكلام باللغة العربية.

ـ فقط؟

ـ هذا ما قالته لي. وفي أول جلسة لي معها رفعت إبريق الشاي. وقالت بالانكليزية: هل اصب لك شاياً؟ قلت بخجل ولعثمة: ثانكيو فقالت: ما معنى ثانيكو؟ يس أور نو؟

قاطعه المدير العام:

ـ إنها محقة. نعم، أم لا. ليس هناك حلول مرتخية. في الغرب هم هكذا دائماً. يس أور نو.

وضحك المدير العام مجلجلاً بضحكته، واكمل:

ـ لا بد من دخول التجربة، الصدمة، بكل ما تحمل من مفاجآت، وعذابات واشراقات، ولكن يجب أن ندخلها، ونستفيد. طيّب، ماذا حصل مع فتاة الغرب؟.

ـ وتبادلنا الابتسامات والحديث، وتمّ التعارف، واعتبرتها صارت بالجيب، ورأيتها بحرّية الغرب المذهلة تخلع ثيابها أمامي، وتبقى في لباس السباحة، بيضاء مورّدة، ملساء ريانة، وتأتمنني على ثيابها، وتقفز إلى حوض السباحة. سمكة بنية رائعة. قلت لنفسي: هذه

لي بالتأكيد. فكنا ندخل البار معاً. كانت تكره البيرة، لأن أباها صاحب معمل صغير للبيرة في إحدى المدن الالمانية، وكانت تفضّل عليه المشروبات القوية القليلة الكمية، الشديدة المفعول. وزاد اقتناعي بأننا في هذه الليلة سنعقد لقاء من نوع آخر. ولكنني في المساء رأيتها تتكلم مع شخص آخر، وتضحك معه بملء الحرية. فقلت لنفسي: خانتني. وصممت على أن لا أكلّمها حتى تأتي طائعة. وتعتذر لي عن هذه الخيانة.

ـ وجاءت؟

ـ لا. بل قالت في وجهي: يو آر سفيج. هل أنا من حريمك؟ وبتلك الغيرة الشرقية الرعناء حطمت كل أمل في وصال.

ضحك المدير العام وقال:

ـ بالمناسبة، الممرضة التي كانت تداريني في المستشفى اسمها وصال. بالمناسبة، سألتني عنك، وكأنها احبتك من أول نظرة.

ـ تبدو انها فتاة متحرّرة، وجذابة أيضاً.

ـ الظاهر أنك محظوظ مع النساء. وسامتك وشبابك يشفعان لك في ذلك.

قال عصام:

ـ وفي آخر اللحظات يهربن مني..

ـ على العموم، أنت حرّ وتستطيع أن تخوض التجربة. وليس مثلي صاحب عائلة. والمنصب قيد كبير يطالب الإنسان بان يتشدّد مع نفسه..

واستقام عصام على ظهر كرسيّه في فترة فراغ خاطفة. كان يشعر بارتياح وخفّة جسدية. موجة من الحيوية الدافقة دفعته لأن يقوم بحركة رعناء في غرفة مكتبه الأنيقة. ولكنه اعتصم بالاتزان. وكبت شيطان الطيش. واخرج دفتر تلفوناته الصغير من جيبه، وورّقة عابثاً، واستقر على صفحة. قابله رقم تلفون. يحلق فيه. تلفون المستشفى. الممرضة. هل يمكن أن يكلّمها الآن، وقد عرف اسمها؟ وإذا دخل عليه أحد غفلة؟شهاب مثلاً؟ بداية حسنة، سيقول. ستفعل ما أفعله أنا. سيارتك الموسكوفيتش معروفة أكثر من سيارتي الرينو تراكتور صغير. لن ينفعك أن تتركها في شارع جانبي. ولكن لا بأس. لا شيء يموّهه. مضى عهد التمويه. كل شيء مكشوف معروف. ورفع السماعة، وادار الرقم، وعينه على الباب.

ـ من فضلك، ممكن أن أكلم الممرضة.. وصال؟

ـ أنا وصال.
تشنّج حلقه. قال بصوت جافّ مهزوز:
ـ مرحباً... لا أظنكَ عرفتني..
ـ أعرف... الأستاذ عصام.
ذهل. همس:
ـ معقول؟
ـ أنا أميّز الأصوات.
ـ عجيبة.. كيف الأحوال؟
ـ شكراً، وكيف أنت؟
ـ لا بأس. قبل أسبوعين كنت في مهمة خارجية، أقصد سافرت إلى الخارج.
ـ الحمد لله على السلامة.
كل شيء كان يبدو سلساً. سألته:
ـ هل تشكو من شيء أستطيع أن أنفعك فيه؟
سمع الصوت يأتي عبر السماعة عذباً مفعماً بحنان الملائكة. خفض صوته، وقال:
ـ أشكو من الضجر.
سمعها تضحك ضحكة طفلة تسمع نكتة.
ـ ولكن هذا ليس مرضاً
ـ كيف ليس مرضاً؟
ـ أقصد ليس جرثومياً.
ـ أنت غلطانة، يا آنسة وصال. الضجر جرثومة فتّاكة.
ضحكت مرة أخرى، وسألت:
ـ يُعدي؟
وتحيّر عصام لا يعرف بماذا يجيب. ربما ينفّرها بكلامه.
قال:
ـ لا، بالعكس. سرعان ما يزول حين يلتقي الضَجران بشخص آخر، على الأخص بإنسان لطيف.
ضحكة أخرى، و:

ـ فهمت مقصودك.

وكانت النتيجة أن أعطته رقم تلفون بيتها، وحددت موعداً تكون فيه عند سماعة التلفون. وعندما وضع عصام السماعة أحسّ بأنه امتلك شيئاً إلى جانب المنصب الجديد. عاد فاتكأ على ظهر كرسيه، وأغمض عينيه متلذّذاً. تراءى له خيالها الأبيض، وقولها الغنج «فهمت مقصودك». . نعم، يا وصال. هناك من يشارك المدير العام رأيه فيك. . لك قلب من ذهب، ودعي عنك الأشياء الأخرى. . .

وجفل عصام حين فتح الباب، واقتحم عليه خليل عزلته. دخل الرسام مكفهرّ الوجه، زائغ العينين. شفتاه الحمراوان جافّتان، كأنما من فعل احتقان داخلي.

ـ أنا ذاهب. . الإعلان جاهز.

ـ أين هو؟

ـ على طاولة شهاب.

ـ قلت لك: دعك من شهاب. هاته هنا. المدير العام يريد أن يرى كل شيء بنفسه.

ـ سيقدّمه شهاب له.

ـ أنت المسؤول أمام المدير العام مباشرة.

ـ أنا؟ أدخل على المدير العام مباشرة؟

ـ دعك من هذا الكلام السخيف. أنت فنان.

ـ فنان عطشان.

ـ أعرف نوع عطشك. سينتهي الدوام قريباً. هل حرَّك المدير خيالك؟

ـ بأي شيء؟

ـ أطلق لريشتك العنان. . ارسم ما تشاء.

ـ الخيال موجود يا عزيزي عصام، وحتى أكثر من اللازم ولكن. .

ولملم خليل أصابع يده، كأنما يريد أن يتلمّس شيئاً.

ـ وما هذه الـ . . لكن؟

ـ اقصد، ولكن ذلك يحتاج إلى وقت. . يحتاج إلى تلمّس الواقع، استيعاب الواقع، وهذا ما لم أستطعه حتى الآن. تصوّر، يا عزيزي عصام، أن صاحبك خليل المشهور بتصغير الأنوف وتكبير العيون صار له شهران، وهو في عجز تام، لا يستطيع أن ينقل صورة فتاة بسيطة، شفّافة، واقعية، ذات حضور يملأ الوجدان.

ابتسم عصام، وارتخى على كرسيه.

ـ لعلك عاشق. يا خليل.
ـ في هذا العمر، يا عصام؟
ـ العشق ليس له أعمار محددة. القلب فراشة ترفّ دائماً حول الزهور الجميلة.

قال خليل رافعاً رأسه إلى فوق:

ـ فراشة.. رفيف.. زهور جميلة.. ألوان قزحيّة.. عيون بنفسجية، وجدان.. .هذا الذي تريد أن تقوله؟

ـ لعنة الله على وجدانك.. لا تذكر العيون البنفسجية أمامي.. أنت الذي قلت لي ذات مرة: اللون البنفسجي يدلّ على الجنون.

ـ نعم، يا عصام، والخيال جنون أيضاً، شيء فالت يفسد الواقع، ويجفّف الريق.

وبحّ صوت خليل، وذهب إلى الطاولة الصغيرة، وتناول قدحاً كان مملوءاً إلى النصف بالماء، وقال:

ـ تسمح أبلّل ريقي..
ـ اشرب.

ولكنه لم يشرب غير جرعتين. فقد كان له في ذهنه مشروعه المفضل. قعد على الكرسي:

ـ هكذا تريد أن تتبرأ من حياتك الماضية؟ الم تتغزل بعيون بنفسجية؟
ـ اللعنة عليك.. لا أتبرأ، ولكن أؤكّد على مدلول اللون البنفسجي حسب ما قلته لي ذات مرة.

ـ اعلم، يا صديقي، أن للماضي ثارات خاصة به، أو قل ديوناً لا يعرف إلا الله متى أو بأية طريقة يستردّها. الماضي مرابٍ يهودي.

ـ ولماذا تذكّرني؟
ـ لا أذكّرك.. بل أذكّر نفسي. كان لي ماض تبرأت منه في ساعة استهانة، أو تناسيته. وهو الآن يحاول أن ينتقم مني شرّ انتقام. يقتطع جزءاً من جسمي، مثل ذلك اليهودي في الحكاية الشعبية..

ـ أوضح، أرجوك. أنا لا أفهمك. هل أنت رائد آخر؟
ـ تبرّأت من ماضيٍّ كرسّام، سحقت عليه أو بصقت عليه، لا فرق فراح ينتقم مني بطريقة تبعث على الجنون.

ـ أنت تتفلسف.

ـ لا، يا أخي، أقرّ بالواقع. لم أعد أعرف كيف أرسم، بعد أن تركت الرسم زمناً، وأخذت أهرّج بالألوان.

ـ وطلبات المدير العام؟

ـ سأنجزها، سأنجزها. لا تقلق من هذه الناحية، لا سيما ـ سأنجزها بالتأكيد. وأحلّي بها المؤسسة. ولكن هذا لا يحلّ مشكلتي الخاصّة، مشكلتي مع ضميري.. أقصد فني.

ـ بدأت تستخدم كلمات فضفاضة.. ضمير.. فن.. حرية حركة.. المهم أن تعمل جيداً.. اعمل جيداً يرتح ضميرك..

قال خليل بخيبة:

ـ وهذا صحيح أيضاً.. يبدو أنني لا أعمل جيداً..

وضرب جمع يده اليمنى بباطن يده اليسرى، ونهض.

● كان شهاب في حالة سيئة جداً. الأمور بدأت تتحوّل لغيرصالحه. خرج من الدائرة مقهوراً منكسراً. ولم تكن ماريا في ذهنه. فقد تعوّد أن يذهب إليها كما يذهب فاتح إلى إحدى سباياه، فتعالجه من ضعفه الجنسي. ذهب هذه المرة إلى بيت أبيه مضطراً. ولم يجد أباه والحمد لله. بل وجد أخته من أم أخرى. عاجلته هذه بسؤال استفزازي:

ـ من هذا الصحفي اللجوج الذي يشتغل في مؤسّستكم؟

أحسّ برجّة عصبيّة، ومرق في ذهنه ما كان يحدّثه رائد عن تلك الطالبة المتطلعة التي غزت قلبه. أهي المقصودة في كلامه؟

كانت تجلس أمامه في الطرف الآخر من الأريكة المخملية الغليظة الذراعين. كانت تغرز قدمها اليمنى داخل رجلها اليسرى، وتؤرجح هذه، طارحة ذراعها على ظهر الاريكة المتورّم، وتدفع رأسها إلى الوراء حتى تدلى جزء من شعرها الناعم في الفراغ خلفها، وبرز حنكها قوياً عنوداً، ورقبتها متوتّرة ملساء. كان لا يرى عينيها. ربما لم تكن تنظر إليه. وعاد إليه إحساسه القديم بأنها فتاة غريبة لا تمتّ إليه بصلة قربى. كلما جاء إلى بيت أبيه رآها عالماً آخر لا يربطها سبب بدنياه، فتح عينيه فرآها بهذا الشكل المتكامل، لا طفولة، ولا اشتراك في لعب أو مرح. رآها ناضجة ريانة، هي النقيض من رجولته القاحلة، فيها وقاحة وتحدّ سافر وثقة غريبة لم يألفه في الأخريات. عادت تسأل:

ـ شهاب؟

نبهته من سرحانه

ـ ها؟

ـ من ذلك الصحفي الذي يعمل في مؤسّستكم؟

ـ هناك صحفيون كثيرون.

ـ أبو الوجه المحبب المنفوخ، والشعر بلون التراب.

ـ ها..

ـ من هو؟

ـ قلت لك أهملية. اضربيه بنعالك..

ـ صديقك؟

ـ لا. ما أسهل أن يسمّونا أصدقاء.

ـ يبدو صاحب همم ومثل عليا.

ـ أضربيه بنعالك.

ـ يحرّضني على أن أتحدّث عن المستقبل ليكتب في الجرائد.

ـ اضربيه بنعالك.

ـ يريد صورة كاملة عن تطلّعات الشباب.

ـ اضربيه بنعالك..

عدلت جلستها متضايقة، وقالت:

ـ اجبني، يكفي اضربيه بنعالك..

هزّ شهاب رأسه ليعود إلى الواقع. ورمقها. مرة أخرى رآها في ضوء آخر، فتاة تختلف عن تلك التي كانت تتراءى له كأفعى ملتفّة في شرشف. قال ساهياً:

ـ ملعون ولجوج؟..

ـ نعم، لجوج، ويردد كلمات جوفاء..

ـ لا تعيري له انتباهاً.. هؤلاء ليس عندهم غير الكلام..

ـ من هو؟..

ولم يقل لها شيئاً. ولم يفتح لها فجوة لتنفذ إلى مكنون أفكاره. كان يعاملها كفتاة تنتمي إلى جيل آخر لا يشاركه ماضيه، ولا يعرف معنى الانكسار. وما يزال مبكراً عليه أن يعرف معنى السقوط، وتبديل المواقع، وكل حكايات الجيل الذي ينتمي إليه شهاب.

جابهته بعينيها الصلفتين المقلوبتين على البطانة، حتى تحرّج، ولم يعرف ماذا يقول عن ذلك الذي يشاركه المؤسسة ويصحبه في مباذله، ويبتسم له، ويطلعه على بعض أسراره، فتوصّل إلى هذا الحل:

ـ كل ما أريد أن أقوله لك: لا تثقي به، ولا تأبهي لأية كلمة من كلماته. .

ـ كذّاب؟

ـ يمكن أن يكون هذا أيضاً. . يكذب على نفسه، ويتصوّر أن كذبه ينطلي على الناس. . هذا أكثر ما أريد أن أقوله لك.

وزهد، وخرج ممتعضاً وأكثر انكساراً مما جاء. وركب سيارته البيضاء، وسار فيها على غير هدى، وكان لا يحبّ أن يلتقي بأحد. ولكنه وجد نفسه يسوق سيارته في الطريق المؤدي إلى بيت مايا، لأنه كان يعتبرها فضاء نظيفاً فارغاً يستطيع أن يتيه فيه هو ومشاكله الجسدية والروحية. . . أرض حيادية لا تخصّ أحداً. وجرّب نفسه معها، وفشل. . . وقال: كيف أحاول أن أتملّص من اقتراح أبي؟ كيف أخفي علّتي المخزية، أناس يطمحون إلى الحبّ وآخرون يفرّون منه. . يا ربي، إلى أين أولّي وجهي؟

● يا عزيزي عصام، ضممتك إلى لجنة المشتريات باعتبارك خبيراً، لا بد أن يكون في كل لجنة خبير، وإلا لصارت الأمور فوضى، مثلما هي في دائرة التسويق. اطلب لي شهاب عناد. عندي حساب معه.

احمرّ عصام، ثم اخضرّ، ووقف كالحائر أمام المدير العامّ. فمدّ هذا عنقه الطويلة، وقال:

ـ ها، تخاف على صاحبك؟

ـ أخاف؟ كل إنسان مسؤول عن نفسه.

ـ بالضبط، أرسله إليّ.

وانشغل المدير العام بما بين يديه من أوراق. تراجع عصام في حيرة. كان يريد ذلك ويخشاه في الوقت ذاته. بقيت خديعة أم الخنازير تحزّ في نفسه. لم يصدق بالحجج التي ساقها شهاب عندما جاء إليه يعتذر. ولم يشف غليله خروج المدير العام السابق، فقد حدث ذلك عرضاً، ولا أحد يعرف ما وراءه. وبقيت الخديعة خديعة، ومن إنسان كان عصام يتصوّر، قبل السفرة، أنه لن يهبط إلى هذا الدرك، وينسى عهود الصبا. كان يعرف أن شهاب بعيد

المطامح، عابث. يتسلّق عبر دروب خفيّة إلى المركز المرموق والغنى والجاه العريض، عاقداً صفقات وارتباطات واسعة. ومع ذلك كان يغضّ الطرف عنه، ويتلوّع من هزال الحصاد والثمن الذي دفعه له. وجاء تعيين المدير العام الجديد كشيء روتيني يحدث كأيّ إجراء من هذا القبيل، بشكل مفاجىء لا يعرفه الموظّفون ولا حتى الكبار منهم. وبقي شيء في نفس عصام ضد شهاب، شيء غامض وموسوس ظلّ ينخر في داخله، ويدفعه إلى الحلم بقصاص هادىء وعادل من شهاب، قصاص لم يتدخّل هو فيه، وإن تدخل فبشكل هادىء لا يشي بمكنون النفس. ولكنه الآن يشغل منصباً حساساً، منصب مدير مكتب المدير العام، فلا بدّ أن يثير شبهات شهاب، ويتصوّر أنه هو الذي أوغر صدر المدير عليه، وهذا ما لا يريده عصام. ولهذا حين فاجأه المدير باستدعاء شهاب تحيّر ذلك التحيّر الذي لم يفت المدير الفطن. وكان عصام طوال حياته لا يحب إثارة المشاكل. فقد علّمته تجربة الطلاق بأن كل عمل خبيث لا بدّ أن يجد له مردوده في أشياء أخرى جانبية تنغّص على فاعل الخبث عيشه، وتسلبه راحة البال. وهذا ما حصل له بالفعل. فقد كان يشعر منذ أن عاد إلى العراق بأن شبح زوجته يطارده، ويكمن وراء كل مكروه أو غبن يصيبه.

دخل شهاب مخطوف الوجه، فأشار له عصام إلى باب المدير العام، وهمس: يريدك. زرّر شهاب سترته، وعدل من ربطة عنقه، وتنحنح، وفتح الباب قليلاً، وقال: ممكن؟. وانزلق من الفتحة، وأغلق الباب وراءه. جلس عصام ساكناً يحاول أن يخترق بسمعه حاجز الحائط، ليسمع كل كلمة من الحديث. ولكن غرفة المدير الواسعة، أضاعت كل صدى، وبقي ينتظر ويتلهّى بترتيب الأوراق، ومعاينة الملفّات المتراكمة على جانبيه. كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة، والريق في مثل هذه الساعة يجفّ، والبطن يمتلىء بالخواء، والروح تهفو إلى الخروج من إسار الكرسي، ولا سيما اليوم بالذات، بالنسبة لعصام. فقد كان على موعد مع الممرضة، أول موعد بعد مكالمات تلفونية طويلة، ووعود. وفجأة انفتح الباب، وظهر شهاب مدلهمّ السحنة. وسمع عصام صوت المدير العام يأتي من فتحة الباب الصغيرة: لا تحلف بمقدّساتك بعد الآن. . . تخلّ عن هذه العادة. ورأى شهاب يدير يديه بإشارات مفهومة، ولم يرفع عينيه إلى وجهه. وحين خرج شهاب تذكّر عصام تحذيره السابق لشهاب، حين جاء هذا يعتذر عن السفرة: اترك مقدّساتك لنفسك. فهل سيظن به الظنون؟ وتساءل: ترى هل سيزورني اليوم؟ هل يلجأ إليّ؟ وفي هذه المرة أيضاً لم تكن مشاعره متبلورة. كان راغباً في الزيارة وخائفاً منها. وظلّت الظنون تتقاذفه، وتعبث بذهنه، حتى ضاقت أنفاسه، ونبا به مقعده، فوقف وأحبّ أن يرى المدير العامّ بعد هذه المقابلة. قلب الفايلات حتى ظفر ببعض الأوراق الجاهزة للتوقيع، وإن لم تكن مستعجلة، فاختطفها، وعدل قيافته، ودخل بها إلى المدير العام.

رآه يتكلم في التلفون، فنكص على عقبيه، إلا أن المدير العام أوقفه، وأنهى مكالمته التلفونية بجملته المعهودة: سندرسها، ومدّ ذراعه إليه، وتناول الأوراق، وراح يقلّبها، دون إن يوقّع أيّة واحدة منها. وقال عصام لنفسه: حدس سوء نيتي. ليست الأوراق مستعجلة. ولكن المدير تناول القلم، ووقع آخر ورقة، ثم أخذ يوقع الأخريات، حتى انتهى منها. ووضع القلم، ودفع ظهره إلى الخلف على متكأ كرسيه، ورفع وجهه الطويل بسمرته الداكنة المشوبة بصفرة، وقال:

ـ هل رأيت صديقك؟

كان يعرف قصد المدير، ولكنه تباله، وتقلبت مقلتاه كمن يواجه ضوءاً ساطعاً، وقال المدير غير عابىء بتباهله:

ـ جابهته بحقائق.. شكاوى الناس بلا عدّ. فما رأيك؟

لا يعرف عصام كيف جاءت هذه الجملة على لسانه:

ـ لا علم لي بما يجري في دائرته.

ـ سيكون لك علم ـ وهزّ المدير العام رأسه ـ سأجعلك نائباً عني في لجنة التسويق. موافق؟

لوى عصام ذقنه وقال:

ـ إذا كانت المصلحة تقتضي.

ـ تقتضي ـ قال المدير العام بحدة وتأنيب ـ شيء واحد لا يعجبني فيك هو خجلك.. كيف كنت تداري أمورك في الغرب العمليّ الجادّ؟

نظر إليه عصام يستنطق أساريره. كانت عيناه ثاقبتين كالخرز تحدقان فيه بملامة تصل إلى حد الإدانة، وتقاطيع وجهه قاسية تبرز منها العظام خشنة متصلّبة. ولم يجد عصام ما يدافع به عن نفسه. تناول الأوراق من أمام المدير العام، حين أشار إليه بأن يرفعها، وقبل أن يخرج قال المدير العام وكأنه يحرجه:

ـ الانسان لا يخجل هذا الخجل إلا إذا كان قد ارتكب جرماً مخجلاً في حياته.

اضطر عصام أن يداقع عن نفسه متسائلاً ببراءة:

ـ أيّ جرم يمكن أن أرتكبه؟

ـ لعلك تشعر بما كنت أشعر به من قبل.

قال المدير العام، ورفع سبابته، وأتى برأسه حركة مبهمة، جعلت عصاماً يحس بشيء من المهانة، وبرابطة خفيّة توشك أن تشدّه معه. ولكن المدير استدرك قائلاً:

ـ وربما أنا على خطأ. . أولئك يدارون خجلهم بالوقاحة. . بينما أنت إنسان نبيل ومكشوف.

ـ شكراً.

ـ على كل حال، هذا انطباعي الأول عنك.

ـ ومع ذلك أشكرك. .

ضحك المدير العام ضحكة خفيفة، واسترضاه قائلاً:

ـ كنت أريد أن أهزّ أعصابك. الوظيفة تحتاج إلى صلابة أعصاب.

وحين خرج المدير العام إلى الوزارة قبل ساعة من نهاية الدوام استرخى عصام على الكرسي ناضباً ممصوصاً وكأنما أدى عملاً جسمانياً شاقاً. لقد قضى يوماً غير اعتيادي، وارتجّت أعصابه أكثر من مرّة، وجوبه بما لم يجابه به في ماضي حياته الوظيفية. وكان قد تعوّد أن يؤدّي عمله الروتيني ويخرج من الدائرة خفيفاً لا يوقره ثقل، ولا وسواس، لا يشعر بغير الملل الذي كان يترسّب في الساعتين الأخيرتين من الدوام، ويتبخّر مع أوّل نسمة تهبّ من الشارع. والذبول الذي كان يحس به أحياناً كان من الشفافية والهشاشة بحيث كان يتفتّت مع قدح من البيرة المثلجة، أو غداء لذيذ تعدّه له عمته الوفية، أو ساعة قيلولة مريحة للأعصاب. ولكنه اليوم كان يحسّ بتفكك لئيم يرخيه ويشلّ حركاته، وكأنه مقبل على مرض، حتى بدت له سياقة سيارته التي رآها مفخورة بشمس الظهيرة أعمالاً شاقة في قرن ملتهب لا تتحمّله طاقته الناضبة. فهل سيخرج من حالة الذبول هذه في الساعة السادسة، موعد لقائه مع وصال؟ بأي مزاج سيقابلها؟ كيف سيجعل وجهه مضاء بابتسامة، وعينين براقتين بالأمل، مبشرتين بسعادة مقبلة وعهد جديد؟ ربما كان المدير العام على حق. . انه بحاجة إلى صلابة أعصاب. . بحاجة إلى أن يتماسك، ويواجه الواقع الجديد بفتوّة جديدة. كفاه ما لقى من خذلان وتغرير وتصديق في حياته الماضية. كفاه قبوعاً وارتخاء لكل كلمة جميلة تقال له للاعتذار وطمس عدوانيات الآخرين، وغمط حقّه. يجب أن يرتفع الآن إلى مستوى المسؤولية المنوطة به، وهي مسؤولية ستكبر مع الأيام، كما يبدو، ويجب أن يتهيّأ لاستقبالها، ويتحصّن من الاستهبال والانخداع، ويجد الشجاعة للإقدام على كل شيء، ويتمتّع بما أتيح له. نعم، كان المدير العام على حقّ. وأنعشته هذه الأفكار، وتغلّب على نزوات سيّارته العجوز، ووصل إلى بيته بسلام، وتناول طعامه متلذّذاً، وشكر عمّته على لذيذ طعامها، وذهب إلى حجرته ليتمدّد.

عند العصر لبس حلّته الرمادية الفاتحة، وربطة عنق عريضة مشجرة بالأسود والأبيض، وتعطر بـ «اولدسبايز». كل ذلك من نِعَم سفرته مع المدير ـ وخرج بسيارته التي

بدت أقدم شيء في تاريخه الجديد. طاف في شوارع بغداد مناوراً ليدخل الشارع المقصود، وعلى بعد عشرين متراً من صالون الحلاقة للسيدات ركن سيارته خلف شجرة تكلكل بأغصانها على الرصيف، كان يبدو كالمتربّص أو كالخجول من أن يضبط قرب صالون حلاقة. في تلك الأيام كانت تجوب بغداد شائعات عن صالونات حلاقة مشبوهة، تعقد صفقات مريبة بين الجنسين، وتهيىء لليال حمراء. وقد تهيّب عصام حين ذكرت له وصال اسم الصالون، ولكنها قالت: وأنت، أين تقترح؟ ووجد صعوبة في اقتراح مكان آخر، فقد كانت هذه تجربته الأولى منذ طلاقه من لميس، فقبل باقتراحها. والآن، وهو يحتمي بسيارته تحت الشجرة الوارفة، يشعر وكأنه يراقب خروج امرأة من بيت دعارة سرّيّ. ولكنه في اللحظة التي رآها فيها مقبلة كالوردة، ناطّة على حجارة الرصيف المقلوعة بخفّة غزال على إيقاع حذائها الأبيض نسي كل مخاوفه، وراقبها تتقدّم من السيارة بقامتها الهيفاء الطويلة ترفل بثوب ورديّ برّاق، وتحاول برشاقة أن تتجاوز عثرات الرصيف. رآها من بعيد مثل شمعة ورديّة لم تحترق بعد، منتصبة القامة، عامرة الصدر، تتدلّى من ذراعها حقيبة بيضاء تجسّد ضمور خصرها، ولدانة قوامها. وعندما كانت على خطوتين منه فتح لها الباب، ولكنّها تجاوزت السيارة، والتفّت حولها، وجاءتها من الخلف، وانسلّت عبر الفتحة الضيقة. وعندما أغلقت الباب غمرته برائحة جسدها العطر، وشذى ابتسامتها الحريرية، حتى أسف أن يفسد جوّ سيارته المشبع بالبنزين هذه الرائحة الجديدة عليه وعلى سيارته. ستبتلعها عن قريب رائحة البنزين والمعدن الصدىء المصلصل، وتراكمات العرق والغبار والسخام والخضار والأطعمة الأخرى التي كان يشتريها من دكاكين بعيدة عن سكنه.

ـ إلى أين الآن؟

زفرت وصال زفرة عاطرة، ولمع صدغها الأملس الصقيل تحت عقصة شعرها المملوم إلى فوق، وقالت:

ـ إلى حيث تريد.. تحرّك.

امتثل لها، وخرخشت السيارة وتحرّكت، واستدارت إلى طريق جانبي، دون أن تمرّ بالصالون المثير للشبهات. وعندما ابتعدت عن متاهة الطرق المتقاطعة، وخرجت إلى كرادة ـ خارج، صفا الجوّ في داخل السيارة وفاح عطر الياسمين، فانتعش عصام، وزال ثقل وسواسه، وأحسّ، والخلاء والخضرة عن يمين وشمال، بتلك الطاقة من الحركة التي يشعرها الكائن بعيداً عن رقابة العيون، وروائح الأجساد المتلزّجة. كان من حين لآخر يلقي نظرة على الأملود المتورِّد الفوَّاح برائحة أنثوية نظيفة افتقدها من زمان. ملأ صدره بالهواء المعطَّر بشذى الياسمين، وانطلقت أساريره، وقال:

ـ الآن استطيع أن أذهب معك إلى آخر الدنيا.

ـ خذني إلى آخر الدنيا.

فالتفت إليها مندهشاً، وسأل:

ـ ولكن أين آخر الدنيا؟

وكان آخر الدنيا لا يتعدى بارك السعدون أو مقهى جميلاً كان عصام قد مرَّ به خطفاً....

● جاء إليها بلهفة. بحث عنها بعينيه بين عناقيد الطالبات في الحديقة المعشوشبة. ووقف على بعد خطوتين منها يرقبها تتحدّث بالحماس نفسه الذي تحدثت به معه. كانت ترتدي فستاناً أزرق فاتحاً عليه شرائط بنفسجية في الأكمام، وعند الكتفين والصدر. وكانت تهزّ قدّها، وكأنما تشرك في الحديث كلّ حيويتها الأنثوية، كلّ صباها الفوّار، وهي تطوّق صدرها بكراريسها الجامعية ذات التجليد البلاستيكي الزاهي. كان يقترب منها شبراً شبراً، على استحياء، في وجل ورعونة لا تناسب سنّه، ولا وجهه المتورّم. ولكن قوة لا تقاوم كانت تسيطر على حركات رجليه. وحين كان على بعد خطوتين منها التفتت الأخريات إليه قبل أن تلتفت هي، ويعلو وجهها توتّر مأزوم مثل ذلك الذي يأتي من وجع الأسنان. ورنّت تحيّته رنيناً بارداً، حين تكسّر لمعان عينيها، وتهشّم وتساقط على جسده وخزات أبر حامية. جابهته:

ـ أرجوك، ليس لي وقت الآن.

ـ أنا لا أريد أن أزعجك، ولكن وعد الحرّ دين.

ـ لا، لا. أنا لم أعدك بشيء.

وتقدّمت منه، وكأنها تخجل أن تتحدث معه أمام صويحباتها، وسارت خطوتين مبتعدة به عن مجموعة الطالبات.

ـ كيف لم تعديني؟ ألم نتفق على كتابة الموضوع؟

ـ لم نتفق ـ قالت بحدة ـ مجرد أنني ثرثرت لك ببعض أفكاري، لأنني ثرثارة.

ـ وما الضرر في أن تسطّريها على ورقة؟ وننشرها في مجلة؟

ـ لا أريد.. ثم لا وقت لي. كما قلت لك.

تريّث حائراً، وقال:

ـ يعني نؤجلها إلى موعد آخر؟

ـ لا أظنّني أستطيع أن أتّفق معك على موعد.

ـ لماذا؟
ـ هذا شأني. . أرجوك. . لا تلحّ.
ـ لا ألح . .
ـ أي نعم، لا تلحّ. . أمْ الالحاح صفة عامّة للصحفيين؟
ـ أنا لست صحفياً. . أنا. . صائد أفكار
ـ على كل حال، لست مستعدّة، مهما تكن.
ـ هكذا؟
ـ أي نعم، حتى لا أعذّبك، وأعذّب نفسي معك. . أرجوك ألا تأتي مرة اخرى.
ـ بهذه الصورة؟
ـ لا فائدة. لا أريد أن أفتح هذا الباب.
ـ وتحرمين عليَّ دخول الكلية؟ دفعة واحدة؟

تراجعت:

ـ لا، العفو. أردت أن أقول لا فائدة من محاولاتك لجرِّي. أرجوك.

انحنى لها بانكسار. وغادر الكلية منبوذاً مفجوعاً بفقد أمل. وفي الطريق إلى المؤسّسة فكّر: لماذا هذا التغيّر؟ عجيب ماذا فعلت لها؟ كل هذه السلاسة والرقّة ذهبت عبثاً ـ ما السبب؟ ظلّ يردد طوال الطريق، ولم يهتد إلى سبب معقول.

وعندما دخل المؤسّسة ساءل نفسه ربما شمّت رائحة غريبة في ثيابي؟ وتشمّم كمّه وكتفه. رائحة تبغ كريهة وعرق جبين، ولكن الرائحة القديمة، رائحة الماضي، عادت إلى غشاء أنفه. بهبه ممتعضاً متعجّباً، حانقاً على شيء غير محدّد، على شيء لا سلطة له عليه، بدا وكأنه لوّث حياته إلى الأبد، ووصمه بوصمة لا تمحي إلا بارتكاب أفعال جنونية فالتة، بإطلاق عفونة تغطّي على كل رائحة، ولكن كيف؟ أية رائحة تُغطّي على رائحة الطفولة؟

رأى ثلاثة ينتظرون المصعد، فارتد وكأنما خشي بالفعل أن يشمّوا رائحة طفولته، والتهمت قدماه الدرج كالأرنب، حتى أحسّ بخفقان قلبه في الطابق الثالث. تريّث ليستردّ أنفاسه. وقف وأشعل سيكارة، وسعل بعد النفس الأول سعالاً خشناً قبيحاً كأنه صادر من صفيحة فارغة أو صدر أجوف.

وهمَّ أن يستريح، ولكنه رأى جابر الفراش يقبل عليه، في ساعة الهزيمة هذه، فضاق صدره، وهرب من عينيه الحمراوين، وابتسامته الحليبية. وراح يصعد إلى الطابق الرابع على مهل، ودون أن يرفع بصره للذين يلتقيهم من الناس. وتلمّس طريقه إلى مكتبه. وفتح الباب

ببوز حذائه، ودخل الغرفة بنفث دخان سيكارته بحرقة، وانهدّ على كرسيه. طافت في خياله الحديقة، وعناقيد الفتيات، وهي... أرجوك، لا تأت بعد الآن... لماذا يا آنسة؟ بصراحة هل شممت رائحة أبي في ثيابي؟

ربما قال الجملة الأخيرة بصوت مسموع، فقد رأى، لأول مرة، وجه عطا المستدير قبالته مخدّداً بالبلاهة وعدم الاكتراث. جمود طابوقة متحجّرة. عيناه وحدهما صافيتان، رصينتان، قانعتان. غاظته برودتهما. تبحلقان به عاريتين مبهورتين، وكأن صاحبهما يستغرب أنْ يشاركه رائداً في غرفة واحدة. عاجله رائد قبل أن تستدير العينان إلى الشارع حيث المنارة منتصبة:

ـ مرتاح، إن شاء الله؟

هزَّ عطا رأسه، وحرك ذراعيه حركة جانبية، ولم ينطق بشيء. فكرر رائد سؤاله:

ـ مرتاح، إن شاء الله؟

نظر عطا إليه نظرة اندهاش زرعت في نفسه غماً شديداً، وكأنما هو الآخر يقاطعه، لأنه شم رائحة أبيه في أنفاسه. تجمعت حمم الغيظ في صدر رائد، وفحَّ بعد سكوت مكظوم:

ـ طيّب، ألم تسألها أين تذهب في العصاري؟

لم يقل عطا شيئاً. فعاد رائد يغيظه:

ـ تذكرت.. أنت تزوجتها ثيباً. ومع ذلك ألم تسألها أين تروح وتجيء؟

لم يجب عطا. كزّ رائد على أسنانه. كيف يبث الحياة في هذه المومياء المتشحّمة؟ وكرر:

ـ أجبني ألا تسألها أين تروح؟

ـ ......

ـ ألا تسألها؟

ـ لا...

ـ إذن، فأنت ديّوث.

كلمة أخرى لم يفهمها عطا. ولكنها بدت لعطا هذه المرة كشتيمة، تشبه كلمة روث، رفع عطا كفّه اليسرى إلى فوق احتجاجاً أو إسكاتاً، وعبرت نظراته الخرساء زجاج النافذة إلى الجانب الآخر من الشارع... ماذا هناك؟ التفت رائد في ضيق فوجد المنارة، ولا شيء آخر:

ـ هل تريد أن تصعد عليها، وتراقب من هناك الطريق الذي تسير شروق فيه لتصل إلى مكانها؟

مطَّ عطا شفتيه امتعاضاً أو ضيقاً أو لا مبالاة. لا أحد يحزر. ظلت الكتلة الجامدة منطوية على أعماقها.

ـ على كل حال، لن تراها، ولو صعدت على المنارة. . شروق تسير بعيداً بعيداً. . في الاتجاه المعاكس.

وأشار إشارة عارف. وفجأة انفجر ضاحكاً، وكأنه اكتشف فجأة أنه يخاطب شبحاً. خرج من المكتب واقترب من عطا ليلاطفه. أليس هذا ينسي الخاطىء خطاياه؟ ألا يهون عليه كل إخفاق مع امرأة؟ وظل يضحك بهسترة رعناء، وكأنه يواجه طفلاً عنوداً ركب رأسه، فبلع لسانه. وزاد ذلك من شهوة الانتقام. كزَّ على أسنانه، واقترب من الطفل العنود:

ـ هل تسمعني؟ أنت ديوث مكعّب، إذا كنت لا تعرف أين تذهب شروق كل مساء.

حاول عطا أن ينهض من مكانه، ولكنه قعد ثانية ثقيلاً على المقعد. وجنّح ذراعيه، وألقى نظرة قصيرة على المنارة ثم أدار بصره إلى الحائط المقابل. كان واضحاً أنه يحمس من الداخل ويكظم غيظه، يتعبّأ. الآن يبدو أن معنى ديّوث قد وضح أمامه. شتيمة هي، بالتأكيد، أو ربما هي ديوز بالعربية الفصحى؟ ونظر رائد إلى وجهه وهو ينفخ باصفرار كدر. اختلج جفنه ورفَّ رفات متسارعة مثل جناح فراشة أمسكتها يد قويّة. وأخيراً وجد لديه القوة ليتكىء بكلتا يديه على المنضدة، وينهض. ولكنه ما يزال عاجزاً عن الكلام، أو لعلّه لا يعرف كيف يرد الإهانة؟ لا تسعفه المفردات التي يزخر بها لسان رائد وقلمه. بهرته المفاجأة، وشلّت قوة تفكيره الضعيفة، وحركاته أيضاً. لم يعرف كيف يتصرّف. كان رائد قد كفّ عن ضحكه المعتوه، ولكن عطا كان يعرف بوجوده، هذا مؤكّد. يعرف أنه يراقب حركاته، وينتظر كيف يتصرّف. ولكنه لم يلتفت إليه مخافة أن يثير موجة أخرى من الضحك الهستيري. ولو التفت لرأى رائداً في حيرة أيضاً، مبهوراً مثله. ربما لأنه لم يستطع أن يحرّك الحجر، ربما لأنه ندم وأسف. ولم يكن يريد أن يكلّف عطا كلّ هذا الجهد المنتزع من أحشائه المتبلدة. كان رائد ينظر إلى قفا عطا المضغوط بين كتفيه، وإلى ظهره العريض المقوس الممتلىء، ولربما شعر بالخوف من أن ينطق بكلمة أخرى فتحدث معجزة، أن يجابهه عطا بشيء غير مألوف منه، وليس من طبعه، كأن يبصق في وجهه. فوقف رائد موقف الذي ينتظر هجمة، ويتهيّأ لاستقبالها. أو ربما ليلوي رقبته قليلاً، كما يفعل مع شهاب، ويطلب المصالحة على خطأ لم يرتكبه. . . ربما كان مستعداً لأن يقول: اعذرني. كان رائد يتوقّع شيئاً، وكلما طال الوقت كان يحسّ بثقل وهوان غير إرادي، وخيبة أمل جارحة. كان بأشدّ الحاجة إلى أن يجابه بردّ، بشتيمة، وحتى ببصقة. . أما هذه الاستهانة الباردة فتجعله يشمئزّ من نفسه ويحتقرها، ويبدو تافهاً حتى لعينيه، لا تحمل شتيمته، كلامه، أي وزن. . مثل كلماته المسطرة

على الورق. وتضاءل رائد، وعاد إلى كرسيّه، وهمد فيه حتى سمع صوت الباب يغلق، وغادر عطا المكتب دون استئذان، لأول مرة في حياته.

● جلس أحمد عناد مع ابنه شهاب، في جلسة من تلك الجلسات المألوفة بينهما، حيث كان الأب يضطر إلى أن يعدل اتجاه ابنه، مثلما يضطر القبطان إلى أن يعدِّل سير سفينته من حين لآخر تبعاً للطقس الطاريء، أو عند نقطة من خط السير لا بد أن يتخذ فيها إجراء فورياً حازماً. تكلم الأب زهاء نصف ساعة أعطى خلالها صورة واضحة لما يجري في واقع يظنّ احمد عناد أن ابنه لا يفهمه، وليست له القدرة العقلية على فهمه. ولا الاستعداد للاستماع والصبر والتأني، والتقاط الفرص السانحة بحذاقة، وخفة. فشهاب، على العموم، طائش، ولا يهتم إلا بيومه، ولا يهمه غده. لن يستطيع أن يعمر بيتاً، ولا يكوِّن عائلة، ولا يكتشف الدروب الخفية الموصلة إلى بستان النجاح. كان أحمد عناد يتصرف مع ابنه البكر هذا التصرف، طوال حياته. فقد ورث الابن، والحق يقال، خفّة العقل من أمه. كان الأب يقول لنفسه دائماً. كانت زوجته السابقة، المرحومة الآن، تقيم حفلات القبول ليلهج الناس باسمها، وتتزوق وتحف وجهها، وتلبس الهاشمي، ولكنها لا تهتم أبداً بترتيب البيت الذي تسكن فيه، ولا تنظر أبعد من أنفها... قصيرة النظر، قاصرة العقل، لا تهتم بغير المظاهر، وحين اشتد بها المرض، لم تهتم بمعالجة نفسها، ورفضت استشارة الطبيب، وراحت تخفي بالحمرة والديرم شحوبها وعلائم مرضها القاتل، وتستلقي النهار كله على التخت متعبة يشلّها المرض، وعند العصر تستقبل صاحباتها في عصريات القبول المعتادة، وتجلس وراء الموقد تقدم لضيفاتها الشاي والكعك والملبس والبقسم، وخبز عروق، ليقول الناس: إنها امرأة نشمية. وقد علمت ابنها هذه الحياة، هذه البهرجة الكاذبة، العيش ليوم واحد. تلبسه وتنظفه، وتطلعه يسرح. ولم تكن تسأله عن دروسه، ولا اهتمت بنجاح أو سقوط. ولولا الأب الصارم لما أنهى ابنه الكلية بالطريقة التي أنهاها بها.

حملق الأب في وجه ابنه الناعم الأملس المرتاح على أربعة وعشرين قيراطاً، والحليق حلاقة جوليتية ناعمة تعري كل شحوبه، وارتخاء فمه، وصفاقة عينيه. وقال احمد لنفسه: إنه يشبه أمه تماماً، حتى في تدبب الأنف الأعزل، وذبول الشفتين الممصوصتين في عناد صبياني، الله يستر منه. وبدا له ابنه كالأطرش، لم يسمع كلامه، حتى اضطر احمد إلى أن يقول بحدة:

- أنا أحكي معك أم مع شخص آخر؟

ابتسم شهاب تلك الابتسامة التي كان الأب يعتبرها بلاهة خالصة لوجه الله.

ـ مع من أحكي؟ ـ كرر الأب سؤاله ـ أخاف تتصورني أحكي مع نفسي؟
ـ لا، يابا، أنا فاهم، تحكي وياي، أنا فاهم كل شيء.
ـ والله العظيم غير فاهم قزر القط. . قسماً بالله. .
ـ وما هو غير المفهوم في كلامك؟
ـ طيب، ماذا كنت أقول؟
ـ فاهمك.
ـ ماذا كنت أقول؟
ضحك شهاب هذه المرة ضحكة متعددة الدلالات. وقال:
ـ بمقدساتي فاهمك. . يعني يجب أن يكون الانسان حذراً، ويعتمد على نفسه.
ـ بالعكس، يا اغبر.
ـ كيف بالعكس؟
ـ لازم يتظاهر أنه مصدق وواثق ومبهور مما حوله. ومن الجانب الآخر لازم يكون له حسابه الخاص، ويتكل على ظهر قوي يحميه.
لقف شهاب هذه الأفكار رأساً:
ـ هذا اللي كان في ذهني. . كنت أريد أن أقول هذا.
ـ والله العظيم، كذب. أنت دائماً تحتاج إلى إرشاد.
ـ تخطيت الثلاثين من زمان، يابا.
ـ ومع ذلك.
ـ ولي خبرتي الشخصية. أعرف مواضع قدمي.
ـ يا ريتني أصدق بك.
ـ لا تشك كثيراً في قابلياتي. أنت علمتني الكثير.
ـ على كل حال، يجب أن يكون لك ظهر. هذا هو المهم في الوقت الحاضر.
قال شهاب بتلك الابتسامة التي تتجلى منتصرة حتى في أوقات الهزيمة:
ـ أنت ظهري.
ـ لا. أريد ظهراً أقوى من ظهري. مَنْ يدري كم سأعيش في هذه الدنيا؟
ـ عمرك طويل، يابا.
صاح أحمد عناد في ضيق:
ـ خلاصة الكلام، أريد أزوجك.
بهت شهاب، وقال بذهول:

ـ دخيلك، يابا، أنا أعمل مقالب للناس، وتريد أن توقعني في مقلب؟

ـ يا أغبر، الزواج ليس مقلباً، إذا كان مبنياً على أساس متين، وليس ابن الصدفة، مثل زواجي من أمك، ليس فورة شباب. . . بل سيساعد على بناء مستقبلك.

خطر في بال شهاب أن يرد على أبيه: وهل ساعد زواجك من أمي على بناء مستقبلك؟ ولكنه تذكر في الحال أن الأب وصم زواجه الأول بنزوة شباب. ثم عاد فخطر في باله تفكير أبيه في أن يزوجه من الابنة الكبرى لمديرهم القديم. ولكنه فضل أن ينغزه بكلام غير مباشر؛ إذ قال ضاحكاً:

ـ وهل عرفت أن للمدير الجديد ابنة في سن الزواج؟

صرخ أبوه به:

ـ أنت أثول. تتصورني أدوس تحته جرك؟

فاضطر شهاب إلى أن يوغل في تلميحه:

ـ ولكن كدت تورطني.

ـ لا، مجرد امتحان لك. كنت أعرف منذ زمان أن مديركم القديم ليس له ظهر.

بلع شهاب ريقه، وقال بمصالحة:

ـ أي نعم.

صاح الأب من جديد:

ـ نعَّم الله ضلوعك ـ وصاح في غيظ أشد ـ أنا لا أريد أن أزوجك بابنة من بنات الذين يصعدون بسرعة الصاروخ؛ ثم تغوص بهم الأرض، وكأنهم لم يكونوا. بل أريد أن أزوجك كريمة رجل أقوى من المدراء العامين، وحتى الوزراء. . كريمة مقاول له قدم هنا وأربعة حسابات في البنوك الخارجية.

ـ وهل تتصورني، يا أبي، لا أعرف العديد من هؤلاء؟ ـ ياما سكرت معهم، ودخلت في إيراد ومصرف.

ـ لا، أنت أغبر. أنت لا تصادق إلا الذين يطوفون على السطح مثل القش، مثلك، يفورون فورة واحدة ويسكتون، هؤلاء مثل الذين شافوا. . . أمهاتهم، واخترعوا. . . هؤلاء لا ينفعونك في شيء. . بيض لقلق رخيص. . .

سكت شهاب محرجاً ومتضايقاً مما يجره إليه أبوه.

ـ وهل تتصورني أعتمد عليهم؟ مجرد تمشية مصالح يومية. .

ـ لا، هؤلاء يضرونك أكثر مما ينفعونك. أما أنا فأدلك على الطريق السليم. هل تراني أخطأت في تقديراتي مرة؟

سكت شهاب عن هفوات أبيه القليلة، وقال مجاملة:
ـ لا. . . ولكن
ـ ما وجه. . لكن هذه؟
ـ أريد أن أقول أتركني أشوف دربي.
ـ دربك هذا يؤدي بك إلى ماريا والأتعس منها. أنا أعرف زواغيرك. . أترك دربك هذا. يتعبك، ولا يخلف لك نسلاً على الأرض.

شعر شهاب ببرودة مفاجئة، رغم الحر، وكأن قالب ثلج مر على ظهره، ولمس إبطيه. نظر إلى أبيه. كان يسبح بسبحته اليُسر ويبدو متزناً وعاقداً العزم على توريطه. وكان شهاب يعرف من تجربته أن أباه إذا أراد شيئاً، فلا بد أن يحققه. فكيف يكشف له عن علته الخفية؟ عار، وشنار وهزيمة منكرة. ليس هو ابن أبيه إذن. قال موارياً ألماً جارحاً:
ـ اتركني أفكر.
ـ وهل أنا أجبرك على الزواج بعد يومين. المهم أن أعرفك على عائلة، أن تحضر معي أوقات القبول عندها، أن أضع يدك على رأس الشليلة. . يوم الجمعة القادم.
ـ أعوذ بالله.

ندت عن شهاب هذه الندبة. صاح به أبوه من جديد:
ـ أغبر، كأنني آخذك إلى جهنم. أنا آخذك إلى ناس معتبرين وسترى أي ناس معتبرين هم.

ونهض الأب، وتمطى واضعاً جمع يده اليسرى على أسفل ظهره، فنهض شهاب أيضاً، وقبل أن يصل إلى باب الغرفة قال له أبوه:
ـ قل لي، شهاب، من هذا الموظف أو الصحفي الذي تحارش بأختك خديجة في الكلية؟

امتعض شهاب، وتقلص أسفل رقبته. وقال في ضيق:
ـ قلت لها أن تهمله، ولا تجامله كثيراً.
ـ من هذا اللجوج؟
ـ موظف عندنا. من الشيوعيين السابقين.
ـ وبهذه الوقاحة؟ الشيوعيون الأصليون لا يكيشون، فكيف بالسابقين؟

ـ هذا شيوعي تخلى عن شيوعيته عن عقيدة.

صاح أحمد عناد رافعاً إلى فوق يده بحركة قاطعة، وقد تدلت منها المسبحة مثل مصران منخوب:

ـ لا تصدق، كلهم يقولون ذلك. الشيوعي يظل شيوعياً، حتى ولو ذوبته بتيزاب.

● هل تعرف، يا جاري العزيز، ماذا قررت؟

كان خليل قد عاد لتوه من بيت عباس متعباً خجلان ناضباً، تدوِّم الأفكار في ذهنه، فيحاول أن يطردها بشيء من السوائل، ولكن البيرة نفدت، فحاول أن يتسلى مع الشيخ.

ـ ماذا قررت، يا شيخنا؟

كوَّر عبد المنعم صدره المكور أصلاً، وقال وكأنما يعلن عن زواج جديد:

ـ قررت أن أكتب مذكراتي.

ـ دفعة واحدة، يا شيخ؟

ـ نعم، يا عزيزي، نعم. أنا في سن كتابة المذكرات. والسؤال المطروح: هل حياتي تستحق الكتابة؟

ـ أجب نفسك عن هذا السؤال.

سكت الشيخ قبل أن يجيب:

ـ ربما ستسأل نفسك هذا السؤال، حين تصل إلى هذه السن، بعد أعوام.

نظر خليل إليه بحزن، وارتعب من كلمتيه الأخيرتين بعد أعوام، وقال لنفسه: هل هو يتنبأ بموتي العاجل؟ دافع عن نفسه:

ـ الفنانون نادراً ما يكتبون مذكراتهم، لأن أعمالهم بحد ذاتها مذكرات.

ـ فمن يكتب إذن؟

ـ الساسة، وحتى الفاشلون منهم...

ـ اعتبرني فاشلاً، وإن كنت غير سياسي. أعوذ بالله من السياسة. ولكن لماذا تستثني الفنانين؟ ألا يعيشون حياتهم؟ فلماذا لا يكتبون حياتهم؟ لماذا لا يكتبون عنها. أنت، ألم تعش حياتك؟

بربر خليل في ضيق، ورمق المنضدة البلاستيكية الفارغة، ولم يجب بطريق مباشر، بل قال:

ـ الرسامون يجب أن يرسموا. الكتّاب يجب أن يكتبوا. الشعراء يجب أن يسجلوا حياتهم في قصائد. لا أعرف أين قرأت لكاتب: في كل يوم تسيطر عليَّ ليل نهار فكرة لا تقهر... يجب أن أكتب، يجب أن أكتب، يجب أن أكتب...

وكان بهذه الكلمات يحث نفسه أكثر من أي شخص آخر، يجب أن يرسم، يجب أن يرسم. أن يكمل صورة شذر. وسمع الشيخ يقول في الجانب الآخر من الطاولة البلاستيكية، وهو يحرك ذراعه على سطحها الفارغ.

ـ أما أنا فشيء آخر. أنا إنسان فاشل وصل إلى سن المتناقضات.

صاح خليل منزعجاً:

ـ ما هي سن المتناقضات هذه؛ يا شيخنا؟

نظر الشيخ إليه من تحت حاجبين خفيفين، وتحركت ذراعه المشعرة على سطح الطاولة كسمكة توشك أن تخمد:

ـ ألا تعرفها؟ الشيخوخة.

ـ طيب، حدثني عنها. ربما أنا أيضاً وصلت إلى هذه السن، وإن كنت في الخامسة والأربعين.

ـ بعيد الشر عنك. ولكن الفرق عشر سنين.

ـ حدثني أرجوك... صحيح..

ـ بعد الخمسين تبدأ فيك هذه المرحلة. يتخاصم فيك الشباب والكهولة، العطش والارتواء، الكسل والالتهام.. أريد أن ألتهم كل شيء، ألتهم الدنيا كلها، ولكن لا أستطيع. العين بصيرة، واليد قصيرة.

نهض خليل مستفزاً، وصرخ به:

ـ هيا، إلى أقرب خمارة.

ـ أنا لا أزور المقابر.

ـ أناني.

ـ الأناني أنت.. تريدني أن أموت قبل أن أكتب مذكراتي.

ـ وكيف تجمع المتناقضات، إذن؟ العطش والارتواء..

وعاد خليل فجلس. وقال لنفسه: الشيخ شيطان رجيم، وإن بدا بسيطاً قنوعاً. أعطاني مادة للتفكير. أعطاني ذريعة لتأبين نفسي، وأنا على أبواب الشيخوخة. ألست مجمع المتناقضات حقاً؟ وأفلت من لسانه وقد أمدته كلمات الشيخ بإحساس أكّال بأن العمر يفلت منه:

ـ السؤال المطروح..

ولم يستطع أن يكمل، فأكمل الشيخ:

ـ نعم، السؤال المطروح: هل حياتي تستحق أن تكتب؟ أنا أتجرأ فأقول: نعم، تستحق.

وقال خليل في نفسه: وأنا أقول، لا، حياتي لا تستحق أن تكتب. ولكنه زفر، وقال متسرياً:

ـ من يدري.

ـ أنا أدري.

ـ طيب، اكتبها.

ـ أكتبها. ولكن لا أملك قلماً..

ـ عندي أقلام كثيرة مهملة.

ـ لا، أقصد تصفيط الكلام.. آه، حرقة.. معقول أن يولي الشباب؟ معقول أن أصير (وأدار وجهه يتلفت كأنه يبحث عن حسنة، وخفض صوته وأكمل) معقول أن أصير عاجزاً عن مضاجعة النساء؟

ضحك خليل، وقال:

ـ كرشك ـ كرشك يعيقك..

ـ هل تعرف؟ قبل يومين ذهبت إلى حمام عمومي. ورأيت كرشي يحجب عني الرؤية. قلت منذ زمان وأنا لم أر ذاك الكيس الذي يوشك أن ينضب. فاستعرت مرآة من الحلاق، ووضعتها على الأرض، ورأيت... يا ويلي.

ـ سجِّل هذا في مذكراتك.. النضوب.

ـ لا، على بختك. ينضب كل شيء إلا هذا. ماذا عندنا من نعيم الدنيا غيره؟ قبل أيام قرأت في مجلة مصرية قديمة أن لجنة لتحديد النسل ذهبت لتفقّد الفقراء. فرأت المصيبة متفشية بينهم إلى جانب الفقر، أقصد كثرة البنين والبنات. فخاطب أحد أعضاء اللجنة رجلاً في حدود الأربعين له إحدى عشرة بنتاً: يا عم، خفف. فهتف الرجل: يا رب، يا رحيم، حتى هذا تحرموننا منه؟ ماذا عندنا في الدنيا غيره؟ صحيح، ماذا عندنا؟

ـ هذه مادة غنية للمذكرات.. مغامرات سريرية..

ـ تسخر؟ وهل تحسبني سأسجل هذا؟ وهل حياتي خالية مما هو أكثر أهمية؟.. آه، لم أقص عليك بعض ما رأيته في حياتي. ولدتني أمي في سنة نحس، يسمونها سنة الجراد، حين غزانا الجراد كالطاعون الأصفر، وحطّ على الزروع والمساكن، وأكل الأخضر واليابس، وكأن

يشير إلى ما سيعقب ذلك من سني عمري. وكادت أمي أن تموت عند الوضع، لأن رأسي كان أكبر من المألوف، كما كانت المرحومة تقول.

ـ ولا يزال..

ـ ولا يزال. ولكنه مثل شجر الأسكلة قوي الكشرة، حلو اللب، فنطازي جداً. في طفولتي أكلت الجراد المحمص، حيث كانوا يبيعونه في أكياس. وما أزال أحس بطعمه في حلقي.

ـ كجراد البحر؟

ـ لا أعرف ما هو جراد البحر. ولكنني أعرف الشفلَّح الأحمر الذي كان يباع على صوان مثل أعراف الديكة، كل شفلحة قرمزية متفتحة مثل شفتيك.

بربر خليل، وهز رأسه:

ـ يا للخيال الهمجي، وكنت تأكله؟ تأكل شفتيّ؟

ـ بتلذذ. وفي طفولتي كنت أغرز نوى التمر في الأرض، وبعد أيام كانت تخرج عشباً أخضر يدلني على مكانها، فأخرجها وأقسمها قسمين، وآكلها لذيذة هشة حلوة المذاق. وكنت آكل السعد، الأسود كالزبيب، كان ينمو على منحدرات السواقي والترع. هكذا أنا..

ـ أنصحك أن تكتب مذكراتك حالاً، لأن فيها قيمة بشرية..

ـ تضحك علي؟ لا تستهن بحياتي، يا أبا إبراهيم، أنا شاهد شاخص على الثلاثينات. المرحوم أبي كان واحداً من الرواد الذين كانوا يحرسون نعم الحضارة والمدنية في أرض لم تعرف الأمان.

ـ ولا تزال.

ـ لا أدري. لا تدخلني في إيراد ومصرف.

بحلق خليل فيه، فرأى رأسه الأصلع الكبير مدهوناً بعرق لزج، وكأنه خرج من رحم أمه لتوه. حملق الشيخ في جاره، وصاح:

ـ نعم، نعم، لا تبحلق بي. لم يكن أبي صاحب شركة جرارات، ولا سيارات عنتر ناش، بل كان مصلح خطوط تلفونات. كان إذا انقطع الخط بين الكوت والحي ركب فرسه الأسود، وأخذ كيس عدته، وسار على طول الخط، حتى يعثر على السلك المقطوع فيلحم بين طرفيه. أو لا أعرف كيف كان يفعل. كنت في السابعة. وكنا ـ أمي وأخوتي وأنا ـ ننتظر مجيئه في الليل أو في اليوم التالي، ونحن نرتجف من الخوف على حياته. كان السلّابة كثيراً ما يعترضون طريقه، ويأخذون الفرس التي يركبها وكل ما لديه، ويتركونه في العراء حتى تأتي

سيارة مارة، وتأخذه. ومرة قضى الليل كله ملطخاً بدمه، حتى جاءوا به إلينا بين الموت والحياة. كل ذلك من أجل رقيّ العراق.

- عظيماً كان أبوك، إذن.

- كان فقيراً، موظفاً صغيراً، ولكن كانت له مكانة في السراي، يدخله متى يشاء. وكان يأخذني إلى السراي أحياناً، فأرى البنادق والرشاشات والخيول والبغال والكلاب، وكل وسائل الدفاع الحكومية. ومرة شربت الشاي عند القائم مقام.. إلى هذا الحد! هل لك مثل هذه الحياة يا ابن المدينة؟

- لا، والله. ابن المدينة أعمى حتى يخرج منها.

- كنت أرى الفلاحين يأتون بموتاهم لا بتوابيت، بل بحصران ملفوفة عليهم، وكانوا يحملونها على رؤوسهم، أو على أكتافهم، مثل حزمة من الحطب.

هزَّ خليل رأسه، وظهر عليه هلع شارد:

- اكتب، اكتب مذكراتك إذن - ليت لي مثل حياتك.

- أنا لم أبدأ بروايتها بعد. أنا أعطيك لقطة أو لقطتين منها، كما يقولون في السينما.

وساد صمت مشلول. سرح كل واحد منهما مع التداعيات التي استدعاها ذكر الطفولة، والماضي الغابر، والموت البائس الجوال...

● أثار الشيخ همومه، وخرج.

وعندما غيَّبه الباب أحس خليل بجفاف في حلقه، وجمود أبله في رأسه. مشى إلى المطبخ الصغير، وفتح الثلاجة الكسيحة. رأى زجاجتين من المرطبات، ولكنه آثر الماء المثلج، ورطّب فمه ببعض الجرعات، ولما أغلق باب الثلاجة، واستدار رأى حسنة في جلستها الأبدية على المقعد الصغير، التختة، قرب الموقد الغازي الهامد. نظرت إليه بعينين ذليلتين، وكأنما تقول: لم تعد بحاجة إلي؟ في الفترة الأخيرة، حين أخذت صورة شذر تشغل باله لم يعد يبادل حسنة بغير كلمات قليلة متباعدة. كان، لا إرادياً، يخدم نفسه بنفسه، وكأنما يؤكد ظنونها. وكان يخلو إلى نفسه كثيراً، ويناجيها، ويحتسي زجاجات البيرة في مرسمه المغبر، لا على الطاولة البلاستيكية، كما كان يفعل سابقاً.

الآن أيضاً لم يجد ما يفعله أو يحتسيه. دخل مرسمه. الصورة التي بدأ يرسمها مركونة هناك. خشي أن يتفرس فيها. فضَّل أن يعود إلى رسومه الأولى ليستدعي شذر في حضورها

الأول، في الجلسات الأولى، قبل أن يسمج، ويتعثّر في ألوان زائفة. رفع أحد الرسوم، وتمعن فيه باحثاً عن شبه بشذر التي في خياله، ربما هو هنا في استدارة الحاجب. لا، ليس تماماً. تناول رسماً آخر. طاق الأنف، تقوّس الشفة العليا، ذلك الذي يجعل شذر تبدو دائماً، وكأنما تبتسم برصانة. تناول رسماً ثالثاً، ألقاه سريعاً. تناول رابعاً. بحث فيه عن شيء مفقود. ألقاه. أخذ يصفّ الرسوم على الحائط حتى ملأ ثلاثة حيطان في الأسفل. شملها بنظرة تائهة. أدار بصره عليها. دار كالمصراع. دار كمن يريد أن يتخلص من تكلّس أصاب مفاصله، من حيث لا يدري، تراكم أملاح، كما يقولون، في المفاصل، ولربما في الدماغ أيضاً، في المخيلة. . في. . في ماذا؟ توقّف دارت الجدران وحدها. انهدّ على كرسيه الوحيد، وشعر بلهث أنفاسه. كأنما ركض شوطاً. أهي الشيخوخة التي تحدّث عنها عبد المنعم؟ هل سأكتب مذكراتي مثله؟ ماذا أكتب؟ أي شيء لي أكتبه؟ لم أعش طفولة متميزة. لم يكن أبي من رواد المدينة. كان كاسباً، أمياً تقريباً. يكره الكتابة والرسم وكل الوسائل الحضارية الأخرى. وفي آخر حياته فقد بصره تقريباً. فكَره كل ما يذكره بالألوان. ولم يعد يرى غير الأشباح تتراءى له باتجاه الضوء. وتذكر خليل في لحظة خاطفة أنه تحدث بشيء من هذا لشذر، أيام كان يخلو بها في الصالون الأنيق. عادت إليه صورة شذر. تمثلت له بكل حضورها. بدسامتها الخنطاوية الصافية المصفاة، بكل رهافة كيانها الأثيري، بكل رقتها الناعسة المستسلمة إلى قدر مجهول. ربما أنا القدر. . قال خليل لنفسه. أنا القدر. لطم جبينه بأصابعه المتفردة، وقال لنفسه: اسكت، أحسن لك! من أنت لتكون قدراً، ولإنسان مثل شذر! . ربما كنت من قبل رجلاً يحمل بذرة فن. . أما الآن فقد تحجرت هذه البذرة. لفحتها سموم الطلبات الحقيرة. وسكت الصوت الذي يتحدث في أذنيه. وجمد خليل. لحظة ذهول وغياب، تراءت له صورة عبد المنعم. يقول إنه دخل سن المتناقضات؟ أو كيف قال؟ العجز، الرغبة في الاحتواء. هل قال شيئاً من هذا القبيل؟ العجز. . نعم، العجز. . هذا ما أحس به، ولا شيء أطوقه. . ووثب من مكانه. رمق الرسوم المصفوفة في أسفل الحيطان. راح يستنطق كل واحد منها. والرسوم خرساء لا تجيب، صماء بلا حياة. ليس مثل التي أريد أن أرسمها. لعنة الله عليك، يا شهاب لماذا ورطتني؟ كنت راضياً عن نفسي، قانعاً بالشتيمة. اشتم، وأتذمر، وأتسقّط عثرات الناس، وأهرج بصورهم. وأقول: الظروف صعبة ـ وحين أشعر بأنني على حافة الانهيار ألجأ إلى مسكنات البيرة والكحوليات، فتحلو لي الدنيا، وتهون كل الاخفاقات، ولم يبق إلا وجه ربي معلقاً على كل حائط، على شكل شعارات. فلماذا جئتني ووخزتني، ونكأت الجرح القديم، وفجرت دملة كانت غافية تحت الجلد السميك؟

وتنبه خليل إلى أن الظلام قد هبط. شح النور. واختفت الرسوم، ولم تبق إلا الأوراق

السميكة مبرأة من كـل خط قبيح. نهض ليضيء المصبـاح. رأى حسنة تسـد مستطيـل الباب بجسمهـا، وتحجب النور. اعـترته رعـدة لا إرادية أو مـا يماثـل الخـوف. لم يـرد أن يقـترب من مفتاح الضوء القريب منه.

- أصبّ لك عشا؟

انسكبت في خيشومه رائحة طعام ثقيل، وثوب نسائي قطني عرق.

- ما أشتهي.

- اها. والأكل وين أوديه؟ من البارحة.

قال لها في ضيق:

- ارميه للكلاب. قلت لك: لا أشتهي.

كان يريد أن تغادر فتحة الباب. ظلت مستعصية. وزاد غيظه، حين قالت:

- بعد ما أطبخ. ظلت عليّ؟

- على كيفك.

كـان يريـد أن تغرب عن وجهـه. رائحتهـا مقـززة. أنفـاسهـا ثقيلة. تسـد عليـه أفق الخيال، وتحبسه في رائحة ثوبها. سمعها تقول:

- صار على كيفك.

وأعادت فتات النور إلى الحجرة، ولكن بعد فوات الأوان. بعد أن طردت أشباح شذر بجسمها المترهل الثقيل، زفر خليل زفـرة عميقة، ولـطم فخذيـه عاجـزاً، وتسربت من نفسه كل الرغبات، ولم يعد قادراً على التفكير والتأمل، ولا على الإتيان بحركة نافعـة. عاد فجلس على الكرسي، وأسند خده على يده، وأغمض عينيـه، وغاب في خـواء هش ظلّ يغـوص فيه ويغوص حتى أيقظه صوت مكلوم:

- جاءك خطار.

سرت رجة كهربائية في أوصاله، وعـاد إليه الإحساس بوهن جسمـه، وتشنج عـروق رأسه.

- من؟

وخـرج متعثراً، وكـأنه خـاف أن يرى متلبسـاً في حالـة غير طبيعيـة. ورأى في الضـوء الشاحب فتاتين عرف إحداهما من ابتسامتها العريضة، وقصر قامتها.

- ها، شروق؟

رمشت عيناه، ربما من لمعان أسنان الفتاة في الظلمة المغبشة.

ـ أهلاً وسهلاً، ماذا جاء بك؟
ـ يعني حرام الزيارة؟

ولمح الثانية بطول قامتها، وشعرها الأشقر السبط.
ـ أهلاً، سهام.

وتصافحا. كانت تحمل لفة مطوية بجريدة. قالت شروق:
ـ تصور، لو كنت أعزب هل سمحنا لأنفسنا بزيارتك؟

تأذى خليل من ذلك لأكثر من سبب. نكس رأسه، وقادهما عبر الفناء الصغير إلى المائدة البلاستيكية السماوية اللون، وحين أجلسهما على الكرسيين الوحيدين، دخل إلى المرسم ليجلب الكرسي الثالث.

وردت شروق على نفسها، ووميض ابتسامتها يشع ملء فمها العريض:
ـ سنجرؤ بالتأكيد، وليقل الناس عنا ما يقولون.

وقال لنفسه: ماذا سيقولون عنكما أكثر مما قالوه، وبعد نقلكما إلى... إلى... لا أعرف إلى أين.. المخازن. وتصور أن زيارتهما تتعلق بهذا الأمر. وانتظر أن نفتحا الموضوع. ولكن سهام قالت:
ـ على كل حال، لن نثقل عليه كثيراً.
ـ لا، تفضلوا. أهلاً، وسهلاً.

كانت أعماقه قلقة متوترة للمفاجأة التي لم يتهيأ لها، ولم تخطر له على بال. ولكنه، حين رأى اللفة توضع على المنضدة، ورأى سهاماً تبتسم، فكر في أنهما جاءتا بمهمة أخف، ولا تحرجه في شيء. وشجعته بشاشتهما وخلوّ بالهما من كل ما يقلق، وكأنهما ما تزالان تعملان في نفس المؤسسة بنفس الهمة وطلاقة النفس.

عاد يقول باسطاً ذراعيه، متلمساً لنفسه عذراً للخلاص من حالة التيبس والمفاجآت:
ـ على أي شيء أضيفكم؟ على شاي أم شيء من المرطبات.
ـ لا تضايق نفسك.
ـ كل شيء حاضر.

وقنعتا بالشاي، وإن كان يريد أن يأتي لهما بزجاجتين من الكرش حتى لا يترك حسنة في مجال النظر مرة أخرى. جلس على الكرسي، أسبل ذراعيه، ثم وضعهما على ركبتيه منحنياً قليلاً إلى الأمام. قالت شروق:
ـ جئناك بمهمة.

لوى رقبته باستسلام، وقال بخفوت:
ـ حاضر.

وتلهف أن يسمع ما يجلو الموقف، غير أن سهاماً قالت:
ـ سنشرب الشاي، ونتحدث.

حين رأته يتلفت ونظره حائر يتنقل بين جانبي الطاولة، ويرمق اللفة المطروحة قرب مرفقها على المنضدة ـ لا تستعجل. ستعرف كل شيء.

وطبطبت على اللفّة باليد الأخرى، وأضرمت بذلك نار التوجس في صدره. شم خليل رائحة الشاي، فقفز، ورأى حسنة تخرج بالصينية الفافون من باب المطبخ. تناولها منها ولم يتركها تتحرك، وتشعر الزائرتين بوجودها. إلا أن شروقاً لمحتها، فسألت:
ـ حسنة، شلونك؟

تلقت شروق رداً متلعثماً ممسوحاً. وارتجّت الأقداح في يدي خليل، حين كان ينقلها من الصينية إلى الطاولة، وحين رأى أنه سكب في الصينية كمية كبيرة من الشاي، وضع الصينية على المنضدة، وفيها قدحه، ولم يرفع بصره إلى زائرتيه، إلا بعد أن هدأت أعصابه، واختفت يداه في جيبي بنطلونه، ساد صمت قلق ترددت فيه أصوات الملاعق، وهي تدور في الأقداح الزجاجية الصغيرة. وكان رنينها يبعث الراحة في النفس، أو يترك للنفس الفرصة لاستعادة توازنها، والتفكير فيما ستقدم عليه في اللحظة التالية. وحين فرغوا من شرب الشاي قالت سهام بتلك اللهجة الحازمة التعليمية، التي كانت تتحدث بها دائماً:
ـ لنبدأ الآن..

رفع خليل بصره، فتابعت سهام تقول:
ـ خليل، ماذا تتصور في هذه اللفة؟

فكر خليل قليلاً، وخطر في باله أن تكون اللفّة ملصقاً سياسياً، مادامت صورة سها القديمة ماتزال ثابتة في ذهنه ولم تهتز، مادامت تستطيع أن تطرق بيوت الناس في الليل دو أن تشعر بحراجة أو تحس بأنها بزيارتها تحرج الآخرين، ولو كان «الآخرون» إنساناً بسيط مثل خليل. ولكنه آثر السلامة، وقال، وهو يطوي جسمه الضئيل:
ـ مفاجأة..
ـ أحسنت، مفاجأة..

وثنّت شروق ضاحكة: مفاجأة حقاً. وأخذت سهام تفك الجريدة. نهض خلي فأشعل النور الكهربائي لتتكشف له المفاجأة بكل عريها. وحين التفت كانت الورقة الملونة

أو الجنفاص، مكشوفة كرغيف خبز قديم. بحلق خليل فيها مبهوراً مأخوذاً بالألوان البهيجة. النور المشع، والنخيل المتسلطن على أرض متربة الخضرة، وبركة ماء مخضوضرة، ونعجة هزيلة تائهة طليقة.. كل ذلك مغلف ببرقع القدم الطاهر، ملغَّز بأسرار الماضي، ميتم حزين شجي الصفرة. كل ذلك أليف إليه، وبعيد عنه، أنساه كل شيء خارج هذه الرقعة المطلسمة الفوَّاحة برائحة حياة منسية. تمعن خليل في اللوحة، دون أن يجرؤ أن يقول شيئاً قد يجرح الألفة الغامضة التي شدّته إلى اللوحة.

- ها؟

لوى رقبته، وتفتح شِفلَّح شفتيه عن ابتسامة خجلى معراة فكررت سهام:

- لمن هذه اللوحة؟

خجل أن يقول إنها لي. كان الشك يساوره في ذلك لبعد الشقة، ورعباً من هول الزمن الذي يفصله عنها. ألحت سهام:

- هل تريد أن تتبرأ منها؟

حاصرته مثل جميع الذين يفكرون على غرارها وكما هي دائما منذ أن عرفها. كان يود أن يقول: لا، ولكن استحي. الا أنه خشي أن يكون قوله هذا علامة ضعف، وتخلٍ عن ماضٍ لحاضر مزروع بالألغام. قال باسماً باستحياء:

- أهي وثيقة إدانة لأتخلى عنها؟

- بلعكس ـ قالت سهام بثقة الطاهرات ـ نريدك أن تفخر بها، وبأمثالها.

سكت خليل قليلاً ثم سأل:

- أين لقيتها؟

لم تقل له الحقيقة، ربما، بل تستَّرت بالمثل القائل:

- مَنْ جدّ وجد. بحثت فوجدت.

- عن طريق المصادفة؟

- بالعكس، بل عن نيّة مسبقة. أنا الآن بصدد البحث عن الأعمال المشتتة (ربما خجلت أن تقول: المنسية) للذين خرجوا إلى الشارع، إلى الشعب ليرسموا جوانب من حياته.. لنقيم معرضاً بعد ذلك.

ووجد خليل نفسه يبحلق فيها مذهولاً: تقيمون معرضاً؟ ولم يعرف كيف يسحب أو ينهي تحديقته التي حسب أنها طالت، بلا معنى وستكشف لسهام عما يوسوس في صدره. ولكن شروق قالت:

ـ لهذا جئناك نستعين بك.

قالت سهام:

ـ على الأقل فيما يخص أعمالك الأولى.

ضحك خليل من قاع حنجرته في خجل مرتبك، وقال بنفس الشهيق:

ـ أعمالي؟

ـ نعم، أعمالك. هل تتخلى عنها؟

قال بشجاعة مقلقة، في محاولة لأن يكسب ودّها ويصلح ما أفسده في تحديقته المستريبة:

ـ ومن يتخلى عن ماضيه؟

● وخلال ذلك كانت الشائعة تنتقل من فم إلى فم كالجرثومة الخبيثة حتى وصلت إلى عائلة سهام. وكانت هذه العائلة قد سمعت بنقل ابنتها، خريجة كلية الآداب، إلى المخازن، وأسفت لذلك كثيراً، واعتبرته فضيحة وعيباً كبيراً، لا يجوّزه شرع ولا قانون. ولكنها لم تعلن عن ذلك للابنة التي استقلت منذ سنيّ الدراسة وراحت تشق طريقها بنفسها، متحررة من سلطة العائلة، تقف الموقف الذي تؤمن به.

قضى الأهل ـ أمها وأخواها المحامي والمهندس وعمها الذي رفضت سهام الزواج من ابنه بدعوى أنه مهرّب وتاجر سلاح ـ أمسيات عديدة يتداولون فيما بينهم، ولم يتوصلوا إلى الطريقة التي يفاتحون بها ابنتهم. ولأول مرة شعر الشقيقان بأنهما مقبلان على مهمة عسيرة ومنغصة، وأن ما تراكم في صدريهما ضد أختهما الصغرى قد تحوّل إلى حجارة تشل حركتهما، وتثقل على صدريهما. تراجع العم في آخر لحظة قائلاً: ستحسبني أثأر لابني. وأخيراً تركوا الأمر للأم لتفاتح ابنتها. فإنها ظلت تحتفظ بالمودة والوفاق معها. ولم تحرمها من حنان الأم. وقبلت كوثر مقتنعة بأن لها القدرة على أن تأخذ وتعطي، تسحب وترخي، وتعرف السبيل إلى قلب ابنتها.

جاءت سهام متعبة، وجلست قرب أمها. لحظت كوثر أن وجه الابنة يبدو وكأنه مكسوّ بطبقة من ذرور التبغ، فقالت الأم، وهي تغمر وجهها بنظراتها الحانية:

ـ كأنك تشتغلين في معمل للسيكائر.

تأففت سهام وقالت:

ـ يا ليت . . .

استغربت كوثر وقالت:

ـ والسبب؟

ـ على الأقل لا أظن في معمل السيكائر فئراناً . . أما عندنا فكل واحد بحجم الهرّ.

استكبرت الأم، وقالت معاتبة:

ـ وعلى أي شيء كل هذا الضنك؟

دلت سهام رأسها وقالت:

ـ أوى، يمه. كأنني أنا الذي نقلت نفسي.

ـ وبدون داع نقلوك؟

نظرت سهام إلى أمها متشككة، وكأن محدثتها امرأة أخرى. ولكنها رأت وجهها على ما ألفته من طيبة وحنان. فأرادت أن تقترب منها أكثر:

ـ طيب، أسألك يا عيني: هل ابنتك خريجة الآداب تصلح للمخازن أكثر مما تصلح للعمل في قسم العلاقات؟

سكتت الأم محرجة، ولكن لم ترد أن تقطع الحديث، فقالت متسائلة:

ـ يجوز وشاية، أخبار ضدك.

ابتسمت سهام وقالت:

ـ وهل هذه جديدة عليَّ؟

ـ ولكن الجزاء دائماً بقدر الوشاية. ربما هذه وشاية تقصم الظهر؟

ـ تقصدين تستحق أقصى العقوبات؟

بادرت الأم مقتربة من الموضوع، قائلة بقناعة:

ـ أقصى العقوبات بالنسبة للمرأة المصونة أن يمسّ عفافها.

التفتت سهام كالمذعورة:

ـ ما هذا الكلام يا أمي؟

ـ نعم، يا بنتي. إذا فقدت الفتاة شرفها هان عليها حتى الصعود إلى المشنقة.

ـ ما الذي ذكّرك بهذا الكلام؟

سكتت الأم. ولعل العبرة خنقتها، لأن حنكها أخذ يتذبذب. ورأت سهام عنكبوت الألم يتمدد على تقاطيعها الحلوة رغم تجاوزها الخمسين بكثير. وقالت الأم وهي تنظر إلى حجرها:

ـ الناس يتقولون عليك كثيراً!.
ـ كثيراً ما تقولوا. وأنت تعرفين.

وتذكرت سهام النعوت التي كان بعض الذين لا يحبونها يلصقونها بها، وتقلبت شفرات حادة في صدرها، والتهب صدغاها، ولكنها قاومت الموجة الداخلية أمام انهيار أمها الوشيك.

وطوقت عنقها لتهون عليها كل شيء:
ـ يمه، تعودت، ولا يهمك.

ولم تتحمل الأم أكثر فانفجرت تقول كالمنتحبة:
ـ ولكنهم الآن يطعنون بشرفك.

ولم تعرف سهام أتغضب أم تضحك على توجّسات أمها الساذجة.
ـ وهذا أيضاً يحصل في الأزمات. ولا يهمّني.

في تلك اللحظة خرج أخوها المحامي من مكمنه في الحجرة المجاورة، ودخل غرفة الاستقبال، وقال بصوت مجلجل:
ـ ولكنه يهمّنا.

هبّت سهام واقفة، واحمرّ وجهها، واهتزّ شعرها كعرف مهرة شقراء، وقالت في استهجان:
ـ كنت تسمع كلامنا، اذن.

ونقلت بصرها بين أخيها وأمها. وأُرتج على المحامي، فلم يعرف كيف يدافع عن نفسه. فلجأ إلى لغة الاستمالة:
ـ أفهمينا، يا سهام، نحن الآن متهمون بشرفنا. منذ أسبوعين، وهذا البيت في حداد، يخيم عليه شبح العار.
جابهته سهام:
ـ وتصدق أقوال الناس؟

ـ ما دمنا نعيش بينهم ونتعامل معهم فلا بد أن نأخذ بعين الاعتبار ما يقولونه عنا.
ـ على علاّته؟ دون أن تدافع، وأنت تتوكل للدفاع عن أعتى المجرمين؟

ودخل أخوها الثاني، المهندس، ووقف إلى جانب أخيه:
ـ وكأنهم مجموعون في قاعة واحدة ليقف مدافعاً.

لم تعبأ سهام بكلامه، واستمرت تخاطب أخاها المحامي:

ـ لو جاء إنسان مغرض، وقال: أم أولادك لها علاقة مشبوهة مع رجل آخر فهل كنت ستصدق؟

ـ لا، لا أصدق.

قالت سهام بثقة وجزم:

ـ ولماذا لا تصدق ما يقولون عن زوجتك، وتصدق ما يقولون عن أختك؟

ملأ المحامي صدره بالهواء، وبدأ بنفس جديد:

ـ لأنني أعرف زوجتي جيداً. أعرف أين تذهب، أعرف كيف تتصرف.

ـ وتريدني أن أعطيك سجلًا بأعمالي؟ أنا واثقة من نفسي، وأتصرف بالشكل الذي يرضي ضميري.

تشكّك أخوها، وقال بلهجة هازئة:

ـ أي، نعم، أعمالك! نعرفها.

ـ غير شريفة؟

ـ مادام الأمر كان يخصّك تركناك تفعلين، ولكن الأمر وصل إلى حدّ المساس بشرف العائلة.

ـ لا تقل شرف العائلة. هذا شرفي قبل أن يكون شرف العائلة.

حاول المهندس أن يخفّف الموقف فبدا مضحكاً في قوله:

ـ قد تكونين مجبرة.. ربما وقعت في ظروف قاهرة.

ـ ما هذه السخافة، يا سامر؟ كيف أجبر على شيء لا أقره؟

ـ بصراحة يقولون وقع عليك اغتصاب.

صاحت سهام وتلفتت في الوجوه:

ـ اغتصاب؛ ما هذا الكلام السافل المنحط؛ اغتصاب في بلد متحضّر كالعراق، ولا يعاقب عليه القانون؛ وعلى فتاة متّهمة بالتحرّر، ولا تستطيع أن تدافع عن نفسها. أنا الطويلة اللسان، كما يقولون عني، لا أستطيع أن أصرخ، أن احتج. أين جرى هذا الاغتصاب الشائن؟ في صحراء؟

قال سامر خافت الصوت:

ـ في أم الخنازير.

صمتت مبهوتة، كأنما أخذت على غرة، وجوبهت بما لم تحسب حساباً له، ولكنها قالت بصوت من أقصى الصدر:

ـ هكذا يقولون؟ إلى هذا الحد يبلغ فساد الضمائر؟

وتهدّج صوتها بالكلمة الأخيرة، وامتلأ بالغدد وجهها الصافي عادة، وكأن الذي لم تقله خرج طفحا جلدياً على خديها. التفتت إلى أمها فوجدت الوجه المستطيل الأشيب يتطلع إليها بدعاء صامت. لم تستطع الأم أن تكتمه أخيراً، فقالت:

ـ تزوّجي، يا بنيتي، وصوني شرفك.

ـ أوى، يمه. وتتصوّرين الزواج يداوي جرحاً يمسّ الشرف؟ يمكن أن أتفق مع أي إنسان لقاء تنازلات من الطرفين.

قال المحامي بهمة:

ـ لا. نحن سنزوّجك..

غاضت بقايا اللوعة في نبرات صوت سهام، وقالت في استهزاء واضح:

ـ رجعت إلى لعبتك؟ أن تهبني إلى رجل صالح حسب مقاييسك؟ وفي هذا الزمن أيضاً.

ـ أثبتي، إذن، عكس ما يقول الناس.

ـ أثبته.

ـ نعم، أثبتيه. نحن الآن محاصرون. شرف العائلة تلوكه الألسن.

ـ ماذا تريدني أن أفعل؟

ـ أن تقابلي من يشيرون بأنه الفاعل.

ـ من هو؟ قل لي.

ـ كأنك لا تعرفينه. كأن أذنك لم تسمع بجابر.

صاحت:

ـ جابر؟ السكير؟

ـ أي نعم، وهل عندك الشجاعة لتواجهيه؟

نظرت إليه بحدة، وسكتت لحظات لتقرر ماذا عليها أن تقول. ثم قالت بصوت خافت، وكأنها راجعت نفسها:

ـ إذا كان هذا يرضي غرورك، أو شرفك العائلي... ولكن ألا يَخِزُ ضميرك العائلي أن تعرض أختك لمثل هذا الامتحان؟ أن تقابل مغتصبها المزعوم؟ السكير الحثالة، الجاسوس، العميل لمن يستأجره؟ تفضل، إذا كنت تريد ذلك. على الأقل لأريح أمي وضميري.

كانت الأم تبكي. وارتفع صوت البكاء مخلوطاً بكلمات متقطعة، تفوّه بها المحامي.
قال المهندس هازّاً أصابع مرتجفة:
ـ شش... أصواتنا مسموعة في الشارع.

دخل العم راكضاً، وكأنما وفق إشارة:
ـ فضيحة. الله أمر بالستر.

التفتت إليه سهام فرأت كرشه يرتج في مستوى بصرها. كرهته. قالت بامتعاض:
ـ ولكنه لم يأمر بالتستّر على عار.

ووقفت منتصبة مرفوعة الصدر، حين شعرت بأن أخاها المحامي في موقف محرج، يتفوه بكلمات غير مترابطة، وكأنه يهذي، ويداري. قالت تخاطبه:
ـ ما رأيك، يا أستاذ سعدون؟

ونظرت في وجهه متحدية. كان يجلس على الأريكة في الجانب الآخر من الغرفة، منكس الرأس، ناضباً أو متعباً أو مهزوماً، كأنما خسر مرافعة. وزاد ذلك من حدة أخته. قالت وكأنها تراجع نفسها:

ـ أنا الآن أشك فيك.. ربما أنت الذي بعثته ورائي يتحارش بي.

صاح المحامي: اخرسي، يا وقحة...
وقال العم: الله أكبر.
وحاول المهندس أن يهدىء:
ـ ما هذا؟ أعوذ بالله.

وفي لحظة الصمت المتعب الذي أعقب ذلك ارتفع صوت سهام صافياً:
ـ جابر هذا الذي ذكره الأستاذ سعدون كان، لعلمكم، يتجسّس عليّ طوال الرحلة إلى أم الخنازير وفي أم الخنازير نفسها. كان يلاحقني. ولم أكن أعرف بالضبط لأي جهة يشتغل في هذه السفرة الكريهة... أو بالحقيقة كنت أعرف الجهات التقليدية المعروفة، ولكن لم أكن أتصور أن أخي من أبي وأمي يبعث ورائي سكيراً قذراً يتجسّس عليّ.

نهض سعدون من مكانه هائجاً، وصاح:
ـ قلت لك: لا أسمح لك بهذا التلفيق الدنيء.
ـ وكيف تسمح لنفسك أنت؟..

هز المحامي رأسه الكبير استفظاعاً، وقال وكأنه يستشهد الآخرين:

ـ كـل شيء إلا هذا. . هـذا تدنيس. . مكـايدة. . مستحيـل، تريـد أن تـردّ الصـاع صاعين؟. .

● في مكان آخر كان أحمد عناد يردد: الدنيا مصـالح. وإذا راعيت مصلحتي، راعيت مصلحتك. وتشبّع شهاب بمعادلة أبيه هذه، وطوَّرها بشكل حاد، فكان يقول لنفسه: الـدنيا قشمرة. أنا أقشمرك، وأنت بدورك تقشمرني، والقشمرة هي العملة السائدة بـين الناس، لا الدينار العراقي، ولا الجنيه الانكليزي، ولا حتى الدولار الأمـريكي. والناجـح في الحياة هـو مَنْ يلف قشمرته بنوع براق من السلفان: بابتسـامة دسمة، وكلام معسـول، ووعود جـذابة، وتبادل الانخاب عبر موائد عامرة، وإعطاء القليل لجرّ الكثير، وما إلى ذلك من تداخـلات لا يـدركها إلا من دخـل اللعبة، وفهمهـا، وعرف دهـاليزهـا، ومتقلباتهـا، إلى جانب مؤهـلاته الجسدية. وكان شهاب يزهو بمـا وهبه الله من قـوام ممشوق أهيف، وخـدين أسيلين أمردين، وجبين ناصع، وأنف مستقيم، وفم متناسب مـع سائـر قسماتـه الميّالـة إلى الليونـة، والنعومـة القريبة من الأنوثة. وكانت له عينان غمازتان، يرتفع حاجبـاهما الخفيفـان عند أول إمـارة على الدهشة، وتصعد جلدة رأسه إلى فوق مع ناصية شعره الناعم فتضفي على الوجـه الرقيق كله نباهة مفتعلة. في كلية التجارة كـان الطلبـة يسمونـه مدلّـل أبيه. كـان صورة وليس رجـلاً. كانت ابتسامته الزجاجية الباهتة، مثل فاكهة ماسخة، تلون وجهه بلون غريب على الرجولة، وتكشف عن أسنان نضيدة، ولكنها صغيرة. وكان له صـوت ناعم يحـاول أن يطعمـه ببعض الخشونة، فيبدو مضحكاً. كان النقيض لأبيه القصير المكتنز القـوي الصوت القـاطع اللهجـة، الجاد، المجامل في حدود معقولة يكسب فيهـا ود المقابـل. وكان هـذا الأب يأتي بسيـارته إلى الكلية، ويدخل إلى غرفة الأساتذة، ويسلم، فلا بـد أن أحداً من أبنـاء الأصدقـاء والمعارف القـدامى سيعرفـه، أو على الأقـل ليدخـل في سؤال وجـواب. ونقـاش مشـوق عن تشـابـك الأنساب، واختلاط العوائل، وهو الضليع في كل ذلك. وتخرّج مدلّل أبيه بـدرجة مـرموقـة. وكان يشعر بـأنه وسط الـدنيا، ولا شيء بعيـداً عن متناولـه. وقضى وقتاً يتنقـل مع أبيـه بين الدوائر، حتى استقر به المقام في مؤسسته الأخيرة، ووجد في مديرها العام القديم رعايـة ولغة مشتركة، وتبادل هوايات علنية وسرية. وكان شهـاب قد اكتشف في السنـوات الثلاث الأخـيرة علته المعيبة، بالنسبة لشاب حلو المحيا مثله لم يصل الأربعين، العلة التي لا يعـرفها إلا هـو، وبعض اللواتي كتب عليهن أن يختبرن رجولتـه، وفي حلتها الحقيقيـة، وشهاب لا يتـذكر متى بدأ هذا الوهن يدبّ فيه، ولكنه كان يعرف أن الشك في قدرتـه الجنسية كـان يساوره، حـين

تتفتح كل الأبواب أمامه، ولم تبق إلا الممارسة الفعلية. عند ذاك كان يشعر بالخوف مشوباً بشيء من التقزز من حالته ذاتها، وكأنه كان مقبلاً على امتحان في رجولته التي كانت دائماً موضع تندّر بين زملائه في كلية التجارة. صورة وليس رجلاً. كان هذا الهمس يتصاعد في خلفية أذنيه. وبعد ذلك أخذ يعاقر الخمرة، كنوع من التعويض وإثبات رجولة منفية، وكانت الخمرة تمده ببعض السلاطة والجلافة، وتبعد عنه الشعور بالتقزّز الذي يتراكم عليه فجأة بعد الفراغ من هذه العملية المعقّدة التي تفضي إلى خواء.

نظر شهاب في مرآة سيارته. كان وجهه المستطيل الأمرد يبدو صقيلاً، وكأنه لا يحلق يومياً. وكانت عيناه مكشوفتين تحت جبين أملس لا يحده حاجبان. عكفه شهاب، فلاح خطا الحاجبين هزيلين، تحت خطوط أخرى خفيفة عبر الجبهة، تتسلط عليها لمة سوداء خشنة كقرن. اشمأز شهاب، وترك صورته تنسحب من المرآة. وألقى ذراعه على الباب، فلسعته حرارة المعدن المصطلي بشمس الظهيرة. كانت سيارة الرينو البيضاء واقفة في الشمس قرب البار الذي كان يقصده مع خلّانه يتبادل معهم المنافع، ولا يردّ مواعينهم فارغة. . أما الآن؟ . . . نظر إلى باب البار المفتوح إلى النصف، وكأنه باب بيت سرّي للدعارة، يختفي خلفه القواد ينتظر الزبائن. مطّ شهاب شفتيه الناضبتين الرقيقتين، وأدار رأسه إلى خط الشاطىء. وللحظة بدا كل ذلك خواء، كل سهراته، كل رواحه ومجيئه، كل موائده وأنخابه وخلانه وصويحباته العابرات والمتهيئات دائماً لاستقباله، وهن يعرفن أنه سينكص في منتصف الطريق. كان ذلك لعب جعاب، ولأنه في لحظة طائشة سينقلب بشهاب في الهواء، مثلما انقلب بمديره العام السابق. أين هو الآن؟ ذلك الذي أطلق له العنان، ورضي بمعسول الكلام، وبهوايات الشيوخ الخامدين جنسياً، في أي زاوية هو الآن؟ قابع في بيته، أم . . يا ساتر، يا رب . . . وأحس شهاب بالاختناق، الشمس لاهبة، والنفس لائبة، والاحساس بانسداد الأفق يأخذ بالأنفاس. أدار شهاب المحرك. لم يعرف ألى أين يذهب. كأن الدنيا سُدّت عليه. هل يبلغ به الذل ليلتجىء إلى عصام؟ ينقر بابه، وينادي، كما نادى في تلك الليلة السوداء: عصام موجود؟ سيعرف عصام بالتأكيد أنه جاء يطلب عوناً، يتشمم كالقط الجائع، وهو الذي كان من قبل قهّاراً لكل شيء، قريباً من كل شيء، عارفاً بكل شيء. أو لعله يذهب، ولا يفتح الموضوع، ويترك عصام يخمن، ويدعه يفقد صبره، وينفض ما في صدره، كما هو دائماً. ضعيف إزاء برودة شهاب، وإزاء ابتسامته الحاملة لأكثر من معنى. . وأحس بطعنة موجعة، حين قالت له عمة عصام: عصام، راح يتأخر اليوم، ولم يدر كيف يتصرف. تخاذلت رجلاه، وشعر وكأن عصام رفض مقابلته. وَدَّ لو يقابله الآن. فمادام قد افتضح، فليبحث عنه في كل مكان. لسان العمة انفلت وقالت: عصام يقضي ليالي كاملة خارج

البيت. ولا تعرف أين يذهب؟ أوه، صارت لعصام مشاريعه الخاصة، المريبة بالتأكيد، أين يقضي لياليه؟ مع من؟ هل دعبل له المنصب مستجيرات، يردن أن تقسم منتوجات المؤسسة بالعدل والقسطاس. وضحك شهاب، وتذكر التي استجارت به ذات مرة: ماذا يقدم لها الآن؟ هل ستغير موقفها منه أيضاً. وأحب أن يعرف، يستشكف، ويجرب، وليعرض رجولته لاختبار آخر. كأن الاختبارات قليلة.

استقبلته بتكشيرة تشي بخيبة أمل في طفل تعرف قابلياته مسبقاً. قالت أول ما قالت:

ـ جئت راكضاً؟

ـ جهنم الصيف حلت قبل الموعد، هذه السنة.

ـ الحمام حاضر. خذ لك دوشاً.

أججت نار النقمة في صدره بطلبها البارد. قال حانقاً:

ـ أنا احتاج إليك أكثر من الدوش.

وبحلق فيها يريد أن يمزقها بأسنانه أكثر مما بأي شيء آخر تحت سلطته. قالت مستلينة:

ـ أنا مريضة.

ولوت رقبتها. كان الاصفرار بادياً على وجهها. وحول عينيها دائرتان داكنتان، وحنكها مرتخ. وابتعدت عنه. راقب قوامها الممتلىء يميس في ثوب أزرق، تثنّى خلفها مع ثني ردفيها. وشعر شهاب ببخار الشهوة يصعد إلى يافوخه.

ـ ماريا.

لم تجب. صرخ ثانية:

ـ ماريا

مالت برأسها، ورمقته بعين ذابلة دون أن تتوقف من ابتعادها عنه. دخلت الحجرة. تريّث مكتظّ الصدر بما لا يدري ما هو، قذفه بقوة فاقتحم عليها الحجرة.

ـ تسمعين؟

رآها ممددة على السرير تلقي إحدى ذراعيها على رأسها، وتسبل الأخرى على جنبها. رأى شعر الإبط، والعضد الممتلىء الريان، والوجه الممتقع الشمعي، والجفنين المسبلين بفتور، والصدر الناهد المفتوح إلى الوسط، إلى نقرة الصدر، والمثلث الطالع الذي يكونه التقاء فخذيها، وقد وضعت ساقاً على ساق. وشعر بشيء غير مريح ، وفالت. هجم عليها.

ـ ماريا.

دفن وجهه في خندق رقبتها المهالة، وألقى ذراعه على صدرها، فشعر بها تغوص في اللحم، ويتحرك شيء فيه كالضفدعة، أنّت ماريا، وشهقت، ورددت: تعبانة، وجعانة، وزفرت، وشعر برائحة سخونة زفرة على وجهه الطري. وسمعها تردد: وجعانة، تعبانة، فتجاوبت هذه الشكوى بصوت آخر دفين في ذاكرته.. وجعانة، وجعانة... وجعانة ـ الحمارة وجعانة.. دخيلك الله وجعانة. ولأول مرة بعد زمن بعيد شعر شهاب بصلابة نارية تتوقد في أسفل بطنه، تقتحم الراكد الذابل هناك. وكان توجّع ماريا يثير ضرم النار، ويلهب الإحساس بالاحتراق لشيء هش لا يقاوم، ذليل وجعان مثل تلك الحمارة في طفولته البعيدة، حين أرسلته أمه إلى ماكنة الطحين.. وجعانة، وجعانة. وشهقت ماري، وأمالت رأسها ذات اليمين وذات الشمال. ونفثت هواء حاراً. واستبدت بشهاب اللعبة، وركبته كما ركبت ذلك الحمار العنود. اطبق عليها بكلتا يديه، فرحاً بما يجري في الأسفل، متصلباً إلى حد الاقتحام، وكانت ماكنة الطحين تطوف في خياله، والامتطاء المفاجيء الذي أذهل صاحب الحمارة.. لا، بل كان قد شعر بالخطر المفاجيء، وراح يردد: وجعانة. وجعانة، حمارتي وجعانة.. أوه، يا ربي، بطنك!

وعندما كان شهاب يلبس ثيابه، كان يقول لنفسه:

أنا قادر، وسأقبل باقتراح أبي.

● قضى عطا حوالي أسبوع في حالة توتر باطنية لا تطل إلا من رفة أهداب عينه المتسرعة، ومن انتفاخ خديه الصاعدين إلى أسفل من عينيه، وتيبس شفتيه الذابلتين من قلة الاستعمال. وفي الليل كان يستيقظ فجأة، وكأنما لسع بحرارة الجسد الراقد إلى يساره، أو تنبه إلى وجوده مستسلماً لنوم وادع. ويظل دقائق ينظر بلا ارتياح جسدي إلى تلك التي كانت، إذا شعرت به قد استيقظ، أولته ظهرها ساحبة الشرشف معها، وكأنما لا يعرف من هي. كأنما استيقظ فوجدها نائمة في فراشه. وعند ذلك كان يسحب جسمه عنها، ناظراً باستغراب ذاهل إلى شعرها الأسود المكور، وذراعها العارية. ثم ينسل بأكثر ما تستطيع من الخفة، ويذهب إلى المطبخ ويشرب قدحاً من الماء، ويفرك وجهه، ويرمش قدر ما يشاء، وكأنما يطرد حلماً مزعجاً. وكان يخشى أن تستيقظ أخته، فقد كانت تأتي إلى المطبخ حافية، وتسأله: ليش كعدت؟ الدنيا حارة؟ بطنك توجعك؟ راسك؟ كأن كل آلام الدنيب عندها محصورة بهذه المنغصات، إضافة الى البرد في الشتاء. أما تلك التي كانت تنام جنبه، فإنها تأتي متعبة مجهدة، وتتناول طعامها، وتتحدث بحيوية خلية البال، وتدس يدها في صدر عطا، وكأنما

تبث الحيوية فيه، ثم تتمرغ في الفراش، وتلف رأسها، وتنام، ولا تستيقظ ولو انقلبت السماء على الأرض. وعندما ينسل إلى السرير، ويراها قد انقلبت على ظهرها، رافعة حنكها إلى فوق، يحس بدفقة حنان موجعة نحوها. ثم تبدأ سكاكين الشك تمزق أحشاءه، وترفع روحه إلى بلعومه، فيلهث لهاثاً صدرياً مكبوتاً، وتتذبذب شفته السفلى، فيمسكها بأصبعيه، ويحس بجسده ينضح عرقاً بارداً، فيحاول أن يسترخي، ويستسلم لنوم متقطع يغوص قلبه فيه، فيشهق ويستيقظ ثانية.

في الصباح، على الفطور، قال لنفسه: لازم ألحقها اليوم. . . ولكنه شعر بالتعب بعد انتهاء الدوام، فذهب إلى بيته، وتغدى، وغرق في قيلولة استيقظ منها فلم يجد زوجته في البيت. . . طلعت بشغل. قالت له أخته في غير رغبة لاطالة الحديث، وكأن في صدرها شيئاً تكتمه عنه. وعلى الغداء، إذا حدث وأن تغديا معاً، كان عطا الصموت لا يبادلها أية كلمة، بل ولا يرفع إليها بصره، لأنه كان يخشى تحدّي عينيها الواسعتين المتحديتين أصلاً، الصريحتين المكشوفتين. بينما قبل حكاية رائد المنغصة تلك، كان يعجبه أحياناً أن يرفع بصره إلى شروق، فيرى عينيها عاريتين كالمرآة، لا لغز فيها، ولا خفايا، ولا أشياء غير مفهومة.

وذات مرة رفع بصره، فالتقت عيونهما، ورفّت عين عطا اليمنى مثل رفيف عين طفل استيقظ من نومه لتوه فرأى نوراً ساطعاً موجهاً نحوه. ولم تدع شروق الفرصة تفلت، فسألت:

- ليش تنظر إليَّ بهذا الشكل؟

لم يجب، ألحّت:

- صحيح، عطا، مالك مثل بالع الموس؟

ارتجّت الملعقة بيده، وقال بصوت مشحون بأقصى ما يمكن من التحدي:

- أين تذهبين كل عصر؟

- إلى بعض الصديقات. هل تحب أن تأتي معي؟ تفضل.

سكت عطا، وقال لنفسه: إنها تعرف أنني لن أذهب. ولكنه واصل تحديه، وقال:

- ممكن. .

وفي سره قال: وهل ستأخذني حقاً إلى مَنْ تذهب إليهم سراً؟ ستأخذني إلى من لا أريد أن أذهب إليهم، وتعمي القضية.

فقرر أن يكون أذكى منها، ويأخذ المسألة على عاتقه، ولأول مرة في حياة عطا تدبّ فيه

حيوية غير معهودة منه، ولا يمكن لأحد حتى التفكير فيها، صار يسبقها في الخروج، ويترصدها في زوايا الشوارع، ومرة رآها تركب الباص الذاهب إلى بغداد الجديدة، وجفل لهذه المفاجأة، وسرت رعدة خبيثة في جسده الرخو، حتى أحس بشيء من التصلب فيه. ماذا عندها هناك؟ وفي الليل شم لأول مرة، أو توهّم أنه يشم رائحة غريبة في فراشه. ربما هي رائحة تلك الناحية النائية المقفرة، الغامضة في خياله. المطلسمة بالأسرار. طوال حياته لم يتجاوز سيد محمد. لم يتجاوز تلك القنطرة المرفوعة فوق ماء ضحل. فهناك كان يرى مدينة مهجورة، خُطّط لها في ساعة بطر، وأُهملت، وأصبحت زائدة دودية متعفنة لبغداد الأصلية. كم سمع عنها أخباراً مريبة وكم بلغ سمعه أن فلاناً وفلاناً من سكان بغداد الجديدة، فيعجب ويستغرب. البيوت السرية هناك، والمغامرون، والذين لم يجدوا لهم مكاناً في بغداد. كل الألغاز والحكايات المثيرة، والأماكن المريبة تبدأ من وراء قنطرة سيد محمد، حيث تطبق ظلمة أشد من ظلام بستان مسكون. وفكر عطا: عجيب! وشروق تذهب إلى جزيرة الوراق واق هذه؟ في الدائرة كان أحياناً يرفع بصره إلى رائد في محاولة خائفة لأن يستنطقه، ويطلب منه المزيد. ولكن رائداً ظل هو الآخر لغزاً صامتاً، حزيناً نزقاً، متوتّر الأعصاب. ينفجر لأتفه سبب، ويغادر المؤسسة في وسط الدوام. ولا يعود إلا في آخره، حيث يدخل المكتب مندفعاً متعثراً بلا سلام ولا كلام، ويلقي أوراقه على منضدته، ويسترخي على كرسيه مغمض العينين. لم يعد رائد يناكفه، بل ولا يحدثه خارج تلك الأوامر القصيرة: استنسخ، اكتب، لخّص، اذهب إلى الأرشيف. زرع في قلبه بذرة الشكّ. ولملم نفسه، وسها. حرَّك أعماقه، وجمد هو بأعماقه التي لا يعرف عطا متى ستنفجر بنوبة أخرى، وتقذف بالكلمات المبهمة من مثل: «ثايب، ثيب» «لا يدري» «ديوز ديوث.. جزبوز...».

ترصدها ذات مرة قرب محطة الباص، في مكان يصلح للترصد. باعة كثيرون. عربات. سيارات. دكاكين لبيع العصير والمرطبات. ولمحها خطفاً تهبط من سيارة نفرات وتتجه إلى محطة الباص. دب نشاط مذعور في جسده غير القابل للمباغتة، أو غير المستعد لها. ركض إلى سيارة أجرة تلقفه صاحبها بلهفة: تفضل.

ـ لبغداد الجديدة كم؟

ـ دينار.

ـ هاي دينار ونص، بس طوِّل بالك علي.

نظر السائق إليه بارتياب. قال عطا: اعتبرني مجنوناً ـ ولكن السائق، تشجع من شكله المسالم، وقال:

ـ تفضل، أستاذ.

وانتظر السائق أوامر راكبه، حتى ركبت شروق الباص مع الراكبين، فقال عطا:
ـ تحرك. .
ـ تؤمر، أستاذ.
ـ شايف هذا الباص؟
ـ اعدال أربعة بعران، اشلون ما أشوفه؟. .
ـ تحرك إذا تحرك، وتوقف إذا توقف. .
حدس السائق في ذهنه رأساً، فزاد من سماحة أدبه:
ـ تؤمر، أستاذ. . أهلاً وسهلاً بالنشامى.
ـ لا تخف.
ضحك السائق ضحكة مرتعبة:
ـ وليش أخاف؟ أنا دائماً في خدمة الشعب والثورة.

كان عطا مشغولاً بالمراقبة فلم يكترث بكلامه، وتحرك الباص فتحركت سيارة الأجرة. وظل السائق يتابع سير الباص بحركة مدروسة، وكأنما تدرب على ملاحقة النساء المريبات، ولكنه تعب، وهو على وشك الوصول إلى بغداد الجديدة، فقال بشيء من نفاد الصبر:
ـ الآن في خدمتك، متى أتوقف؟
ـ بعدين، سأقول لك.

وفي الساحة، عند التقاء شوارع كثيرة، توقف الباص للمرة الأخيرة، ولفظ بقية ركابه. وكان ثوب شروق المقلم بين النازلين. أخرج عطا الفلوس، وقدمها للسائق، فشكره هذا، وكأنه عرف من يلاحق: «موفّق» ولكن عطا كان مشغولاً بعملية عسيرة فوق طاقته، وهي أن يتابع حركات زوجته السريعة، محاولاً أن يخفي جسمه الضخم. احتمى وراء سيارة التكسي، وحين تحركت أحس بالانكشاف. زاغ وراء شجرة. ومن هناك راقب زوجته تعبر إلى الجهة الأخرى من الساحة ورآها تقف أمام دكان مترددة قليلاً، وكأنما تسأل نفسها: هل تشتري شيئاً؟ ثم دخلت الدكان، فلعلها قررت أن تشتري ذلك الشيء وقف عطا ينتظر خروجها. انتظر دقائق، لم تخرج، ولم يخرج أحد من الزبائن. انتظر دقائق أخرى. يبدو أن الدكان كان خالياً من الزبائن. بقيت فتحته المستطيلة فارغة تعكس شمس العصر القوية، حتى رفّت عين عطا، واختلج خده. انتظر بحيرة وعذاب. راجع نفسه. ربما خانه بصره، ولم تدخل شروق هذا المكان؟ ولكن لا، رآها تدخل فيه، حتى أن ظلّها ارتمى على زجاج الدكان. عبر عطا الساحة بسرعة كلّفته لهاثاً. وقف يستردّ أنفاسه. عيناه ما تزالان مسمرتين على ذلك الدكان. أحس برهبة سرت رجفة خفيفة تحت جلده. شعور غير

مريح سرى في أعصابه وهزّها فأحس بوخزاتها في مناطق عديـدة من جسده. كـأنما بلع شيئاً مراً يقلص الأحشاء. تقدم بخطوات نحو الدكـان محتمياً بجـدران البيوت والأسيجـة. ظلت واجهة الدكان فارغة ساكنة. كان عطا لا يعرف مـاذا يفعل، لا يعـرف كيف يبرر وجـوده في هذه المنطقة النائيـة، إذا لم يثبت أنه عـلى حق فيها أقـدم عليه. بـدا وكأنـه تلقّى صفعة عـلى القفـا، لأن رقبته احتمت بكتفيـه بحركـة لا إرادية. رفّت عينـه مرات. تقـدم ثقيل الجسم، مفلول المفاصل، كأنما يساق إلى ما يشبه ساحة الإعدام، لا سيما حين أخـذ الأمل في خـروج شروق من الدكان يتبدد، وتحل محله حـيرة وحراجـة وخيبة. قـال لنفسه: خـدعة، ربمـا هذا ليس دكاناً. لم يدخل أحد إليه منذ دخول زوجته، ولم يخرج أحـد منه. عصفـرة الشمس على الزجاج غير الصافي جعلته يبدو نشـازاً وسط هذه البيـوت الهادئـة المستقيمة. ابتعـد عطا عن الجدران. قل انعكاس الشمس. فرأى عطا الواجهة الزجـاجية بـوضـوح، والكتـابة البيضـاء والخضراء عليها، وفتحة الباب المستطيلة. تقدم عطا، وهو يسأل نفسه: ماذا سيقول لشروق حين يراها في الدكان؟ لم يتفتق ذهنه عن جواب معقول. كنت هنا عند صديق فرأيتـك. أي صديق؟ عندك أصدقاء يـا عطا؟ ومـع ذلك فقـد ترك رجليـه تحملانـه، وتقدم بجـرأة أشد، وليكن ما يكون، زوجتي، ملكي، حلالي، تزوجتني أم أنا الذي تـزوجتها؟ لا، أنـا. وتريـد أن تخونني؟ رأتني ما أحكي، هـادىء، انجبر، وتـريد أن تـدوس على خنـاقي. شجعته هـذه الأفكار، وكف عنه التردد والانتظار، سيطل على الدكان ويراها، وليكن ما يكون. سأنظر في وجهها وأسكت. وستعرف ما أردت أن أقول. هذا هو ردي على أحوال الدنيا.

واسترجع في ذهنه، هو على بعد خطوات من الدكان:

دائماً تقول لي: أنت خائف. لا، ما أخاف! ممن أخاف؟ صحيح أنا ساكت، ولكن ما أخـاف. وليش في هذه القضيـة خوف؟ عـرضي، نـامـوسي. . لا، مـا أخـاف. ووصـل إلى الدكان.

حـاول أولاً أن يـرسـل بصره من خـلال الـزجـاج المغبش، المغـطى بكلمات بيضـاء وخضراء، ولكنه لم يستطع أن يتبـينّ شيئاً. وللحظة تعثّر بحـديدة منغـرزة في الأرض. ارتجّت الواجهة بكليتها من الصدمة، وكشف عطا عن نفسه بهذه الطريقة الفجّة. أطلّ رجل من داخل الشباك بوجه مبهور تلمع نظارته الطبية لمعاناً رجراجاً، وتحرّك شاربه السميك حركـة انزعـاج، بعد أن تكوّر فمه لينطق بكلمة استفهام وتعجّب: نعم.

لم يجب عطا، ونظر داخل الدكان بثقة تامة بأن يبرر تطفله هذا. كان ثمة شخص آخر وراء منصة العرض الزجاجية، ولم تكن شروق موجودة.

ـ نعم، استاذ، تؤمر شيء؟

اقترب منه ذو الشارب يسد عليه طريق الدخول إلى الدكان.

رفت عين عطا، واختلج خدّه تحتها، وتمتم بصوت جاف:

ـ مرتي.

لم ينطق الشاب بكلمة. ظل واقفاً في مكانه، وكأنه يفتش في ذهنه عن جواب معقول:

ـ مرتك؟

ـ نعم، شروق.

جرت حركة داخل الدكان شبه المظلم، وطلع شبح رمادي من وراء المنصة، واقترب، وازاح الشاب من باب الدكان، وقال بصوت متودد:

ـ تفضل، استاذ.

أحس عطا بخوف لا شعوري، فلم يدخل، واكتفى بأن قال بصوت متعلثم:

ـ قبل شوية شفتها تدخل.. عجيب، وين هي؟

كلفته هذه الجملة الطويلة جهداً شديداً، وبدا لاهث الأنفاس. وفي الظلمة الباهتة لا أحد يعرف كم رفت عينه، واختلج خده. جذبه الشاب الثاني من يده برفق. ولكن عطا أحس بأنه يُسحب سحباً. كان هذا الشاب عريض المنكبين، مدور الرأس، أصلع، يمتلك، كما بدا لعطا، قوة لا تقاوم. دخل عطا الدكان مرتجفاً، ضيق الأنفاس، مربوك الحركة، كأنه وقع في مصيدة أكيدة، ولا يعرف هل يتراجع ويخلص أم يتقدم. ولكنه ردد بصوت مهتز:

ـ وين هي؟

قال الثخين بتأن ورفق بعد وقفة قصيرة:

ـ موجودة، سيد عطا.. لا تقلق.

تشجع عطا ليؤكد:

ـ قبل دقيقة رأيتها تدخل.. غابت؟

ـ غابت؟

وضحك الرجل الثخين ضحكة خافتة، أو ارتفع صدره إلى الأعلى. ولمعت ابتسامة دسمة في الظلام الشاحب. دعا عطا إلى الجلوس بحفاوة مفاجئة، والتفت إلى الشاب، فتنحى هذا عن الباب. ورفع غطاء المدخل من على يسار المعرض، ودخل في أعماق الدكان. أخذ الرجل يرحب بعطا ويلهيه. أنا شايفك في المؤسسة. دائرة واسعة ذات نفوذ كبير في السوق. سعيد من يشتغل فيها.. ابن عمي عامل في المخازن. لا يحل ولا يربط.. وليس من أولئك.. ماشاء الله. بدا عطا يشعر بالضيق. يحس كأنه يحاصر ويُصرف عما جاء من

أجله. الرجل الغليظ يشد عليه الخناق. يثرثر بلا انقطاع، يضيع الوقت عبثاً. شعر عطا بالدم يفور في علبائه. أحس بحالة الانحصار، التي تجعل لسانه عظمة في فمه. شوَّر بذراعه:

ـ يا أخي، شروق؟

في تلك اللحظة دخل خيال، فكشف عن شروق. تمعن عطا فيها حبيس اللسان، مبهوراً، وبعد عسر شديد نطق:

ـ كأنكِ مَلَك.

ضحكت شروق بكل فمها العريض، وقالت:

ـ ملك

ـ جنّي؟ قبل شوية شفتك...

دفعت شروق رأسها إلى الوراء بثقة تامة، وقالت بهمس المتآمرين:

ـ متوهم.. تعال معي..

سحبته من ذراعه. كان الشاب ذو النظارة يقف في باب الدكان يتلفت. وكان الثخين يدق مسماراً في الحائط الداخلي، أو هذا ما تخيَّله عطا. سمع طرقات مطرقة مخنوقة الرنين في أقصى الدكان، ولمح عصا تتذبذب على الحائط. جرّت شروق زوجها من يده، وغادرت الدكان، ودخلت حديقة البيت المجاور، كان عطا يريد أن يعترض. لكنه اليوم استخدم أكثر من طاقته من الكلمات، فكان يحس بجفاف في حلقه، وكسل خاذل حتى ود لو كان الآن جالساً في بيته يتفرج على التلفزيون. انقاد لشروق رخواً مطواعاً حتى دخلت به المجاز، ودلفت إلى حجرة في عنقه، أفضت بها إلى حجرة أخرى فارغة. قالت شروق حين دخلت:

ـ كأن قلبي يعلمني أنك ستأتي. ولكن..

انتظر عطا ليسمع كلامها. أجلسته على أريكة صغيرة. نظر في وجهها متسائلاً. اكملت:

ـ هل دلَّك أحد أم اهتديت لوحدك؟

ونظرت في عينيه الغمازتين. كانتا ترفان في الحجرة شبه المظلمة. ألحّت في سؤالها: ها؟ ها؟ ها؟ اضطر لأن يقول:

ـ وشيهمّك؟

ـ لا، يهمني.

التصقت به، واضعة كل ثقل صدرها اللدن على ذراعه. وعادت تنظر في عينيه،

والابتسامة المنورة تملأ وجهها. نغزته في بطنه معاتبة، كاشفة كل نفسها له، حتى أحس بخجله يتحول إلى عرق بارد. ظلت شروق تلح:

ـ دلوك أم هذا من عندياتك؟

ـ عجيب.. شيهمّك؟

نغزته مرة أخرى، وقالت بإصرارها الشديد:

ـ لا، يهمني، يهمني، قل لي. أريد أن أعرف أهذه غيرة أم وشاية؟ ضروري، ضروري أن أعرف.

وأمسكت يديه كلتيهما، واحتضنتهما، وأخذت تكرر:

ـ قل لي، قل لي.

همس:

ـ يمكن.. الاثنين..

دفعت رأسها إلى الوراء مرة أخرى بضحكة خافتة ليست كضحكتها الصداحة في بيته. ولكن الفم افتر عن الابتسامة العريضة الصريحة نفسها، ولمعت الأسنان اللؤلؤية الكبيرة التي تجذبه فيها وألحّت:

ـ لا. أريد أعرف بالضبط.

قال مسترخياً راغباً في أن يغلق هذا الحديث المتعب:

ـ وانت ماذا؟

ـ ماذا ماذا؟

ـ تريدين؟

ـ بالطبع أريد أن يكون ذلك غيرة.. أريدك أن تغار عليَّ. ألست زوجتك؟ والزوج الذي لا يغار على زوجته...

وأحجمت عن إتمام جملتها. فقد أحسَّت بيديه تدبان بين يديها بحرارة، واستحواذ. قالت مطمئنة:

ـ قم.. أرك..

جذبته من يده مرة أخرى، وأدخلته غرفة ثانية مليئة باللوحات القديمة.

ـ ألا تراها؟

وبدأت تشرح له كل شيء.

● كانت في بيت والد خليل القديم بئر قديمة محاطة بطوفة طينية على ارتفاع متر، لا يستقي منها الماء إلا نادراً. ولكن قفاف الرقي وقلل الماء وسلالاً أخرى كانت تدلى عميقاً فيها في فصل الصيف لتبرد. وكم كان خليل في طفولته يحب أن يشب على أطراف أصابعه، ويدلي رأسه من الطوفة، وينظر هناك في الأعماق القصوى السوداء، حيث يرى لمعان ضوء جميل ومغر، أشبه بالدرر التي كانت جدته تحدثه عنها. وكان خليل يحب هذا اللمعان، ويتأمل فيه، إذا كان ساكناً وديعاً، أو رفّ تلك الرفة الخفيفة الناعمة حتى ليتصور أنه يقترب منه، ويكاد يلمسه. وفي أحيان أخرى كان يبدو بعيداً بعيداً كنجوم السماء يستحيل أن يصل إليه إنسان، وإذا وصل غرق فيه، ومات هناك في الأعماق القصوى. وكان هذا اللمعان يتكسر أحياناً أو يرتج فيرتعب الطفل خليل ارتعاباً شديداً، ويحس بالرجفة تسري في جسده. فقد كان عقله الصغير يتصور أن أفاعي عبرت الماء من جانب إلى آخر، ومزقت صفو الماء الأسود الوديع. وفي كل الأحوال كان ذلك الضوء العميق الغامض بعيد المنال لخليل، ساحراً مسحوراً، لا يمكن أن يلتقط، ولا حتى أن تمسه يد، ويظل هناك في الأعماق يجذب الأطفال بلغزه المحير.

مثل هذا الضوء كانت تبدو له اللمعة العجيبة في عيني شذر السوداوين، عميقة ومؤثرة، غامضة وحبيبة إلى القلب، مفرحة وشجية، قريبة وبعيدة المنال، أليفة وموحشة، وديعة مكشوفة وصاخبة ملتفة بالأسرار. وكانت الصورة قد بدأت تتكون لديه. صار يستخدم الألوان وأحياناً بضربات جسور حارة حرارة غيظ مكظوم. وكان يحس بالتوهج يلهب جسده، في تلك الصالة المبردة على أحسن نظام التبريد، والتي أضحت خالية من كل النعم والخيرات المستجدة. اختفت الطنافس، والمزهريات والبيانو ذو الخشب الأبيض، وصارت رحبة بسيطة مغمورة بشمس مترِبة، وخضرة مرفرفة، فتبدو وكأنها تجاور بستاناً. وقد صارت شذر نفسها في مزاج مختلف. تجلس مطمئنة مسيطرة على نفسها برصانة مكتسبة، وعلى وجهها غالباً ما ترف تلك الوسامة السمراء، وتتقوّس شفتها العليا على شفتها السفلى في ابتسامة طبيعية، وفي عينيها السوداوين ذلك البريق البشريّ الذي لا يطال.

فجأة كفَّ خليل عن الرسم، وراح يحتوي عمق العينين بخياله، يتلذّذ بتلك الرهبة السوداء الباردة التي تمتلك النفس عند دخولها حرماً مقدساً، وتخشع ذلك الخشوع اللاإرادي الذي لا ينبع من العقيدة وحدها، بل من غموض المجهول وجاذبيته، من ترك الارادة تحت سلطة إرادة أعظم آملاً في شيء جديد، أخاذ، مانح للسكينة. وقال لنفسه جائعاً إلى شيء

من هـذه السكينة: ولمـاذا لا أترك نفسي تستحم في تلك البئـر المطلسمـة المشعـة في خيـالي، وأتلذذ بشظايا الألق تتكسر على جسدي الرخو مثل إبر ناعمة؟ لماذا لا أغفو عنـد حافـة ذلك النبع المحفور عميقاً في ذاكرتي؟ أوه - ورفع خليل ذراعه إلى فوق معترضاً وكأنه أمـام محكمة - لماذا على الفنانين أن يقتنصوا شرائد الالهام، ويحبسوها في أقفاص اللون والضوء والظل؟ لمـاذا لا يستمتعون بلحظات الشعور في الشيء الموجود أمامهم وينغمرون فيه؟ أهم أنانيون إلى هذا الحـد؟ أم تجاريـون إلى حد الابتـذال؟ يحاولـون أن يحولـوا لحظات إلهـامهم إلى شيء منقوش ليكون فرحة للآخرين؟ بدلاً من أن يكون سراً بينهم وبـين ما يلتقـطونه، ويكتشفـونه، بينـما الآخـرون يعجـزون عن رؤيتـه؟ مـاذا يـرى عبـاس ونـداس في سحـر ابنتــه هـذا أكـثر من شيء يثبت به أبوته البارة، وفاءه الفارغ لزوجته التي لم يتورع أن يتزوج عليها بعد سنتـين من وفاتها؟ أوه!

وسكتت الأفكار في ذهن خليل، وترك الفرشاة جانباً، وقال: ربما هذه النهاية. خـداع النفس. أمامي طبيعة حيـة وأعجز عن أن أصنـع باللون مـا أحس به يمـلأ كياني. لا، لست رساماً، ولا حتى ناقل صور.. أنا مجرد مسحور.. والسحر أخو العجز.. آوه، ثرثرة...

وسمع نفسه يصرخ بهذه الكلمة في الحجرة المتربة المبعثرة المحتويات، راح وجاء ماسكاً الفرشاة المدماة بالصبغ كالخنجر، متعثراً، مقهوراً، ظمآن، سئما، مستعداً لكل الاحتمالات، قعد على الكرسي وارتخى، ووقعت الفرشاة على الأرض. هذا أنا خائر مثـل محكوم بـالإعدام ينتظر ساعة التنفيذ. حاضر.. سأغمض عيني. تفضل، أخي.. أنا مستعد..

- حسنة، حسنة..

نادى من مكانـه بعد هـذه المرافعـة المحرقـة. شعر بـالظمـأ المجفف للبلعوم والقصبـات والمعدة والاحشاء..

- حسنة...

عاد ينادي. ولم تأت حسنة. نهض. رآها قابعة في ركن المطبخ كالبسكوتة.

- حسنة، ما سمعتني؟

نظرت إليه عيناها المدورتان المذعورتان. الوجه جامد كالقناع.

- سمعت؟ قولي: ما سمعت؟

- سمعتك.

- وليش ما رددت؟

- قلت لي: لا تدخلي المرسم..

- ها...

وأحس بأنه مغلوب. تذكر أنه طردها حين وجدها ذات مرة في المرسم تقلب الرسوم. لطمها على وجهها وصرخ: اكسر رجلك إذا دخلت المرسم مرة ثانية، بغيابي وحتى بحضوري..

- روحي، روحي؟

- وين؟

- إلى خضير. اسأليه عنده بيرة؟

امتثلت له خادمة مطيعة. لبست عباءتها، وغادرت تخفق بنعالها البلاستيك. قال خليل لنفسه: حسنة القروية لابسة نعال بلاستيك، عال العال. هذه الطاولة الفارغة من البلاستيك، والسطل من البلاستيك، والفرش من البلاستيك، والأقداح والمواعين، والألوان، والرسامون.. يعيش، عصر البلاستيك.. طيب، ليش ما ارسم صورة بلاستيكية وأسلمها لعباس. خذ الصورة وافرح بها. مرسومة بألوان بلاستيكية زاهية براقة. جلس على المقعد عند الطاولة البلاستيكية؛ وضربها بجمع يده وكأنه عثر على لقطة. صحيح، لماذا لا أفعل ذلك؟ أبريء ذمتي، وأخلص من شلعان القلب... أرسم صورة ناقصة ولكنها غير مزورة على الأقل، وأعطيها لعباس: تفضل، عزيزي، هاك الصورة، تسلم... ضعها في الصالون. طبعاً زوجتك لا تقبل أن تضعها في حجرة النوم لتكون شاهدة على خيانة سابقة، ولا ترضى أنت أن تضعها في حجرة شذر، لأن ذلك سيطمر أفضالك، ولا يذيعها بين الناس. ستضعها في الصالون. يا ناس، تعالوا، شوفوا، كم أنا وفيٌّ للمرحومة زوجتي، رسمت صورة بالألوان لابنتها، وكلَّفتني الصورة خمسين ديناراً دفعتها على دفعتين.. هذا إذا قبل بأن يدفع لي الدفعة الثانية.. عشرين ديناراً، أبر بوعده، ويبريء ذمته مثلي، وتنتهي القصة، ولا أعود أرى شذر حتى في أحلامي، لا البئر ولا الدلو ولا الخيط.. ولا أعود أغرق في القمر المنهمر من عينيها. لا أعود أرى طاق شفتها العليا، واللآلىء الصغيرة تكوِّن بسمة استنكار وسخرية من وقوفها طائعة أمام رسام فاشل. لا أعود أرى قوامها الأهيف مثل سنبلة حنطة، لا أعود أرى العنق المطوق بطوق من القرنفل العاجي، لا أعود أرى... ماذا.. أوه، لعين..

صرخ بأعلى صوته، رافعاً ذراعه مباعداً بين أصابع يده، ضاماً رأسه بين كتفيه، رافساً الأرض بقدميه، متكوراً، أضحوكة لا تناسب سنّة التي تناهز الخمسين، زمن الاعترافات. الاعتراف بأي شيء؟ بالعجز، يا حقير..

جاءت حسنة فارغة اليدين.

- ماكو..

ـ حقيرة. .

صاح بها، ولطم على جبينه، ودخل في سبت طويل لم يفق منه إلا حين طرق الشيخ عليه الباب، وصاح:

ـ على الأقل لو تشعلوا الضوا. . راح يظن مصباح الشارع منطفىء إلى يوم القيامة. .

تنبه الرسام لمقدمه، وصاح عليه:

ـ اليوم أنا الذي سأعترف لك. . اعتراف. .

وضحك. ضحكة المجانين. . .

● ولكن الشيخ خرج من بيته غير مرتاح تماماً، بل كالهارب. كان يريد أن يسرد عليه جانباً آخر من ذكرياته، ولكنه استمع إلى كلام غير مربوط، ولم يعرف هل يجاريه في ضحكه، أم يصفن، ويتأمل حالة جاره الغريبة. . وأخيراً. توكَّل على الله ونهض. . قائلاً:

ـ أنت اليوم مغثوث، اسم الله عليك.

وعاد الشيخ يتدحرج إلى شارع بيته، غارقاً في وساوسه، حتى كادت إحدى السيارات تدحسه. لم يفق على نفسه إلا حين رأى سيارة مجنونة فرملت على خطوات منه. ولم يرد الاستماع إلى الشتائم منطلقة من فم السائق، واكتفى بأن قال: الله يرضى عليك، الله يسامحك. وعبر شارع مأمون وصار بوسعه أن يعود إلى أفكاره التي قمعها جاره خليل. لخمه على فمه، أو اغتصبه، تحدث عن امرأة أو فتاة لا يعرفها، عيونها بثروية، وشفتها طاق كسرى، وبشرتها حنطاوية. من هذه يا ترى؟ لا هي شروق ولا هي سهام، ولا حتى حسنة التي كان يغار عليها ويجعلها تلازم المطبخ، حين يأتي لزيارته. وفجأة صرخ به:

ـ مذكرات، يا شيخنا، تقول مذكرات؟. ومن نحن لنكتب مذكراتنا؟ نحن ناس مهملون من الله والتاريخ، والبشر، وكل دابة تدب على الأرض. . من أنت لتكتب مذكراتك؟ مجرد شيخ تسعى للحصول على التقاعد، ولا أقول شيئاً آخر.

لخمه. سكت على مضض، سحب ذراعه المبسوطة على سطح الطاولة، وأرخى رأسه على صدره. بينما راح الرسام يصيح كالمجنون: قل لي: من نحن؟ جراد؟ الجراد الذي كنت تأكله في طفولتك نافع للمعدة على الأقل. . ونحن ماذا نفعنا؟ لا شيء! عاجزون، عاجزون على الإتيان بشيء نافع.

ونهض كالملهوف، ودخل المطبخ. فانتهز الشيخ الفرصة ونهض واقفاً، ولما جاء خليل، وقال: هاي وين؟ كلامي غثك؟ قال باقتضاب أودعناك، أنت اليوم مغثوث.

وهو الآن يسير أسيان مقهوراً إلى بيته. استقبلته زوجته.

ـ رجعت بالعجل.

ـ رجعت، جاري ماله خلق.. ردت أنسحق..

ـ اسم الله عليك، وتخلينا يتامى؟

جلس نعمة السيد جاسم مخطوفاً على التخت الخشبي المحلى بمفرش أزرق قاتم له ورود بيض. وكانت رائحة الرز المبلول حديثاً بالدهن الحر المحروق تدفعه إلى الاسترخاء. سألته زوجته: أصب العشا؟ طلب الشيخ مهلة ليسترد أنفاسه من.. الهبطة. ولكن أولاده الثلاثة لم يتركوه يفعل. أحاطه اثنان منهم من يمين وشمال. وقعد الثالث على الأرض بين ساقيه القصيرتين.

ـ اتركوني..

ـ صار لنا ساعتين ننتظرك..

ـ نص ساعة ما طولت.. خبنها خليل..

قال الكبير:

ـ وأنت اخبنا ياها..

ـ عندكم شغل عندي؟

صاح الثلاثة:

ـ اي..

ـ خير إن شاء الله؟

ـ نريد تشتري لنا بناطيل..

ـ بناطيل.. لحقت تتقطع بناطيلكم اللي اشتريتها ذاك اليوم؟

ـ ذلك اليوم!.. من بدأت المدرسة.

ـ ويعني؟.

ـ وراح تخلص المدرسة..

ـ اشتري لكم دشاديش بالصيف على العطلة. الله كريم. تعرفون أبوكم كان يشتغل عامل بناء في العطلة الصيفية ينقل سلال الجص والحصو إلى الطابق الثاني على خشبة بعرض الكف؟

ـ وتريدنا نشتغل عمالة؟

ـ لا، بس تعرفون؟

ـ هسه عرفنه.

ـ ومرة ضاع في نهاية الشغل، وطاردته الكلاب المنحوسة، ومزقت دشداشته الوحيدة، وظل يقحف طول المساء، لأنه تاه وضاع عليه الطريق.

ـ وبعدين ضاع للتالي؟.

ـ لا، رحمه سائق شريف، وأوصله إلى الباب الشرقي..

ـ الحمد لله على سلامته.

ـ الله يسلمكم له.. مع أن أباه كان يدخل سراي القائم مقام.. كان يكرك.. مو مثل أبيكم الحافي...

ـ أنت هم تكرك.. موظف..

ـ موظف عابت ذيج الوظيفة.. آه..

ـ لا تتحسر.. فدوة لروحك

قالت زوجته مشفقة، وهي تجلس على الأرض:

ـ على كل حال، هذه ليست حسرة على حالي.. هذه.. أعوذ بالله..

ـ العشا راح يبرد..

ـ أبوكم كان بالملا دائماً يأخذ «عفارم»

ـ يعني كم؟

ـ ماكو درجة أكبر من «عفارم».. كان يمشق على لوح تنك.. يغمس القصبة بحبر يشبه الكبلى ويمشق ويحصل على «عفارم» ورا «عفارم».

ـ وكان أبوه يساعده؟

ـ أي نعم، يشتري لك طبطاكية.. هذا كل ما كان يحصله أبوكم.

قال كبيرهم:

ـ يعني، شنو نمسح بوزنا؟ ماراح تشتري لنا؟

أشفق على أولاده، وابتسم ابتسامة دسمة:

ـ لا، أمكم تأخذكم يوم الجمعة إلى سوق الجوه، وتشتري لكم أربعة أذرع خمسة وتفصلها عند أم جبار.

ـ والأحذية، يابا؟

ـ والأحذية أيضاً، خذوها من ها العين وها العين.. بعد شتريدون؟

وضج الأطفال وصفقوا..

● أمسى رائد كسير الخاطر، منذ أن أخذ شهاب يتثاقل عنه، ولا يأخذه معه في أمسياته. بل ولا يبادله إلا كلمات مهمهمة متقطعة، ويقطب جبينه، ولا يكترث لما يقوله. بينما كان رائد معبأ الصدر بالأشجان يريد أن يبثها لإنسان. وكان يعتبر شهاب الشخص الوحيد الذي يمكن أن يعطيه ربع أُذنه. كان رائد يعرف أن شهاب ليس على علاقة جيدة مع المدير الجديد، فكان كمن يمر بأزمة مكتومة، وكان رائد يحس بالوحشة والاهانة، لأن شهاب لا يأتمنه على شيء من أسراره، ولا يبوح له بشيء منها. وحتى حين يتأفف شهاب، ويسأله رائد عن سبب تأففه كان شهاب يكتفي بالقول: «ما علينا. ليس للموظف غير الأمانة في العمل» فترنُّ الجملة وكأنها إدانة لرائد، وتأنيب على تقصير حاصل من جانبه. ربما كان يعرف ببعض مشاويره وغياباته إلى كلية الآداب؟ ولكن رائد كان ينتهز لحظة صفاء ليتلو على شهاب بعض سطور قصة حبه المكلوم.

دخل رائد مكتبه فوجد عطا يعبث بأصابعه الفارغة فقال له وهو حانق من فشل آخر لاستدراج شهاب:

ـ اتركها. ستجد الوقت الكافي للعب بها وبأشياء غيرها.

ولم يستطع رائد أن يلتقط نظرة عطا، فقد كان هذا يدير وجهه إلى الجهة المعاكسة دائماً، وربما أفكاره أيضاً. أحب رائد أن يعرف بِمَ يفكر عطا في هذه اللحظة. سأله فبسط عطا كفيه على المنضدة، ولزلزلت عيناه، ولم يقل شيئاً.

اعتاظ رائد:

ـ ربما تفكر في المنارة هناك؟ خازوق كريم يصبحك ويمسيك.

ولكن رائد لم يستدر منه كلمة واحدة. حنق عليه ثم عاد فأشفق. كان يشعر بالكبت أيضاً، وبالقهر المجاني غير المبرر بسبب معقول. خطر في باله أن يناجي عطا برقة عفوية:

ـ طيب، يا عزيزي عطا، دعنا نتبادل حديثاً ودياً.

نقل عطا كفيه من محل إلى آخر، وخطف بصره نحوه، ثم استرده برمشة عين.

ـ ها، الا تريد؟

لوى عطا رقبته.

ـ أجبني بكلمة بشرية.. ألا تريد؟

بعد تعسّر شديد لفظ من فمه فقاعة هوائية:

ـ تفضل.

ـ طيب، يا عزيزي عطا، ماذا يشغل فكرك الآن؟

بسط عطا كفيه من وراء الكرسي، حيث وضع مرفقيه. وبدت كفاه البيضاوان حمامتين مسلوختين دسمتين.

ـ يعني لا يشغل فكرك شيء؟

سكت عطا. تنحنح رائد، وانتفخت أوداجه:

ـ طيب، لأسألك إذن: هل تأكدت أين تذهب شروق كل مساء؟

وتّر عطا كفه فجأة، وجعلها مثل حد الطبر الكليل، وقال بحدة قاطعة:

ـ يكفي!

ـ يعني تعرف!

هزّ رأسه بدراية. فألح رائد:

ـ طيب، إلى أين؟

ـ إلى جهنم، هذا يخصّني.

بذل عطا جهداً كبيراً ليقول ذلك. اختلطت خارطة وجهه، ورفّ جفنه كالفراشة المحاصرة، وبدا متهالكاً لنفسه:

ـ رائع، يا عطا، رائع.

ود رائد لو يصافحه مندهشاً معجباً، وكأن عطا الكئيب قال نكتة مفرحة. واسترخى رائد على كرسيه مرتاحاً:

ـ عظيم. عندي سؤال آخر.

في هذه المرة قال عطا رأساً:

ـ تفضل، اسأل.

نظر إليه رائد من تحت جفنين غليظين بلون التراب المتيبس:

ـ سؤال يخص مصلحتنا هذه المرة، ـ تنحنح وعاد إلى وضعه الطبيعي ـ هل لاحظت خللاً في دعايتنا لمنتجات المؤسسة في المدة الأخيرة؟

بسط عطا كفاً واحدة:

ـ لا.

ـ اما أزال أنا أرفد المؤسسة بالأفكار الجذابة لترويج المنتجات الوطنية؟

تساهل عطا، ولم يتردد في أن يقول:
ـ أكيد.
صاح رائد:
ـ طيب، ولماذا رئيس قسمنا مُبوِّز علينا الآن؟
لوى عطا كفه وكأنه يقول: «علمي علمك».
ـ بادلني كلمة واحدة، أرجوك، نفّس عن همي. أريد أحداً أحدثه عن همومي. لماذا شهاب قالبُ خلقته علينا؟
ـ ما أدري.
ـ وربما له أيضاً ما يخصه؟
ـ ليش لا.
ـ يعني لكل إنسان ما يخصه، يحتفظ به وحده، سراً عن الآخرين؟ قل لي، أرجوك، أتوسل إليك، أبوس يدك.
ـ أكيد.
ـ أوه، إذن، أنا غلطان، يا عطا. نعم، بالفعل لكل إنسان شيء يخصه، حتى لك.. الآن فهمت.

وضرب رائد جبهته بجمع يده، وعاد فسرّح جسمه على كرسيه، وغطس فيه. وفي تلك اللحظة انفتح الباب، ودخل شهاب، ولم ير من رائد غير جبهته وشعره. قال:
ـ نائمون؟

انتفض رائد، ووجد صعوبة في إعادة جسمه إلى وضعه الطبيعي. ولم يلحق أن يقول شيئاً. أطبق شهاب الباب مخلفاً في مخيلة رائد قناع وجه مسحوب. قال رائد بصوت مسموع:
ـ سامحك الله، يا عزيزنا شهاب.

ولملم نفسه، وجلس ثابتاً على كرسيه، ووضع رأسه بين يديه المرتفقتين على المنضدة، وقال في سره:

«كأننا لم نسكر معاً، ونمارس الموبقات.. هكذا تنسل وتتركني كذلك الديك الذي علقتموه سكران فوق المائدة.. سامحكم الله، يا جماعة الخير.».

وزفر زفرة طويلة، وأحس بالقهر والجوع. نظر إلى عطا. كان ركيناً متزناً، ممسكاً

بجانبي مكتبه، ويبدو غريباً مستوحشاً يَعدُّ الدقائق ليختـلي بـ «من يخصه». تخـطّى رائد دون أن يسلم، وصفق الباب خلفه.

دخل رائد مقهى يـرتاده في سـاعات الضيق والفـراغ وأعطى صبي المقهى ربـع دينار، طلباً منه أن يشتري له خمسة شياش معلاك. وقال:

ـ والبقية لك. .

فسمع صوت الصبي المخشوشن، فلا بد أن يكون في سن البلوغ.

ـ يا بقية؟ راح تظل بقية؟

ـ تعال خذ.

ومد رائد يده، وأخرج درهماً. وجلس ينتظر «المعلاك». معدته تقرقر، وكأنهـا تبيت له شيئـاً مشيناً. لا بـأس. قال لنفسـه. ظلّت على هـاي؟! رأسه حجـارة. والدنيـا تبدو كـالحة ضيقة، بغداد أُختزلت إلى الشوارع القليلة التي يستخـدمها في مسـاره اليومي. وبعـد انقطاع شهاب عنه ستتقلص أكثر، وستصير كريهة كالمدينة التي خلفها في الشمال. . أوه، لا يريـد أن يتذكر. وأخذ ينتظر محاولاً أن يفرغ رأسه الكبير من أيـة فكرة، من أي هـاجس غير هـاجس الأكـل. . وماذا يبقى للإنسـان، إذا اخـتزلت عواطفـه، وجمّـدت أفكـاره؟ لا. الأفكـار هي الوحيدة الحية فيّ، تسرح حيث تشاء. خيـال، مشاريـع. ما شـاء الله، جاء الأكـل بسرعة. جاء الصبي بصمونة ملفوفة بقطعة جريدة أوسخ من يده الوسخة. تقبلها مجبراً. فتح شقهـا، فوجد قطعاً نحيلة من الكبدة المتجمدة متناثرة كالخنافس القهوائية بين قطع البصل والخضرة.

ـ هذي خمسة شياش؟

ـ رح اسأله. .

عض الصمونة من جانبها المدبب، لأن المعدة عند الجوع تقنع بأي شيء يملأ فراغهـا، ولكن اللقمـة ظلت تتقلب بين أضراسـه، بدون لعـاب، حتى استعـان بجـرعـة من البيبسي وقضم منتصف الصمونة المنتفخ بالخضرة والبصل اليابس لاسترضاء معدته ودرّ لعـابه، ولكن أسنانه تعصّت بالخبز الجاف، وغصّ حين رأى شخصاً يدخل المقهى في مشية سريعـة مألـوفة له. بحلق رائد حائراً. وقفت بقايا اللقمة الأولى في بلعومه. ولم يعرف رائـد كيف يتصرف، هل يغوص في صمونته أم يحدق في القادم حتى يفطن إليه، ويتهيأ لما يسفر عنه الموقف المحرج لكليهما. ولم يفعل رائد هذا ولا ذاك، لأنه شهق، ثم راح يتفوق فواقاً قصيراً متتابعـاً. وحين رفـع عينيه رأى الـرجل قـد جلس قبالتـه في الجانب الآخـر من المقهى. التقت العيـون لقـاء أبيض باهتاً بارداً، كأنه تريّثُ لا بـد منه للحَم طَـرَفِ خيط مقطوع. ولكن الفـواق تصاعـد قبيحاً ناشزاً يعلن عن حراجة الموقف. وتنبه الرجل، وقال من مكانه:

ـ صحة وعافية.

رد رائد بنودة من رأسه، وتوقف فواقه من تلك الجملة المرجّة للأعصاب. وشعر رائد بفراغ خفيف في صدره، وقدرة على التحرك، حتى أنه نهض من كرسيه، وتقدم من الرجل ونهض هذا، ومد له يده الطويلة الهزيلة الأصابع. صافحه رائد ببرود المتشككين، وقال جملته العتيقة:

ـ ألا تستنكف؟

ـ استنكف؟ مم؟

ـ لا، ـ وابتسم رائد مولياً رأسه إلى الأرض، ـ ليس مما كان الناس يستنكفون من مصافحة أبي في الماضي، ولكن لسبب يخصني.

هزّ الرجل رأسه، وقال:

ـ اجلس، اجلس، تفضل.

جلس رائد إلى جانب الرجل المنحول الوجه، وإن كانت عليه وضاحة الشمال وصفاؤه. سأل رائد بادئاً بحديث جديد:

ـ متى القدوم؟

ـ قبل أيام قليلة.

سكت رائد ليزن السؤال الآخر الذي سيوجه له:

ـ وكيف الأحوال هناك؟

ـ بخير، كما هي دائماً.

انكمش رائد من هذا التفاؤل القديم المبالغ فيه. ونظر إلى محدثه. فرأى الشحوب الصافي والعينين اللائبتين المتوفزتين مثل عيني حيوان دائم البحث عن مهرب، والشفتين الشاحبتين يزيد من ذبولها اصفرار الأسنان النيكوتيني، والأنف المتسلط المطمئن بموقعه، يبصبص ويتشمم، كما كان من قبل. وكأنما لم يفترقا تلك الأعوام.

ـ وأنت كيف أحوالك؟

ـ لا بأس. آكل لقمتي. بالمناسبة دعني آخذ لقمتي، صمونتي من هناك، واجلس معك، إذا لم يكن لديك مانع.

ضحك الرجل بدل الرد. وثب رائد ليتناول صمونته. وعاد بها منكمشة معضوضة كأنما أكلتها أسنان فئران جائعة. قال رائد:

ـ تفضل، نقتسم الصمونة.

ـ شكراً، تغذيت قبل نصف ساعة. كُلْ بالعافية.

دفع رائد الصمونة عنه، وقال:

ـ لم تعد لديّ شهية.

ـ آسف، إذا كنت قد قطعت عليك شهيتك.

ـ لا حاجة للأسف على شيء حدث وانتهى.

ـ هكذا؟

قوة غامضة دفعت رائد لأن يقول:

ـ أي نعم. إذا وقع شيء لا حاجة إلى الأسف عليه.

ـ يعني لا شيء يؤسف عليه؟

ـ لا شيء على الإطلاق، مادام العمر نفسه يمضي غير مأسوف عليه.

نظر الرجل إليه بعينين حزينتين آسفتين، وكأنهما تنظران إلى طفل مشاكس. كانت شفتاه الغاضبتان قد تلوّتا كقطعتين من الصفيح بفعل التهاب غير منظور. ندم رائد على تسرعه. يبدو أنه فتح باب المعركة قبل الأوان. وآذاه الصمت الذي أعقب ذلك، وكان يود لو يصلحه بأي شيء، فقال مجازفاً:

ـ ما رأيك لو نغادر المقهى. هل عندك مانع؟

ـ مانع عبد القادر. تفضل.

بعد الخروج من المقهى قال رائد:

ـ ما رأيك لو نذهب.. ـ ولكنه توقف قائلاً لنفسه: لن أدلّه على حجرتي. مجازفة غير مأمونة فاستدرك يقول ـ أظن ذلك سيكون بعيداً عليك، وربما لا تقبل. تعال نجلس في بار شعبي، ما رأيك؟ آه، أنت لا تجلس في البارات. طيب، ما رأيك...

قاطعه الرجل:

ـ تعال نذهب إلى بيت نسيبي؟ هل يناسبك ذلك؟ سأعرفك على زوجتي.. بتول بنت ذو النون، من محلتنا.. تعرفها..

ومرّت سيارة تكسي، وتريثت حين رأت رجلين ينتظران على الرصيف. الذهول الذي أصاب رائد جعله يسكت، ويسترخي. توقفت السيارة كلياً. بدأ الرجل يتكلم مع السائق. ورائد ما يزال صامتاً غارقاً في ارتباكه وذهوله. صعدا السيارة، وهو على عقدة لسانه، ولم يستقم الحديث في السيارة لأن كلا الرجلين كان يحذر الحديث من وجهة نظره الخاصة. ونفعت فترة الصمت المفروضة، فاسترد رائد توازنه. وأعاد ترتيب أفكاره. وبدأ يراجع الوضع في ذهنه. زين. نحن ذاهبان إلى بيت أخت هاشم التي كانت قد تزوجت من تاجر

بغدادي، وسيجد هناك.. آه... بتول بنت ذو النـون.. أوه، صارت الآن زوجـة هاشم، هاديه السابق إلى الطريق الصحيح.. وعليه الآن أن يتماسك ويشد أعصابه ليحتمل رعصات الماضي في أعصابه.. ماذا يقـول هاشم الآن عني في ذهنـه؟. ضاع تعب المـاضي وخلع رائد جلده، ولبس جلد نمس.. كـلام من هذا القبيـل حتـماً. وعليـه أن يتجلّد، ولا يـدع مـا في داخله يطفو على السطح.. انفجارات الأعصاب تـدمّر صـاحبها قبـل أن تدمـر الآخرين.. خرج الآخرون عن طريق.. بتول وهاشم وغيرهمـا.. أم أنا الـذي خرجت؟ لا فـرق. ماذا عليّ أن أقول له الآن.. دعني أجرب:

ـ هذه آخر هبة ريح من الصحراء..

قال السياسي الحذر:

ـ لا أحد يحزر الجو الآن.

ـ صحيح، عمي، والله العظيم..

قال السائق، فشتمه رائد في سره: قواد، تريد تورّطنا؟ صحيح، هنـاك حريـة، ولكن الجو يحتمل معاني كصيرة. قال السياسي الحذر:

ـ تعلمنا على الغبار، فلا يزعجنا.

ـ صحيح ـ وجد رائد نفسه يقول ـ لأن الانسان يتعلم عـلى السيئات أيضـاً. التدخـين والشرب، أليسا من السيئات؟ والقلائل اليوم لا يدخنون ولا يشربون.

فترة صمت. كل واحد يتابع أفكاره في ذهنـه. ستقول أنت، يـا هاشم، والتخـلي عن المبادىء، أليس عادة سيئة؟ نعم، ولكن ليست أسوأ العادات، النفاق، مثلاً.

ـ أرجوك، برأس الشارع.

مـدَّ كلاهمـا يده بـالأجرة. تنـاول السائق الفلوس من أقـرب يد ممتـدة إليه. ولم يـطل سيرهما. والشارع مظلم، ولا خوف. دخلا حديقة صغيرة. وعلى نافذة أمامية عـريضة فتحـة «ايركونديشن». استقبلتهما عند باب البيت فتاة فيها وضاءة الشمال، ونقاؤه.

ـ سلّمي على عمك.. من ولايتك..

دخلا حجرة مربعة مشرقة الأنوار. أجلسه فيها على أريكة ناعمة، وقـدّم له سيكـارة من علبة سيكائر خشبية، وقال:

ـ سأنادي على بتول لتسلّم عليك.. مفاجأة بالتأكيد.

وخفق قلب رائد، كما كان يخفق لمرآها في الزمان الغابر، أيام كـان... واهتزت علبـة الكبريت بين يديه، وكادت شعلة عود الثقـاب أن تنطفىء. وفكـر: ماذا ستقـول بتول حـين

تـراني؟ دائماً أراه في بيوت الآخرين؟ هـذه قسمتي، يا. . سمـع صوت هـاشم من الخارج: تعـالي شوفي بمن جئتـك. ـ وبعد لحظات دخـل هـاشم تتبعـه امـرأة تـرفـل في ثـوب منـزلي فضفاض. نهض رائد. سلّمت بتول بنفس لهجتها الناعمة القديمة، ولكن على أخشن:

ـ يا هلا، يا مرحبا.

ـ أهلاً بك.

رفعت إليه عينين حـزينتين زال عنهـما بريق الأمـل والتفاؤل، وحلّت قنـاعة ومهـادنة. قالت:

ـ لو رأيتك في الشارع لما عرفتك.

ـ هذا هو الزمن، يا مولاتي.

وهزّ أوتار حنجرته بضحكة مبتسرة، ولم يشأ أن يقول: وأنا أيضاً. وقال هاشم:

ـ ولكنني عرفته رأساً. . نظرته البراقة.

وضحك هاشم على نكتته البائخة. استدرك رائد:

ـ الجشعة.

ـ يمكن. . كانت لك دائماً هذه النظرة.

ـ نظرة ذئب مفترس. . بفتح الرائد، كما يقولون في الجرائد.

ـ كنت تطبق على الصمونة تفترسها.

ـ لأنني كنت جائعاً. . أنا دائماً جائع في المعنى المتعدد لهذه الكلمة. .

ـ ستهيىء لنا بتول شيئاً نفترسه.

ـ قلت لك كنت. .

رفع هاشم أصبعاً إلى فوق، وقال بصوت احتفالي مرح:

ـ ولكن عندي ما يفتح الشهية. . بتول حضري لنا مزة. .

كان رائد متوتر الأعصاب من تتابع المفاجـآت، ومن انزعـاج غير مـريح، وخيبـة أمل جارحة، فقبل العرض بـابتسامـة صامتـة. وخرج هـاشم وجاء يحمـل صينية عليهـا زجاجـة ويسكي شرب أكثر من نصفها، وأقداح متعددة الحجوم، وفستق.

ـ صدقني، لا أعرف في أي قدح يشربون الويسكي. فاختر بنفسك.

مد رائد يده إلى عنق الزجاجة، وقال:

ـ إذا تـوفرت الـرغبة، فـلا يهم بأي قـدح تشرب. تمامـاً، كالكتـابة أو أي شيء آخـر عموماً.

ضحك هاشم:

- أحسنت. بالمناسبة أنا أقرأ كتاباتك من حين لآخر.

كان رائد منشغلاً بإعداد كأسه، فقال وهو يتلهى به:

- وتشتمني؟
- أشتمك؟ ولماذا؟
- ستقول ما تقوله عن ذلك... الضال.

ودفع الكأس إلى فمه بسرعة، وشرب جرعة كبيرة متهيّئاً لاستقبال الجواب. ولكن هاشم قال بثقته الجارحة لعموميتها:

- الضلال والهوى مسألة أخلاقية، ونحن لسنا حكماء على كل حال.
- هكذا.. وليست فكرية؟
- لا. الناس هذه الأيام تبرر كل شيء فكرياً.. والأفكار تتصارع ولا يجوز كبتها.. تبقى فقط المسألة الخلقية.

كزّ رائد على أسنانه، وقال في انزعاج متفجّر:

- وهل قوّدت لتتهمني فكرياً؟ هل نافقت؟ هل بررت الدعارة الفكرية؟ ماذا فعلت؟

قال هاشم متراجعاً:

- لا، العفو. أنت ما تزال كما كنت: تحول الموضوع إلى نفسك. أنا أتحدث بشكل عام. لم أطرح قضية بعينها.

زمجر رائد يريد أن يخلص إلى شيء مريح:

- وأنا لا تعجبني العموميات.. أريد ما يخص نفسي.. حالة معينة محدودة.

قابله هاشم بفظاظة:

- وتريدني أن أعطيك براءة ذمة؟ هذا ليس شغلي.
- لست بحاجة إلى براءة ذمة.. ذمتي في داخلي، قناعتي الخاصة، راحة ضميري..
- إذن، ماذا تريد مني؟
- لا أريد شيئاً إطلاقاً.

- طيب، لنحوّل الموضوع.. لنشرب نخب راحة الضمير..

ولم يعرف رائد لماذا انزعج من هذا النخب أيضاً، واعتبره مساساً بضميره. فتريث ولم يرفع كأسه إلا بعد أن أحس بأن سكوته يعني عدم الثقة بضميره. ومن خلال كأسه رأى وجه هاشم القناع الذي كم يود لو يمزقه ليعرف ما تحته.. وقال لنفسه: أنا أعرف هؤلاء.. لا يقولون ما في قلوبهم.

يجاملونك بجمل فضفاضة، ويخفون آراءهم الخاصة بك للحظة المناسبة لهم لا لك. .

بدأت عصارات المعدة تتدفق، وشعر رائد بالخواء، بمغص خفيف مثير للأعصاب. التهم بعض حبات الحمص والحب المملح، بعد جرعة لإسكات عواء المعدة، حتى تشجع وقال:

ـ الإنسان لا يشرب نخب ما هو موجود، بل يشرب نخب ما يأمل أن يجده.

ـ طيب، لنشرب نخب الراحة عموماً، راحة الضمير والجسد، لأن التعب ظاهر عليك.

رمقه رائد بنظرة فاحصة.

ـ وأنت، ألا تتعب؟

ـ أنا لم أعرف الراحة لأعرف ما هو التعب. والشاعر يقول «وبضدها تتميز الأشياء».

ـ لطيف، تقدَّم. ولكن الانسان ليس حجارة. إنه كائن حي، قلب، أعصاب، دماغ، وكلها في وقت من الأوقات تستجدي الراحة. . على العموم، أظنك تبالغ في تصوير نفسك شهيداً رغم أنفه.

ضحك هاشم ضحكاً طلقاً وكأنما سمع نكتة موفقة، وشرب بعض القطرات من كأسه، وقال:

ـ هذه صراحة من أخ لأخيه. . أحسنت. .

رفع رائد رأسه بتحد وقال:

ـ طيب، بعرضك. ألم تأخذني إلى بيتك لتسمع مني شيئاً تستفيد منه؟

ـ أنا؟ ماذا أستفيد منك؟

انزعج رائد من هذا الاستصغار. وقال مثابراً:

ـ على الأقل لتعرف مَنْ أنا بعد هذه الغيبة الطويلة والشائعات الكثيرة، وكلها لا بد تصل إلى أنني صرت عميلاً.

سحب هاشم نفسه، وبان الجد عليه والتظاهر بالبراءة:

ـ لم يكن هذا في بالي، صدقني.

ـ طيب، كان في بالي هذا. . سأقول لك من أنا. بالمناسبة أنا تركت الحزب، وهو في انتعاش، فوق النخل فوق. يعني لا يمكن أن أتهم بالتخاذل أو الانتهازية.

هز هاشم رأسه مبدياً أسفاً مسرحيّاً، وقال ماطاً شفتيه باحتقار لأفكار المقابل:

ـ سندخل في نقاش بيزنطي (لاحظ رائد أن هذه الكلمة جديدة على هاشم، من مفردات النشاط العلني ربما). أنا لم آت بك إلى هنا لأحاسبك أو تحاسبني. . جئت بك إلى هنا لنتذكر الماضي، نتذكر مدينتنا، أحبابنا. على الأقل لو سألتني كيف الأهل، كيف الأصدقاء؟ هل نسيت كل ذلك؟

لطمه هاشم بهذا السؤال لطمة ظالمة التهبت إحساساً دفيناً في نفسه، فأحب أن يستثيره مثلما استثاره:

ـ أنا أعرف أنك تريد أن تهيج أشجني بهذه الذكريات، ولك غرض مبيّت ومقصود. تريد أن تعيدني إلى طفولتي التعيسة، لتقول بعد ذلك: تذكر وضعك الطبقي، أصبحت ضالعاً مع البرجوازية الصغيرة. أهذا ما أردت أن تصل إليه؟ سأسحب البساط من قدميك، وأعلن نفسي على الأثير. قبل شهر جاءت أختي وقصَّت لي كل شيء. أبي توفي، ودفن في مقبرة المسلمين أخيراً إشفاقاً عليه ومكرمة منهم. وأختي تزوجت من رجل تزوج قبلها، وأخي الأكبر موفق كما هو دائماً، لأنه بريء من السياسة ويشتم كل السياسيين على وجه الأرض. . مذا تريد أكثر؟

وشرب رائد جرعة كبيرة، وتابع الحديث مع نفسه: وبتول بنت ذو النون اختارتك، ولم تقبل بي، لأن عائلتك «أنظف» وأباك يشرب الشاي في المقهى من أقداح الآخرين. أنا أعرف التاريخ فلا تحاول أن تكرره على مسمعي.

ضحك هاشم ضحكة هزّت كتفيه، وقفصه الصدري، وقال:

ـ من أين آتيك تحولني إلى الوجهة التي تحب أن تدخل منها. طيب، دع الحديث يجري على هواه. وعلى كل حال، لا بد أنك قد جعت الآن، ولا بد أن تكون بتول قد هيأت لنا شيئاً يقينا من القرحة، لأن الشرب على معدة خاوية. . .

ونهض، ولم يكمل جملته. ولم يكن رائد بحاجة إلى إكمالها.

● كان المدير العام يلاحظ أن عصام يتغير بين يديه من يوم إلى يوم، ويتحول إلى شخص آخر. لم يعد ذلك الشاب الخجول الوديع الكاظم للغيظ الذي زاره في المستشفى واكتسى وجهه حمرة الارتباك حين امتدح أمامه الممرضة وصال. الآن يبدو جسوراً معتزاً بنفسه. يستخدم العطور بشكل يلفت النظر ويتأنق أناقة مفرطة كالعاشق المستجد، فلا بد أنه قطع شوطاً معتبراً في علاقته مع وصال، وصارت له طموحاته. فالشهادة عند الشبان من

أمثاله تعتبر مفتاح النجاح في الحياة يرقون بها إلى علياء السماء، بينما هي لا تختلف عن ذلك الريش الذي كسا به عباس فرناس جسده، لا تعطيهم القدرة على التحليق. وكان يستهوي المدير العام أن يجعل من عصام برهاناً على نظريته في فضل الذكاء الفطري على الذكاء المكتسب بشهادة. كان يترك لعصام أن يتصور أنه سيد الموقف، يملك التأثير في القرار، بينما كان المدير العام يدبر كل شيء قبل أن يصل إلى يدي عصام، وحتى إلى علمه. وكان في الوقت ذاته يغذي في عصام روح الطموح والصعود، ويوقعه في غواية الأشياء الجديدة، ومقتضيات المنصب.

قال له ذات مرة:

ـ هذه السيارة لا تناسبك، يا عصام، غيّرها بأسرع وقت.

ـ ولكنها خدمتني جيداً، قوية كالتراكتور.

ـ يمكن أن تكون قوية كالتراكتور، لأن الروس يمكن أن يصنعوا تراكتورات، بولدوزرات، كولخوزات، ولكن ليس لهم الحس المرهف ليصنعوا أشياء جميلة توفر للانسان أسباب الراحة.

سكت عصام، وتذكر ضيق الممرضة برائحة البنزين القوية في سيارته، الفتاكة بأقوى عطر باريسي وقال:

ـ سأحاول.

ـ لا تقل سأحاول. صمّم. التصميم أساس النجاح. والمعارض مملوءة بالسيارات الجيدة. ربما لا توجد لديك الفلوس الكافية لشراء سيارة. المحاسب سيساعدك. خذ سلفة. السيارة أيضاً من مستلزمات النجاح. والانسان دائماً ينزع إلى الأحسن، والقناعة ليست دائماً كنزاً لا يفنى. وربما تنقلب إلى خداع الانسان لنفسه، فلا تؤدي به إلى نجاح، لأنها تقتل روح المبادرة فيه. ولا أقول روح المغامرة، أعوذ بالله منها. سأتحدث إلى المحاسب ليسهل لك السلفة. هل أنت مطلوب للمحاسبة؟

ـ لا. الحقيقة أنا لا أحب السلفة، لأنها قيد ثقيل.

ـ الصوم أيضاً قيد ثقيل. ولكنه صحّي ومن فرائض الإسلام. أنا يعجبني في الشباب روح التقبّل للحالة الجديدة ومسايرة المستجدات. الجامدون لا ينفعون وسرعان ما يصبحون حجر عثرة، مثل صاحبك شهاب، من اتّكل على الجامدين جمد مثلهم حتى تجرفهم روح التطور.

سكت عصام. كان يتجنب التعريض بشهاب، فقد رسخ في ذهنه أن لشهاب مَنْ

يسنده ويدافع عنه، ويخلصه من كل مشكل. على الأقل لأن لشهاب أباً ليس مثل أبيه القابع في متجره الصغير في سوق الشورجة.

ـ ربما، بالفعل، سأستبدل سيارتي.

ـ تخلص منها، تخلص، وبأقرب وقت. السيارة ليست وسيلة للنقل فقط، بل الجزء المتنقل من بيت الانسان الذي يحرص دائماً على أن يكون مريحاً.

ـ وأخذ عصام يجمع الأوراق التي أتم المدير العام توقيعها، وحين همّ بالانصراف سأله المدير العام:

ـ هل ستجتمعون في لجنة المشتريات اليوم؟

ـ لا، غداً. عضوان خرجا إلى مصانع المؤسسة هذا الصباح.

ـ على كل حال، نُبْ أنت عني. أنا الآن مشغول إلى رأسي. أخوِّلك حق التوقيع على المقاولات التي أعتقد بأنها الأفضل. قم أنت بالتوقيع بدلاً مني.

ـ شكراً على الثقة.

ـ لا شكر على ما هو لازم وضروري. الثقة إذا فقدت بين الرئيس ومرؤوسيه فشل العمل، وعمت الوساوس والظنون. ثم ألست حامل شهادة؟ أليس لك وجهة نظر في الموضوع؟ وقِّع إذن ولكن بعد أن تستشيرني.

ـ عندنا حتى الآن خمس مقاولات.

ـ بعدين، بعدين. لا تشغلني الآن بأشياء جانبية. أمامي الآن خطة المؤسسة للسنتين القادمتين. عمل مرهق ويحتاج إلى تركيز، والحرّ هجم، ويثير الأعصاب. هل تذكر جوّ أوروبا المنتظم كعقل الكترؤني؟

وفكّر عصام طويلاً في مسألة السيارة. ولكن إذا غيّر السيارة، فلا بد أن يغيّر البيت المتواضع الذي يسكنه مع عمته. وارتعب كثيراً من هذه الفكرة. لأن السيارة الجديدة والانتقال من البيت لا بد أن يثيرا شكوك أبيه المرتاب دائماً، الحريص على السمعة حرص الفتاة الشريفة على عفافها. واكتفى في اللحظة الراهنة بتغيير السيارة. اشتراها بألف وخمسمائة دينار. دفع نصف سعرها مقدماً، والبقية أقساطاً، وبكفالة المؤسسة، أو، في الحقيقة بكفالة المنصب الذي يشغله. وصار لا يتطيّر من رائحة البنزين، وراحت العطور الأجنبية تتهادى في الصالون الواسع، حرة وصبيانية تفعم أنف عصام بأنوثة وصال الطاغية. هناك عطور تهدهد الأعصاب مثل مهد، أو كرسي هزاز، وهناك عطور منعشة تغري بالأحلام، وهناك عطور مؤججة تثير الزوابع في أقبية الجسد، وتزرع الحمّى القرمزية في اليافوخ. وكانت وصال

تستخـدم مثل هـذه العطور فتؤجّـج في نفس عصام جـوعاً قـديماً إلى جسـد نظيف يبـدد كل هواجس الإثم والندم بعد مضاجعة عابـرة مشتراة. وكـانت وصال، فـوق كل ذلـك، تختار اللفتة والنظرة الغاوية، والبسمة المبشرة بوعود جميلة، والسلاسة، وعذوبة الاستسلام.

قال عصام لوصال بجرأة دالّة:

ـ سنجعل من السيارة غرفة نوم.

ـ لا، يا أستاذ، لسـت من أولئك. . .

فترة صمت نادم تراجع بعدها عصام بلباقة مكتسبة من أوروبا:

ـ أقصد العطر الذي تستخدمينه يشعرني بأني في غرفة مريحة.

ـ يشعرك. .

قالت بغنج مفضوح، فواصل هجومه:

ـ أشعر بأنني إذا أغمضت عيني شعرت بأنني في فراش دافىء.

ـ لا تغمض عينيك، أرجوك، فنصطدم بشجرة.

ـ أتخيّل.

ـ والتخيّل أيضاً يشغل فكر السائق فيقع في ساقية. .

ـ الساقية التي أقع فيها أنا وأنت مخدع مريح.

ـ ننقل منه إلى مستشفى الطوارىء.

ـ لا يهم بعد ذلك إلى أين ننتقل. فقط أن أتملّكك.

ـ الله!!

ـ لا تقولي: الله. فإن ذلك يثيرني أكثر، فأكاد أترك الـدفة، وأطـوقك، وأشبعـك ضماً وتقبيلاً.

ـ الله يستر.

ـ تصوّري، كم يستطيع جسد الإنسان أن يقاوم؟

ـ ماذا يقاوم؟

ـ الإغراء.

هزّت وصال كتفها، وقالت:

ـ هذا لا يعنيني. . اختصاصي المرضى وليس الأصحّاء.

ـ اعتبريني منذ الآن مريضاً.

ـ ولكنني لا أحب أن أقضي أوقـات فراغي مـع المـرضى. شبعت من المـرضى إلى حـد المرض.

ـ في يديك علاجي.

ـ لا تتصوّر.. علاج بعض الأمراض يعود إلى المرضى أنفسهم.

ـ أي الأمراض؟

ـ مثل المرض الذي تشكو منه.

وضحكت دافعة رأسها إلى فوق، فرأى عصام حنكها، ثم صدرها يطلع كالموجة الوثابة، حتى جعله كل ذلك يفوه بكلمات عارمة متدفقة ولهانة جعلت وصال تقول:

ـ أنت مريض من صدق.

ـ على وشك الهلاك.. يجب أن نلتقي خارج السيارة، إذا كانت غير مأمونة لك..

ـ أين؟

ـ لا أدري، يجب أن نحل الموضوع بطريقة مريحة..

ـ طيب، حلّه..

وفي ذلك اليوم دخل عصام في حديث طويل كشفت فيه وصال عن نفسها. إنها تعيش حياة متعبة. فهي بالاضافة إلى عملها في المستشفى تعود بعض المرضى في بيوتهم، وتلبي حاجات العناية بآخرين، وتدرّس ابنة اختها وتقوم بألف حاجة وحاجة لتكفي بيتها المكتظ بساكنيه. وأخيراً سألته:

ـ وأنت، مع من تسكن؟

وارتعب من هذا السؤال. فقد استحضر في ذهنه عمته البائسة التي تحيا من أجله، ولا تنام حتى يأتي إليها، وتقرب وجهها منه لتشمّ رائحته، وأباه الذي يتسلل إليها في غيابه يتسقط أخباره، ويتجسس عليه، وابنه هاني، المقسوم بينه وبين زوجته المطلقة، لا يلقاه إلا في أيام الجمع لقاء يمزقه ويترك في فمه طعم العلقم. تخلّص من هذه الأحبولة بجواب هروبي:

ـ أعيش تحت الرقابة..

ـ ممن؟

همّ أن يقول: من ماض لا ينفك يلاحقني. ولكن سيحتفظ بماضيه سراً بينه وبين ضميره، وإذا كان سيكتشف في يوم ما، وقد أحس بأنه سائر في طريق الانكشاف، فليكن من أفواه الآخرين، وعيونهم.

ـ وهل عيون الناس قليلة؟

ـ عيون الناس.

وكأنها كانت تحس برقابتها المزمنة عليها، مثلما كان يحسها هو. كانت عيون الناس تطارده، إذا توقفت السيارة عند رصيف شارع نظر السابلة إلى داخلها، وإذا توقفت عند سوق من الأسواق التجارية ليشتري شيئاً يتلهيان به في طريق التجوال الطويل، رأى الآخرين يحملقون في تلك السلطانة المطوية الذراعين تحت الصدر الناهد، والمتوّجة بهالة شعر يشع بريقاً حنائياً. وضاقت به الدروب، حتى صارت بغداد عندهما قرية مفلطحة يسكنها أنس فضوليون يتشممون روائح الفضائح كالكلاب البوليسية المدرّبة. وكم ودّ لو يهرب بوصال إلى مدينة أوروبية، حيث تعلّم أن يضبط أعصابه وهو يرى جاره يقبل صاحبته، وكأنه يهمّ بها. ولكنه محاصر بوظيفته، وأهله، وعادات قومه، وآلاف الوشائج والحبال غير المرئية. وأصبحت جولاته المحفوفة بالأخطار، والمنتهية بالخيبة وتوتر الجسد تدفعه إلى أن يتخذ قراراً جنونياً ليعيش بعده حياة مزدوجة، علنية وسرية، فاضلة وآثمة، له وللآخرين، متخلياً عن كل شكوكه وتساؤلاته عن مصدر العطر الباريسي، والملابس الحريرية بالنسبة لمرضة كادحة تشكو من كثرة المعيلين. وكان «الغرب» قد زوده بشيء من ضبط الأعصاب، ولم يدفعه إلى جروف التهلكة. فالجنس، كما علمه الغرب، قنبلة مؤقتة في الجسد، إذا أحسنت التحكم بفتيلها لم تنفجر على غفلة منك، وتفجرك. ولكنّ لضبط الأعصاب حدوداً حتى بالنسبة لأولئك الذين تحملوا التجربة. وذات مرة قالت له وصال:

ـ اليوم سنزور ممرضة صديقة تخرجت معها من كلية التمريض.

واستقبلتهما امرأة ممتلئة الجسم، مدورة الوجه تقطر دسامة، وتطير خفة ومرحاً، والابتسامة الفيّاضة لا تفارق فمها الصغير المطلي بأحمر شفاه صارخ الحمرة.

ـ قلبي أعلمني أنني سأستقبل ضيوفاً اليوم. كان يرفرف في صدري مثل عصفور في قفص.

ـ يسلم قلبك وصدرك.

وقدمت له يداً حارة لينة وسخية احتفظت بيده مدة طويلة حتى أحس برطوبة في منابت أصابعه.

ـ هذا عصام من أقاربنا البعيدين.

ـ أهلاً بك وبأقاربك البعيدين والقريبين. أنت تعرفين كم أعتزّ بك.

ـ أعرف. وهل ننسى سنوات الكلية؟

ـ أحلى العمر. وبعدها بدأ التعب والمرارة..

ـ ماكو شغل من غير تعب، يا حبيبتي ساجدة.

ـ هذا صحيح . . تعرفين أي أقمشة فرنسية نازلة في اورزدباك؟
ـ صار لي شهر ما دخلته.
ـ تخبل . الورود الزاهية، الألوان التي تسلب العقل ـ قطور على بريسم .
ـ سجودة، لا تثيري شهيتي . خليني مكتفية باللي عندي .
ـ ما ممكن أبداً. ويا امرأة اكتفيت باللي عندها؟ كانت المصانع تعطلت من زمان. وعلى من تعيش المودة والأزياء؟ على النساء . مرة شبر تحت الركبة، ومرة شبرين فوق الركبة.
ـ ممنوع، محرم قانونياً ـ تدخّل عصام ضاحكاً ـ أعصاب الناس متوترة.
ـ وخلّ تتوتر أكثر . . والأطباء والممرضات لمن خلقوا؟

وذهبت ساجدة لتجلب الشاي من المطبخ، فوجد عصام فرصة سانحة ليعرف جو الحرية في هذا البيت الغامض، فدسّ يده بين ساقي وصال. جوبه بلطمة قوية على يده سمعتها ساجدة في المطبخ، فخرجت راكضة:
ـ انكسر شيء؟
قالت وصال ببرود:
ـ ذبانة وكرت على رقبتي، ولطمتها.
تأوهت ساجدة:
ـ آه، من الذبان، ومن يقدر عليه؟

وعادت إلى المطبخ . وأدارت وصال وجهها اللامع إلى عصام، وهمست:
ـ ماذا ستقول ساجدة عنا؟
ـ لو لم تلطميني لما عرفت. ولكنني مستعد إلى أن ألطم حتى أصل إلى الهدف.
ـ القبيح لا يصل.

وجاءت ساجدة بعدة الشاي، فانتقلت وصال ألى جانبها بحجة مساعدتها، وقدّمت له قدح الشاي ثم عادت فجلست قرب ساجدة. والتهب وجه عصام حين وضعت الساق على الساق، ورأى ما رأى. وطوال حديث المرأتين عن حياتها اليومية ظل عصام يحترق في أتون الشهوة، حتى أفاق على صوت جرس. وقفزت ساجدة تخفق بنعالها البيتي، وأنزلت وصال ساقها، وضعت الساق جنب الساق، وسحبت طرف ثوبها لتغطي ركبتيها بحياء العذارى المصونات. جاءت ساجدة تصحبها امرأة وطفل، وقالت:
ـ هذه أختي وابنها ناصر.

كانت أختها أخف سمنة منها، وأكثر جاذبية، وإن كانت أكبر سناً منها، يتدلّى عقد

لؤلؤي مزدوج يغطي صدرها الأسمر العامر. قالت وصال:

ـ نرفع الزحمة.

ـ بعد وقت.

ـ لا، لازم أدرس بنت أختي قبل العشاء.

وعندما جلسا في السيارة قال عصام:

ـ صديقتك تبدو مرفهة.

ـ أنت لحد الآن ما شئت. هذا البيت ملكها، وعندها مشتمل للإيجار.

ـ للإيجار.

ونظر إليها عصام نظرة طويلة قبل أن يدير محرك السيارة.

● صمم خليل أن يقوم بعمل حاسم. أخذ عدة الرسم والاصباغ والمشروع الأقرب إلى قلبه، ويمم صوب بيت عباس. كان العصر حاراً، وفي الهواء أنفاس الغبرة الأخيرة، وعلى الأشجار كسوتها الصفراء. والعصافير تزقزق بصخب مبالغ فيه، وكأنها موسيقى تحثّ خطاه إلى البيت المنشود، المظلل بأشجار الليمون والزواحف النباتية. ورأى سيارة عباس في كراجها، فأطمأن قلبه. سيقول له: ضجرت من استعجالك. سأسلمك هذه الصورة على علاتها. وسيظل هو، خليل، يبحث عن شذر الكاملة الحيّة. سيظل يكتشف ويضيف، ويراكم، ويضع الخطوط التي يتلمسها واضحة في خياله، ولا تستطيع ريشته أن ترسمها على الورق.

لم يجد الصغيرة سوسن في الحديقة، كما كان يجدها دائماً، فتعلن عن مجيئه بصوتها الحاد كزغردة. وقف أمام الباب ينتظر أن تهدأ دقات قلبه، ويتزود بأكبر قدر من الشجاعة ثم صعد الدرجات الثلاث إلى مدخل البيت، ونزع عدته من على كتفه، ودق الجرس. سمع رنينه يغيب قوياً في داخل البيت. وتريث لحظات، وتردد كثيراً قبل أن يدق الجرس للمرة الثانية. وسمع موجة الرنين تغيب ثانية في أعماق البيت. ولم تثر أية استجابة. انتظر ثواني أُخرى، وهمّ أن يدق للمرة الثالثة في خيبة أمل، حين سمع شحيط أقدام وراء الباب، ثم انفتح الباب، وأطلّت من فتحته الضيّقة زوجة عباس بوجهها المدلهم المنتفخ.

ـ هذا أنا. أبو شذر في البيت؟ جئت لأكمل الصورة.

ـ أبو شذر غير موجود. وأوصاني أن أقول لك أنه غيّر فكره. ولا يحتاج لأي صورة.

ـ كيف لا يحتاج؟ ـ تساءل خليل مبهوتاً مهزوز الصوت ـ الصورة كاملة تقريباً. . تحتاج إلى بعض اللمسات.

قالت بحدتها الجارحة:

ـ قلت لك: لا يريدها. أنت لزقة؟

ـ لا بد أنك فهمت خطأ. قبل أيام كان عندي. وكان ما يزال على إصراره. غير معقول أن يغير رأيه خلال أيام ثلاثة. .

ـ الناس تغير رأيها من ساعة لساعة. صبر كثيراً، وضاق، والآن لا يحتاج إلى خدمتك.

ـ أعتقد في الموضوع سوء فهم. دعيني انتظره. غير معقول. راح أتخبّل.

ـ تقدر تتخبل. إذا كنت لم تتخبل بعد. ولكن لا يمكن أن تنتظره. . . سافر.

ـ سيارته هنا.

ـ سافر إلى لبنان. وهل تريد أن يأخذ سيّارته معه؟ ـ ثم رفعت صوتها، وكأنها ضجرت منه ـ ولماذا هذا التحقيق؟ أي حقّ لك في التحقيق معنا؟

ـ لا حقّ لي. افهميني. أنا لا أستجدي. ولكن أعتقد في المسألة خطأ. غير ممكن، مستحيل، غير معقول. دعيني أسأل شذر.

سحبته من ذراعه بقوتها العارمة، حتى ارتطمت بالباب شفته الحمراء المنتفخة، فانفجرت دماً. وأحس بها تحرقه، وتلمّظ ملوحة الدم اللزجة. ولعل منظر الدم جعل الزوجة أكثر دموية، فصرخت به:

ـ وأي حق لك في استجواب بنت قاصر؟ ما هذه الوقاحة؟ أربعة أشهر وأنت قاعد قبالتها؟ ماذا عندك مع البنت؟ عذّبتها، مرمرتها. شنو عشقتها؟ شوف شكلك بالمراية. عجوز يمكن أكبر من عباس. إش عندك؟ تروح، لو استدعى شرطة النجدة؟

تدبقت شفتا الرسام، ولكنه غالب الألم وفصلهما ليقول:

ـ أرجوك، خليني أشوفها. اهدي لها صورتها. ومع السلامة. ماذا ستقول عني؟ على الأقل جزاء العذاب اللي عذبتها به، مثلما تقولين، جزاء الساعات الطويلة. . خذيها، خليها تجي لتأخذها، بدون مقابل، ما أريد فلوس. . آسف على الازعاج. يمكن تقولين مجنون. . ما يهم، بس أريح ضميري. .

ـ ضميرك في جيبك. تروح لو أخابر الشرطة؟ راح أصيح وألمّ الناس. روح، روح،

سـافل. حقـير، تكسر رقاب المستـورات، تلعب بعقول القـاصرات. . امش، يا كـافر، يـا زنديق، يا سافل، يا حقير. .

التصقت شفتا خليل مرة أخرى، ولكنه عاد ففتحها بصعوبة ليقول:

ـ الله يستر عليك. .

وقبل أن يصل إلى الجانب الآخر صفقت المرأة الباب، فـانشمر الـرسام، وتعـثر بعدة الرسم، ووقع. . وحين فتح عينيه، رأى وجه شذر في الصورة حيـاً مكتملاً، يـطل من قوس شفتها العليا شبح ابتسامة رثاء. تناول الصورة بعجـالة، وغمـرها بنـظرة جائعـة، متضرعة، فعادت إلى حالها ناقصة قاصرة في طوفان من الألوان العائمة.

في البيت غسل شفته المشقوقة بالماء البـارد، وحين جـاءت حسنة هلعـة تتأوه صرخ في وجهها بجنون عارم:

ـ ابعدي عني، اتركيني. . ساعة السودة. . لا أريـدك في البيت دقيقة واحدة.

وبلل أصابعه، ولصقهـا على شفتيـه. وفي المرسم، قـال لنفسه، وهـو ينظر في المـرآة: كنت أعرف. . أعرف انها ستنفجر هذه الدملة القبيحة. . كنت أعرف.

وانهدّ عـلى كرسيـه، وأغمض عينيـه. وغـاب في سرحـان ذاهـل يغـور بـه إلى أسفـل الأرض، حتى أيقظه صوت بدا وكأنه صادر من دنيا الناس فـوقه. أرهف سمعـه. سمع من يناديه. رن الصوت وكأنه صوت شرطي جـاء يلقي القبض عليه. خـرج خليل، واتكـأ على المنضـدة البلاستيكيـة، يخاف أن يتحـرك أبعد. سمـع الصوت واضحـاً هذه المـرة. «خليـل نـائم؟» وكـان صوت شهـاب. هرع خليـل إليه متـوقعاً أن يستقبـل الكيس الورقي، ولكن شهاب دخل فارغ اليدين. دخل كالوتر المشدود، وقال:

ـ أين كنت اليوم؟ بحثت عنك في المؤسسة.

ـ لو بحثت عني جيداً لوجدتني. . ألم تسأل رائداً عني؟

لوح شهاب بذراعه في ضيق، وقال:

ـ لم أرد أن أسأل أحداً. . الجميع خونة ومنافقون.

وجلس شهاب إلى الجانب الآخر من الطاولة.

ـ خير إن شاء الله؟

ـ خلاص.

نظر خليل إليه، وشعر بالدم يدب في شفته المبقـورة. تلمّظ ومسح الـدم، وحشر كفيه بين فخذيه، ململماً نفسه كالقنفذ، وقال:

ـ ما هو الخلاص؟

ـ انتهت حياتي في المؤسسة.. خلاص، لا فائدة.

ـ طردوك؟

ـ لم تصل الحال إلى هذا السوء، ولكن جعلوا عملي مستحيلاً.

كان خليل يعرف عن طريق عصام أن علاقة شهاب بالمدير العام الجديد ليست حسنة، فانتظر أن يدلي شهاب نفسه بالخبر اليقين. حتى بدأ شهاب يتحدث ببطء شديد..

ـ نسوا جهودي.. ترويج سلع المؤسسة.. نسوا أنني... جعلتها تنافس السلع الأجنبية.. نسوا.. نسوا جهودنا.. كلنا. الآن.. عليك.. يا شهاب أن تحصر نفسك... في مكنة.. وتكون مجرد آلة.. لا تحل ولا تربط.. أربع سنوات خبرة.. لا تساوي.. شيئاً..

ـ ولكنّ لكل شيء سبباً..

ـ لا سبب. المدراء يتغيرون فيغيرون بطانتهم.. وحين يخرجون يشوهون سمعتهم. أرجوك أعطني شيئاً أشربه..

ـ ليس في البيت غير الشاي..

ـ وليكن..

ـ حسنة، هاتي الشاي..

وبعد صمت تابع شهاب يقول:

ـ لا أمان في الاشتغال عند الحكومة..

ـ والآن مع السلامة؟

ـ سأقول مع السلامة قبل أن يسحبوا البساط من تحت قدمي، على قول رائد.

وجلسا ينتظران الشاي صامتين. وفكر كل واحد منهما بأفكاره. وتابع خليل رحلة إلى الوراء، فتذكر يوم الجمعة. رفع رأسه وقال في لوعة:

ـ هل تذكر يوم خدعتنا في تلك السفرة المشؤومة؟

ـ لم أخدعكم.

ـ لا، خدعتنا، هذا هو الرأي السائد.. آه، بالأحرى لم ترد أن تخدعنا، فمن نحن بحسابك.. بل أردت أن تخدع عصاماً. وعصام اليوم في صعود.

ـ لا تخف.. سيأتي يوم يجد نفسه في ورطة مثلي.. لا يدوم في صعود. سيوقعونه في مطبّ، أو على الأقل يشوهون سمعته، مثلما شوهوا سمعة مديرنا القديم.

ـ كيف شوّهوا سمعته؟

سكت شهاب، وراح ينقر على سطح الطاولة بنزق. وكرر:

ـ كيف شوهوا سمعته؟ هل سيتصور عقلك أن حادثة اغتصاب جرت في أم الخنازير؟

ـ كنت أشك في ذلك منذ البداية. .

ـ كانت أكذوبة. وقد تخلّصوا من المعتدى عليها بالزور. والآن تخلصوا من المغتصب أيضاً. متى رأيت جابر الساقط آخر مرة؟

ـ لا أدري، ولا يعجبني أن أراه.

ـ اختفى. . خلاص. . دليل الاثبات اختفى. . كان ذلك خدعة واضحة.

فتساءل خليل:

ـ خدعة! نعم، خدعة. . يعني كل شيء خداع ـ ونهض من على كرسيه، وتمشى في الفسحة الصغيرة أمام الطاولة حتى الجذع مشقوق الشفة، احمر الأذنين، كالديك المسموط ـ يعني كنت أنا أيضاً أعيش في خدعة. زجاجات البيرة التي كنت تزقّني بها خدعة، والوظيفة خدعة، وشذر والخيالات خدعة، وحطام موهبتي خدعة، والمستقبل، والأحلام، والحياة كلها. . هكذا تريد أن تقول؟

ـ لا تنفعك إلا نفسك.

ـ ومن قال إنها ليست خدعة أيضاً.

ـ لا، لن تخدعك. الناس يتوهّمون، وهي تبقى صافية لك. .

ـ فلسفة، متى أصبحت نفسي صافية لي. . إنها ممزّقة. .

ـ أوه، أين الشاي؟

ـ حسنة، أين الشاي؟ حسنة، يا حسنة؟

لم يظفر خليل بجواب، فقفز إلى المطبخ، ورآه فارغاً. عاد خائباً:

ـ يبدو أنها ذهبت إلى البقال. . ربما لا يوجد عندنا سكر أو شاي. . سأضع السخان على النار، ريثما تأتي. . اصطبر دقيقتين، أنا أيضاً حلقي جاف، وعطشان. . هل تعرف ماذا فعلت بي زوجة صاحبك عباس؟

ـ ماذا فعلت؟

ـ انظر إلى شفتي القبيحة. . طردتني كالكلب، وشقت شفتي. .

ـ إنها لبوة، كما يقول المصريون. وأنت حتى الآن لم تنْتَبه من الصورة؟

ـ لا، حاولت أن أنهيها اليوم. فسدّت الباب في وجهي.

ـ ولِمَ هذا التأخير الطويل؟ عرفتك نشيطاً في رسم الصور.

ـ لم أرد أن أكون نشيطاً، بل أردت أن أكون مبدعاً. رأيت واقعاً حياً أمامي، فأردت أن أجعله حياً كما في الأصل، ولكنه طلع من يدي شيئاً لا يختلف كثيراً عما دأبت على ممارسته بلا موهبة طوال السنوات العشر الماضية.

هزّ شهاب رأسه، وقال:

ـ أنا غير فاهم، هل يختلف رسم عن رسم؟

ـ يختلف، مثلما يختلف إبهام عن إبهام.

ـ لم أعرفك تهتم بالصغائر.

ـ وهل تعتبرها صغائر؟.

ـ ما هو الرسم؟ خطوط وألوان، فلماذا تتعب نفسك؟ هل أنت طبيب، جراح، ميكانيكي سيارات؟ ما أنت إلا رسام تنقل إلى الورق ما تراه أمام عينيك، فوتوغرافي. .

ـ خلاص، فهمتك. . أنا أسمع أزيز الماء.

دخل خليل المطبخ متعثراً، وبحث عن الشاي فوجده، وعن السكر فوجده أيضاً، وهيّأ الشاي في الإبريق. ووضعه فوق رأس السخان. ولما عاد ألحّ شهاب في أن يعرف:

ـ لماذا لا تفعل ما كنت تفعله سابقاً؟

نفد صبر خليل فقال ضيّقاً:

ـ في الماضي كنت أهزأ. أما في حالة شذر فكنت أبحث عن علاقة بيني وبين ما أرسمه.

ـ طفلة، وتكون لك علاقة معها؟

ـ أوه، صرخ به خليل ـ أنت لا تفهم إلا بالبضائع، بالتسويق. . أما أنا فلم أرد أن أسوّق. . أردت أن أنتج، فاهم؟

استعصى على شهاب النطق. وبدأت قسمات وجهه تعبر عن أزمة فهم. ذهب خليل ليجلب الشاي. وفكر وهو يصبّه في الأقداح: وين راحت الملعونة؟ ساعة السودة. .

وخرج تصطفق الأقداح في يديه. ولما جلس قال بسخرية ظاهرة:

ـ والآن، يا عزيزي شهاب، هل جئت إليّ بخدعة جديدة؟.

ـ تناول شهاب قدحه، وقال :

ـ لا، بل جئت لغرض آخر ـ وتردد كالمستحي، وقال بعد توقف ـ جئت لادعوك إلى حفلة زواجي.

بحلق خليل به، وانفرجت شمته المشقوقة عن ابتسامة رثاء:

ـ يا شهاب، يا أبو المفاجآت... و... لا أريد أن أقول أكثر...

ـ على كل حال، لا تنشر الخبر بين الناس.. لا أحب أن أؤلم الذين أحبهم والذين لا أحبهم...

● في مساء اليوم التالي، حين بدأ الظلام يتكاثف في زوايا المقهى المهجور، كدخان نار غير مرئية، أدرك جابر أن هذه الليلة لن تكون مثل الليالي الماضية التي جاءت بعد نهار، إن لم يكن بهيجاً، فقد كانت فيه بشارة براحة هادئة من العيون المتلصصة، والألسنة المتسائلة، واللفتات المعبرة عن أشياء لم يألفها في سابق أيامه، حتى أن استعداده للخدمات لم يعد يعطيه الحق ولا الراحة في التبسط والخوض في أحاديث مرحة مع الموظفين. قبل أيام جاءوا به إلى هنا، بعد أن قالوا له إن عائلة سهام تترصّدك، وتدبّر لك الدوائر، ونحن لا نأمن أن يغتالوك. فتعال معنا نخبئك في مكان أمين، حتى تهدأ الضجّة، وينسى الناس، وتعود الأمور إلى مجراها. واعتبر جابر ذلك إجازة مدفوعة الراتب، وضيافة محترمة تجزي عمله في مراقبة سهام، لا سيما وقد حملوا معهم أربع زجاجات من العرق، وسلة من الطعام. وكان جابر يقضي النهار كله سكران، ما أن تنتهي تقنينته من الخمرة، حتى «يسقط» في نومة عميقة يفيق بعدها ليجد زجاجات الخمرة تغازل بصره المغبّش، فيكسر الخمار بكأس لطيفة، ثم يطلع إلى الفناء حيث يوجد برميلان من الماء أحدهما ذو حنفية مرفوع على قاطع حديدي، والثاني للماء القذر مملوء إلى النصف، فيغسل وجهه، وينظف رقبته من العرق اللزج. وفي الليل كان جسمه كله يتشبع بالخمرة فيغيب في نومة عميقة طويلة لا يستيقظ منها إلا في الضحى، مصدّع الرأس، مسحوق الجسد يحس بتلك الوخزة اللئيمة التي كان يحسها أسفل صدره من جهة اليمين كلما أفرط في الشرب، والتي كان الأطباء يسمونها «تشمع الكبد» فيقول: «بالجهنم». نهض جابر منزعجاً مغثوثاً مسربلاً بعرق لزج، وخرج إلى الفناء وأنزل رأسه تحت الحنفية، وجعل الماء يسقط على شعره الأكرت دون أن ينعشه، فقد صار الماء الزنخ حاراً من وقدة الشمس التي قابلته بعداء لاهب جعله يسرع فيلوذ بالحجرة المستطيلة الثلاثية الجدران، حيث وضع تخت خشبي باتجاه الحائط المسخم، المنتهي بفتحة في الأعلى، ربما كان يضم «الدزكاه» في يوم من الأيام. ويرى الزجاجات في انتظاره، فيرطب فمه اللزج بجرعة حارقة،

ويقضم خيارة من السلة. وعند العصر جاء اللذان أخذاه إلى هنا، وكان الثقل الذي في أسفل الصدر قد أخذ يتزايد، والهمّ يحبس أنفاسه. سألهما في ضيق وتفزع: إلى متى سأظل هنا؟ قال أحدهما: لا نعرف. وقال الثاني: شهراً على الأقل. فناح جابر: شهراً أظل في هذه البرّية في هذا الحر الذي يقتل البعير؟ على الأقل لو كان عندي راديو صغير أسمع منه الأغاني. قال الأول: لا نريد أن يكتشفك أحد. فردَّ جابر: وليش أني اش سويت؟ ياما راقبت الناس من قبل رجالاً ونساء، ولم يعترض أحد. ماذا فعلت؟ لتهربوني؟ سكت الاثنان دقائق قبل أن يقول أحدهما: في هذه المرة شيء آخر. في هذه المرة جرى ذلك في أم الخنازير، أم الدهاليز. وأهل سهام يتهمونك بعرضها. صاح جابر: كيف بعرضها؟ ماذا فعلت؟.

ـ يقولون إنك اغتصبتها!

صاح: اغتصبتها؟ كيف اغتصبتها؟

قال الآخر:

ـ أو حاولت اغتصابها.

جنَّ جنون جابر، وأتى حركة يائسة وكأنه يريد أن يغادر المكان، وزعق:

ـ معقول؟. . . . مستعد أن أروح. . .

عاجلته رفسة في خاصرته رنّت في ذلك الجزء الصلب الموجع أسفل صدره، وأوقعته أرضاً. وبدا وكأنه يغوص عميقاً عميقاً في الأرض، ولكنه جاهد أن يطفو، وأن لا تنشق الأرض وتبتلعه، وسمع صوتاً بدا وكأنه قادم من مكان بعيد فوقه: «خائن!» وسحقه هذا الصوت، في لمحة واحدة، ثم جمع أشلاءه في غير مواضعها الأصلية. وانحصر شيء في حلقومه كقطعة من مرارة، فلم يستطع أن يتفوه بشيء، ولم يبق له غير المراقبة العاجزة من خلال الشقين الضيقين في حافتي جفنيه المسبلين. سحبه الرجلان كالشليف، وادخلاه الحجرة، ورفعاه من رجليه ويديه، وأسقطاه على السرير. وارتطمت السقطة مرة أخرى بتلك الكتلة الحجرية أسفل صدره. صارت روحه كلها تطلّ من بين ذينك الشقين، تراقب حركات الرجلين وتحاول أن تفهم تهامسهما. بقيا مشدوخين قرب سريره كأنهما تمثالان من خشب الصاج. وواتته الشجاعة أن يهمس في سره دون أن يحرك أي شيء في جسده: «راح يقتلوني! الآن يقتلوني. . يقتلوني!» بدا وكأنهما قد نويا قتله، ولكنهما يفكران في طريقة قتله، وكان الصمت قد تمطى بينهما كما يتمطى قوس النشاب. فحاول أن يبعد الطعنة بأن فتح عينيه ووضع فيهما أكبر قدر من الضراعة. وجاءه الغوث من ذلك الرجل الذي لم يرفسه:

ـ ها، هدأت؟

لصلص بعينيه.

ـ لا تفكر بهذه الأشياء السخيفة.
قال الذي رفسه. ثم قال وكأنما أشفق عليه:
ـ قرب منه السلة والعرق..

وضعت السلة والزجاجات قرب سريره بصمت كافر، وخرج الرجلان. وبعد خروجهما فقط صار جابر يلتقط أنفاسه بحرية، ويحرك جسده حركات تجريبية، وكأنه ليتأكد من أن أعضاءه ما تزال في أماكنها. اطمأن قليلاً. كانت تستجيب له ولو بيبوسة ونغزات. ولم يجد بدا من اللجوء إلى الخمرة يعطي بعض الليونة لمفاصله. مدّ يده إلى أسفل سريره حتى وقعت على زجاجة فرفعها، وقال لنفسه: «كيف سأجرعها من غير ماء؟» ولكنه كان قد بلع المرارة التي وقفت في حلقومه، وجرع طعم الموت الذي كان يحوم حول رأسه. فهان عليه شربها من فم الزجاجة. جرع جرعة كبيرة ظالمة، كما يجب أن يسمي الجرعات التي ترتد، في الزردوم أحياناً. جرعها، وقضم خيارة كان فيها طعم التراب وهصيصه. وبعد لحظات بدأت الآلام تتلاشى، وأخذ جابر يتصافى مع نفسه، ويجد في الراحة نسياناً لهموم كثيرة، حتى صار أخيراً، بعد مصّتين أخريين، يحاول أن يسترجع ما هو جميل في حياته، ومريح لأعصابه حين يريد لها أن تسترخي، ولم يستطع أن يتذكر كثيراً. فقد كان دماغه رخواً مثل ثريدة في عرق دسم لا تمسك بالأصابع. ظل يترجرج بين ذكريات مبتورة، ولكنه وجد أن أجمل ما في حياته هي تلك الفترة القصيرة التي عمل فيها حارساً اعتيادياً في الجامعة بين طلبة وطالبات لطيفات كن يتزررن معه. وزفر حسرة، ومدّ يده إلى الزجاجة وشرب جرعة، وقضم الجزء المتبقي من الخيارة. وبعد ذلك لم يعرف كم شرب من جرعات، ومتى سقط. ولكنه استيقظ فجأة، وكأنه يفلت من يد كانت تضغط على خناقه. وتخمد أنفاسه. ولكنه شعر رأساً بأنه غارق بعرق لزج حار. هبَّ من نومته. ورمش في الظلام الداجي، بل وحاول أن يترك السرير. وضع قدمه على الأرض، فارتطمت بالسلة، وقرقعت الزجاجات وكأنها سلاسل مشدودة إلى سريره. إلا أنه عاد فانبطح وأخذ يمسح العرق من وجهه بكف حبيبتها ذرات تراب. وفي اللحظات القليلة التي قضاها يلملم أشتات ذهنه بدأ يتصور الحفرة العميقة التي تفتح أمامه، ولا يعتقد أنه سيخرج منها سالماً صحيحاً. بدا وكأنما لم يبق أمامه إلا أن يحتسي المزيد والمزيد من العرق حتى تنفري مرارته... كبده... وسرت في جسمه الذابل رعدة واخزة. بدا وكأنه صار يفهم... في هذا المقهى المهجور على إحدى الطرق القديمة المتروكة الخارجة من بغداد وجد جابر... وقام بمحاولة أخرى للنهوض. كان العرق يسيح على جلده لزجاً حارقاً كالنفط الأسود، وكبده المحترقة تتصاعد لفحات لاهبة إلى حلقومه. وحين سار كانت الأرض تفلت من بين قدميه. وتكاد توقعه، ولكنه قاوم، قاوم.. شاقاً الظلام الدخاني متلمساً اتجاهه

نحو حنفية الماء. خطوة ثقيلة، بعدها أخرى أثقل، ورأسه يتدلّى أمامه، وذراعاه تتلمسان صوف الظلام المحروق، حتى ارتطم بالبرميل وبشيء هش كان ملتصقاً به. مرت ذراعه الهائمة طائرة، ثم وقعت على الحافة الحديدية، ولامست الماء. فحّ صوت قرب أذنه، لم يثر أيّ شيء في نفسه. كان الماء أغلى شيء عنده الآن. تلمّس الحنفية. كانت يد تطبق عليها. عاد الصوت يتكلم «لسه ما متّ؟». طرطش الماء. شهق جابر ملهوفاً. احتوت رأسه من الخلف كف عريضة، وضغطته إلى الأسفل. وشعر جابر بطرطشة الماء تتزايد على وجهه. أغمض عينيه بتلذذ مرعوب، وحمحم عاجزاً أكثر فأكثر عن تحمل ضغط الكف الثقيلة خلف رأسه، ثم شعر فجأة بالأرض تسحب من تحت قدميه، ورأسه يقترب من الماء أكثر، حتى لامس الماء أنفه وفمه، ووجهه كله، وغطس فيه، وشهق جابر شهقة طويلة تحولت إلى بقبقة، وبدأت رجلاه تضطربان في الهواء، ولكن ذلك لم يستمر كثيراً. . . .

● وكان رائد يفكر: هل معقول أنني كنت أحبها؟ أحب ذلك المسخ المترهل الكبير الأنف، البارز الوجنتين، النافر الشعر؟ معقول أنني كنت أسهر الليالي أبكي لأنها لم تتلطف وترمقني بنظرة؟ كيف جننت بها ذلك الجنون الأحمق، حتى قضيت ثلاث ليال أكتب وأمزق لأصوغ لها رسالة خيالية تعبّر عن حرّ وجدي، واقترابي من الموت، وسرقت عبارات كثيرة من «ماجدولين». وأردت أن أسلمها لها في الشارع، حين كانت تخرج من مدرستها، لو لم أتعثر، وتفزع هي، ولذت أنا بالفرار. . أوه، تاريخ! وبعد ذلك صممت على الانتحار، ولكنني لم أتوصل إلى الوسيلة الناجعة التي تهزّ وجدان الناس وتجعلهم يندمون، دون أن تجعلني أودع الدنيا إلى الأبد. لأنني أريد أن أعرف وقع انتحاري عليها. وإذا مت لا أعرف. وماذا سيقول الناس عني: شهيد الحب، أم شهيد التفاوت الطبقي؟

وضحك رائد، واسترجع صورة بتول، وهي تقول له: لو رأيتك في الشارع لما عرفتك. وهل كنت سأعرفك، يا مولاتي؟ أوه، الزمن يغيّر أولئك الذين يبدون في لحظة من اللحظات وكأنهم سيظلون على رونقهم إلى الأبد، مثلما كنت أتصورك، في ذلك العهد السحيق. ولكن الزمن، يا مولاتي، عاتية يغيّر الناس سواء أرادوا أم لم يريدوا. الزمن يسممنا من الداخل بغازه ويشوهنا، ويهدم أعز ما كنا نريد أن نصونه. نعم، يا مولاتي، تغيّرت، ربما أكثر مما تغيرت أنا. . تغيّرت؟ وقفز رائد إلى المرآة العريضة المنزوعة من صوان زينة قديم، ونظر إلى وجهه. هذا اللون الترابي كان أصفى بالتأكيد، والشعر بدأ ينحل ويخفّ، وتتخلله خيوط الفضة أسفاً على عمر تقضى بالآه والونّة. والعينان، العينان تحدقان

بنفس اللهفة، وأن كانت مشوبة الآن بمرارة الخيبة، والخوف من فوات الزمن. العينان فقدتا رواءهما السابق، نصل لونهما، ولا بد، وتكالبت عليهما عناكب الغضون تطبق عليها من الجانبين. لا تُكشِّرْ، دع الغضون تنفرج. عينان بلا أمل، بلا لمعان، زجاجيّتان، متربتان، ضفدعتان مرتعبتان توشكان على القفز من محجريهما. آه، يا زمن، يا مخرب، لا يلحق بك كل المخربين على الأرض بمن فيهم من دأبوا على تسميتهم بالمخربين عن ظلم أحياناً، وعن انصاف في أحيان كثيرة. . أوه، سيزعل هاشم من هذه التداعيات. كسب غنيمته دون صراع طبقي، مع أن أباه أيضاً لا يُعدُّ من ذوي المهن النظيفة، ولكنها ليست وسخة بالمعنى الصارخ للكلمة. . الصراع هنا، يا رفيق هاشم، هنا داخل القفص الصدري، وقحفة الدماغ، وتريدني أن أتجاهله، أكافح طبقياً؟ وإلى متى أكافح، والزمن يكافحني، ويشن عليَّ حرباً شعواء، يقرضني، كما يقرضك، ويقرض السيدة بتول. من الداخل كأقبح فأر. أنا أيضاً أريد أن أعيش، والزمن يزحف على جلدي ومشاعري زحف الذين كفروا. أليس من حقي أن أعيش كالآخرين؟ أتمتع بهذه النعم المبذولة حتى لأتفه الناس. جالوت أو طالوت أو لا أعرف ما اسمه أوصاه الله في كتابه الشريف بأن لا ينسى نصيبه من الدنيا، وتريدني، أنا الفاني الحقير أن أتخلى عن جهاديتي، وألاحق سراب أهدافكم الطويلة الأمد؟. . أوه، علمتمونا على الزهد والتقشف وأن نكون فقراء الهند أو فقراء مكة، لا فرق، بينما الآخرون ينهبون ويعبّون من خيرات هذا العالم. . آه، يا تجّار الحدّ الأقصى. سيفوتكم القطار، ولن تلحقوا. الأخطاء التي سجلتموها والفرص التي فقدتموها و. . و. . لماذا هذا الإصرار على رأي خاطىء؟ تعالوا إلى كلمة منصفة. لملموا أنفسكم قبل أن تسحب كل الأبسطة من تحت أرجلكم. . نعم، هكذا، بشرفي، كلمة صادقة من قلب معذّب.

وصمم رائد أن يطرح على هاشم هذه الآراء، ويناقشه، ويفحمه. وقال لنفسه مرتاحاً: أنا أعرف لماذا انزعج هاشم، انزعج لأنه خسر شخصاً كان قد صرف جهداً كبيراً لتعليمه التفكير على مساطر. . . أعرف. . أعرف. . ولكنني لست خياطاً ولا محاسباً، ولا مساح أراضٍ. فليتعلّم هاشم وغيره التفكير على الأثير، يعني ما ينبع في قلبه يخرج على لسانه. . بث مباشر، بلغة الإذاعيين.

وكان رائد يعرف هذه اللغة لأنه تدرب، وأدّى امتحاناً بشكل جيد، ولكنه رفض لأسباب تتعلق. . لا يهم بماذا تتعلق. . هذا ماضٍ يجب أن ينساه. والمهم الآن أنه في نشوة من تدفق المنطق السليم في تفكيره. ولكنه جلس متعباً، وكأنه خاض معركة حامية مع أشباح. . أي، والله، أشباح. . وتظل تطاردني؟ وتذكر أن هاشم كان يتحاشى مناقشته،

يتهرب.. كلما فتح الباب ليفهمه أغلق الباب في وجهه، وسار في دربونة أخرى. وقال رائد لنفسه: مؤكد أنه يعتبرني عميلاً. هذا هو المنطق القديم، من لا يوافقك على أفكارك ألصقت به تهمة العمالة، وسددت الباب في وجهه. وبعد تفكير وتأمل وجد رائد في هاشم تغيراً نحو الأحسن، لم يتشنج، ويصرخ في وجهه بصراحة: أنت عميل.. ربما هو محرج، مؤمن بأفكاره، ولكنه يدافع عن الخط العام خوفاً من العواقب.. يخاف.. والخوف شيء مشروع، أنا أقرّه على الخوف، لأنني أنا أيضاً أخاف أحياناً... كثيرة..

وسكتت الأفكار في ذهنه، كأنها هي الأخرى خافت أو جبنت. وبدا رائد متعباً ناضجاً كسير الخاطر، حتى أنه عاتب نفسه، وقال لها في سره: لم هذه الحرقة الزائدة؟ لم هذا اللهاث الأرعن؟ وأحس بأسف مكدر من ضياع فرصة لطيفة في لقائه مع هاشم. كان بإمكانه أن يترك نفسه على سجيتها، ويطارح هاشم ذكريات جميلة. فهل معقول أن حياته قفر منها؟ كان بإمكانه أن يتذكر مع هاشم منازل الطفولة، وبساتين الشطئان الفسيحة. كان بإمكانه أن يتذكر هذا وذاك من رواد المقاهي في حيهم، وأن يضحك من شخصيات كانت مضرب المثل في التندر، ولكنه أدخل نفسه في عنق الزجاجة واحتقن بتلك الأفكار السالبة للراحة.. مشى على كزيز وجرح نفسه أكثر مما جرح هاشم... ربما... أوه، وزفر رائد. وعاتب نفسه: لماذا أنا خشن وحقود أحياناً إلى حد العمى، فلا أبدو مبرراً أمام الآخرين؟ الظاهر أنني أتعامل مع الأشياء تعاملاً مزدوجاً. أعلن شيئاً، وأخفي شيئاً آخر.. معقول أنني لا أحب عطا، ولا أقدر براءته وطيبته؟ وحتى الملعونة اللعّابة، ولا أقول.. «المَدْخَنة» زوجته وحتى.. يعني سهام.. معقول.. بس اني شعليه.. يا هو مالي..

وجفل حين سمع صوتاً نسائياً يناديه خلف الباب، ولكنه استرد معقوليته بسرعة. عرف حالاً أنها جارته في هذا المنزل الكبير. فتح الباب، وأطل من الدرابزين على الحوش. رآها قرب الموقد بثوبها العريض مثل نفّاخة وسخة.

ـ لا تزعل مني، تنزل لو أصعد لك؟ طبخت كبة تموع بالحلق.

وحتى من على ارتفاع رأى البخار يتصاعد من القدر السوداء، المكشوفة، وجعله ذلك يشعر بجوع مباغت.

ـ لا تتعبي نفسك. سأنزل لك.

ملأت أم كمال ماعوناً كبيراً وضعت فيه ثلاث قطع من الكبة المدوّرة، وقدمت له رغيف خبز وضعه على ركبته، وشرع يأكل في الحال مادحاً الشوربة التي تسيل اللعاب. قالت أم كمال:

ـ بالعافية. من يدري اش وكت أطعمك من هذي الكبة؟

حملق رائد مستفسراً، متمعّناً في وجهها الأمرط المسودّ من نار المطبخ ولفح الشمس. فردّت أم كمال على نظراته المستفسرة:

ـ لا تزعل مني. بعد أسبوع راح نتحول من هذا البيت.. الـ..

وكفت عن تسميته خجلاً، فسأل رائد:

ـ خير، إن شاء الله؟

قالت دافعة ذراعيها، مع صدرها المتشحم العريض:

ـ يكفي طلعان الروح، ولا تزعل مني. كمال استأجر لنا في حيّ جميلة. الله يوفقه. أبو هذا البيت كافر بن زنديق، ولا تزعل مني.

ـ صحيح، كافر. المؤمنون يسبحون بحمده، ولا يضاربون بالبيوت.

ـ لولا ظهر ابني الصغير نعمان كنا عايشين بربيع. ولكن الحدادة قصمت ظهره.

بلع رائد ريقه، وكسر قطعة أخرى من الرغيف وغمسها بالشوربة، وعادت أم كمال تقول:

ـ مثل هذي البيوت، ولا تزعل مني، ما صار بشر يقبل يسكن فيها. شوف الناس تبني القصور بالمنصور وغير المنصور.

قال رائد مؤكداً:

ـ بغداد توسعت، وراح تتوسع أكثر. هذه سنة الحياة. التقدم، العمران، المصانع، المشاريع، المؤسسات العامة.

ولكن أم كمال كانت تتابع تفكيرها الخاص. فقالت وكأنها لم تسمعه:

ـ وابنتنا كميلة صارت عروسة. ومن راح يخطبها وهي. بهذا البيت الـ... الـ.. الـ... ما أدري اش أقول، ولا تزعل مني.

ـ صحيح. قولي ما تشتهين، وما راح أزعل منك.

ـ هذا البيت الطايح حظه..

بلع رائد لقمته، وقال:

ـ صدق، طايح حظه. وأنا أيضاً ما راح أطوّل فيه.

● المشتمـل مؤلف من ثلاث غـرف. اثنتان متـوسطتـان تطلان عـلى فناء ضيق تـزحمه شجـرة مهملة لا للموت ولا للحيـاة، تبدو أثـراً منسياً لحـديقة كـانت موجـودة في زمن مـا. والغرفة الثالثة صغيرة يؤدي إليها سلم أشبه بسلّم باخرة، مصفح بـألوان بـلاستيكية مضلّعـة خضراء مرقطة ببقع بيض تبدو مثل قشور بيض، أو لـطخات جص. وقـد احتفظت سـاجدة بهـذه الحجرة لابن عمتهـا طارق، المؤجـر الـرسمي للمشتمـل، وهـو لا يـأتي إلا في أوقـات متباعدة. فـرشت الغرفتـين بميسور الأثـاث، وأهمها سريـر عريض يبـدو مثل سـطح مدرّعـة محروقة، ولكن الفراش وثير، والمخدات من الريش.

في الليلة الأولى كـان الفراش مسرحـاً لحوار بـين جسدين يتقنـان إشعال فتيـل الشهوة والاحتراق بها. كان عصام قد قضى أعواماً من الحرمان، كان الجنس عنده فيها لحـظة نزق أو انهيار تنتهي بتقزز وكراهية للنفس. لم ير جسداً نظيفاً منذ زمان، ولم يدخل في حديقة مهـذّبة غير محفوفة بالمخاطر. لم يعبث، لم يتمرغ، لم يضع رأسه على نهد عـامر. وفي تلك الليلة أراد أن ينتقم من قصته مع زوجته، وقصة وصال مع زوجها.

ولكنه قضى صباح اليوم التالي بانسحاق، والألم يقوّضه من الداخل. كان يشعر برائحة غريبة تتطفل على رائحة جسده، لم تكن رائحة مقززة، ولكنها فضولية ملحـاحة تتمـرغ قرب منخريه، وتفسد صفاءه مـع نفسه، وتفصله عن الـواقع الـذي ألِفه. كـانت تلك الليلة ليلته الأولى التي يقضيها خارج مملكة عمته التي لم تعرف جسد الرجل، ولا صراخ طفـل في أعماق الليل، خارج الهواء المشبّع بسلطان الأب ووخزاته الممضة، خارج الضمير المعذب بثقـل أبوة مجهدة، وزواج مبتور، خارج الروتـين اليومي المـطعم بآثـام صغيرة لا تلتصق بـالجسد ذلـك الالتصـاق العنيف. كـان يعـرف أن عمتـه ستقلق، ولـو كـان في بيتـه تلفـون لتلفن إليهـا، وطمأنها. ومع ارتفاع الضحى صار يشعر بضيق من نفسه، وخلخلة وارتباك إذا أتى بشيء أو قال شيئاً أمام الآخرين. وكأنما ارتكب جرماً خلّف بصمات على وجهه. وكان يشعر بأن عليـه أن يفعـل شيئاً يعيـد صفاء ذهنـه، وراحة نفسـه، لا سيما وأنـه اليوم سيهيّىء لاجتـماع كبـير للمؤسسة يرأسه المدير العام. ويرأس اجتماعاً تتخذ فيه قرارات حـاسمة في عـطاءات مهمة، وعليه أن يبرر توصيات المدير العام أمام أعضاء اللجنة، ويـوقع بـاسمه. بحث في ذهنـه عن مخرج من حالة الخلخلة وارتجاج الأعصاب. فلجأ إلى ما يلجأ إليه المجرم حين تنازعه شياطين الشك فيما أقدم عليه. وكانت الرائحة الغريبة تطالبه بنصيبها منـه، وتبرر وجـودها. تلفن إلى المستشفى، وارتجف صوته حين سمع صوت وصال رأسـاً، من دون واسطة، وأشعـر صوتهـا

الدافىء الأرضيّ بأن كل ما فعله في الليلة البارحة واقعي، وأن الرائحة الجديدة ستظل تلامس رائحة جلده، وإنه دخل مرحلة جديدة من حياته، لا يستطيع الآن التبرؤ منها أو النكوص عنها. وأمدّه ذلك بشيء من الشجاعة وتقبّل الحالة الجديدة. اجتمع وناقش، ودافع عن عطاءات، وتشكك بعطاءات أخرى، وتوصل إلى القرارات التي أرادها المدير بهمة وحماس، وكأن تلك الرائحة كانت تشاركه فيما دافع عنه.

وفي ذلك اليوم، حين عاد إلى بيته، ورأى وجه عمته الهرم في شبكة عنكبوتية من التجاعيد متجمدة كشهقة مكبوتة، ابتسم بحزن، وهمّ أن يقبل عمته، ولكنه نكص خوفاً من أن تشم الرائحة الغريبة، وتمتم:

ـ اعذريني، تأخرت عند صديق إلى ما بعد منتصف الليل ولم أرد إزعاجك.

نظرت العمة إليه غير مصدقة، وقالت:

ـ جاء شهاب البارحة بعد العشاء، وانتظرك أكثر من ساعة.

ـ أنا موجود في الدائرة.

ـ لا أدري كم حكى. هؤلاء بيت عناد ليس عندهم غير اللسان.

لم يرد أن ينظر في وجهها خوفاً من أن تتملى وجهه، وتقرأ فيه ما لم تره طوال حياته معها، بعد عودته من أوروبا. دخل حجرته. وشمّ كتفه. الرائحة الغريبة ما تزال فيه، قوية فضّاحة جعلته يغتسل ليعيد رائحة جسده الأصلية. وبعد الاغتسال تمدد على فراشه بالفانيلة واللباس. وبدا خفيفاً ناعماً. . . باعد بين ساقيه، ثم ضمهما بإطباقة قوية وخاوية. وأحس بجسده فارغاً متفتحاً لشيء يحتويه. أغمض عينيه، رأى طراداً وحشياً لصور الليلة الماضية. فتح عينيه كمن يفر من حلم، قابلته صورة ابنه هاني المثبتة على الجوار أمامه. أغمض عينيه ثانية، ولكن فكره بدا يعمل باتجاه لا يريده. تذكر كيف ذهب وزوجته إلى مصور في رأس القرية، وأخذ هذه الصورة الملونة لابنه في عيد ميلاده الثاني. كان الوقت شتاء. وكان أبوه قد أهدى للطفل البدلة التي يرتديها في الصورة. وكانت الزوجة تسند الطفل من ظهره حتى يظهر في وضع مستقيم. قطع شريط الذكرى برفسة من رجله. وحاول أن يسد باب فكره أمامها. لن يفكر. هذا ماض انقطع وانقبر. وحياته الجديدة دليل آخر على انقطاعه. ولأنّ جسده فارغ الآن، يتعطّش إلى الاحتواء، فقد تذكر حوض السباحة الذي لبط فيه البارحة، وتقلّب مثلما تقلّب هناك، ولكن في هذه الغرفة من يراقبه، يتهمه. سكن راقداً ولكنه مشحون متوتر من الداخل. يريد أن يحتوي أية رائحة. . الرائحة تلك. . كيف نفرّ منها؟ كيف تخلّص منها كقميص قديم. الآن اشتهاها، تحرق إليها، يريدها أن تحتويه.

سمع عمته تناديه من وراء باب الغرفة المسدود.
ـ ها، عمة.
ـ تعبان لو مريض؟
ـ لا شيء.. أريد أن أستريح.

وكان بالفعل يحتاج إلى استرخاء، جسده المشدود يحتاج إلى أن يغرق في تلك النعومة الحريرية. ولكن الفراش والظلام الذي بدأ يخيم، والصمت اللئيم المطبق على البيت، ورائحة الشاي العتيقة المنبعثة من مطبخ عمته لم تستطع أن تسلمه إلى لحظة هدوء. كزّ على أسنانه ناقماً. لم يحدث أن أصيب بقلق مضن من نوع قلقه الجديد هذا. لم تكن له إلا لحظات متباعدة من القلق الانساني مبعثها خطيئة الماضي، وتيتّم طفل قبل الأوان. أما الآن فقلقه شيء آخر، مقبض مبهم أنانيّ، حيوانيّ، لا تطفئه إلا خطيئة ستتكسرر كل يوم، إلى ما لا نهاية.. الآن كانت كل مسامه تتفتح غرثى تستجدي عطاء. وإن يكن محرّماً.. صبوة شباب موشك على الرحيل. لأب عصام وتقلّب على السرير النابي حتى زهد، ونهض. عاد جسده يتشوق إلى تلك الرائحة المتطفلة. وشعر بها دسمة تملأ خواء جسده. صمم على الخروج. لا بد أن يغادر بيت الهواجس هذا. في الماضي قبل ليلة فقط، كان يخرج في مثل هذه الساعة منتعشاً مستريحاً من عمله الروتيني، ويقعد في مقهى يرشف قهوته. وغالباً ما كان يعود إلى بيته، حين يغادر الآخرون إلى بارات تعرفهم، وتعرف تقنيناتهم من الكحول. والآن لا يبدو أنه قادر على أن يمارس تلك العادة، فالجدران صارت أسواراً تخنقه، وتشعره بأنه سجين مع جثة ماضيه، بينما في الخارج وصال والهواء الطلق، وعالم الحرية.

استبعد عصام من ذهنه الذهاب إلى المقهى، ولا حتى التوجه إلى نقابة المهندسين. جلس على سريره يفكر كيف يقضي أمسيته. أصحاب الأمس بدوا غرباء عليه، مثلما كانوا حين عاد من أوروبا يحمل شهادة تثير الشكوك، بينما كسبها هو باجتهاده وسهر الليالي. ودّ لو يذهب إلى المشتمل، وإن كان فارغاً، ولكنه جديد مبشر بمسرات جديدة لا تنتهي. إلا أن مفتاح المشتمل عند وصال، ووصال الآن مغيّبة عنه بحياتها الخاصة. وفكر عصام كثيراً، حتى استقر فكره على الذهاب إلى بار أحد الفنادق الراقية في شارع أبي نؤاس. لبس البدلة التي جلبها من أوروبا، واستقل سيارته. وأحس وكأنه نجم سينمائي في ليل ساج ملون بأضواء متنوعة كالغرارات. بل وشعر بنفحة عطر باريسي تهب من المقعد المجاور.

دخل الفندق، وجلس في ركن مظلم من البار، وطلب نصف ربع ويسكي، وفستقاً وزيتوناً. وشعر بنشوة مبكرة حين احتسى القدح الأول.. «سيك» كما علّمه المدير العام أثناء السفر، ليخدر المعدة، ويقفز رأساً إلى الدماغ. وشعر عصام بدفء ناعم يدغدغ بطنه. وقفز

إلى ذهنه ملمس جسد وصال البارحة. رائحتها العنفوانية. كيف نفر منها صباحاً، واستنكر أن تعانق جسده؟.. أوه، ليته يغرق فيها الآن. ترى، ماذا تفعل وصال الآن؟ تدرّس ابنة أختها، أم تعالج أحد مرضاها الموسرين؟ وجعله ذلك يسترجع ما قالته له عن حياتها، ولم يصدق الآن بما قالته. غير ممكن أن يعبث بجسدها الحريري سكير عربيد، مدمن على سباق الخيل. شقي مهيأ للاجرام، كزوجها! هل معقول أن ذلك الجسد ظل سنتين عبداً لجلف يعرف أسماء خيول السباق أكثر مما يعرف من حروف الأبجدية؟ معقول؟ وأحس عصام بنقمة، وأفرغ بقية خمرته في كأس، وفكر في القدر كيف يشبك الناس. هو يشبكه بلميس، ووصال بفيصل.. ربما حكايتي مسوّغة، جنون شاعر فاشل. ولكن كيف وقع ذلك لوصال؟كيف ارتضت بابن عمها المعروف بين الناس على أنه مدمن بسباق الخيل. لا يرجى له شفاء. تقول: تهديد؟زواج بالتهديد؟وحصل في العراق اليوم؟.. ثم هناك جريمة القتل، تعني أنه مجرم أصيل. يتعاون مع اثنين آخرين ليقتلوا شخصاً واحداً؟أي جبن هذا؟ولكن في بغداد يحصل كل شيء. المدينة بحد ذاتها جريمة لا تغتفر. الله يعلم كم جريمة ترتكب فيها كل يوم. ومن يدري ماذا سيفعل بزوجته حين يخرج من السجن. سبع سنوات ليست بالمدة الكبيرة، والمراحم تهبط على المجرمين في كل مناسبة. وأحس عصام بخوف غامض مقلق، وكأنه سيواجه زوج وصال. يرفع رأسه ويراه أمامه في هذا المكان المظلم، وسكينه مشرع. رفع عصام رأسه، ولم يجد أحداً. تناول كأسه وشربها إلى الآخر، وشعر بخدر لذيذ يسري في ظهره. ارتخى على كرسيه، وطرد خفافيش الأفكار من ذهنه، وحاول أن يفكر بشيء مفرح. الليلة البارحة جلست وصال على حافة السرير كالعروس المثقفة في ليلة الدخلة.. أوه، المثقفة لا تعرف فتنة الجسد، ولا كيف تتمتع بها أو تسر بها الشخص الآخر... أنا أعرف. أعرف.. الويسكي انتهى. رفع يده لا إرادياً ليطلب نصف ربع آخر. الليل يستدر النشوة، في الخمرة أو في الجنس أو في أي شيء آخر. الليل لم يبدأ بعد. كم الساعة؟ الثامنة والنصف. لا بأس، لأتخدر كلياً. ليكون النوم هادئاً، وغداً سأكلمها صباحاً. جاء النادل يحمل زجاجة ويسكي، ووضعها إلى مائدته.

- أردت أن أطلب نصف ربع آخر. ما هذا؟
- لا يهم. اشرب كفايتك.. الحساب مدفوع.
- مَنْ دفع الحساب؟
- أوصاني أن لا أقول اسمه.
- ما هذا الكلام؟
- اشرب بالعافية.

ـ أخي، لا يمكن أن أشرب دون أن أعرف اسمه. .

لوى النادل رأسه إلى أعماق البار طالباً النجدة، شابكاً يديه في أسفل بطنه، ووقف حائراً لا يعرف ماذا يفعل. أمره عصام بلهجة حادة:

ـ قلت لك ارفعها. . وهات نصف ربع. .

برز شخص من الظلام، قصير مدحدح، تلمع نظارته لمعان جبهته العريضة، ودهش عصام حين سمعه يحييه باسمه بشوشاً. وقال الرجل:

ـ العفو على الإزعاج. . هذه الزجاجة مني، وأرجو أن تتقبلها.

ـ أعذرني. . ربما أنت مشتبه. أنا لا أعرفك.

ضحك الرجل بخفوت تآمري، وتمطّى وجهه العريض على الجانبين:

ـ ولكنني أعرفك. أو نحن متعارفان من بعيد.

نظر عصام إليه بدهشة، ولم يعرف ماذا يقول. أسعفه الرجل حين قال:

ـ أنا أخو ماهر. . الدكتور ماهر. . . كنتما تدرسان في انكلترا معاً. . أنت في الهندسة. وهو في معهد الطب الملكي. .

ـ ماهر عبد الحميد؟

ـ بالضبط. .

ـ بالطبع. . أين هو الآن؟ تفضل اجلس. أنا آسف. .

صافحه الرجل بود عميق، وجلس على الكرسي المقابل قائلاً:

ـ جماعتي هناك. ولكن سأجلس معك قليلاً، حتى نتعارف أكثر.

بدأ النادل يفك الزجاجة، بينما كان عصام يسأل:

ـ أين ماهر الآن؟

ـ في مدينة الطب. . جراح أخصائي في الأذن والحنجرة.

ـ لطيف. . أنا سأشرب كأساً فقط من أجل تعارفنا. .

ـ اشرب كفايتك. . لا نريد أن نثقل عليك.

ـ في انكلترا كان ماهر يزاول الرسم أيضاً.

ـ نعم، مثلما كنت تزاول الشعر. .

ضحك عصام متهللاً لأن الغمّة انجلت بهذه السهولة، وتمّ التعارف، وأقرّ هازاً رأسه:

ـ هوايات الشباب.

ابتسم الرجل ابتسامة عريضة، وقال مشيراً إلى عصام:

ـ وكأنك شيخ الآن.

ـ أقصد الهوايات ابنة عمر معين.

ـ أي، نعم، الهوايات.

كان النادل قد صبّ كمية جيدة في قدح عصام، وجاء بقدح جديد وصبّ للرجل. رفع الرجل قدحه في مرح غامر، وقال:

ـ لنشرب نخب تعارفنا عن قرب.. اسمي عاطف، عاطف عبد الحميد.

ـ في الوظيفة؟

ـ موظف عند نفسي ـ ثم أوضح نكتته بأن قال همساً ـ اشتغل في التجارة قليلاً.

في تلك الليلة شرب عصام أكثر من «تقنينته» ولكنه لم يفقد صفاء ذهنه، وتحدث بصراحة وانطلاق، مهوّماً حول الأماكن التي كان يرتادها في انكلترا، مع صديقه القديم ماهر، مع «باينت» من الجعة الانكليزية بهالف كراونت.

ولكنه استيقظ في اليوم التالي في مزاج عكر جداً. أحس بالصداع يلهب رأسه، ويجعله ثقيلاً مثل كتلة من الرصاص. نهض وفرك صدغيه بماء الكولونيا، وشعر بمساماته تتفتح، وتستنشق هواء بارداً. خرج. رأى عمته تنتظره على الفطور، مثلما كانت تنتظره كل صباح، ولكنه شعر بوجودها الثقيل، وتجسسها عليه. ضايقته بأسئلتها الملحة، وقالت: «خفت أن أوقظك لأنك جئت البارحة تعبان» ولم تقل «سكران» لأن هذه الكلمة تنطوي عندها على معان كثيرة، ولا تدعوها إلى التصريح. حقد على نفسه. وتذكر زجاجة الويسكي التي تركها إلى النصف، وهذيان أخي ماهر، وإلحاحه على مسائل لا بد أن تبقى سراً. نظر إلى الساعة. لم يبق على الدوام غير ثلث ساعة. شرب قدح الشاي واقفاً، ولبس ثيابه بسرعة، وخرج تلاحقه نظرات عمته الوالهة.

وما أن استقر على كرسيه حتى دخل المدير العام وطلب أن يجمع رؤساء الدوائر في الساعة الثانية عشرة، وتذكر، وبدد تذكره كل أمل في نهار هادىء يراجع فيه خططه، وينظم مواعيده، ويتصل بوصال. طلب قهوة قوية. وحاول أن يكتب تقرير اللجنة التي يرأسها. ويسمي الشركات التي رست عليها المقاولات، وجد عسراً كثيراً في تركيز أفكاره. الصداع يضغط عليه بكلابتين حاميتين، والأفكار تفرّ منه راكضة. وبعد أن خطّ سطرين طلبه المدير العام. ضغط بأصبعين على صدغيه، ودخل عليه. نظر المدير إليه مشدوهاً، وسأل:

ـ ماذا بك؟ ربما لم تنم نومة هادئة؟
ـ رأسي يتمزق.

اتكأ المدير على ظهر كرسيه، ونظر إليه بدراية وسأل سؤال تأكيد:
ـ بدأت تقلق؟ اها، أرى القلق واضحاً على وجهك. ولكن من لا يقلق منا؟ اجلس، استرح. هل أطلب لك قهوة؟
ـ شربت قبل دقائق..

مضى المدير العام يحدق فيه، وقال:
ـ ولكن القلق شعور غريب على الروح الشرقية المؤمنة. القلق يعني التردد. والتردد معناه الضعف. هل تحس بالضعف، يا عصام؟
ـ الضعف؟ لا، أنا في صحة تامة.

ـ لا، أقصد الصحة النفسية. القلق هو ضعف في الصحة النفسية. أنا دائماً إذا شعرت بتوعك في صحتي النفسية، أقصد، إذا حسست بدبيب القلق في نفسي، أقدم على ما نويت. أحقق الشيء الذي أدى إلى القلق. لماذا تقلق مادامت الخطة واضحة أمامك؟ لماذا تقلق مادمت تعرف ماذا تفعل، وتؤمن بماذا تفعل؛ أظنك بدأت تتردد. وهذا موطن ضعف يجب أن تقضي عليه.

وبدا عصام مبهوتاً خائراً، حتى قال المدير العام له:
ـ تشجّع. أنت ما تزال في أول المضمار. أنت لم تر شيئاً بعد. وراءك عمل طويل ومتعب. المهمة التي أمامنا شاقة كثيرة التكاليف، تسترخص فيها الدماء، لأنها مهمة نبيلة. وأي عمل نبيل تخوف من إراقة الدم ونجح؟ أية ثورة لم تكن دامية؟ الثورة الفرنسية، أم الثورة البلشفية الغارقة بالدم؟ أرسل الفرّاش ليشتري لك أقراص الاسبرين الفوّار. أو ربما عندي بعضها لساعة الضرورة.

وبدأ المدير العام يبحث في أحد جراراته، ولكنه كف بسرعة، وقال:
ـ أرسل الفراش. هل هيأت لاجتماع اليوم؟..
ـ نعم..
ـ مثل كل شيء يجب أن يرتب الانسان بيته.

ورفع أصبعه إلى فوق.

● صار خليل يتناول طعامه، بعد انتهاء الدوام في أحد المطاعم الرخيصة في شارع

السعدون، أو أمام عربة من العربات المنزوية في رأس شارع جانبي، ويركب سيارة تقله إلى مقربة من بيته، وفي أول شارعه يتوقف عند دكان البقالة، وحالما يراه صاحب الدكان يقول كلمته الحاسمة التي تقرر مزاج الرسام في الأمسية كلها: «علي، طلّع البيرة لعمك» أو «ما قدرت أحصل اليوم». وفي كلتا الحالتين كان يخف إلى بيته في خفقة أمل. وحين يفتح الباب ينشطر قلبه ويسقط نصفين إلى ركبتيه فترتعشان: حسنة لم تعد!

وكان يتمد على السرير، وأذنه على الباب يلتقط كل صوت، كل بربرة محرك، كل منبه سيارة. فقد كان يخامره أمل طائش ملحاح في أن يطرق بابه، في لحظة فالتة من الزمن، عباس ونداسٍ أبو شذر، ويقول له: اشو اتأخرت؟ ماكمت تجي علينا؟» أو شيئاً من هذا القبيل، ويتبينّ لخليل أن كل ما حدث ما هو إلا خطأ أو التباس، أو سوء فهم، أو أوهام، أو حلم مزعج، أو أي شيء من تلك المصادفات الدنيئة التي تجعل الانسان يتعذب، وحتى تنشق شفتاه، بدون أي سبب وجيه، أو داع. كان خليل أحياناً، يؤمن بذلك إيماناً أعمى قدرياً أحمق مجنوناً، يعرف أنه غير قائم على أساس ولكن يتمسك به، ويظل يعبث بقلبه ويولّد فقافيع الأمل الملونة. ويتخيّل سيارة«الفولفو»الرصاصية تسد مستطيل الباب، ويرتفع صوت عباس الغليظ: «الفنان خليل هنا؟» ويدخل مالئاً فراغ الباب بجسمه السميك، ويعتذر عن التقصير. وسيرى خليل شذر من جديد، ويكمل الصورة ويثبت أنه فنان «من صدك»، ولكن المساء يطل بعباءته المقرفة، ولا يحدث شيء. عند ذلك كان خليل يخاف من الدخول إلى المرسم، لأنه مسكون بشذر، ويخاف من الدخول إلى غرفة النوم أو المطبخ، لأن حسنة هناك بأشيائها وأنفاسها، وذكريات العمر الذي انقضى أجمل ما فيه. فيترك خليل البيت، ولا يعود إليه إلا وفي جوفه الجرعة الكافية لقتل الأشباح.

خرج بعد الساعة السابعة، حين احتلت خفافيش الظلام بيته الصغير، وراحت تصفق أجنحتها الحلزونية فوق رأسه. وكان خليل يعرف منذ طفولته أن الخفاش إذا التصق بالخد فلن يخرج إلا بمرآة من ماء الذهب. ومن أين يأتي بهذه المرآة وهو الفقير إلى جرعة بيرة أو أي سمّ آخر قاتل لحشرات الهموم والهواجس؟ خرج من البيت كالهارب، وركب «نفرات» إلى ساحة الطيران. ومن هناك بدأ يبحث عن سلوى.

وأحس وكأنه ضرب بصفعة على علبائه، حين سمع صوت رائد المتورم يناديه من بعيد. انزعج ودخل المقهى مكرهاً، وتجنباً للفضيحة. بادره رائد بصراحته المعهودة:

- إذا كنت تبحث عن شهاب، فلن تجده في أي مكان.
- هذه هي القاعدة دائماً، تجد ما لا تريده، وتريد ما لا تجده.

ولكنه تأسف في اللحظة التالية، وأحس بأنه أهان رائد، فقال مستدركاً:
ـ ومن قال إنني أبحث عنه؟
ـ ولكن تبدو وكأنك تبحث عن شيء مفقود. أو لعلك تحس وكأنك مطارد.

تلمظ خليل بشفتيه، وقال:
ـ لست الوحيد الهارب من وجه العدالة.
ـ أنا لست منهم... أنا أحد الباحثين عنها..
ـ وهل ستجدها؟
ـ آمل.. ماذا ستشرب؟
ـ قهوة..
ـ تعال، هات قهوة لعمك..

أغلق رائد قلم الحبر، وكوَّر الأوراق، ووضعها في جيبه، وسأل:
ـ هل كنت ضمن الوفد الذي أرسله شهاب للخطبة؟
ـ لا، وأنت؟
ـ قلت لك أنا من الباحثين عن العدالة.. ولكن شهاب آخر من أبحث عنده عن العدالة.. لشهاب دائماً حساب وكتاب خارج حدود العدالة.. والجمعة الحزينة شاهدة.

ـ لا تنبش الماضي، يا أخي..
ـ ولكن الماضي دائماً يبحث عنا..

قال خليل في نفسه: كم أود ذلك! وقال لرائد:
ـ هل ستأتي القهوة بسرعة أم أروح؟
ـ لا، انتظر. عمي سلّوم، وين القهوة؟
ـ اترك الأمور تجري كما تشاء...
ـ يعني من يتزوج أمي اسميه عمي؟..
ـ لا تسمه بالاسم، ولكن اعتبره عمك..
ـ أي نعم، منذ الآن آمنت بعمومة عصام.
ـ قلت لك ـ وتناول خليل فنجان القهوة من يد سلوم المسودة المقرفعة مثل فرشاة قديمة ـ طيب، لا تشغلني بمتاعبك..

وشعر خليل، وهو يرتشف القهوة الكدرة، أنه وقع في مصيدة. هرب من صحراء ليقع في وحلة. وفي الصمت الذي أعقب ذلك انشغل كل واحد بأفكاره على هزيج

السيارات في الخارج. شعر خليل بتقعر الكرسي تحته، فتوهم أنه لن ينهض منه. وحين نهض كان معوجّ الظهر، مضغوطاً إلى الأرض، وكأنه ما يزال خاضعاً للوضع الذي فرضه عليه المقعد المخسوف. وقف رائد يسر في أذنه:

ـ وهل تظنني أتشفّى بشهاب؟ بل أريد مساعدته وأنبهه إلى ما يحاك ضده.

ـ في المؤسسة؟

ـ لا. التقيت اليوم مصادفة بواحد ممن كان يشاركه الموائد، فأفلت منه ذلك.

أحس خليل بأنه ينجرف إلى ما لا يريده، فقال رافعاً صوته:

ـ يا أخي، أنت أيضاً كنت تشاركه الموائد.

ـ سطحياً.. لم يكن يطلعني على كل أسراره...

وانصرف خليل عنه شاعراً في فمه بطعم القهوة يتحول إلى تفالة خشنة. تلمس شفته. وحك خديه. كل ما في وجهه خشن مدعوك. تذكر أنه لم يحلق منذ ثلاثة أيام. ولدقائق سقط في بندول التردد. لم يعرف أين يتجه. لم يكن في جيبه ما يكفي لأن يجلس في بار، فقرر أن يشتري ربعية من دكان يعرفه وبعض الكرزات، ويذهب إلى صديق.. ولكنه تذكر الشيخ نعمة، حين رأى الباصات المتجهة إلى بيته، لعله يجد مفاجأة عنده. لقد كان موقناً من أن حسنة لن تلجأ إلى بيت نعمة، لأن البيت صغير، والشيخ نعمة صاحبه، هو ذلك الشيخ المتصابي الذي كان يراقبها باستمرار. ثم أيّ هروب هذا، إذا كانت تختفي في بيت قريب من بيته؟ ولكن خليل كان يؤمن أحياناً بالأوهام ويتصورها معجزات.

خرج أولاد عبد المنعم الثلاثة على الباب حين طُرِق، وصاحوا بصوت واحد:

ـ أبونا وجعان.

وأدخلوه إلى حجرة النوم، فرأى الشيخ راقداً على السرير، يلف رأسه بعصبة، ومن تحتها يلوح شريط كالح يلتصق بجبينه، يصل الصدغ بالصدغ. كوّر الشيخ فمه كالسمكة، وقال بلهجة متوجعة:

ـ أهلاً، يا جاري.

ـ خير، إن شاء الله؟

ـ وجعان.. عندي ضغط دم حقير.

ـ سلامتك.. استغربت لغيابك. قلت: حسنة تركتني فلحقها الشيخ نعمة...

ـ صار لي ثلاثة أيام، لم أذهب إلى الدائرة.

ـ تعيش مائة سنة، يا شيخنا.

ـ لا أريـد أن أعيش مائـة سنة. . أريـد أن: أزوِّج أولادي، وأفرح بحفيـدين ثلاثـة. والباقي على الله.

ـ ستعيش. المرض والوحدة يجعلان الإنسان يشوف خفافيش.

ـ إذا اعتبرت الذكـريات خفـافيش، فأيْ نعم. ولكن الخفـافيش كما أعـرف، عمياء، وللذكريات عيـون متفتحة. كـل عين بهـذا الكبر. وعنـدما يتمـرض الانسان يصـير «شادي» ويرقص على الذكريات.

وضحك عبد المنعم، وأمسـك اللزقة عـلى صدغيـه. والظاهـر أنها تحركت، وأوجعت رأسه. أمسك خليل كتفه الطالعة إلى فوق وقال:

ـ ثبتها على الورق. . ألم تقل إنك تريد أن تكتب مذكراتك؟

ـ ما عندي قلم، وإلا كتبتهـا من زمان. في الليـل، والحرمـة والجهال نـائمون. أظـل وحدي مع الذكريات. وأراها تنبع واحدة وراء الأخرى. كأنها منظومة بخيط. تطلع أمامي، وتناغيني. تأخذني في دروب، وترميني في بحور، وتنصب لي محكمة.

ـ إذن، أتركها، يا شيخ. ما فائدة شيء مضى وانقضى؟

ـ وتتصـور الانسـان يقـدر؟ إذا قـدر يتخلص من عـرق جسمـه يقـدر يتخلص منهـا. الذكرى عرق الدماغ. الدماغ أيضاً يعرق. .

ابتسم خليل، وشعر بالألم لأن حزوز شفتيه تحركت. برقت عينا الشيخ بريقـاً عجائبياً تحت الشريط الأغبر، ولاحت لمعة عليلة عـلى وجهه المنتفـخ المسود. دخلت زوجتـه بالشـاي على صينية كانت من قبل بلون الفضة. قال الشيخ:

ـ أشوف بالصينية استكانين. . لا، سنية، ما أشرب. . . أخاف على قلبي. يقولـون: الشاي يضر القلب.

ـ الشاي منعش، يا شيخنـا. القهوة والأشيـاء الأخرى الأقـوى تُؤذيه. وإن كـانت تثير الذكريات.

ـ الذكريات تجعلك تعيش من جديد، تعود وأنت طفل. . ما تحب ذيك الأيام؟

تحسر الرسام، وقال:

ـ ذيك الأيام؟ ليش عندي؟ سرقوها.

حاول الشيخ أن يرفع جسمه عن المخدة، فأمسك موضع القلب من صدره، وأغمض عينيه، وبدا وجهه متشنجاً وأجبر نفسه على النطق:

ـ لا أحد يسرقها منك. ولكن لا تريد أن تذكرها. إما لأنها تعيسة، أو ما عندك شي تذكره فيها.

ـ الاثنين.

ـ ومع ذلك لها طعم، لما تصير ذكرى. وتتصور طفولتي حلوة؟ ـ واستراح الشيخ نعمة في قعدته الجديدة، وتسلطن ـ يا ما تعذبت. كانت أمي تنصب لنا عزا، لّما يطلع والدي على حصانه، كان يصلّح أسلاك التلفونات بين الحي والكوت، كما قلت لك. وكل طلعة كانت أمي تهددنا: ومن يدري راح يرجع لولا؟ كل شيء كان يحصل. وكنت في الليل أحلم بالحيات والعقارب والعفاريت. والصبح أروح للمدرسة، وأشوف الطلاب مطمئنين على آبائهم وأنا خائف، ما أدري راح يرجع أبويه لو ما يرجع. وبعد الدوام أركض، وانتظر مثل أمي.. وتتصور هذي طفولة؟ ولما منعوني من دخول السراي، هاي قضية طويلة، لازم حكيتها لك.. منعوني لأنني فتنت على ابن القائم مقام، وقلت: الشرطي هو الذي حاك له العلم العراقي في درس الأعمال اليدوية، لأنني شفته بعيني. ومن ذاك اليوم أشوف بعيني وأضم في صدري، حتى انتفخ هذي النفخة من كثر ما شفت. هذا حظي! الأطفال الآخرون كانوا يستأجرون المطايا، الحمير، في أيام العيد ويركبونها إلى «أبو سعيد». وأستأجر أنا واحداً من الحمير. أدفع عيديّتي كلها. ولكن الحمار الذي أستأجره يعرف من راكبه فلا يطيعني. يعصى عند ساقية ساعات دفعت عنها عيديتي وأشوف حمير الأطفال الآخرين تركض مثل خيول السباق، وحماري عاص، ما يتحلحل لو كسرت العصا فوق رأسه. ولما تبدأ الشمس تغيب، وأرجعه إلى صاحبه. كان يطارد.. يعني حظي طايح حتى مع المطي.. يعني هذي مو تعاسة؟

وأمال عبد المنعم رأسه إلى جانب، وابتسم ابتسامة إشفاق على النفس، وأكمل قائلاً:

ـ ومع ذلك ما أتذكر ذيك الأيام أضحك، أكركر... وأفخر بوالدي.. والدي ما كان يهاب الموت، وكل رجعة من سفر كانت ترد لي الروح.. ها، ما رأيك؟ ماذا عندك؟

دلّى خليل رأسه لا يعرف ماذا يجيب، وبدا كالمحرج في زخم العواطف التي تدفقت لاهثة من فم عبد المنعم، وكأن الشيخ المريض ينتزعها انتزاعاً مع جزء من قلبه. وطال الصمت، وبدا وكأن خليل لا يساير جاره في عواطفه المتدفقة، عواطف مريض تتضخم أمامه أتفه الأشياء. فقال يجاريه:

ـ هذا ذخر... تاريخ.. ولكن بخصوصي.. ماذا تريدني أن أحدثك.. بخصوص أبي؟.. ربما كنت بالعكس منه..

وتريث خليل محاولاً أن يحصر عواطفه بما لا يضر بحالة المريض النفسية ـ كنت أريده أن يخرج في سفر طويل، ولا يعود إلا ويراني رساماً مشهوراً. ولكن. . .

وسكت ليضبط عواطفه، وفي الصمت تأجج شيء خانق في صدره:

ـ ولكنه كان من أولئك الذين يحبون أن يرددوا: «وشنو القبض؟». . . يعني كل شيء إذا لا يقبض منه حالاً لا ينفع. كان يقسّم الأعمال إلى نافعة، ومضيّعة للوقت. فكان يكره ولعي بالرسم منذ البداية. كان يصرخ عليّ دائماً: «شنها الشخبطة؟ ما عندك شغل عامي عيونك حتى ترسم شجرة أو بقرة أو كراسي، وعمرك ما راح توصل للكمال الذي صنعه بها الله والنجار. . الانسان الشغول هو الذي يحوّل عمل يده إلى منفعة له ولغيره» وكان يتمنى أن أكون أي شيء ما عدا الرسام، ويردد: «الناس تغتني وتعمر بيوتاً، وتسوي العوائل، وتضع فلوسها في البنوك. . وأنت تاليتك شنو؟ بيعار؟. . .» وعندما يغضب عليّ، ويشتمني، يحلف بأغلظ الإيمان انني راح أظل فاشلاً، بيعاراً على حد قوله، يضيّع وقته وجهده، ويصبح مضحكة للناس، ولا يجد راحة في دنياه. وإذا مات لا يبكي أحد عليه، ولا يشعر بموته.

وتوقف خليل فجأة وانكمش، وتملكه رعب خرافي، كأنما تحولت كلمات أبيه إلى أشباح إذا رفع بصره رآها تدور حوله، وتستهزىء به. أشفق عليه جاره، وصاح بصوت مخنوق لأنه حاول أن يرفعه:

ـ سنية، ستكان جاي لأبو إبراهيم.

وسمع أبو إبراهيم لهاثاً أو شحيطاً في صدر الشيخ، رفع بصره فرأى رأسه يميل إلى جانب متعباً خذلان، فنهض:

ـ شكراً، لا أريد، أتعبتك. .

ـ اقعد، يا أخي، وين رايح. أم أنت مستعجل على حسنة؟

مد خليل يده مودّعاً، وقال كالهامس:

ـ قلت لك: حسنة راحت. . .

● هيأ عصام الأوراق والملفات، وتلفن إلى وصال ليفرغ ذهنه من شحنة شوق. ولكنه اغتمّ حين ردَّ عليه صوت رجل، وانتظر فترة طويلة حانياً على السماعة كما يحنو على عصفور، واسترخى حين سمع «هلو». كوّر كفه على السماعة وقال:

ـ أريدك اليوم في المشتمل ساعة أربعة.

ـ ولكنهم سيأتون بالثلاجة في تلك الساعة.
ـ طارق يكون في البيت.
ـ ولكن أريدك أنت..
ـ قلت لك: ما أقدر.

سممت يومه كله. سكت لا يعرف ماذا يفعل متردداً مهزوماً. سمع صوتها الغنج:
ـ لازم ما تقدر تصبر..
ـ هوه.. الصبر... الصبر أهون من القبر.. كانت تقول..
وأمسك نفسه عن ذكر من كانت تقول.
ـ يلّه، عيني، يلّه.

صوتها الممطوط السيّال يوحي له بجو السرير. فحّ في السماعة قبل أن يقول.. «مفهوم». ولا بد أنها سمعت فحيحه في الجانب الآخر من الخط، لأنها ضحكت، ولربما لمعت عيناها. مثلما كانت تلمع في المرات السابقة، وتتفتح شفتاها عن بسمة انتصار. وعندما وضع السماعة، وغرق في سبعة بحور، هذا التعبير أيضاً من عمته، برزت أمامه ذكرى قديمة لا يعرف كيف قفزت إلى ذهنه. في طفولته، حين كان وجوده مقبولاً بين الرجال والنساء، في العمر الذي كانت فيه الأذهان في أشد رهافتها تلتقط كل ما يقوله الرجال والنساء، وتبني عليه عالماً من الصور والأحلام، سمع أحد العريسان يحدِّث أصدقاءه عما فعله مع زوجته في ليلة الدخلة. وحين أسهب في الوصف، تشوَّق لأن يفعلها مرة فقال كالحالف بالطلاق: وسأفعلها الليلة أيضاً.

وقد شعر عصام الآن بنفس شعور ذلك الرجل الأرعن، ووجد له ما يبرره. فإن قطرة الشهد على الشفاه تستجدي قطرات أُخر. ولكنه فكّر في أن هذا شعور جديد عليه، لم يمس قلبه، في حياته الماضية، ولم يراوده طوال الفترة التي عاشها مع لميس. أم لعله نسيه في خضم مشاعر وهموم أخرى، حين تبدو كل الأشياء طبيعية وميسرة إلى حد الابتذال، وليس لها طعم المغامرة. في الماضي كان هناك حنان وحرمة وحدود، ومواضعات عائلية واجتماعية، بما يخصه على الأقل. أما الآن وهو يزحف نحو الأربعين، فإن كل شيء في المرأة يتخذ عنصر الاكتشاف، أو لعل الغرب دلّه، ضمن ما دلّه، على ما يحتوي جسد المرأة من مفاتن، وتذكره لما قاله ذلك العريس الأرعن مجرد إثارة للقيام برحلة جديدة في جسد امرأة مشتهاة.

لا يعرف عصام كيف استطالت ساعات الدوام وأنهكته، وأشعرته بأسار الوظيفة.

وحين حلّت الساعة الثالثة أحس إحساس السجين، حين تفتح له أبواب السجن. ركب سيارته الجديدة، وترك عمته تنتظره على الغداء، وتغدى وحيداً في مطعم يقدم البيرة المثلجة، وذهب إلى المشتمل متوقعاً أن يجد طارقاً. ولكن الباب الخارجي كان مغلقاً بقفله السميك. انتظر في حر وقّاد، وجسده يفرز زجاجة البيرة التي شربها، والضيق يأخذ بخناقه، ينظر إلى الساعة من دقيقة إلى أخرى، ويترقّب متلفتاً حتى جاء طارق ومعه امرأة.

حاول عصام أن يغوص وراء الدفة، ولكن طارق لمحه. التفت صوب السيارة مديراً صدره العريض نحوها، ثم فك القفل السميك، وترك المرأة تدخل، واتجه نحو السيارة بخطوات واثقة. في قميصه الأزرق الفاتح القصير الأكمام وبنطلونه الرمادي الضيق. ولم يجد عصام بدا من الخروج لاستقباله. سلّم، وصافح عصام وكأنما يعرفه منذ زمن بعيد، وقال:

ـ تنتظر من زمان؟

ـ المشكلة، بين دقيقة وأخرى، ستأتي سيارة بأدوات منزلية، ووصال في العمل.

ضحك طارق، وقال:

ـ يعني جئتك في الوقت المناسب. تفضل، سأعرفك بصاحبتي.

كانت الفتاة ضئيلة نحيلة لا تناسب ضخامة طارق وانتفاخ صدره. وتساءل عصام مع نفسه، وهو يسير خلفه: كيف تتحمل هذه الفروجة ثقل هذا المصارع؟ قال المصارع:

ـ إذا كنت تحتاج إلى ما يبرد صدرك، فتفضل، عندي كل شيء.

ـ اليوم ستأتي الثلاجة وتحل المسألة.

كان المشتمل فارغاً ليس فيه غير سرير النوم وصوان تواليت، وكرسيين. خلع عصام سترته، وتمدد على الفراش وقال لنفسه: هذا هو الشاهد الثالث عليّ في ظرف عشرة أيام، الشاهد الذي أعرف أنه الثالث.. أما غير المعروفين لي، فالله يعلم. بغداد لا تخفى فيها خافية، والعيون كواسر. ولكنه لم يشعر بخوف، بل ظل الاحساس بروح المغامرة يبتلع كل الأحاسيس الأخرى. وجاءت الثلاجة بعد ساعة، ووضعها في الحجرة الثانية الخالية. وشعر وكأن الحمالين ينظرون إليه باستغراب أو ارتياب، فإن مثل هذه الثلاجة الضخمة لا توضع في مثل هذه الحجرة الحقيرة الفارغة. وتخلّص بالشكر والحلاوة.

وعندما وصلت وصال بعد الساعة السابعة كان قد استنفد كل حصيلة صبره. سمع وقع كعبها على بلاط الفسحة، فنهض، ورآها تبتسم ابتسامة تنير وجهها كله. وبدت له، وكأنها خرجت لتوها من حريم السلطان شاهبور أو شهريار، خصيصاً لإسعاده وإطفاء ظمأ

جسده. قادها إلى الثلاجة الفرنسية، وشمّ عبير شعرها الحنائي، وهو يطوق خصرها، ويحس بليونة قوامها تلثم جنبه. وكان يتأجج من الداخل. قالت وصال:

ـ ولكنها فارغة..

ـ ستمتلىء حالاً. قبل أن تغلق الأسواق التجارية أبوابها ستكون عامرة بما تشتهين.

وداعب أذنها بأنفه، وقبّل القرط الفيروزي المدور المطبق على شحمة الأذن، ومرّغ شفتيه على رقبتها حتى وصل إلى تكويرة الكتف، فملأ فمه بها يريد افتراسها، ثم أدارها إليه فانصاعت بنعومة، وأطبق جسده عليها، وبدأ لعبته مبكراً. أشارت بيده إلى فوق، فقال لها بهمس:

ـ موجود! ولكن ما أحلى أن تسرق اللذات!

سحبت وصال جسدها منه بجسارة وحشية، وقالت:

ـ لا.. اذهب الآن، واشترِ ما يجعل الثلاجة لا ترن على الفارغ.

ولعلها رأت وجهه يتلوّى من الضيم، لأنها نظرت في عينيه مبتسمة، ولوت قوامها، وأضافت:

ـ وسأستريح أنا قليلاً، وأهيىء نفسي لك.. دائماً لك..

وداعبت أرنبة أنفه، فقال لها كعاشق مبتدىء يفشل في أول محاولة غرامية:

ـ وهكذا تبعديني عن جناتك!

ـ لا تكن عجولاً.. لن أغادر قبل أن تأتي..

ـ انتظرتك ثلاث ساعات.

ـ لم أطلب منك أن تنتظرني. قلت لك سآتي بعد الساعة السابعة، وقد جئت بالموعد.

لقد بدأ يعرفها. تبدو دائماً وكأن المبادرة بيدها. وشعر بأنه إذا مسها ثانية ستشتمه وتفر منه. ففضّل أن ينسحب، وخرج ليتسوّق.

● ظل رائد طيلة ثلاثة أيام يتحينّ الفرصة لمقابلة عصام ليعرف مصيره في خضم التنقلات والاعفاءات الكثيرة التي كانت تجري في المؤسسة. وكان القلق قد بدأ يساوره منذ أن نقلت سهام وشروق إلى المخازن. فإن ذلك النقل إلى وزارة النقل لم يفرحه رغم كل ما يجد من مآخذ على «العذراء المصون» ولم يكن يبشر بخير، فقد علمته تجربته السابقة التطير من «أول القطر» هذا، وإن اختفى هذا التطير أو ترسب تحت طيات هموم أخرى، وحاول جاهداً

أن يجد لحياته بداية جديدة، بمعزل عما يجري خارج طموحاته المتواضعة، وسعى إلى مقابلة عصام وإيجاد الفرصة لأن يكون لقاؤه معه عفوياً ودياً يعيد أجواء الزمان القديم، حيث كانت الخديعة مشتركة. ولكن عصام هذا كان يبدو غارقاً في أعماله. وبعد الدوام يختفي حتى من بيته، حيث كانت عمته تقول: «عنده لجنة». وكانت هذه «اللجنة» تواصل اجتماعاتها حتى في ساعات متأخرة من الليل. وأحياناً ينام أعضاؤها في مكاتبهم».

وذات مرة استدعاه عصام نفسه لمقابلة المدير العام في محاولة لمعرفة مصدر خبر نشرته إحدى المجلات اللبنانية الممنوعة عن مقاولات زائفة وشركات مقاولات وهمية راحت تنشأ في البلد الشقيق مع الازدهار الاقتصادي، وارتفاع موارد النفط.

جاء رائد متلهفاً، فوجد عصام رصيناً مشغولاً بالأوراق معتنياً بهندامه إلى حد جعله يبدو شفافاً متهيئاً للقيام بخطوبة. وكان رائد يريد أن يسمع كلمة أكيدة من صديقه السابق، أحد الخمسة المخدوعين في سفرة أم الخنازير. وكان عصام متلهفاً أيضاً لمقابلة رائد ليهتدي إلى الخيط في مكالمات تلفونية غامضة صار يتلقاها كثيراً تحذره من فخ خطير نصب له. التقى الصديقان في حنان ظاهري. وشوق تجلى في ابتساميّ تحبب تعلنان غير ما تظهران. قال عصام:

ـ اعذرني، لأننا لم نعد نلتقي. الوظيفة تلتهم كل وقتي.

ـ حقك. لو كنت في مكانك لتصرفت نفس تصرفك. ولكن المصلحة العامة الأهم.

تأفف عصام وقال بحرقة:

ـ ولكن عندما تضع المصلحة العامة أمامك تبدأ الحساسيات تنبع كالشياطين. وتبدأ اللقلقة.

ـ دعهم يلقلقون. المهم أن يكون ضميرك نظيفاً ومرتاحاً.

كان عصام يلمح بـ «اللقلقة» إلى المكالمات التلفونية المريبة. وكان رائد يشير في رده إلى صفاء ضميره وارتياحه. وجابهه عصام بسؤال حاد:

ـ بضميرك النظيف المرتاح ألا تزعجك «اللقلقة»؟

اعترف رائد بأخلاص:

ـ طبعاً، لا سيما إذا جاءتك ممن كنت تثق بهم.

وكان يشير إلى جماعة هاشم، ولكن عصام شمّ من ذلك رائحة شهاب، فقال بحرقة:

ـ يعني أين الصداقة والأكل والشرب.. أين؟

ولا يعرف رائد لماذا قفزت جملة هاشم على لسانه:
ـ المسألة خلقية بحتة.

لم يرتح عصام لهذا الرد.. ألعل رائد الشاهد الرابع؟ قال بسخرية:
ـ أوه، رأينا أولئك الذين يعظون بالصفات الحميدة.

تصور رائد أنه أحد أولئك الواعظين.. في الماضي طبعاً، ولكنه الآن يعتقد مخلصاً أن:
ـ زمن الوعظ ولّى.. الآن وقت العمل. ولكل إنسان الحرية في أن يثبت إخلاصه وولاءه.

قال عصام أشبه بالوعيد:
ـ المهم النتيجة..
دافع رائد عن نفسه:
ـ المستقبل سيكشفها.
ـ المستقبل مضمون، لا تخف.
تفتحت أسارير رائد:
ـ هذا الذي أرجوه، يا أخ عصام. أنت تعرف إخلاصي في عملي.
ـ وهل تتصورنا غير مخلصين؟ لا نعرف أين نضع أقدامنا؟
عاد الشك يخربش في صدر رائد، ودفعه إلى أن يشتط ويقول:
ـ ولكن عليّ أن أعرف مقدماً.
ـ وتريد أن أكشف لك أسراري؟
ـ لا. ولكن فيما يخصني...
ـ فيما يخصك يجب أن تعرف صاحب اللعبة.
ارتبك رائد، وأسرع يتبرأ:
ـ ولكني لا أشك في أحد.
ـ أبداً، أبداً؟
ـ مستحيل، كلكم أصدقائي..

وزهد عصام أخيراً من هذا الذي لا يتقدم خطوة إلا ليتراجع أربع خطوات، فتساءل:
ـ لهذا السبب فقط؟
ـ نعم، صدقني.
جابه عصام ليلمح إلى ما وقع فعلاً.

ـ ولكن هناك مَنْ يفعلها، وفعلها. أنا أيضاً لا أشك في هذا. ولكن لا أعرف من هو بالذات؟

ـ إذن علمي علمك.

يئس عصام، وأغلق الموضوع.

ـ طيب، انتهينا.

وعاد إلى تقليب أوراقه، ولكن العجيب أن رائد أصر:

ـ ولكن أريد أنا أن أعرف.

ـ أوه، أرجوك، أنا لا أحب التغفيل.

ـ عفواً، يا عصام، لم يكن هذا بيننا أبداً.

ـ طيب، ما هذا الذي تريد أن تعرفه؟

ـ أريد أن أعرف مصيري.

ـ وتظل المسألة غامضة؟

ـ أرجوك، يا عصام. لا تحملني أخطاء الآخرين ـ قال رائد بحرقة، وكاد يرفع صوته بسبب العواطف التي جاشت في صدره، وأراد أن يشارك عصاماً في مصابه ـ أنت تعرف أيضاً أن كلينا خدع في تلك الجمعة الحزينة. أنا أستطيع أن أعمل كالآخرين، وأعيش مثلهم. أنا أيضاً خريج كلية، وعندي قلم، وأفكاري تغيرت. ولا أخفي شيئاً، ما أفكر فيه أكتبه وأرسله على الأثير، أقصد على لساني. فانسوا الماضي مثلما نسيته.

الآن فقط أدرك عصام أن رائد كان طوال الوقت يدافع عن موضعه في المؤسسة، فصرف التفكير عما في ذهنه، وبدأ بداية جديدة وبثقة مَنْ يعرف ما يقوله:

ـ أنت غلطان، إذا كنت تتصور أن ما يجري في المؤسسة له علاقة بماضي الشخص. هذا ما أكّده لي المدير العام نفسه. ستقابله وستعرف بنفسك. انتظر، لأعرف هل فرغ سيادته الآن.

وتصور رائد نفسه في عيادة طبيب، وأن الممرض عصام ذهب إلى الطبيب ليخبره بوجود مريض مصاب بالوسواس، وأن الطبيب سيتأكد الآن، ويحكم فيما يخص صحة العقل. وتهيأ رائد لأن يبدو في كامل قواه العقلية. عاد عصام، وقال: «تفضل!». ودخل رائد. ونسي جانباً كبيراً من تحضيراته النفسية. حين قال المدير العام. . «استرح!» دون أن يمد له يده. ولم يرفع رائد عينيه إلى وجه المدير العام فقد خشي أن تنهار بقية تحضيراته، بل رأى ما كان يوازي بصره من سطح المكتب: تلفونات، أقلاماً ملوّنة، أوراقاً وفايلات. . . وسأل المدير العام:

ـ منذ كم وأنت في المؤسسة؟

ـ منذ أربعة أعوام. عمري فيها هو عمر المؤسسة بالذات. كانت لا تزيد على عشرة أشخاص.

ـ والآن جيش عرمرم؟ هذه سنّة التطور. ولكنّ للتطور أحكاماً.

ـ مؤكد..

ـ من قبل كان يحشر فيها كل من هبّ ودبّ.

انكمش رائد في كرسيه، ولم يحاول أن يهب أو يدب ليحسب من أولئك، وظل ينتظر ما يقوله رئيسه:

ـ محسوبية، ترضية، دوافع إنسانية. ولكن هذه لا تصنع جهاز دولة قوية. للثورة منطق آخر.

ـ خطة، بالطبع.

ولم يعرف رائد كيف يطهر نفسه من تلك العلل الثلاث.

ـ طيب، احكم بنفسك. ما علاقة الضباط المتقاعدين بالاقتصاد والتخطيط والهندسة والعلوم التكنولوجية الأخرى؟ في الثورة تترك العواطف جانباً، ويتوجب الحزم. ونحن نتقدم، وسنتقدم، وليسقط من يسقط، وليحترق من يحترق. ولكن القافلة تسير. ولن يوقفها نباح الكلاب.

تمتم رائد في رهبة:

ـ منطق سليم. لكل ثورة الحق في الدفاع عن نفسها، وتقوية نفسها.

حدجه المدير العام بنظرة حادة فكأنه يقول: هذا الكلام كثير عليك. وقال وكأنه لم يسمعه:

ـ لا يهمنا. سنمضي قدماً فيما نحن فيه، وإن كان يخدش الآذان نباح الكلاب. ويثير الأعصاب، ويشوش. ولكننا سنجابهه بكل حزم مثل أية ظاهرة لا أخلاقية.

مرة أخرى يواجه رائد بعبع الأخلاق. ولكنه كبت رعشة أعصابه، والتزم الطريق المأمون في إظهار الخلق... الصمت.

ـ مَنْ يستطيع غير فاسد الخلق والعقل أن يكتب هذا الكلام غير المسؤول.. المجرم.. الحاقد.. من؟ من؟

بهت رائد ودارت لوالب الظنون في أحشائه، ولكن لم يلتقط شيئاً مما أغضب المدير

العام، ليرد بكلام سليم. ولم تكن له الجرأة ليسأل عما كتبته المجلة. فتمتم:
ـ دساسون، بالتأكيد.
ـ ولكن يهمنا أن نعرف من هؤلاء الدساسون.

التجأ رائد إلى حاسته الصحفية، فقال في غير ثقة:
ـ يمكن أن يُقرأ ما وراء السطور.
ـ افتراء، كلام مغرض. هذا ما أستطيع أن أستنتجه. ولكن من تتصوره يفعل ذلك؟ ألا تعتقد أنه أحد الذين شملتهم الإعفاءات الأخيرة؟

جمد وجه رائد في استغراق مؤلم، وحاول جاهداً أن يساعد المدير العام في الاهتداء إلى صاحب المقال المحتمل، لينفي عنه التهمة على الأقل. ولا يعرف كيف عنّ له أن يقول:

ـ تاريخ صدور المقال يمكن أن يحل بعض الإشكال. متى صدر هذا العدد؟

قلب المدير غلاف المجلة، وبحث طويلاً ليقول:
ـ في الشهر الماضي..
ـ من الناحية الصحفية البحتة لا يمكن أن تلحق المجلة لتكتب. شهر واحد لا يكفي لمجلة... أسبوعية؟ وحتى إذا كانت أسبوعية.. من الناحية الفنية البحتة لا يمكن، لا سيما من مجلة تصدر خارج العراق.

واستراح رائد لهذا الرد، وحسب أنه نجا بلمحة ذكاء خاطفة. وتوقف المدير أيضاً عن الكلام، وعدّل السترة على ظهره، واتكأ على المقعد، واضعاً حنكه على قاعدة إبهامه. ثم التفت نحو رائد التفاتة سريعة، وقال وشبح ابتسامة غامضة تلمع تحت شاربه:

ـ ألا يمكن أن يكون ذلك من صنع جماعتك القديمة؟

بوغت رائد، وهمّ أن يسأل تلقائياً: أي جماعة تقصد؟ ولكنه أحجم معتبراً ذلك تباهاً مفضوحاً لا يليق أمام شخص رئيسه.
وقال بصوت خافت:

ـ لا أعتقد ـ ثم رفع صوته ـ أنا لا أدافع عنهم، بل أوجه انتقادات شديدة لسياستهم التعجيزية.

ـ أليس ذلك ضمن سياستهم التعجيزية؟
ـ ويسممون جواً ليس في صالحهم أن يتسمم؟

نظر المدير العام إليه نظرة ثاقبة فاحصة، وقال:

ـ وهل تحسبهم كتلة متراصة؟

تراجع رائد:

ـ من هذه الناحية أنت محق.. ربما هي من فعل بعض المتحجرين.. أصحاب الحد الأقصى.

ـ تعبيرك جميل ـ وابتسم المدير العام ابتسامة مشجعة ـ ونحن نريد أن نعرف مع من نتعامل، لنعرف كيف نعالج الموضوع بدقة وحزم، وبشكل لا يضر بالعلاقات الحساسة.

ـ أنا فاهم.

وارتاح رائد، فقد نجح أن يحول سنان تفكير المدير العام بعيداً عن نحره، ونجا من الشبهة، وضمن بقاء البساط تحت قدميه، وقد تأكد من ذلك حين قال المدير العام:

ـ على هذا الأساس أبقيت على قسم الإعلام دون أن أمسه حتى الآن، بل وأنوي تقويته لتوثيق صلاتنا بالوسط الصحفي، ولن أبخل بشيء في حدود صلاحياتي وإمكانيات المؤسسة. أنت تعرف أموراً كثيرة مما يتهامس به الصحفيون.

همّ رائد أن يجيب، ولكن المدير العام عاجله:

ـ أنا لا أعني الصحفيين الملتزمين، بل أعني أولئك الذين.. كيف أقول ذلك؟

ـ بين بين؟

ـ لا، هؤلاء لا تخف منهم، بل من المغامرين الطموحين الذين ينتعشون في أجواء.. أو قل بداية الأشواط، حيث يوجد مجال للتذبذب، وميل السفينة إلى هذه الناحية أو تلك.. تعبير دقيق..

ـ أريد أن تضبطهم لي..

حاول رائد أن يعبر عن نوع من التحفظ أو أي شيء يبقيه في موقعه، ولا يدفعه إلى المجهول. وقد أدرك محدثه ذلك فاستدرك:

ـ ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.. أنا لا أطلب منك.. المهم أن تكون على صلة بالوسط الصحفي..

● مات عبد المنعم حسن الذي كان يسميه أصدقاؤه السابقون الشيخ نعمة..

مات على السرير الذي رآه خليل راقداً فيه قبل أسبوع، مات وإلى جانبه زوجته، وأطفاله الثلاثة يلعبون في الحجرة قرب السرير، ويزعجون أباهم، ولا يراعون له حرمة، كما

قالت زوجته لدى نعيها له. سمعت شهقته الخفيفة من خلال ضجيج الأطفال، وارتفع الحنك، وانخسف خندق الرقبة، وهمد. نادته. لم يستجب لندائها. ظل وجهه جامداً، وبقيت عيناه مغمضتين ملمومتين مخسوفتين، وصار أنفه في مستوى الوجنتين. وارتعبت سنية، وأخرجت الأولاد من الحجرة الصغيرة وانتظرت هناك حتى ناموا. وبعد ذلك ركضت إلى خليل.

وكان الرسام قد ذهب في المساء إلى حديقة اتحاد الأدباء وغادرها مسرعاً لأن أحدهم قال إن الفن العراقي لم يجد هويته الحقيقية إلا الآن. وعلى عادة أغلب الأدباء والفنانين العراقيين ذهب إلى بار شعبي ليغسل طعم الإساءة. وعاد إلى بيته مؤملاً أن تشمّ خفافيش الذكرى رائحة العرق المغشوش، وتكف عنه، ولا تمص حشاشة قلبه. ولكن ما أن حط جسده المتخدر على الكرسي عند المائدة البلاستيكية ليسترد أنفاسه، حتى سمع طرقاً في الباب. وقال: إنها حسنة. أنا متأكد أنها ستأتي. أخذت مفتاح البيت معها. ولكنه جوبه بسنية والخبر المشؤوم. نفض رأسه ليتحرر من نمل الخدر. وقال: معقول؟ حالاً! وركض قدامها في الشارع الفارغ الموحش كزجاجة بيرة فارغة، ودخل الحجرة وَجِلاً، وصدمته رائحة غريبة ليست لها أية صلة بروائح العرق الأرضي، ولا بنفحة السماء. رائحة تشمع رطب تثقل على الصدر. وتشل الأطراف، وتقدم بصعوبة وكأنما يجتاز حواجز غير مرئية حتى اقترب من السرير، ورأى الشيخ يرقد منغرزاً في فراشه، وقد ارتسم على وجهه الجامد الوقور ترقب ومعاناة، وكأنه ينصت إلى صوت بعيد يجاهد أن يلتقطه من خلال هسيس الليل الدهليزي. وبدا مقطوعاً عن كل ما حوله ومن حوله، مستقلاً بذاته، حتى وجد خليل من العبث أن يقوم بشيء آخر غير أن يغطي وجهه ويتركه ينفرد بعالمه الخاص. وتمتم: البقية في حياتك. ومسّ سنية من كتفها، وأبعدها عن السرير. وحين سمع ولولتها المكبوتة هشّ محذراً إياها من أن توقظ الأولاد في الحجرة الأخرى. وأقنعها بأن تنام معهم.

وقضى خليل الساعات الأخيرة من الليل يهوّم على الأريكة الخشبية التي كانت تواجه فناء البيت، وينتظر تغوُّر النجوم وطلوع الفجر.

وبعد ذلك بدأت ثلاثة أيام أتعبت خليلاً جسدياً، ولكنها صرفته عن آلامه الخاصة. في صباح اليوم ذهبت سنية إلى بيت أخي الشيخ لتودع الأطفال هناك، بينما ذهب خليل لاستحصال شهادة الوفاة التي اقتضت إجراء الكشف في الطب العدلي. وكان كل شيء يصطدم بما يوصل إلى العجز.. بالمال الذي لم يكن لديه ولا لدى سنية. اضطر خليل في اليوم التالي إلى أن يلجأ إلى عصام.

ـ عصام شيخنا قضى نحبه.

بـدا عصام وكـأنه استيقظ من حلم. رمش، واتخـذت قسماتـه مـظهـر انتبـاه قسري، واستغرق لحظات ليعود إلى عالم اليقظة، ولكن لم يطاوعه لسانه ليقول شيئاً، حتى قال خليل:

ـ المسكين كان يسعى إلى التقاعد.

ـ التقاعد سينفع أولاده.

ـ ولكن نريد ما ينفعه الآن، نريد ما يوصله إلى مثواه الأخير.

عاد عصام إلى الحركة كلياً.

ـ أنا لا أعرف الاجراءات، ولكنني مستعد أن أساعد قدر مستطاعي.

ودفن الشيخ نعمة في مقبرة الشيخ معروف، ولم يحضر الدفن غير أربعة أشخاص، من بينهم أخوه، ورائد الـذي قال إنه جاء ممثـلاً عن المؤسسة و«أصـالة» عن نفسـه. وفي طريق العودة من المقبرة قال لخليل:

ـ هكذا هو الزمن يمر كالطيف. يبـدو لي أمس فقط كنا في سيـارة عصام المـوسكوفيتش منطلقين مع الشيخ للقاء المركب الذي كان يجب أن يأخذنا إلى أم الخنازير.

قال خليل، مستغرباً:

ـ أمس فقط! يبدو أنني عشت عمراً كاملاً خلال هذه الأشهر الثلاثة.

زفر رائد، وقال:

ـ أي نعم، العمر يمر. لا يلحق به إلا المحظوظون.

ـ ومع ذلك فالموت نهاية كل شيء.

قال رائد بصيحة احتجاج:

ـ لا تخوفني بالموت.. خوفني بكل شيء إلا الموت.

وافترقا عند جسر الشهداء. وذهب خليل إلى بيته. وكان الموت وموارة الجار العزيز قد جعلا كل شيء في نظره قابلاً للحدوث، حتى أن قلبه خفق حين وصل إلى باب بيته، متوقعـاً توقعه الدائم الحتمي كالموت نفسه، كالولادة من جديد. ولكنه وجد البيت خالياً.

جلس على المقعد عنـد الطاولـة البلاستيكيـة ليستريـح ويعيدتـوازنـه مـع نفسـه. وفي الصمت الخاوي شمّ رائحة تراب قوية. يبدو أن ذرات غـير مرئيـة من تراب المقـبرة المخلوط بـرفات آلاف الأجسـاد المجهولـة قد التصقت بخيـاشيمـه، وامـتزجت بحـواسـه الأخـرى، واستحضرت أمامه صـور المقبرة الفسيحـة، وكأنها البـوابة التي يهبط منهـا الناس إلى حيث لا علم ولا خبر. وابتسم خليل بمرارة، وهو يتابع شريط أفكاره. وتذكر أن الشيخ كان يريد أن يكتب مذكراته. وخمدت الضحكة الخافتة المريـرة الشبيهة بعـبرة، خمدت في صـدره، وتصور

ذلك إحدى الخدع المكشوفة لإطالة الحياة على الأرض. وإلا فمن ذلك المغفل الذي سيقرأ تلك المذكرات، وحتى وإن كتبت ووجدت ناشراً ينشرها. إيه، يا شيخ نعمة، ساذج، أنت ساذج! من يتذكر ماضيك، وطفولتك الهلعة، وما رأت عيناك، وترسب في أعماقك من أعمال اغتصابية أو استلابية أو أي بأي شيء وصفت؟ من سيتذكر صبواتك وتلصص عينيك، وتطاول قلبك؟

وضاق خليل من هذه الأفكار، ونهض من مقعده، وأرسل بصره عبر الفناء الصغير بحديقته المغبَّرة، حيث الباب الحديدي، وعمود مصباح الشارع يطل هناك، كأنه حارس حديدي لا يترك زائراً جديداً يطرق بابه. لا جديداً ولا قديماً. وزهد خليل، واستدار استدارة حادة حتى اصطدم بالطاولة، وتعثّر، وكاد يسقط. أمسك بحافة الطاولة فترنحت خفيفة فارغة. أمسكها، وبحلق في سطحها اللازوردي المبقع. رأى حزوزاً بنية تنتشر فيه كالعروق. قدر أن يجلس. مدَّ ذراعه على سطحها، وشعر بذرات الغبار تلتصق بذراعه العارية. منذ زمان لم تمسح السطح يد أنثوية كانت تتعهدها بالرعاية، فتراكم الغبار، وربما هو الذي أشعره برائحة المقبرة، وملأ خياشيمه. أراد أن يتحامل على نفسه وينهض ليأتي بخرقة، ويمسحه، ولكن لم يجد القوة ولا الرغبة. تساقطت الرغبات، ومات الشوق. أخذ يقرع السطح بعبث المحزونين، وتذكر كيف كان الشيخ يقرع سطح الطاولة، ويمد ذراعه الثقيلة حين يناقش، ويقول: الدنيا اغتصاب، يا جاري! والآن لن تمتد ذراعه بعد الآن.

زفر خليل، وتلفّت فيما حوله، وهو يردد في صوت خافت: مغتَصِب أم مريح؟ ربما استراح الشيخ الآن، ووضع حداً لكل همومه وصبواته، لشيخوخته التي لا يعرف كيف كانت ستسير، لكل نوبات المرض، وصور العجز، وقصر ذات اليد. العين بصيرة، واليد قصيرة. كما كان يقول. ينظر إلى الحياة حوله حافلة بما لذ وطاب. وهو عاجز إلا من وضع اللقمة في فمه الخالي من الأسنان. وهل هذه حياة؟ أن توضع اللقمة في فمك لتطلقها من الجانب الآخر بعسر شديد؟ أهذه حياة بدون شذر، ودون الالتقاء بها، بدون الأمل في الالتقاء بها عند كل نهار جديد؟ أهذه حياة في بيت فارغ لا حياة فيه، إذا كنت تعرف أنك غداً ستقوم بنفس العمل الروتيني الكسيف الذي قمت به اليوم وأمس وقبل أمس طوال الأشهر والسنين التي عشتها بلا نداء داخلي؟

سكت خليل، ووشَّ الصمت في أذنيه، وأشعره بأنه معزول. البيت فارغ، ليس فيه إلا أنفاسه. وحيد، مشحون، متقزز. ماذا لو يقضي على حياته الآن. يبتكر وسيلة مريحة ويقضي عليها. وغداً يطرقون عليّ، ولا صوت ولا نفس. أوه، من يطرق الباب عليّ. حسنة

راحت، وأخذت المفتاح معها، وبعد أيام ستفوح الجيفة الكسيفة، وتزكم الأنوف.. مثل ذاك.. ذاك الذي رآه الطبيب الأعور العصابي في بيت من هذه البيوت.. كيف رآه؟.. تذكرت. علق رقبته بشيء، بشباك، ثنى ركبتيه، وراح.. ومع السلامة يا خليل، يا حياة، يا حسنة ويا شذر، يا عباس، ويا لوحات ويا رسوم، يا صباغ ويا فرش.. فقط أن تأتيني الشجاعة لأثني ركبتي، وتنتهي الحسبة. تأتيني الشجاعة.. بلا كت أو اش! من قال لك إنها شجاعة؟ شجاعة تتخلص من المشاكل يا جبان؟ أعوذ بالله. هذه المرة جبان. فوق الفشل جبن أيضاً..

واستثقل خليل هذه الأفكار، واعتبرها كسيفة جداً، لا تصل حتى لأن يفكر فيها. عف الحوش، ودخل المرسم الأضحوكة. وأشعل الضوء. رأى حاملة اللوحات مركونة في الجانب الآخر كقفص ناقص القضبان. خاطبه: تعيس أنت، يا محترم. لم تعرف قيمة الطائر الذي كان بين قضبانك، ففر منك ولن تراه بعد الآن. وها أنت تقابلني مثل صدر ميت جاف الضلوع. ولكن، عندي.. عندي لمحات منها.. أواش! وركض، وقلّب التخطيطات المركزية إلى الحائط.. واللوحة.. اللوحة التي حملتها في تلك الروحة الكشرة.. أين هي؟.. راح يقلّب عجولاً، حتى برز وجه شذر.. ملامح ناعمة رقيقة.. شفة عليا متقوسة.. لمعان. ووضع خليل الصورة على حاملة اللوحات. تمعن فيها. استحضر صورة شذر. ليس من اللوحة الناقصة الماثلة أمامه، بل من خياله، من تراكم الانطباعات، من الذكريات، من تلك الأحاديث المتقطعة الخجولة، من الرهبة الدائمة من أن يقطع المناجاة صوت نسائي معاد ويطل ذلك الوجه القبيح المبقع بالأصباغ... عشرات من الايقاعات الوجدانية المتلاحقة..

كانت الصورة ناقصة، وكذلك هذا التخطيط الذي رفعه من الحائط الآن، والثاني، والرابع... ولكنه بشكل عام، لو وضعها بهذا الشكل، على قاعدة الجدران، ومرّر بصره عليها تخيّل حضور شذر في رسمه، أو في خياله، أو في ذاكرته أو في أحلامه، أو في حالة سكره.. وجنونه..

وخرج خليل من المرسم كمن يخاف أن يثقل على إنسان عزيز. الآن اطمأن إلى أن شذر موجودة هناك.. نفحة من شذر.. فلول موهبته المهزومة.. أو ماذا يسميها؟ لا يقدر أن يسميها، ولا يريد أن يسميها. لا يريد أن يعرف من هو، رسام أو معتوه، عاشق أو أهبل.. هذا لا يهمه. يهمه أنه اهتزّ من الأعماق.. حاول، حاول ولم يستطع.. أو ربما.. أوه.. لا يريد أن يدقق.. وفي يوم من الأيام سيرى.. والصبر حميد على كل حال. واصبروا على بلواكم.

● وأقيمت حفلة زفاف فخمة في فندق بغداد لشهاب وعروسته حضرتها تشكيلة متنوعة الشيات من أهالي العاصمة، منهم أفندية من آخر طراز، ومحافظون في لباس غربي محتشم، وياقات ناصعة البياض، ومعقّلون بملابس ريفية فضفاضة، وبغاددة أصليون لهم تفنن عريق في لفّ «الجراوية»، ونساء في أثواب زاهية، وفُوَط ملوّنة، وأطفال من مختلف الأعمار. والجميع يرفلون بحلل رائعة. أكثر الرجال تواضعاً جاء مرتدياً بدلة مستوردة من إحدى الدولة الاشتراكية بسعر لا يقل عن أربعين ديناراً، وكثيرون جاءوا لابسين بدلات فرنسية تجاوز سعرها ستين ديناراً ذات ياقات عريضة تصل إلى مقربة من الكتفين، وبنطلونات ضيقة عند الورك، عريضة عند القدمين. وما من أحد، والحمد لله، جاء في بدلة من المصانع الحكومية الرخيصة. بل هناك من ظل محتفظاً بخياطه حتى حين ارتفع سعر الخياطة إلى أربعين ديناراً.

كانت الحفلة توفر كل ألوان قوس قزح، ومشتقاتها، وما يحار المرء في تحديد لونه. وظل المدخل يردد قرع الأحذية ذات الكعوب السميكة العالية حتى يمتص «الكمبار» صوته، فيحس المرء وكأنه حفي رأساً. وكان شعر الرؤوس مدهوناً مصفوفاً بطريقة فنية، وطويلاً إلى الحد الذي يأمن فيه صاحبه من المجازفة في قص شعره في الشارع.

صفت المائدة على شكل مستطيل ثلاثي الأضلاع، وأثقلت بأنواع المزات العراقية واللبنانية، وزجاجات البيرة، والويسكي والعرق الأبيض والأسود. وانزوى تخت موسيقي في أحد الأركان يدندن بآلاته حتى يكمل الحضور. وجلس شهاب بقوامه الممشوق، ووجهه الأمرد اللامع المضاء بابتسامة غاوية، إلى جانب عروسته الأكثر امتلاء منه، مرصوصة بثوبها القسطر الأبيض يتلألأ كالثريا، ويعكس الألوان البنفسجية والزرقاء المشعة حولها.

بعد بدء الحفل جاء عصام متألقاً ببدلته البنية الفاتحة وربطة عنقه الابريسمية المشجّرة، وسلّم على أحمد عناد الذي نقل سبحته «اليُسْر» من اليمنى إلى اليسرى، وسأل: «والوالد» ردّ الابن: «لا أعرف.. جئت من المؤسسة رأساً» وبدأ أصدقاء شهاب الليليون يتوافدون واحداً بعد الآخر، بعضهم تعثر بعتبة الفندق، وبعضهم تلكأ عند الباب، أو توقف متلفتاً وكأنه يدخل بيتاً سرياً، بل إن اثنين منهم أضاعا الطريق، كما يبدو، فدخلا عن طريق المطابخ يحملان سلتين من الخوص فيها فواكه أو زجاجات ويسكي، والله أعلم! وجميعهم بدوا في القاعة المتألقة الأنيقة كالطيور المتوحشة المذعورة أو كالمتنكرين في بدلاتهم الجديدة

الترفة التي جعلتهم يتصببون عرقاً، فيهوون وجوههم بمناديلهم، وحتى بأربطتهم العريضة الزاحفة عن أماكنها الأصلية، وينزوون في الأركان المظلمة يرمقون الذين لا يعرفونهم في هذا الجو الغريب عليهم. وكان اللبيب منهم قد فَطِن إلى ما سينتظره فحصّن نفسه بكأس عامرة، وطلع من الدرج بصدر عريض منفوخ، وشمل القاعة بنظرة جسور.

كان الجو، في البداية، فاتراً مضجراً رسمياً مثل قاعة محكمة شرعية يتهامس فيها الناس. والذين لم يتعودوا على التهامس، بدت أصواتهم متورمة قبيحة. ثم أخذ الناس يألفون الجو، وصاروا يتناولون الأقداح من المائدة، ويملأونها بما يشتهون، ويتحلقون من جديد، ويتحدثون بجرأة أشدّ بتزايد المصات، حتى أن صديقاً ليلياً لشهاب قال لصاحبه في صراحة أخوية، وهو يمسح العرق من جبينه ورقبته بمنديل مدعوك:

- أبو علي، بربك من شد لك الرباط؟

ضحك أبو علي، وقال بصراحة أخوية أيضاً:

- ابن أختي، بصراحة.. جابها منا، وحطها منا، وصارت ربطة فاخرة.

- عريضة أكثر من اللازم.

- هذا الموجود.

قال أبو علي في ضيق أخوي أيضاً. فقال الثالث:

- ولكنها حلوة.. تناسب الياخة العريضة.

تشجع أبو علي، وقال:

- طيب، وأنت من شد لك الرباط؟

قال الأول بثقة:

- عندي أربعة أربطة مشدودة وحاضرة.. وساعة الضيم أخلي واحد براسي، وتنتهي الحسبة.

قال أبو علي:

- أي نعم، عرفناك عروستقراطي..

قال الثالث:

- وحدي آني التقدمي بينكم.. أربطتي كلها من بلغاريا مربوطة بحبل وابزيم، أشده واستريح.

بدأت الموسيقى تعزف «بنت الشلبية». فقال رجل في حلقة أخرى، وكأنه خرج من مأزق مخبأ له:

ـ خلصنا والحمد لله. حسبتهم يدقون أوروبي. .
ـ لا، الدبجة للصبح.
ـ تحرك. . واكف مثل الدلك. . خفف كرشك شويه.

ومع الموسيقى بدأ الحديث يأخذ مسارب شتى، وارتفعت الأصوات لتتناسب مع مستوى الضجيج. وكان الأطفال أول من دخل حلبة الرقص، ثم سحب رجل أصلع زوجته، ورقص معها بجرأة بطولية حتى غار زوج آخر وقال لزوجته:

ـ يلا، أم زهير.
ـ لا، عيني، وإذا وقعت؟
سحبها الرجل بقوة، وقال بهمس سمعه آخرون:
ـ يعني ما لابسة لباس؟
ـ أوي، أبو زهير، من أول كأس تسكر؟

دخل الحلبة راقصون آخرون، ورقص رجل آخر طويل يحمل ابنته الصغيرة بين ذراعيه كالدمية، وزوجته تحوم حوله تخاف أن يوقعها منه.

وحلا الجو لأصدقاء شهاب الليليين، فقال أبو حسين:
ـ أبو مجودي. . انزل الساحة.

ـ انتظر أبو حسين. . القوازي بعد ما نزلت.
ـ وكيف عرفتم بالقوازي؟
ـ دخلنا المطبخ صدفة وعرفنا.

قال الثالث:
ـ أما والله بلا خجل، كأنك ما شايف مطبخ.
غمزه آخر، وقال:

ـ أبو فلان لا تفشلني. . دخلناه لغاية في نفس يعقوب.
ـ أربع صوان متللة. .
ـ ليش احنا جايين على الأكل؟
ـ لا، بمهمة رسمية. .
ـ بشرفك أبو إبراهيم، لماذا زفوك جم إصبع حصلت؟
ـ اقدر احسب شعر راسي وما أقدر احسبها.

والـظاهر أن امـرأة كانت تنصت، أو أن أصـواتهم كانت عـالية جـداً فبلغت سمعها. قالت وكأنها تهلهل:

ـ ما ظل حياً بالدنيا.

انتهت الأغنيـة، وبدأت أغنيـة أخرى بغـدادية أصيلة أثـارت زوبعـة من الأصـوات. ودخل أبو عصام على هذه الضجة، ففـزع وحاول أن يـرجع، ولكن ابنـه عصام لمحـه، وهو جـالس قرب شهـاب فخفّ لاستقبالـه، ونهض شهـاب أيضـاً، ولم يجـد عبـد الغني بـدا من التقدم، وصدمته بعض الكلمات النابية، حين سمع رجلاً سكران يقبل زوجته قبلة عاطفـة، ويقـول لها بـالقلم العريض: «اليـوم من نـرجـع للبيت راح أعـرس عليـج. . لازم، مـاكـو جـاره!». جلس عبد الغني قـرب ابنه غـير بعيد عن عـائلة العروس، حـين جاء احمـد عنـاد وتعانق الرجلان، وتعاتبا على القطيعة، ولكن كلماتهـما ضاعت وسط الضجيـج المتصاعـد من كل جانب. وبعد ذلك جلس عبـد الغني مع شيـوخ وقورين لم يتحـركوا من أمـاكنهم، وعلى وجوههم استغراب طفولي. علت ضجة أغنية أخرى، ودخل أحدهم حلبـة الرقص، ولكنـه عـدل، وهو في منتصف الـطريق، واتجه إلى حيث يجلس شهـاب مـع عـروسـه. كـان محمـر الوجه، يسيل العرق عـلى رقبته. وجـاء إلى شهاب من الخلف، وهمس في أذنـه همسة جعلت شهاب يجفل ويقول: «أرجوك، مو وقته» ولكن الرجل بـرر طلبه قـائلاً: «اصبعي مـو جبير، وآني صديقك ما راح آذيك». هزّ شهاب، وتـوسّل: «أجِّلْهـا!». كان الجميـع سكارى أو في طريقهم إلى السكر. والضجيج مرتفـع، فلم يلتفت أحد لمـا يتحدث جـار إلى جاره. ثم إن ثـمانية خـدم دخلوا القاعـة يحملون صواني «القـوزي» الأربع، وارتفـع صوت أعـلى من كـل ضجيج: «تفضلوا، يا جماعة الخير!» وتقدم المدعوون من المائدة خفـافاً وثقـالاً ونهض شهاب وعروسته. وتبرّع بعض الذين تخلوا عن سِترهم من الحر والنشاط الزائد فساعـدوا في تقطيـع اللحم الغريض البني بلون القهوة المحمصة، ومزقوا القوازي بطريقة بـارعة، ووزعـوا اللحم في الصحون. وبدأ الأكـل الشهي، وسدت الأفـواه باللُّقم الـدسمة، وسهـا الناس عن كـل شيء، وانخرطوا فيما بين أيـديهم، وأطبق صمت مخنوق بـالطعـام مشوب بهمس يهص. وإذا بصوت غليظ يرتفع من طرف المائدة من ناحية المطبخ:

ـ يا جماعة الخير. . . الديوك. . .

وقبل أن ينتبه المدعوون، ويفهموا كلامه على وجهـه الصحيح وثب ديكـان على المـائدة، أحدهما أبيض، والآخر أشقر، وصفقا بأجنحتهما، وراحا يقفزان على صحون المزة حتى وصلا إلى أقرب صينية وانكبا ينقران فيها. بوغت الناس، وارتبكوا ولم يعـرفوا كيف يتصرفـون، ثم ارتفعت هلهولة، وصـلّى رجل عـلى النبي محمد، وفـزع آخرون، فـتركـوا المـائـدة متقـززين

نافرين، بينما انتابت بعضهم نوبات ضحك هستيري. ولكن الديكين لم يعيرا أي اهتمام لما يجري خارج الصينية العامرة بما لم يرياه طوال حياتهما الزوجية أو العازبة.

انسل شهاب واقترب من صديقه:

ـ أبو حسين، سويتها وياي؟

ـ على بختك. تذكر لما سكرت الديك؟ هذا وقت الديوك...

وصاح بصوت نشوان ـ شايف خير ومستأهلها.

فالتقف الآخرون هتافه، ورددوا: شايف خير مستأهلها، شايف خير ومستأهلها.

دبجوا في نشوة وحماس. وهلهلت بعض النسوة. وبدأت الموسيقى تصدح من جديد. وخفف ذلك من حدة الموقف. وأضفى على الجو طابع الأعراس الشعبية. وكان عبد الغني والد عصام يراقب كل ذلك ويده جامدة على الصحن مكورة الأصابع لتلتقط لقمة. فقال لابنه بين الجد والهزل:

ـ بعرسك شفت مثل هذي الهوسة؟

تأذى عصام، وحرك يده بعصبية، واشتهى أن يشرب ما يزيل الكدر أو يضخمه. ولكنه كان قد ترك كأس الويسكي احتراماً حين دخل أبوه، والآن أحس بالندم والحرقة. قال بنبرة متأذية:

ـ صدق، هذا وقت الديوك...

وبعد دقائق شمل القاعة ارتخاء الشبع وخدر السكر وتتابع المفاجآت. عاد شهاب وعروسته إلى مكانهما. واحتل الشيوخ الرزينون مقاعدهم السابقة، وعادوا فأخرجوا سبحاتهم من جيوبهم، وبدأوا يسبحون متلمسين أطراف أفواههم بأصابعهم من حين لآخر. وارتفعت أصوات نسائية تنادي الأطفال ليتهيأوا للخروج، لأن وقت النوم قد حلّ. وبدأ شهاب يتلقى التهاني، ويقف في كل مرة بأدب وابتسام يودّع ضيوفه ويشكرهم على التشريف.. إلا مرة واحدة عجز فيها عن الوقوف، حين أقبلت عليه امرأة في ثياب أنيقة، وهنأته بصوت ناعس متكسر، وختمت تهنئتها بقولها:

ـ وهذي غراضك نسيتها عندي.

والظاهر أنها كانت مرتبكة مثله، بل وأكثر ارتباكاً، فقد وقعت اللفة من يدها، وانطرحت عند قدميه فانيلة رجالية...

• صار لعصام حياتان، كما تصور من قبل: علنية وسرية. مع الناس ومع نفسه. وكان ذلك يرضي غروره ويشقيه في ذات الوقت. الانسان العلني المكشوف لكل الناس إنسان بلا طموح ولا عمق، بلا أسرار، ولا عالم باطني يخصه وحده، إنسان لا يستوقف الآخرين، ولا يثير الفضول، ولا تنسج عنه القصص.. إنسان بلا ظل، إنسان من أهل الله. ولكنه، في الوقت ذاته، كان يحس بشيء غامض من القلق، وعدم الارتياح، وحتى من الكمد والتعاسة، حين يجد الذين يحبهم خارج عالمه لا يشاركونه أسراره ولا أحلامه، غرباء عليه. يجد نفسه متقيّداً ومتفتتاً حين يتحدث عنهم، ويتحرج من البوح كثيراً وإرسال نفسه على سجيتها، لا يتداول معهم غير التافه العادي من الأحاديث، ولا يستطيع أن يطارحهم همومه وشكوكه وما ينخر في نفسه ساعات القلق والريبة، فيشعر بنفسه غريباً بينهم.

وقد شعر عصام بذلك حين جاء في صبيحة يوم جمعة، بعد أن قضى ليلته في المشتمل، ليجد ابنه هاني، وأخاه قيس وعمته قد اجتمعوا على الشاي مسترخين. أحس على الفور أن رائحة غريبة دخلت معه البيت، ولاصقت ابنه حين قبله، رائحة جسد أنثوية تلبي نزوات قلبه وحده، وتلذّ له وحده، ولكنها تشعره بعد ذلك بالتحريم وبارتكاب فسق، وعمل من أعمال الشيطان. بل وشعر بأن قُبلته لابنه، بسبب هذا كله، خالية من أي صدق عاطفي، وتختلف تماماً عن قبله السابقة، قبل شهر أو أكثر... وقد يفتضح ذات مرة، أو يفضح نفسه، وتنقلب مهرجاناته الجسدية السرية إلى وصمة عار وفضيحة لا يستطيع بعدها أن ينظر في عيني أبيه وعمته وابنه، وأخيه قيس، وكل الأقراب والأصدقاء. وكأن صدمة الغرب التي طالما اعتصم بها وتشجع ليست إلا نسيجاً واهياً يحاول أن يخفي به موبقاته وخروجه على أهله..

ظل ابنه متشبثاً برقبته، وهو يبعد عنه رأسه، وكأنه يخشى أن يشمّ الطفل بقايا عطر غريب عليه، ورفات فجور، مع أنه اغتسل قبل أن يترك المشتمل. كان هاني يردد: «وين نروح اليوم؟ وين نروح اليوم؟» وعصام صامت، والعمة من موضعها تقول: «خله يستريح»، وكان بالفعل في أشد الحاجة إلى أن يستسلم لنوم عميق ليعوِّض عن سهر ليلة لاهثة يحس بكدماتها على مواضع كثيرة في جسده.

ولكي يتخلّص من إلحاح ابنه، ويتهيأ نفسياً قال لأخيه قيس:

- سفرتك طالت.

- نعم، ولكن لم نستطع أن نمسح المنطقة كلها.

ـ والنتائج جيدة؟

ـ ممتازة.

ولمس أخوه يده، فاختلى الاخوان غير الشقيقين في حجرة عصام. قال قيس مواصلاً الحديث:

ـ أنا أيضاً سمعت عنك أخباراً سارة.

سكت عصام لا يعرف ماذا يقول. فقد تشكك فيما يعنيه أخوه. فتابع الأخ:

ـ وأخيراً اعترفوا بك كمهندس؟

ـ أي نعم، اعترفوا بي.

ولم تكن لهجة عصام تنم عن يقين ثابت.

ـ وصاروا يستشيرونك؟

لم يشعر عصام برغبة في الحديث. كان يحس بقرارة نفسه أنه سيلجأ إلى الكذب لا محالة، أو إلى التزييف، أو انصاف الحقائق. وكأن الأخ شعر بأن أخاه يتحرّج في مكاشفته، ولكن عزا ذلك إلى طول المدة التي قضياها بعيدين. فقال معمِّماً يحاول أن يفتح نفسه، ويكسب الألفة التي أذبلها البعاد.

ـ حافظ على شرف مهنتك. أنا أقل خبرة منك، ولكن تجربتي القصيرة المريرة علمتني ماذا أقول.

نظر عصام إليه مستفزاً، وسأل بجفاف وضيق:

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني لا تبت بأمر إلا بعد التأكد من صوابه.

صمت.

ـ سمعت من عمتي أنك تشترك في لجان كثيرة، واللجان تؤلف أحياناً لتمييع المسؤولية. لا تأخذ مسؤولية عن شيء غير واثق منه.

قال عصام مكرهاً:

ـ هذا هو المفروض.

ولكن قيساً الح:

ـ المقاولون الآن ينبثون كالذئاب لينهشوا بجسد الدولة بلا رحمة فلا تأتمن أحداً إلا إذا تأكدت من صحة المعطيات.

توتر عصام، وقال بحدة:

ـ لماذا تقول لي هذه الأشياء البديهية يا قيس، وكأنني ابن البارحة؟

ـ لأنني أعرف كم يغش هؤلاء المقاولون، لحبهم الشديد للغنى السريع، فيأخذون على عاتقهم مهمات لا يستطيعون الوفاء بها، ولكنهم يعرفون كيف يتخلصون في الساعة الحرجة. أما أنت فلا تتوقع رحمة ما دمت موظفاً عند الدولة.

حدجه عصام بنظرة مستريبة، ولملم سترته، وكأنه يريد النهوض. وقال بقطعية حادة:

ـ أنا أعرف أين أضع قدمي.

ـ النية الحسنة لا تنفع. أنا أيضاً كانت لي نية حسنة، حين فضّلت صفقة سيارات الجيب.. وأنت تعرف المسألة. النية الحسنة لا تنفع حين يدس لك شخص في الغيب.

وازدادت ريبة عصام. وفكر: أيجوز أن يكون أخي وراء المكالمات التلفونية؟ سأله ليحرجه:

ـ ولماذا أنت متشائم بهذا الشكل؟

ـ لأن الجو موبوء.

وتوقع عصام أن يبوح قيس بشيء محدد ليريحه من كوابيس الظنون. ولكن قيس سكت. فسأل عصام يحصره في زاوية ضيقة:

ـ وكيف عرفت؟

إلا أن قيس أفلت بعمومياته:

ـ كأنك لم تقاسِ منه وتشك.

فاعتصم عصام بالعموميات أيضاً:

ـ العمل خير علاج للسلبيات.. كفى كلاماً. ماذا ستقول عمتي إذا سمعت كلامنا؟

ونهض عصام إيذاناً بانتهاء المقابلة، كما تعلّم أن يفعل منذ أن تسلّم منصبه الجديد. رمقه أخوه من تحت، وقعد يتأمله ثواني، قبل أن ينهض. وكان عصام يخمن تقريباً ما دار في ذهن قيس. عصام يتهرب. ولكن لا يعرف تفاصيل الأشياء الأخرى.. التفاصيل التي تخزه كالدبابيس، ولا تدعه يترك نفسه رمية للنظرات المستطيلة المتأنية، مخافة أن تسبر غوره، وتنفذ إلى ما لا يريد أن يعرفه الآخرون عنه.

وجد ابنه ينتظره متلهفاً. ولم يستطع التهرب منه. خجل من النظرات المتطلعة إليه، وكأنها تحاول أن تخترق حجبه، وتحاول أن تقرأ ما في قلبه. فتحرك بسرعة، وقال:

ـ لنذهب..

الآن هبّت عمته لتعذيبه، وكأنما تتقصّد ذلك تقصداً:

ـ انتظر شوية. أبوك على جيّه. ألا تشرب شاياً آخر؟

يعني محاكمة أخرى، عينان سابرتان أخريان. عينا أبيه النافذتان المدققتان ستبحثان في طيات نفسه، وتكتشفان الجديد فيه. قال «لا» قاطعة، ثم:

ـ سآخذه إلى اللونابرك.

وضجّ الطفل، وخرج عصام مع ابنه عجلان.

في السيارة لزم الصمت. كان يفكر فيما قاله قيس. لعله مشترك في مؤامرة ضدي. يتتبع خطواتي من وراء حجاب، وتأتيه الأخبار كاملة. أو لربما لخوفه عليّ وحنانه «الأخويّ» يلجأ إلى هذه الوسيلة الوضيعة لاثارة أعصابي، وليخفف من سرعة صعودي. يحسبني مثله لا أعرف مواقع قدميّ، ولا بمن أثق، ولماذا أثق. هل من المعقول أن المدير العام بحماسه الشديد ونظرته البعيدة لا يفرق بين الحمل والذئب؟ وهل من المعقول أنه يفرط بي ويورّطني وقد اختارني بين عشرات الأشخاص، لأن لنا هماً واحداً، تجربة واحدة.. صدمة..

ـ بابا، بعدين نمرّ على القهوة؟

ـ نمرّ..

وأدخل عصام أخاه قيس في المؤامرة التي تحاك ضده في الخفاء. مثلما أدخل رائداً من قبل. ثم أسقطه من حسابه، وأدخل شهاب، ثم أسقطه من حسابه أو تشكّك في أن يكون واحداً من المتآمرين. لأن شهاب ما يزال، رسمياً، عضواً في لجنة المشتريات.

ـ بابا، ـ يا جيل دا يتعاركون..

ـ خليهم..

ثم يصعب عليه أن يصدق الآن أن يثير شهاب شكوكاً حول المقاولين، وهو نفسه صار مقاولاً.. ديكاً. بعد أن رست عليه مقاولة بناء المساكن الشعبية في الصويرة.

ـ بابا، خليني أشوف الشط..

كانا يسيران في شارع السعدون، فاستدار عصام واخترق شارعاً سيّء التبليط، مزدحماً بكل التفاهات، وصعد إلى شارع أبي نؤاس. وهلل هاني، وصفق. ورأى عصام النهر أمامه يتلألأ في شمس الضحى الفياضة في زرقة مخضوضرة. كانت دجلة قد تطامنت، وانحسر شاطئاها. تأملها. رائعة هي في كل الفصول، ولكنها علقت في ذهنه في صورتها الأخيرة تلك، حين وجدها في ذلك الصباح من يوم جمعة كهذه فرآها منتفخة البطن، مترعة بالطمي بلون القهوة مع الحليب. وسرعان ما استجاب إلى إلحاح ابنه فأوقف السيارة على رصيف الشاطىء في بقعة لا تبعد كثيراً عن البقعة التي توقفوا عندها في تلك الجمعة فرأوا المركب قد

فاتهم، العصبة الخائبون. نزل من السيارة، ووقف يتأمل الشاطىء. كأن المكـان لم يتغير، ولم يتعـاقب عليه الليـل والنهار. لـو سار مـائتين أو ثلثـمائة مـتر، لرأى البـار الذي استجـاروا به حينذاك، ولو دخله الآن لرأى خائبين من أمثالهم يحتسون خمرتهم ويغرقون عذاباتهم فيهـا. لم يتغيّر المكان. كل شيء في موضعه، هذه هي المقـاهي الصيفية ومقصـورات بيع السمـك على مرأى منه. وبعد ساعات ستشتعل النيران على الشاطىء، وتفوح رائحـة السمك المسكـوف.
سار مع هـاني وأفكاره بعيدة عنه. ولا يعرف لماذا خطرت في باله، في هذه اللحظة بالـذات، تلك الفتـاة الرعنـاء التي مرقت أمـام سيارتـه المسكوفيتش القـديمة. ربمـا لأنها جزء من هـذا المكان، وقد افتقدها فيه، حين راح يتذكر الأشياء السابقة.

ترك ابنه يراقب قطتين تتهاوشـان، ونظر هـو بعيداً، حيث انحنـاءة النهر. وفكـر: كم مركباً عبر إلى أم الخنازير في هذه الأشهر الثلاثـة، كم سفرة سـارة أو محزنـة جرت منـذ ذلك الحين، ولم تخلف من أولئك الذين يلاحقون أملاً يفلت من بين أيديهم كسمكة صغيرة زلقة؟.

ـ بابا، عطشان.
دائماً هناك حالمون بسفرات مريحة، سندباديون تهربوا أو بحريون يعـودون بكنز أو خـالي الوفاض، ويشكوك أيضاً؟
ـ بابا، هذا الدكان..

وأفلت هـاني من يده العرقة وركض باتجاه الدكان. ارتعب عصام، وصاح به:
ـ لا تعبر الشارع.

ولكن الطفل لم ينصت له. تقلّص قلب عصام فركض نحوه مـذعوراً، حتى أدركـه في وسط الشارع، فجذب يده بحركة قويـة، وسار بـه إلى الجانب الآخـر خافق القلب، وعنّفه بكلمات حادة. ولم يبادله إلا كلمات قليلة طوال الساعتين اللتـين قضاهمـا معه. ولكن أفكـاره اضـطربت أيضاً، فلم يعـد يفكر ذلـك التفكير الـرزين المتأنّي، تـاه فكـره في فـراغ تفـترسه الشكوك وعندمـا ودّع هـاني قبـالة ذلـك البيت المحرم عليـه دخولـه أحس وكأنمـا قطع النهر سباحة يحمل ابنه على كتفه. وخامره ما يخامـر إنسانـاً أفلت من حبائـل تعيق حركتـه وحريّـة ذهنه. إلا أنه سرعان ما أحس بما يشبه اللوعـة والندم حـين وجد نفسـه في نفس البار الأنيق الذي قادتـه إليه قـدماه يـوم أن شعر بـالوحـدة والتفرد ولمّ نفسـه من مجتمع الآخـرين. وقال لنفسه: تسرعت! لا أعرف مـاذا جرى لي حـين كنت مع ابني.. كـأنني استعجل عـلى شيء يذوّب كل ما ترسب في أعماقي.. وها أنـا الآن وحيد، في هـذا البار شبـه المظلم»، ولم يعـد الصفاء إلى نفسه مطلقاً واستـطالت شكوكـه وصارت طنـاطل. الكـأس وحدهـا تتحرك بـين

يديه، وترتفع إلى شفتيه، وحنق على نفسه، حين التمعت في خياله ألوان اللونابارك الزاهية، الأحمر والأخضر والأزرق والأصفر، وابنه يدور في أرجوحة دائرية كالطائر، وحين كان يصل إليه يصيح: بابا! بابا! بابا! ومع المصة التالية قال لنفسه: مستحيل، من رابع أو خامس أو سابع المستحيلات أن أتخلّى عن هاني... فخري أو خطيئتي.. لن أهجره. مجرد أنني اليوم كنت مشغول الفكر أكثر من المعتاد. قيس أثار شكوكي بكلامه، كأنه موجه للطعن بي. أنا أعرف أن المقاولين شياطين محتالون، ولكن ثقتي بالمدير العام. كان في إمكانه أن يعترض، فأنا أوقع باسمه.. نيابة عنه. وهل معقول أن يتنصل من المسؤولية ساعة الجد؟ يغدر بي؟ لا أظن، وإن كان كل شيء محتمل الحدوث. إذا كنت قد شككت اليوم من أخي، وأمه ربتني على يدها. إلا إذا صار الأخ يخون أخاه لأن كل شيء محتمل الحدوث في هذا العالم. الاطمئنان، الثقة عملتان نادرتان جداً. هذا صحيح جداً نادرتان إلى حد.. لا أعرف ماذا أقول.. على العموم أنا الذي أوقّع، وكل إنسان مسؤول عن توقيعه لا عن أعماله.. ولكن ما أدراني بأصحاب العطاءات هؤلاء؟ الثقة فقط؟ سبحان الله، الثقة. والتوقيع لا يخلق الثقة، ولكن الثقة تخلق التوقيع. وها أنا واثق حقاً؟ يعني، لا يقدر؟ والشهادة قد تجعلني صاحب نظر في الموضوع، كما قال المدير العام، ولكن لا تعصم من الوقوع في الخطأ... الخطأ في الثقة.. ربما إلى هذا كان يشير قيس؟ لا توقّع على شيء غير متأكد منه. أهو يحميني أو يتآمر ضدي. لا أدري، والله. من يدري؟ فقد يكون قد تشاور مع أبي في ذلك. لا يمكن أن يقول قيس هذه الكلمات بدون استشارة الوالد. أنا أعرفه. والوالد دائماً ضدي، يترصد أخطائي منذ طلاقي للميس.. ألم يكن يعيّرني دائماً بأنني تخليت عن ابني من دمي ولحمي، بينما التقاليد والشرع والأصول تقتضي أن أربيه أنا... ربما يريد أن ينتقم، يتشفى حين يجدني في ورطة، ويقول: تستحق، يا بائع ابنه! من يدري؟ كل شيء يحصل في الوجود. الأخ ضد أخيه، والأب ضد ابنه. بالطبع، أكاد أكون مثالاً على ذلك.. التخلي صفة من صفات زماننا. من قال هذا؟ سمعته على لسان شخص، في زمن ما، لا أتذكره. التخلي صفة من صفات زماننا؟ معقول؟ يصير؟ كل شيء محتمل ويصير. وشعر عصام بعشرات من الأسئلة والشكوك تحدق به، وتحاصره، وتجعله ضئيلاً معزولاً في ركنه المظلم هذا، وهمّ بالخروج ليحادث أحداً. وظهرت صورة وصال على شاشة ذهنه، وصال الليل والغياب عن العالم.

ورفع كأسه إلى شفته. وفكر: وصال، تدرِّس ابنة أختها الآن أم تزور أحد المرضى الموسرين. وابتسم ابتسامة ندية. وسأل نفسه: هل يستطيع أن يودعها شيئاً من أسراره؟ يبثّها هموم نفسه؟ يبادلها كلمات، من القلب؟ وهزّ رأسه متشبّعاً بالكلمة التي نطقها حادة جارحة: مستحيل! ثم راح يفكر بتؤدة واتزان، مطمئناً إلى أنه الآن على انسجام كافٍ مع

نفسه: تعال نطرح المسألة بصراحة: من هي وصال؟ مَنْ هي لتوليها ثقتك، ولا تتشكك فيها، إذا كنت تتشكك في أبيك وأخيك؟ ألم يجبّرها المدير العام لك؟ جمّلها لك وحببها إليك جسدياً؟ وهل أنت من السذاجة بحيث تصدق ماضيها المأخوذ من فيلم مصري مبتذل؟ زوجها شقي. وحتى إذا كان صحيحاً، فكيف تأمن لزوجة شقي لا بد أنها تعلّمت منه بعض الشقاوة؟ والآن استأجرت لها مشتملاً، وصرت تعيش معها. ومن يدريك أن زوجها لن يخرج قريباً في أحد المراحم، ويصفّي حسابه معك. طيب، ومن قال إنها قالت الصحيح؟ ربما هي حكاية ملفقة، مأخوذة من فيلم مصري بالفعل، وقد قصتها عليك لتثير عواطفك، ولتطمين نفسك إلى حين. وقد تكون امرأة مبتذلة جداً. ذات ماضٍ ملوث.. كل شيء جائز في هذه الدنيا. كيف تصدق بها؟ ربما هذا هو الأثر الوحيد الذي تبقى من ماضيك الشاعري.. التصديق بكل الأشياء، الحلم بالمستحيلات! طيب، من أين لها هذه الفساتين والعطور الباريسية؟ ومن هي ساجدة صديقتها المريبة؟ ممرضة مثلها؟ إن الطيور على أشكالها تقع.

وتأفف عصام، وشرب جرعة كبيرة من الويسكي المخلوط بالصودا، أو السيفن أب. الآن صار يشرب الويسكي. تخلى عن الزحلاوي نهائياً. عاد إلى عادته الأوروبية. الويسكي وطقوس الجنس المبنيّة على تلاحم جسدين فيزياوياً. وضحك عصام في سره. وتذكر تضاريس جسد وصال الأملس. في الظلام يستطيع أن يهتدي إلى أخفى ينابيع اللذة فيه، ويرى ما لا يُرى. آه، وصال ستعذبينني أيضاً. ووضع كأسه، واتكأ على ظهر كرسيه المريح، ونظر إلى أمام. وخيّل إليه أنه رأى دائرتين صغيرتين من الضوء تلمعان على مقربة منه. رمش وتصوّر أن السكر هاجمه دون أن يدري، وصار يخلق له خيالات. ولكن الدائرتين الضوئيتين اقتربتا، وبرز وجه مدور لامع أيضاً، وابتسامة عريضة. وعرف عصام صاحب الوجه. وقام بمحاولة جديدة لأن ينهض، إلا أن الرجل استوقفه.

- استرح، استرح.
- أهلاً، دكتور عاطف.

- لست دكتوراً. أخي دكتور. داعيك خريج حقوق. أراك وحدك. منذ زمان وأنا أراقبك.. يبدو أنك داخل في حل مسألة عويصة.

- لا، أبداً. استرح، استرح - ولما جلس عاطف أمامه أكمل - الانسان أحياناً يحب أن يختلي بنفسه.

قال عاطف بيقين المحامين القاطع:

ـ إذا اختلى الإنسان مع نفسه، يعني عجز عن حل مشاكله. هذه هي القاعدة الأساسية.

استغرب عصام وانبهر:

ـ كيف؟

ـ لأنه مع الناس يمكن أن تحل المشاكل.

ـ هوه.. والمشاكل الشخصية أيضاً؟

ـ والشخصية أيضاً. لأن جزءاً كبيراً من مشاكل الإنسان سببه الناس.

وتحيّر عصام لا يعرف بماذا يرد. وفي قرارة نفسه صدّق بقوله، وكأنه يشير بأصبع خفية إلى بعض مشاكله. وفي ثواني الصمت التي تلت، حاول عصام أن يجد صلة بين عاطف والمكالمات التلفونية المريبة. فحاول أن يستدرجه، لعله يستشف شيئاً منه. فقال:

ـ ولكن يجب أن يعرف الانسان مع مَنْ يتعامل.

عاجل عاطف بحماس يقيني:

ـ منطق سليم جداً. أنا تاجر، وأعرف مسألة التعامل هذه. كلامك صحيح. يجب أن يعرف الانسان مع مَنْ يتعامل.. ولكن كيف يعرف؟ أليس عن طريق التعامل والتجربة؟ وقديماً قالوا: جرب تعرف.. أو شيئاً من هذا القبيل. أو باختصار، كما تقول اللافتة المعلقة في جميع المخازن تقريباً: التجربة أكبر برهان. هذا هو القانون المعترف به.

أحس عصام بارتياح لطيف، وكأنما وجد لغة مشتركة مع هذا الرجل، الواقعي العملي، كما يبدو. فقال مؤكداً: «صحيح». ـ صحيح ـ وحاول أن يصوغ معادلة سمعها من المدير العام، فقال ـ العمل الصالح أيضاً يمر بتجارب مريرة.

ضحك عاطف، وقال مطمئناً:

ـ لا، إن شاء الله، لا نمر بهذه التجارب.

عدّل عصام كلامه:

ـ أقصد الانسان يتوقع كل شيء، حتى الأخطاء ـ ثم تحمّس أكثر وقال ـ ويحسب حساب المفاجآت أيضاً.

ـ هذا صحيح. الدنيا حافلة بالمفاجآت. ولكنها مفاجآت مشروطة، إذا صح التعبير. بالمناسبة هل سمعت بالمفاجأة التي وقعت في مؤسستكم؟ أو هل تعرف جابر الفراش في مؤسستكم سابقاً؟

ـ نعم، من بعيد. ماذا به؟

ـ وجدوه قتيلاً. . أليست هذه مفاجـأة؟ وإلا فمن يقتل هـذا الشخص التافـه، لا سيما وهو مصاب بتشمع الكبد، كما يقولون؟ بينه وبين الموت شبر.

سهم عصام، وكأنه يفكر في مسألة عويصة، حتى أن محدثه وجد مجالاً ليواصل نقاشه:

ـ ومع ذلك فهذه مفاجأة مشروطة. . يقـال إن عائلة مـوظفة سـابقة في مؤسستكم هي التي قتلته غسلاً للعار، لأنه متهم بعرض ابنتها. . . وهذا شرط المفاجأة. . إذا عُرِف بـطلت المفاجأة.

ندت من عصام «عجيب!»، وداري جفـاف حلقه بـالويسكي، ومحـدثه مشرق الـوجه أمامه بابتسامة وعدستين لامعتين. قال الرجل بثقة:

ـ لا عجب. . كل شيء مشروط، حتى المفاجأة. . ولكن لماذا تهتم بذلك، يـا مولاي، واليوم جمعة، وهو، بعد الصلاة على النبي، يوم راحة لجميع العباد. . ألا يكفي الانسـان أن يكدح ويفكر ستة أيام ليـترك الجمعة للراحـة. الله نفسه ذو القـدرة والاجلال خلق العـالم في ستة أيام، واستراح في اليوم السـابع. داعيـك يأخـذ بهذه الحكمـة الإلّهية دائـماً. يعمل سـتـة أيام، ويستريح في اليوم السابع.

قال عصام وكأنه يقنع نفسه لتعدل عن السير في درب الشكوك:

ـ واسترحت اليوم؟

قال عاطف ببشاشة طليقة؛ وهو يتكيء على كرسيه مرتاحاً:

ـ بالطبع. . قضينا وقتاً ممتعاً مع الأصدقاء في سفرة مريحة رائعة إلى أم الخنازير.

ـ أم الخنازير؟

وبحلق عصام به مستفزاً، وكأنما تلقى شتيمة. ولكن الرجل قال بصفاء نية طفوليّ:

ـ وكأن أم الخنازير جزيرة واق واق. . مسافة ساعة وربع بـالمركب. . ـ صـار الرجـل يتكلم بحـماس ـ اليوم، السـاعة العـاشرة ركبنا المـركب. . وذهبنـا إليهـا. . عنـدنـا مـركبنـا الخاص، صغير، ولكنه مريح. . يا ريت لو تفضلت وشاركتنا سرورنا في الجمعة القادمة.

وحدّق عاطف به طويلاً، وكأنه ينتظر جواباً مبـاشراً، وأمسـك عصام كـأسه، وواجـه تحديقة الرجل المستحثة، ووجد نفسه يتراجع ويقول:

ـ الأيام بيننا. . .

أواخر ١٩٨٧